موسوعة



الخـــلافة العباســـية

مع اهتمامات خاصة بالعصر العبـاسى الأول

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه فى الفلسفة من جامعة كمبردج

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة





الطبعة الثامنة (١٩٨٥) مع زيادات واسعة وتنقيحات مهمة

موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

٣

الخلافة العباسية

مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول
وبدور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثامنة (١٩٨٥) مع تعديلات واسعة وزيادات مهمة



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

التاريخ . . .

شعاع من الماضى ينير الحاضر والمستقبل

أحمد شلبى

الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤
الطبعة الثانية سنة ١٩٦٢
الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦
الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٠
الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٤
الطبعة السادسة سنة ١٩٧٨
الطبعة السابعة سنة ١٩٨٢
الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٥

خطة البحث فى هذه الموسوعة

ان خطة البحث التى اتبعها فى كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى ان ابرزها فى التخطيط التـالى ليعرف القـارىء كنهها ، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية فى هذه الأجـزاء الثـلاثة اذ ان العـالم الاسلامى وحـدة واحـدة .	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
	ج ٢	الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ودور المسـلمين خلاله فى خدمـة الدراسـات الاسلامية والحضارة العالمية

ثم دراسة مكانية (قطاعاتجغرافية) فى الأجزاء الخمسة التالية لأن العـالم الاسـلامى انقسـم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامى ، بحيث يتناول تاريخه منمطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التـالى :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزءالخامس	الجزء الرابع
التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا — الأقليات الاسلامية بالصين والاتحاد السوفيتى والهند والفلبين وسنغافورة .	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان — اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن : — وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية . دراسة عن { — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى . — الدول الاسلامية الحالية : موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال	— مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها — الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن	— الأندلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى اوروبا — المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — السنوسية : مبادئها وتاريخها

ونختم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر عصر المظالم والهزائم

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد انور السادات

كتب للمؤلف

أولا : موسـوعة التاريخ الاسـلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسـلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسـهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ ـ الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

ـ مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى ـ تفسير التاريخ ـ هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ ـ فائدة التاريخ ـ مراحل تدوين التاريخ ـ قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاسـلامى ـ علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...

ـ تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر ـ حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ـ السـيرة النبوية العطـرة : جوانب من السـيرة تدون لأول مـرة

ـ الدعـوة الاسـلامية وفلسـفتها ـ عصر الخلفـاء الراشـدين

٢ ـ الجزء الثانى : (الطبعة الثامنـة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ ـ الجزء الثالث : (الطبعة الثامنـة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ ـ الجزء الرابع : (الطبعة السابعة)

ـ الأندلس الاسلامية ، وانتقال الحضـارة الاسلامية الى أوربا عن طريقهـا .

ـ المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيـا (من مطلع الاسـلام حتى العهد الحاضر) .

ـ السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ ـ الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

ـ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
(تدوين جديد لتاريخ مصر ودورها السياسى والحضارى) .

ـ الحروب الصليبية : دوافعها ـ ادوارها ـ نتائجها .

ـ الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — الجزء السادس : (الطبعة الخامسة)

الاســـلام والدول الاســـلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلهـــا الاســـلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .

— الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى :
غانة — مالى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجـــرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .

— الدول الاسلامية الحالية :
موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيــا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — الجزء السابع : (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .

— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — الجزء الثامن : (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :

ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — الجزء التاسع : (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمـــد نجيب — عصر جمـــال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر انور السادات .

(ترجمت اكثر اجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجـزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاســلام لهداية البشرية فى شـئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصـاد ، وفى مجـال الحيـاة الاجتماعية والتربوية والعسـكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية ،

واجزاؤها هى :

١١ — الجزء الأول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم فى صدر الاسلام — انحرافاتها فى عصـور الظلام — وجوب تصحيحها (*)

١٢ — الجزء الثانى : الفكر الاسلامى : منابعة وآثاره (الطبعة السابعة)

١٣ — الجزء الثالث : السـياسة (الطبعة السادسة)

فى الفـكر الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة (*)

١٤ — الجزء الرابع : الاقتصـاد (الطبعة السادسة)

فى الفـكر الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ — الاسلام والمسلمون فى مواجهة المشكلة الاقتصادية .

٢ — مبادئ الاسلام الاقتصادية .

٣ — الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .

٤ — من تاريخ الاقتصاد فى الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .

٥ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامى فيها .

١٥ — الجزء الخامس : التربية الاسلامية (الطبعة الثامنة)
نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وامكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافات ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الاسلامى (الطبعة السابعة)
اسس تكوينه .. اسباب ضعفه .. وسائل نهضته
ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة — تخطيط جديد — اداء جديد .

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)
فى الفكر الاسلامى

— فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المراة ...

— وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الاسلامى (الطبعة الثالثة)
وتاريخ النظم القضائية فى الاسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)
فى الفكر الاسلامى (العلاقات الدولية)

بحث علمى يبرز موقف الاسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات الاسلام فى مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، واخلاق المجاهد ، والخديعة فى الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ، والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسلامية

كتب للمؤلف

ثالثا : مقـــارنة الأديـــان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمـد على ادق المراجـع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالجيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ ـ الجزء الأول : اليهـودية : (الطبعة السابعة)

ـ دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهـود فى التاريخ من عهـد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل، عقيدة بنى اسرائيل، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

ـ مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

ـ اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية .

ـ من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ ـ الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة الثامنة)

ـ المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة.

ـ بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

ـ شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدهـا .

٢٣ ـ الجزء الثالث : الاســلام : (الطبعة الثامنة)

ـ الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منـه ، السياسة والاقتصـاد فى الاسلام .

٢٤ ـ الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة السابعة)

« الهندوسية ـ الجينية ـ البوذية »

ـ تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .

ـ دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : بوجاواسستها [illegible] كيتـا .

ـ أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجـود .

ـ تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب المؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ ـ كيف تكتب بحثا أو رسالة (الطبعة السابعة عشرة).

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه.

كتابان باللغة الانجليزية هما :

٢٦ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals
٢٧ — History of Muslim Education
مكتبة النهضة المصرية.

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

٢٨ — Negara dan Pemerintahan Dalam Islam
٢٩ — Masjarakat Islam
٣٠ — Hukum Islam
٣١ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 1
٣٢ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 11
٣٣ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 111
٣٤ — Perbandingan Agama (Jahudi)
٣٥ — Perbandingan Agama (Masihi)
٣٦ — Perbandingan Agama (Islam)
٣٧ — Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)
٣٨ — Sadjarah Pendidikan Islam
٣٩ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam
٤٠ — Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam
٤١ — Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi
٤٢ — Perang Sallb
٤٣ — Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah
٤٤ — Pengajian Al Quraan
٤٥ — Sedjarad Kehakiman Dalam Islam

Pustaka National (Singapore)

كتب للمؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ، وقصص القرآن .... للأولاد والشباب والسيدات والرجال ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة

ج ١ محمد قبل البعثة

ج ٢ من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام فى مكة)

ج ٣ الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .

ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها

ج ٥ الرسول الداعية ومربى الدعاة

ج ٦ (أ) الرسول فى بيته : زوجات الرسول — أسباب تعدد الزوجات

ج ٧ (ب) الرسول فى بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجها — الحجاب — أولاد الرسول — أحفاده — خدمه

ج ٨ الرسول بين أصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم — الرسول يربى المجتمع الاسلامى .

ج ٩ الرسول يربى القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام

ج ١٠ الرسول والشباب — الرسول والعمل

ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون

ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود

ج ١٣ الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم أحداث غزوة بدر

ج ١٤ غزوة أحد والهزيمة التى أخافت المنتصر — غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى

ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم .

ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة فى حياة الرسول

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ أجزاء)

ج ١٧ (١) ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التى واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع فى عهده — عمر بانى الدولة الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة فى عهده
ج ٢٠ (٤) على بن ابى طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التى واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن ابى وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء)

ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحى — نزول القرآن وتدوينه — اسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب فى أدائه والتكسب به .

ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التى جاء بها لخير الناس فى الدنيا والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات الرسل والمقارنة بينها .

ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الاعجاز فى القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار فى القرآن : اسراره واعجازه .

ج ٣٤و٣٥ (ترقيم مؤقت ، وفى الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم

جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها شرحا ميسرا

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

ج ٢٧ دراسات عن القصص فى القرآن — قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنتين — قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزير — قصة ايوب عليه السلام
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :

(٦ أجزاء)

ج ٣٦ تاريخ الدولة الأموية : الانحراف فى تدوينه ومحاولة انصافه — معاوية الخليفة الأموى الأول : عام الجماعة — الدهاء — الاصلاحات الداخلية — التوسع .

ج ٣٧ عبد الملك بن مروان :
أحد فقهاء المدينة الأربعة .
البطولة — السياسة — الاصلاحات الداخلية — التوسع

ج ٣٨ نموذجان فريدان متعاصران :
الوليد بن عبد الملك .
عمر بن عبد العزيز .

ج ٣٩ التوسع العظيم فى العهد الأموى وأهم ميادينه .

ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع .
قصة استشهاد الامام الحسين .

ج ٤١ جزء عن « من شهداء الاسلام » : حمزة بن عبد المطلب — جعفر بن ابى طالب — عمار بن ياسر — عمر المختار .

المجموعة السادسة : المراة فى ظل الاسلام (١٠ اجزاء)

ج ٤٢ المرأة فى الحضارات القديمة .
المرأة فى أوربا خلال العصر الوسيط .
ماذا قدم الاسلام للمرأة .

ج ٤٣ المرأة العربية من الجاهلية للاسلام : الخنساء .

ج ٤٤ سيدات مسلمات : السيدة زينب بنت الامام على .

ج ٤٥ سيدات مسلمات : بنتا الحسين : نفيسة وسكينة .

ج ٤٦ سيدات مسلمات : عائشة بنت طلحة .

ج ٤٧ سيدات فى البلاط العباسى : الخيزران — زبيدة .

ج ٤٨ المرأة فى الأندلس بين الطب والسياسة والأدب .

ج ٤٩ سيدات فى قصور مصر : ست الملك — شجرة الدر .

ج ٥٠ زيجات شهيرة فى التاريخ الاسلامى : بوران — قطر الندى .

ج ٥١ الاماء اللاتى تفوقن فى الشعر والغناء : سلامة — طل — عريب .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

(لم تدخل أعداد المكتبة الاسلامية ضمن العدد الخاص بكتب للمؤلف)

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
— أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٦ — **تعليم اللغة العربية لغير العرب :** (الطبعة الرابعة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت فى أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٧ — **قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها :** (الطبعة الرابعة)
عرض لجميع ابواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لأهم ابواب الصرف

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعـاد طبعها

٤٨ — فى تصور الخلفاء العباسيين :
اكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٤٩ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥٠ — الحكومة والدولة فى الاسلام :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .

٥٢ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامى فيها :
واكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

محتـويات الكتـاب

الموضـــــوع الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

مقـــدمة الطبعة الأولى

باسم الله العلى العظيم أقدم هـــذا الجزء من موسوعة « التـــاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » • وفى هـــذا الجزء نتحدث عن الدولة العباسية ، وهى دولة — كمـــا يقول ابن طباطبا (١) — كثيرة المحاسن ، جمـــة المـــكارم ، أسواق العلوم فيهـــا قائمة ، وبضائع الآداب فيهـــا نافقة ، وشعائر الدين فيهـــا معظّمة ، والخيرات فيها دائرة ، والدنيـــا عامرة ، والحرمات مرعية ، والثغور محصـــنة ، ومازالت على ذلك حتى أواخر أيامها ، فانتشر الشر ، واضطرب الأمر •

وقد خصّصتُ أكثر هـــذا الجزء للعصر العباسى الأول ودَوْر المسلمين خلاله فى خدمة الثقافة الاسلامية والعالمية ، وهـــذا العصر يعتبر فى المجال الثقافى والعلمى قمة بين عصـــور التاريخ الاسلامى ، فقد حدث فيـــه حادثان عظيمان يرتبطان بالعلوم والمعارف ، وهذان الحادثان هما :

أولا — تدوين العلوم الإسلامية :

يعتبر هذا العصر عصر تدوين العلوم الاسلامية كمـــا سترى فيما بعد ، ففيه ظهر أئمة الفقه ، وأئمة النحو ، والمؤرخون ، والمفسرون ، وعلماء مقارنة الأديان وبدأ هؤلاء يدونون العلوم الاسلامية ، وكانت العلوم قبل هـــذا العصر تعتمد على الرواية غالبـــا ، ولم يتم تدوين يذكر قبـــل هـــذا العصر •

ثانيا — الترجمة للغة العربية :

شهد هذا العصر الترجمة للغة العربية من اللغات المتعددة التى ارتبطت بالعالم الاسلامى فلقد بدأ المسلمون خلاله يتصلون بالثقافات الأجنبية من فارسية وهندية ويونانية ، وترجموا أهم الأبحاث الى اللغة العربية ، وكثيرا

---

(١) الفخرى فى الاداب السلطانية والدول الاسلامية ص ١٢٨ •

ما ضاعت الأصول المترجمة بعد ذلك ، ولم يبق إلا اللغة العربية حارسا لهذه الثقافات العالمية ، ولم يكتف المسلمون بالترجمة بل أضافوا إليها ، وانتقدوا ، وابتكروا ، وانتقلت ثقافاتهم الى الغرب عن طريق أسبانيا وصقلية فكانت من أهم الأسباب للنهضة الأوربية كما سنوضح ذلك فيما بعد .

فاذا كان عصر الخلفاء الراشدين وعصر بنى أمية وسّعا محيط العالم الاسلامى ونَشَرَا به أفانين الفكر الاسلامى ومبادئه وتشريعاته ، فان العصر العباسى الأول أضاف الثقافة العالمية ، ورفع مشعل الترجمة ، وجعل العالم الاسلامى مركز النور والمعرفة للعالم كله بحفظه تراث الانسانية وكان هذا التراث على وشك أن يفنى .

وسنسير فى دراسة أحداث هذا العصر على النهج الذى رسمناه واتبعناه فى الجزأين السابقين ، أى دراسة الأفكار التى تُعْنَى بموضوع واحد مُجَمَّعَةً تحت عنوان يشملها ، فالنهضة الثقافية نتكلم عنها كوحدة متصلة ونتتبعها فى عصور خلفاء هذا العصر ، والعلاقات الخارجية نخصها بحديث يشملها فى العصر العباسى الأول كله ، وكذلك نعمل لتصوير نشاط الشيعة والخوارج ، وغير هذه من الموضوعات ، ونحن بهذا نختلف عن جمهور الباحثين الذين تعودوا أن يتكلموا عن الأحداث التى وقعت فى عهد المنصور ثم عن الأحداث التى وقعت فى عهد المهدى فالهادى فالرشيد . . . لأن ذلك فيما أرى تمزيق للفكرة وتركيز لكل نشاط الدولة فى شخص الخليفة ، وهو ما لا ترتضيه المدرسة التاريخية التى نعتنق اتجاهها .

وبعد العصر العباسى الأول سنذكر العصور العباسية الأخرى بإيجاز ، تاركين التفاصيل عنها الى الأجزاء التالية التى خُصِّصَت للقطاعات الجغرافية ، حيث سنتتبع تاريخ الدول التى كانت تابعة

للخلافة العباسية ثم انفصلت عنهـا بعد العصر الأول ، وسنذكر تاريخ هذه المناطق من مطلع الاسلام حتى الآن .

والله المسئول أن يلهمنا التوفيق ويجعل هذا العمل خالصاً لوجـه الـكريم .

المعادى فى أول أبريل سنة ١٩٦٢ .

دكتور أحمد شلبى

فى تقـديم الطبعة الثـامنة

فى تقديم الطبعة الثامنة لهـذا الجزء أتجه الى الله واهب التـوفيق شاكرا فضـله ، والى القراء معترفا بإقبالهم ، وأدعـو الله أن يمنحنى مزيداً من العـون ومزيداً من التوفيق لأقدم للقراء مـا يكافىء إقبالهم وتشجيعهم ، ومن الطبيعى أننى أُدْخِل على كل طبعة جديدة تحسيناتٍ واسعةً تجعل الفكرة أقرب للتنـاول ، والفترة التاريخية التى ندرسهـا أكثر وضـوحاً .

والله ولى التوفيق ،،

المعادى فى الثالث من يوليو سنة ١٩٨٥ .

المؤلف

تعريف بالخلافة العباسية

نسب العباسيين :

تنسب الخلافة العباسية الى العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، فمؤسس دولة بنى العباس هو عبد الله (السفاح) بن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس ، ويعتبر قيامها انتصاراً للفكرة التى نادى بها بنو هاشم عقب وفاة الرسول بإسناد الخلافة الى أهل الرسول ، وذويه ، وقد هُزِمَتْ هذه الفكرة فى مطلع الاسلام وانتصر التفكير الاسلامى الصحيح وهو أن الخلافة مِلْك للمسلمين يولون على أنفسهم من يشاءون ، ولكن الفرس الذين كانوا يدينون بمبدأ الحق الإلهى المقدس ظلوا يعملون لنشر مبادئهم ، حتى استطاعوا أن يأتوا ببنى هاشم الى الخلافة .

وكان العلويون أقرب الى الرسول فى نظر الجماهير لمكانة فاطمة من أبيها ، ولمكانة علىّ من ابن عمه وصهره ، ثم لمكانته هو فى الاسلام سبقا وكفاحا ، ولكن العباسيين بعد أن نالوا السلطان أذاعوا أنهم أحقّ بنى هاشم بميراث الرسول لأن جدهم عم الرسول ولا ينحدر الميراث الى ابن العم مع وجود العم ، وليس لأولاد البنات ميراث مع وجود العصبة ، وقد قال شاعرهم فى ذلك :

أنّى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأجداد

عصور الخلافة العباسية إجمالا :

استمرت الخلافة العباسية من سنة ١٣٢هـ الى سنة ٦٥٦هـ فمدّتها ٥٢٤ سنة ، وفى سنة ٦٥٦ زحف التتار على العالم الاسلامى وقتلوا الخليفة وكثيرين من أهله ، وأعلنوا نهاية الخلافة العباسية .

والمدة الطويلة التى قضاها بنو العباس فى منصب الخلافة لم تكن بطبيعة الحال على نمط واحد من ناحية مدى سلطة الخلفاء ، وإنما

تفاوتت هذه السلطة ، مما جعل المؤرخين يقسمون مدة الخلافة العباسية الى عصور ، وقد اختلفت وجهات نظر المؤرخين فى اتجاه التقسيم وسببه ، والذى نراه أن نقسم مدة الخلافة العباسية الى عصور ثلاثة تختلف ملامح كل عصر منها عن سواه ، وهذه العصور هى :

العصر الأول (١٣٢ — ٢٣٢هـ) وكانت السلطة خلاله فى أيدى الخلفاء

العصر الثانى (٢٣٢ — ٥٩٠هـ) وقد ضاعت السلطة خلاله من أيدى الخلفاء •

العصر الثالث (٥٩٠ — ٦٥٦هـ) وفيه عادت السلطة الى أيدى الخلفاء ولكن فى بغداد وما حولها أى فى منطقة صغيرة من العالم الإسلامى •

وسنتكلم فيما يلى عن كل من هذه العصور بشىء من التفصيل •

العصر الأول (١٣٢ — ٢٣٢هـ) :

كانت السلطة خلال هذا العصر فى أيدى الخلفاء على جميع المملكة الاسلامية ما عدا الأندلس ، وكان خلفاء هذا العهد أبطالا يقودون الجيوش ويخوضون الوغى ، وكان أكثرهم علماء يجيدون الفتيا ويجتهدون ، ويحبون العلم ويقربون ذويه ، ويهزون أعواد المنابر ، وفى هذا الجزء حديث مستفيض عن تاريخ هذا العصر •

العصر الثانى (٢٣٢ — ٥٩٠هـ) :

فى هذا العصر ضاعت السلطة السياسية من أيدى الخلفاء ، وانتقلت الى القوى الآتية :

(أ) الأتراك (٢٣٢ — ٣٣٤هـ) فيما عدا فترة صحت فيها الخلافة على يد الموفق إبان خلافة أخيه المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩هـ) ثم على يد المعتضد بن الموفق إبان خلافة المعتمد وخلافة المعتضد نفسه بعد عمه (٢٧٩ — ٢٨٩هـ) •

(ب) البويهيين (٣٣٤ — ٤٤٧هـ) .

(د) السلاجقة (٤٤٧ — ٥٩٠هـ) .

العصر الثالث (٥٩٠ — ٦٥٦هـ) :

عندما ضعف سلاطين السلاجقة أخذت دولتهم فى الانحلال والتفكك ، فقام بها حكام كثيرون عرفوا بالشاهات والأتابك ، واستقل كل منهم بجزء من مملكة السلاجقة ، فانتهز الخليفة (الناصر سنة ٥٩٠) هذه الفرصة وأعلن استقلاله ببغداد وما حولها ، وظل الخليفة ومن بعده أولاده يستمتعون باستقلال كامل فى هذه المنطقة الصغيرة حتى دهم التتار بقيادة هولاكو العالم الاسلامى وهدموا بغداد وقتلوا الخليفة وأنهوا خلافة بنى العباس سنة ٦٥٦هـ . (١٢٥٨م) .

وسنتحدث فى الأجزاء التالية من هذه الموسوعة إن شاء الله عن الدول الإسلامية التى كانت مرتبطة بالخلافة العباسية ، أو تلك التى لم ترتبط بها ، وسيمتد حديثنا عن هذه الدول من أول علاقتها بالاسلام حتى العهد الحاضر ، وسنتبع القطاعات الجغرافية تبعا لخطة البحث التى أثبتناها فى مطلع هذا الكتاب .

أسماء خلفاء بنى العباس :

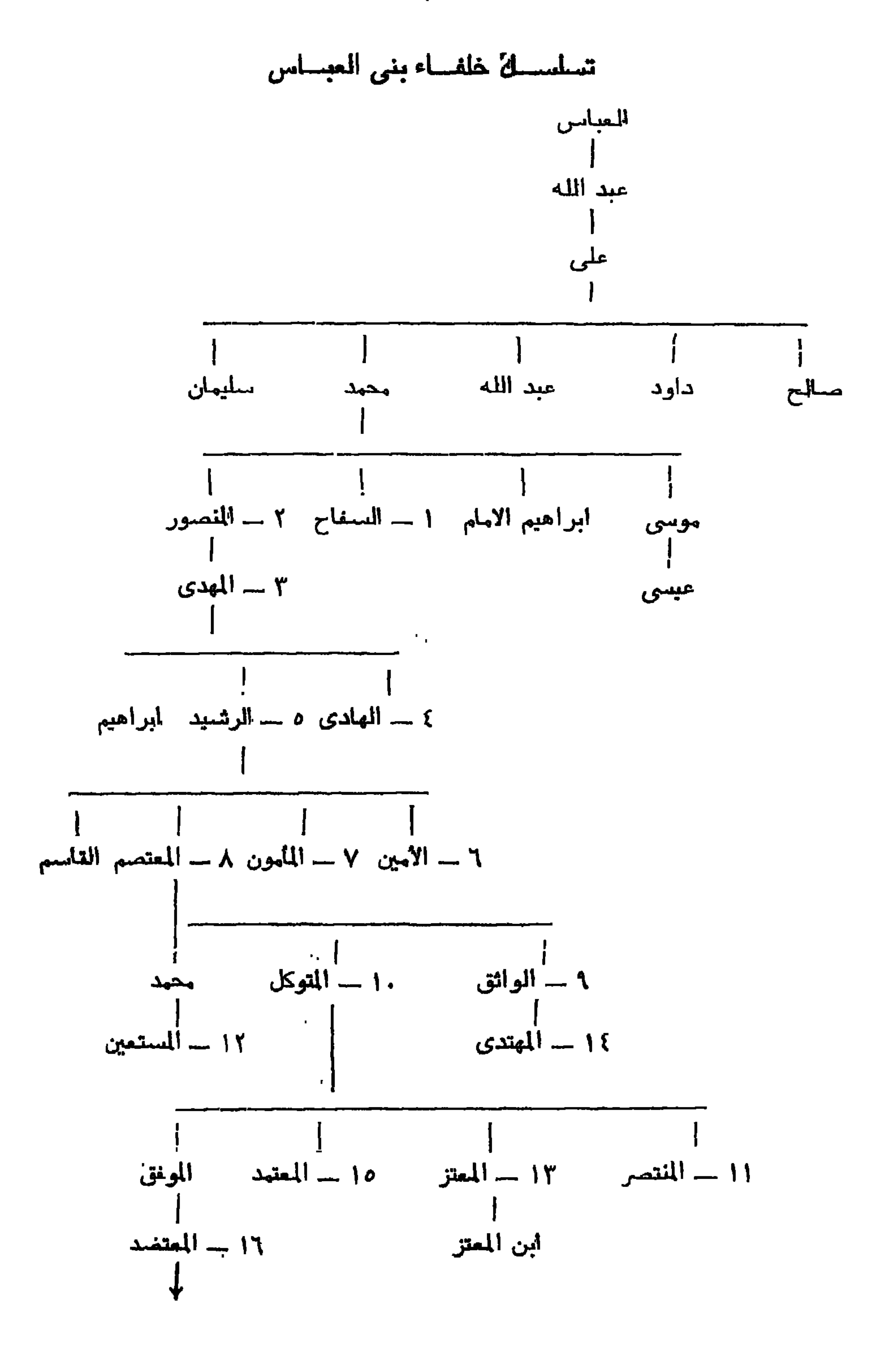
وفيما يلى قائمة بأسماء خلفاء بنى العباس وبدء خلافة كل منهم :

١ — أبو العباس السفاح	١٣٢ هـ
٢ — أبو جعفر المنصور	١٣٦ هـ
٣ — أبو عبد الله محمد المهدى بن المنصور	١٥٨ هـ
٤ — أبو محمد موسى الهادى	١٦٩ هـ
٥ — أبو جعفر هارون الرشيد	١٧٠ هـ
٦ — أبو موسى محمد الأمين	١٩٣ هـ

٧ ـــ أبو جعفر عبد الله المأمون	١٩٨ هـ
٨ ـــ أبو إسحق محمد المعتصم	٢١٨ هـ
٩ ـــ أبو جعفر هارون الواثق	٢٢٧ هـ
١٠ـــ أبو الفضل جعفر المتوكل	٢٣٢ هـ
١١ـــ أبو جعفر محمد المنتصر	٢٤٧ هـ
١٢ـــ أبو العباس أحمد المستعين	٢٤٨ هـ
١٣ـــ أبو عبد الله محمد المعتز	٢٥٢ هـ
١٤ـــ أبو اسحق محمد المهتدى	٢٥٥ هـ
١٥ـــ أبو العباس أحمد المعتمد	٢٥٦ هـ
١٦ـــ أبو العباس أحمد المعتضد	٢٧٩ هـ
١٧ـــ أبو محمد على المكتفى	٢٨٩ هـ
١٨ـــ أبو الفضل جعفر المقتدر	٢٩٥ هـ
١٩ـــ أبو منصور محمد القاهر	٣٢٠ هـ
٢٠ـــ أبو العباس أحمد الراضى	٣٢٢ هـ
٢١ـــ أبو إسحق ابراهيم المتقى	٣٢٩ هـ
٢٢ـــ أبو القاسم عبد الله المستكفى	٣٣٣ هـ
٢٣ـــ أبو القاسم المفضل المطيع	٣٣٤ هـ
٢٤ـــ أبو الفضل عبد الكريم الطائع	٣٦٢ هـ
٢٥ـــ أبو العباس أحمد القادر	٣٨١ هـ
٢٦ـــ أبو جعفر عبد الله القائم	٤٢٢ هـ
٢٧ـــ أبو القاسم عبد الله المقتدى	٤٦٧ هـ
٢٨ـــ أبو العباس أحمد المستظهر	٤٨٧ هـ
٢٩ـــ أبو منصور الفضل المسترشد	٥١٢ هـ

٣٠ـ أبو جعفر المنصور الراشد	٥٢٩ هـ
٣١ـ أبو عبد الله محمد المقتفى	٥٣٠ هـ
٣٢ـ أبو المظفر المستنجد	٥٥٥ هـ
٣٣ـ أبو محمد الحسن المستضيء	٥٦٦ هـ
٣٤ـ أبو العباس أحمد الناصر	٥٧٥ هـ
٣٥ـ أبو نصر محمد الظاهر	٦٢٢ هـ
٣٦ـ أبو جعفر المنصور المستنصر	٦٢٣ هـ
٣٧ـ أبو أحمد عبد الله المستعصم	٦٤٠هـ ٦٥٦هـ

تسلسل خلفاء بنى العباس



(تابع) تسلسل خلفاء بنى العباس

١٦ — المعتضد

١٧ — المكتفى
١٨ — المقتدر
١٩ — القاهر

٢٢ — المستكفى (ابن ١٧ — المكتفى)

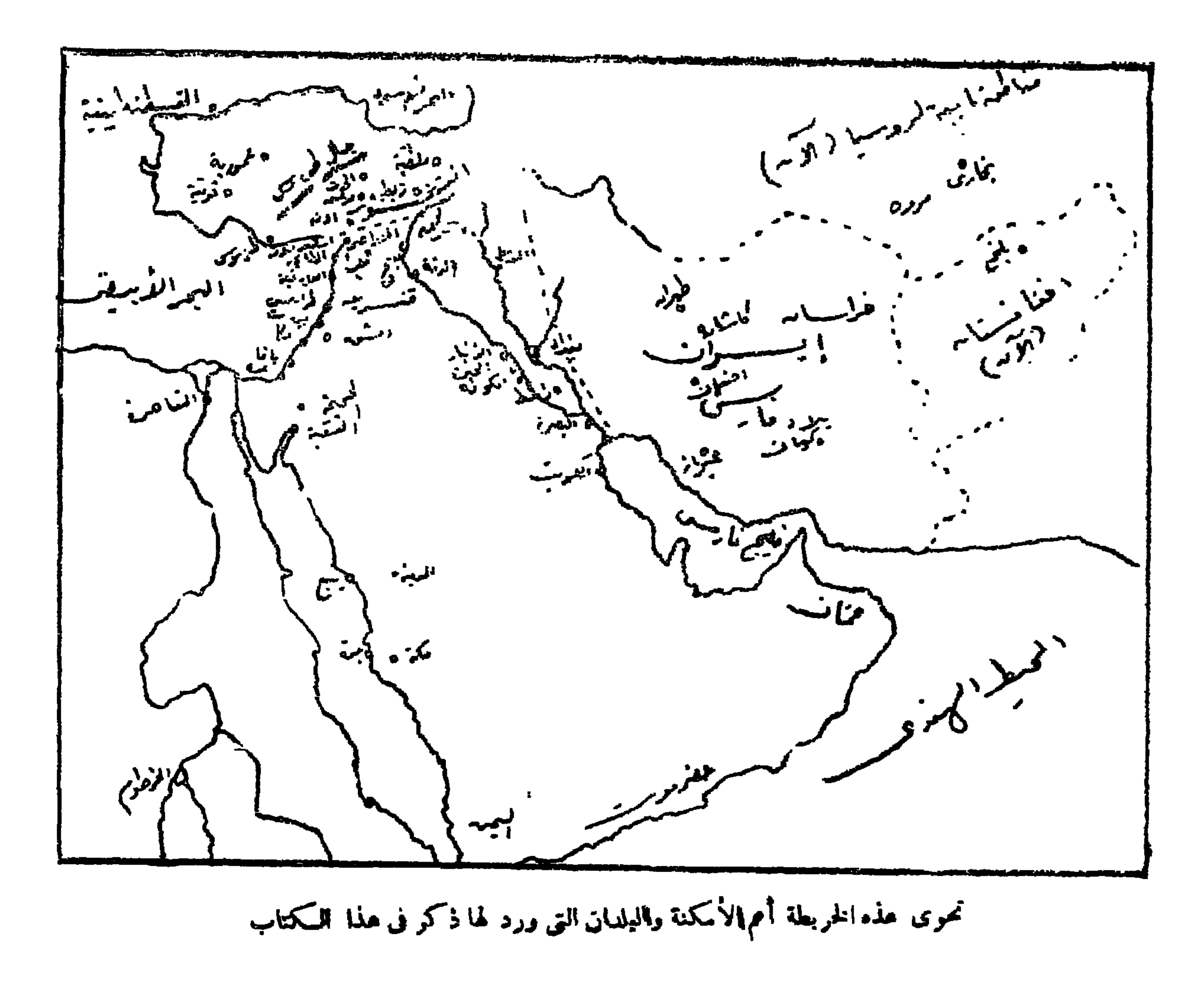
٢٠ — الراضى
٢١ — المتقى
٢٣ — المطيع
(هؤلاء الثلاثة أبناء ١٨ — المقتدر)

٢٤ — الطائع (ابن ٢٣ — المطيع)

٢٥ — القادر (ابن ٢١ — المتقى)
٢٦ — القائم
محمــد
٢٧ — المقتدى
٢٨ — المستظهر

٢٩ — المسترشد
٣٠ — الراشد (ابن ٢٩ — المسترشد)
٣١ — المقتفى
٣٢ — المستنجد
٣٣ — المستضىء
٣٤ — الناصر
٣٥ — الظاهر

أحمد المستنصر
(الخليفة العباسى الأول بالقاهرة)
٣٦ — المستنصر
٣٧ — المستعصم



تحوى هذه الخريطة أم الأمكنة والبلدان التى ورد لها ذكر فى هذا الكتاب

قيـام الدولة العباسـية
والتخطيط لـه

حتى أوائل سنة ١٣٢هـ لم تكن قد ظهرت الكلمتان « العباسيون » و « العلويون » فى أفق التاريخ ظهوراً واضحاً ، بل كان هناك تعبير يشمل هؤلاء وأولئك ، ذلك هو « بنو هاشـم » أو « الهاشـميون » أو « آل البيت » ، وكان هؤلاء يكافحون معاً ، ويناوئون بنى أمية متسـاندين ، رجاء أن ينتزعوا لأنفسهم الخلافة التى اعتقدوا أنها حق لهم اغتصـبه الأمويون .

ولكان العنصران اللذان يتكوّن منهما « الهاشميون » يختلفان اختلافاً بيّناً ؛ فالعلويين فيهم طيبة وصفاء يعتقدون أن الخلافة حقهم ، وأن الناس جميعاً يسعون ليردوها إليهم ، وأما العباسيون فكان فيهم دهاء وسياسة ؛ ولقد وقف العلويون مدة طويلة فى قمة الزعامة من بنى هاشم وهبّ زعماء بنى هاشم من العلويين فى وجه بنى أمية عدة مرات وناوءوا سلطانهم ، ولكن الأمويين كانوا يضربون هذه الحركات ضربات قاسية ، ويقضون على زعمائها ، ومن ضحايا العلويين يبرز الحسين بن على وحفيده زيد ثم يحيى بن زيد ، ولم يكتف الأمويون بقتل زيد وابنه يحيى بل مثّلوا بجثتيهما ، وأحرقوهما حتى صارتا رمادا تذوره الرياح . وفى الجزء السابق من هذه الموسوعة تفاصيل هذه الأحداث .

وبالإضافة إلى ما خسره معسكر العلويين من ضحايا ، وعدم توافر الدهاء السياسى فيهم ، نجد أن معسكر العلويين تنتشر فيه الخلافات حول الزعامة ، كما يكثر به انشقاق الأتباع على هؤلاء الزعماء ، انشقاقاً أدّى إلى قيام فرق كثيرة خرجت من أصل واحد ، كان قبلا مرهوب الجانب ، عزيز

السلطان ، فقد ظهر الخلاف فى صفوف بنى على منذ عهدهم المبكر ، فبعد استشهاد الحسين فى موقعه كربلاء غير المتكافئة ، اختلف العلويون فى قضية الإمامة ، هل تنتقل بعده إلى أخيه محمد بن على وهو ابن الحنفية (١) وليس بابن فاطمة ، أم إلى على زين العابدين بن الحسين ؟ ويصف التاريخ محمداً هذا بأنه أقوى من الحسن والحسين خلقاً ، وله حزب قوى يظاهره ويقدمه للإمامة وهم الكيسانية ... وهؤلاء يعتقدون أن الأئمة أربعة ، وهم على وبنوه الثلاثة ، الحسن والحسين ومحمد (٢) .

وقال كثيِّر عزة فى ذلك :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء

علىٌ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء

وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يتبعها اللواء

تغيَّب لا يُرَى فيهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء (٣)

... وهكذا انقسم العلويون بعد مصرع الحسين قسمين : قسم اتبع محمد بن على وقسم مال إلى على زين العابدين ، وكان مما أضعف شوكة القسم الثانى جنوحُ زين العابدين إلى الهدوء ومسالمته للأمويين ، وبَعْدَ موت على زين العابدين انقسم أتباعه قسمين مع ولديه محمد الباقر وزيد ، كما كان فى أولاد الحسن بن على من ينافس أولاد عمهم الحسين فى طلب ذلك الأمر ، وعلى هذا أصبح معسكر العلويين كثير الزعماء ، مختلف الآراء ، وكان من أقوى جماعات العلويين هذه الجماعة التى دانت بالولاء لمحمد ابن الحنفية ، ثم لابنه أبى هاشم من بعده :

---

(١) أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بنى حنيفة .
(٢) دوايت دونلدش : عقيدة الشيعة ص ١١٣ .
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣١ .

محور (الحميمة — الكوفة — خراسان) :

وهناك مركز هاشمى آخر كان يعمل أيضاً ليثير السخط على الأمويين ، وليقوض عرشهم ، وله إدارة تمتاز بالدقة والكياسة والفطنة والدهاء ، ذلك المركز هو « الحميمة » ، وكان يستغل ضحايا العلويين ودماءهم وهو يهدم البيت الأموى الحاكم ويعمل على أن تتداعى دعائمه ، وتنهار أركانه ...

ومن الحميمة خرج الفرع الهاشمى الذى أطلق عليه فيما بعد « العباسيون » ومن هنا لزم أن نمنحه مزيداً من العناية والإيضاح :

كان على بن عبد الله بن العباس مسالماً للأمويين وصديقاً لهم ، لا يطلب شيئاً لنفسه ، وكان يميل الى الزهد والعبادة ، وقد أقطعه الوليد ابن عبد الملك بلدة الحميمة من أرض الشام ، بالقرب من دمشق ، فانتقل لها من الحجاز ، وأقام بها هو وأسرته ؛ ولم يكن موقع الحميمة ، ولا أخلاق على بن عبد الله بن العباس ، مما يوحى بأن الحميمة تعمل جاهدة لقلب نظام الحكم ، ونقل السلطان من أسرة الى أسرة ، ولذلك لم يحفل الأمويون كثيراً بمراقبتها ، واقامة الأرصاد حولها ؛ وكانت الحميمة فى الواقع ساكنة هادئة ، كما كان على بن عبد الله جديراً بالثقة التى أولاها له الأمويون ، أما محور النشاط والحركة والفكر ؛ فكان محمداً ابنه الذى عرف بأنه راجح العقل ، كثير الفطنة ، كبير الطموح ؛ وقد انتفع بحوادث التاريخ ، فرأى ما يلى :

١ — أن الفشل الذريع كان دائماً نصيب العلويين ، لأنهم يسيرون خلف إمام معيّن ، فإذا قُتل هذا الإمام أو مات ، خلّف فراغاً وفرقة .

٢ — تعوّد العلويون أن يهبوا فجاءة فى وجه الأمويين مطالبين بالخلافة .

٣ — رأى محمد بن على أن أتباع العلويين طالما تخلوا عنهم فى أثناء المعركة لعدم تعمق الفكرة فى نفوسهم .

٤ — ورأى كذلك أن البلاد الإسلامية ليست سواء فى الاستجابة لدعوة الهاشميين •

وانتهى محمد بن على من دراسته وتفكيره إلى وضع الأسس الآتية ليسير عليها ففيها علاج لما وقع فيه العلويون من أخطاء •

أولا : أن تكون الدعوة للرضا من آل محمد ، — أى من يُختار للخلافة من آل محمد عقب انتصار الدعوة الهاشمية — وهو بهذا لا يغضب أولاد عمه من العلويين ، ثم هو لا يربط الدعوة بفرد معين ، حتى لا تضعف إذا مات أو اغتيل ، بل تظل الدعوة فى طريقها الى الأمام ، وان قتل فرد أو أفراد من الزعماء أو الأتباع ، وكانت الجماهير تعتقد أن « الرضا من آل محمد » علوى ، كما كان العلويون يعتقدون ذلك ، وعلى هذا كان ظاهر الحركات للعلويين وكانت بواطنها وإدارة شئونها وإمدادها بالدهاء والتوجيه يسيطر عليه العباسيون •

ثانيا : ألا يقوم الهاشميون بثورة لقلب نظام الحكم قبل أن يمهّدوا لها ويُعِدّوا العدة لقيامها ؛ بإثارة الناس ضد الحكم القائم الغاشم وتهيئة النفوس للدعوة الجديدة •

ثالثا : يكوّن محور (الحميمة — الكوفة — خراسان) فتكون الحميمة مكان التدبير والتنظيم ، وتكون الكوفة نقطة الاتصال يلتقى فيها الذين يحملون الأوامر والتوجيهات من الحميمة ، مع الدعاة الذين عادوا من خراسان لينقلوا إلى القادة نتائج كفاحهم ، وليتلقوا التعليمات الجديدة ، أما مقر العمل فليكن خراسان ، وهو اختيار ناجح كل النجاح ، لكل مركز من مراكز هذا المحور :

فالحميمة تقع فى أحضان دمشق كما سبق القول ، مما يوحى بأنها

لا يمكن أن تتخذ مكانا لمثل هذه الحركات • وهى بالإضافة إلى ذلك قرية صغيرة ، قليلة الاتصال بالقرى والمدن •

والكوفة فى منتصف الطريق ، تتجمع بها العناصر الموالية لآل البيت منذ اتخذها على عاصمة له ، وهى فى عداء سافر مع بنى أمية ، وتعتد نفسها خصيمة دمشق ومنافستها كعاصمة للعالم الإسلامى •

وفى خراسان ميزات واضحة لاحتضان الدعوة الجديدة وتنميتها وإنجاحها ، فهى تدين بالوراثة فى السلطان أى بنظرية الحق الملكى المقدس كما يسميها المحدثون من الباحثين The Divine Rights ، وهى كذلك تريد أن تثأر لكرامتها وسلطانها التليد الذى حطمه الأمويون ، وتسعى جاهدة فى استعادة مجدها السالف بعد أن صيرهم الأمويون موالى لا يرقون الى رتبة العرب الذين كانوا إلى عهد قريب أقل منهم مستوى وأحط ثقافة •

ثم كان بعد خراسان عن مركز الخلافة بدمشق عاملا مهما من العوامل الى أدت كذلك الى اختيارها كمركز للعمل والنشاط ، وأخيراً كانت هناك الانقسامات القبلية التى سادت خراسان والتى استغلها الدعاة ، وهم ينشرون الفكر الجديد •

ولقد وصف محمد بن على بن عبد الله لدعاته الولايات الإسلامية وميولها وصفاً دقيقاً فى العبارة التالية :

أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده ، أما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف ، تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليسوا يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى أمية ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة

لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل . وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وأصوات هائلة ... وبعد فانى أتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا مصباح الخلق (١) .

عاملان ساعدا على نجاح الحركة :

وقبل أن نسير فى وصف الحركة ، يجدر بنا أن نقرر أن عاملين كبيرى الأهمية حدثا حوالى التقاء القرن الأول الهجرى والقرن الثانى ، وكان لهما أثر حسن فى بدء حركة النضال بدءاً قوياً مـن جهة ، وفى تقوية جـانب الحميمة من جهة أخرى .

العامل الأول : هو خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١هـ) التى أشاعت العدالة وملأت النفوس اطمئناناً . وهيأت للمعارضة أن تتكلم دون خوف من إراقة الدماء أو إزهاق الأرواح .

العامل الثانى : هو أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم طائفة الكيسانية أبرز الفرق العلوية المناضلة للأمويين ، قصد دمشق وافداً على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك فبره هشام ووصله ، ثم رأى مـن فصاحته وسمو مكانته وعلمه ما حسده عليه وخوفه منه ، فيقال أنه بعث إليه وهو فى طريقه إلى المدينة من وضع له السـم فى لبن ، فلما أحس بالألم عدل إلى على بن عبد الله بن العباس بالحميمة فأعلمه أنه ميت ، وأوصى إليه ، وكان فى صحبته جماعة من الشيعة فسلمهم إليه وأوصاه بهم ثم مـات (٢) .

وليس الذى يهمنا فقط أن الحميمة كسبت عدداً من المناضلين لينضموا

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٩٢ — ٢٩٤ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠١ .

إلى صفوف رجالها ، وليكونوا هم وأتباعهم الكثيرون فى خراسان والعراق قوة يعتمد عليها زعماء الحميمة ، بل الذى يهم فوق ذلك هو أن الجانب العملى والسلطة الفعلية التى كانت الحميمة مركزها ، قد قويت بإضافة الجانب النظرى اليها ، فقد أصبح زعماء الحميمة وارثين لعلى بن أبى طالب ، بالاضافة الى حقهم بوصفهم ورثة للعباس بن عبد المطلب .

والآن بعد أن تعرفنا على مكانة كل مركز من مراكز هذا المحور ، نستطيع أن نتتبع الدور الذى قام به كل منها فى تاريخ الدعوة العباسية :

الحميمة :

كانت الحميمة تبدو هادئة كما قلنا ، فأمراء العباسيين يعكفون فى المساجد ، ويتخذون الصلاة والتقوى أبرز مظاهرهم ، وهم يديرون الدعوة عن طريق أتباعهم بالكوفة وخراسان ، وقد بدأ زعماء الحميمة دعوتهم فى مطلع القرن الهجرى الثانى بتعيين الدعاة والنقباء ، وتنظيم العمل لهم ، ويسمى هذا الدور بالدور السرى للدعوة ، وقد ظل من سنة ١٠٠هـ إلى سنة ١٢٧هـ ثم جاء بعده دور العمل والجهر ، وقد بدأ سنة ١٢٧هـ عندما أرسلت الحميمة أبا مسلم الخراسانى الى خراسان ليقود المناضلين من أهل خراسان ضد الأمويين .

وقد سار محمد بن عبد الله بن العباس يدبّر الأمر بالحميمة ، ويرسل الدعاة ويعين النقباء ، ويشرف منها على سير الأمور بالكوفة وعلى ما يدور بخراسان ، وتوفى أبوه على بن عبد الله سنة ١١٧هـ فلم تُغَيِّر وفاته من الأمر شيئاً ، فقد سبق القول بأنه كان زاهداً بعيداً عن متاعب السياسة والكفاح ، ولذلك ظل محمد دءوباً على العمل ، دون أن يثير حوله شك الأمويين أو تفوح لهم منه شبهة ، وفى سنة ١٢٥هـ توفى محمد بن على بعد أن عهد الى ابنه ابراهيم بالأمر ، وكانت الدعوة تسير قدماً . وتنتقل من نجاح الى نجاح . وتولى مروان بن محمد عرش الخلافة

الأموية عقب ذلك ، ولكنه أحس أن الدنيا تنتفض عليه ، وأن عرشه يهتز من تحته ، وأن خراسان على وجه الخصوص تضطرب ، وقد فقد سلطانه عليها ، فحاول جاهداً أن يعرف من الرأس المدبر ، وباسم مَنْ تقوم هذه الحركة العاتية الطاغية ، ولكنه فشل ، فكل شيء كان محكم التدبير متين الحبك ، ولم يظهر له الأمر إلا بعد فوات الأوان ، يحكى المسعودى [١] أن بعض أصحاب مروان ، ممن وُكِلَ بالطرق ، أحضروا بين يديه رسولا من خراسان يحمل كتابا من أبى مسلم الخراسانى الى ابراهيم الإمام [٢] يخبره فيه خبره ، وما آل اليه أمره . فقال مروان للرسول : لا ترُعْ ... كم دفع لك صاحبك ؟ قال : كذا وكذا ، قال : فهذه عشرة آلاف درهم لك ، وانما دفع اليك شيئا يسيرا ، وامض بهذا الكتـــاب الى ابراهيم ، ولا تعلمه بشيء مما جرى ، وخذ جوابه فأتنى به ، ففعل الرسول ذلك : فتأمل مروان جواب إبراهيم إلى أبى مسلم بخطه ، يأمره فيه بالجلـــد والاجتهاد والحيلة على عدوه ، وأن يقتل من يشك فيه بخراسان ، وغير ذلك من أمره ونهيه ، فكتب مروان من الجزيرة إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامل مروان على دمشق ، يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء ، فيسير الى الحميمة ليأخذ ابراهيم بن محمد ، فيشد وثاقه ويبعث بـــه إليه فى خيل كثيفة ، ففعل الوليد ما أمر به ، وجاء العامل ابراهيم وهو جالس بمسجد القرية ، وهو ملفف فقبض عليه ، ونفذ أمر الخليفة ، وكان ذلك فى بدء سنة ١٣٢ هـ .

وقد أدرك ابراهيم عاقبته ومصيره ، فولى أخاه أبا العباس عهده ، وعقد له من بعده ، وأمره بالمسير الى الكوفة . وأمر أهل بيته أن يسيروا

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ . ص ٢٠٤ .

(٢) يبدو أن مكانة أبى مسلم كانت تدفعه أحيانا أن يتخطى الكوفة ويتصل مباشرة بالامام بالحميمة لأنه رسول الامام دون واسطة ، ومع هـــذا كان فى اكثر الاحوال يتصل بأبى سلمة بالكوفة كما سيأتى .

معه ، ويسمعوا له ويطيعوا ، ونعى إليهم نفسه . فسار أبو العباس عبد الله ابن محمد ومعه أبو جعفر أخوه ، وداود وعبد الله عماه ، وعيسى بن موسى ابن محمد بن على وغيرهم الى الكوفة [1] ، وانتهى بذلك دور الحميمة بعد أن تركت فى التاريخ ذكراً خالداً .

ويقال إن السفاح فَضَلَ أخاه أبا جعفر المنصور لأن أم السفاح كانت عربية ، أما أم أبى جعفر فكانت أمّ ولد ، والذى نسجله هنا أن الوقت الذى اختير فيه السفاح لم يكن يشجع على المنافسة ، فقد كان واضحاً أن الذى يُختار القيادة انما يختار لمشكلات عريضة ، وآمال لم يحن بعد تحقيقها ، ولذلك وافق جميع زعماء بنى العباس على هذا الاختيار .

أما إبراهيم الإمام فقد سِيقَ الى مروان حيث حبس فى سجن حرّان ، مع جماعة من أعداء مروان بن محمد ، ولم يزل فى سجنه حتى مات ، ويقال إن رأسه جُعِلَ فى جراب فيه نورة مسحوقة ، فاضطرب ساعة ثم خمد [2] .

وقد قال سُدَيف بن ميمون فى رثائه :

قد كنت أحسبنى جلداً فضعضعنى	قبرٌ بحرّان فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم	بين الصفائح والأحجار والطين

الكوفة :

هذا ما كان من أمر الحميمة ، أما ما كان من أمر الكوفة ، فإن أول من قام بالأمر فيها ميسرة مولى بنى العباس ، وكان من كبار أعوانه فيها شيخ عظيم يدعى بكر بن ماهان ، وكان داهية واسع الثراء والجاه ، فساعد آل البيت بجاهه وماله ، فلما مات ميسرة فى عهد محمد بن على ، أقامه

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٥ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٠٥ والنورة : الجير .

محمد مقام ميسرة بالكوفة ، وأصبح قائد الدعوة فى هذه المنطقة ، وحلقة الاتصال بين زعماء الحميمة ونشاط خراسان .

يروى الطبرى [١] أن بكر بن ماهان قدم من السند سنة ١٠٥هـ وكان بها مع الجنيد بن عبد الرحمن مترجماً له ، فلما عزل الجنيد قدم بكر الكوفة ومعه أربع لبنات من فضة ولبنة من ذهب ، فلقى أبا عكرمة الصادق وميسرة وغيرهما فذكروا له دعوة بنى هاشم فقبلها وأنفق ما معه عليهم وعلى الدعوة ، واتصل بمحمد بن على ، ولما مات ميسرة عيّن محمدُ بن على بكرَ بن ماهان مكانه بالكوفة كما ذكرنا .

وكان بكر بن ماهان قد زوج ابنته من حفص بن سليمان المعروف بأبى سلمة الخلال ، فلما مرض بكر وحضرته الوفاة أيام ابراهيم الإمام كتب بكر الى ابراهيم يقول :

إنه كتب فى أول يوم من أيام الآخرة ، وآخر يوم من أيام الدنيا ، أنه استخلف حفص بن سليمان .

فاستجاب ابراهيم لرأى بكر وكتب الى أبى سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه ، وكتب الى أهل خراسان أنه قد أسند أمر الكوفة إليه [٢] ، وعندما توالت الانتصارات للخراسانيين وأصبح واضحا أن الفوز للهاشميين، صار أبو سلمة يلقب « وزير آل محمد » وكان أبو مسلم يكاتبه : للأمير حفص بن سليمان وزير آل محمد من عبد الرحمن بن مسلم أمير آل محمد [٣] .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الوزير أخذ لقب الوزارة قبل أن يأخذ زعماء الحميمة لقب الخلافة .

---

(١) تاريخ الامم والملوك جـ ٥ ص ٣٧٦ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٥ .

خراســــان :

اتخذ الدعوة بخراسان طريقين ، الطريق الأول هو اتصال شيوخ الحميمة بمشايخ خراسان ودهاقينها ممن عرف عنهم الميل لآل البيت والسخط على أفعال بنى أمية ، وكان كثير من هؤلاء يستجيبون للدعوة سراً [١] .

أما الطريق الثانى فهو الدعاة الذين كانوا يرسلون الى خراسان فى ثوب تجار غالبا ، ومن أشهر دعاة العباسيين بخراسان سليمان بن كثير ، وكان الدعاة يعرفون إمام العصر ولكنهم لا يذكرونه باسمه للناس وإنما يكتفون بالحديث عن وصفه وأنه الرضا من آل محمد .

وكان لكل داعية اثنا عشر نقيبا يختارهم بنفسه أو يعينهم إمــام الحميمة له ، دون أن يتصل بهم الإمام ، ولهذا لم يكن النقباء يعرفون إمام العصر ، وكان هذا من أبرز الفروق بين الدعاة والنقباء ، وكان لكل نقيب مجموعة من الأتباع أو المريدين يصل عددهم الى سبعين ، ولهؤلاء المريدين مجموعاتهم كذلك التى تنتشر فى خلايا سرية تعم كل جهــات خراســــان .

وكانت أبرز الشعارات التى يتحدث بها الدعاة والنقباء هى المساواة بين العرب وغير العرب ، وفضل آل البيت ، وحقهم فى الإمامة ، كما كانــوا يبرزون أخطاء الأمويين ويصورونهم حكاما دينيويين لا يهتمون بالإسلام وروحه وفلسفته .

وكان أهل خراسان يتسترون على دعاة الشيعة ويساعدونهم مادياً وأدبياً ، وحدث أحياناً أن انكشف أمر هؤلاء الدعاة وبخاصة فى عهد أسد بن عبد الله القسرى [٢] الذى أنزل بهم صوراً من التنكيل والعقاب بلغت القتل

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٢١ — ١٢٣ .

(٢) تولى امارة خراسان مرتين . عزل فى الاولى سنة ١٠٩ هـ ثم تولى سنة ١١٧ هـ وظل حتى مات سنة ١٢٠ هـ وهو أقسى ولاة خرسان على الشيعة ، وكان هؤلاء يأتونه من الناحية القبلية ، فيزعمون له أنهم يمنيون مثله ، وأن الذين يتهمونهم بالتشيع انما هم المضرية أعداؤه وأعداؤهم ، وقالوا له : ان المضرية يريدون أن يثأروا منــا لموقفنا العدائى من مسلم بن قتيبة الذى ولى خراسان بين سنتى ١٠٩ — ١١٧ .

أحياناً ، ولكن الخراسانيين سرعان ما تستروا على من أخذ مكانهم من الدعاة والنقباء الجدد .

وعن طريق هذا التنظيم أصبحت أرجاء خراسان تموج بالسخط على البيت الأموى الحاكم وتدين بالولاء لآل البيت ، وفى سنة ١٢٧هـ قرر زعماء الحميمة أن يخطوا نحو أهدافهم خطوة كبيرة ، وأن ينتقلوا بالقضية من الدعوة إلى العمل ، فاختاروا بطلا عسكريا وداهية من أعظم الدهاة فى التاريخ ، ذلك هو أبو مسلم الخراسانى ليقود المناضلين من أهل خراسان ضد الأمويين ، وقد تجمع مع أبى مسلم جموع المستجيبين للدعوة الجديدة ، ولقى أبو مسلم زعماءهم حيث هتف فيهم :

أشعروا قلوبكم الجراءة فانها من أسباب الظفر ، وأكثروا ذكر الضغائن فانها تبعث على الإقدام ، والزموا الطاعة فانها حصن المحارب [(١)] .

وعقد لقواده الألوية وهو يتلو قوله تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) [(٢)] .

وبدأ أبو مسلم كفاحه العنيف الناجح [(٣)] .

والذى يتحتم أن نبرزه هنا هو أن أبا مسلم كان داهية من دهاة السياسة ، فوق شجاعته ونبوغه فى الحروب وميادين القتال ، وحنكته السياسية ومقدرته على حياكة المؤامرات والدسائس ، كانت من أهم ما ضمن له النصر فى هذا العراك الطويل ، ونسوق لذلك مثالين ذكرهما ابن الأثير ، قال :

لما وصل أبو مسلم خراسان جس نبض رجاله ، ودرس الأحوال

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ١٥٨ .
(٢) سورة الحج الاية رقم ٣٩ .
(٣) ابن الاثير جـ ٥ ص ١٣٣ .

هناك ، فأدرك أنه يستطيع أن يبدأ العمل بكثير من الأمل ، فأعد عدته ونظم عسكره وحصن موقعه ، ثم كتب الى نصر بن سيار عامل الأمويين على خراسان كتابا قال فيه :

من أبى مسلم الى نصر بن سيار ، أما بعد : فان الله تباركت أسماؤه ، وتعالى ذكره ، عيَّر أقواما فى القرآن فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ، استكباراً فى الأرض ومكر السيىء ، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة تحويلا) (١) •

وقد كبُر على نصر أن يتلقى كتابا كهذا من أبى مسلم ، يهدد فيه ، ويبدأ بنفسه ، وكان جواب نصر أن وجه الى أبى مسلم جيشا عظيما بقيادة مولى له اسمه يزيد ، فقابله جيش أبى مسلم بقيادة مالك بن الهيثم الخزاعى ، ووضع أبو مسلم فى هذا الجيش صناديد رجاله ، وعرّفهم أن هذه أول معركة ، وعليها يتوقف مستقبل الدعوة الناشئة ، وبقى أبو مسلم ينظر عن كثب الى المعركة وهى تدور ، وكان مستعدا أن يدفع إليها أبطالا جددا إذا دعت الحاجة ، ولكن انتظار أبى مسلم لم يطل فقد انهزم الجيش الأموى ، وأُسِرَ قائده يزيد بعد أن جرح ، فأكرمه أبو مسلم ، وأنزله منزلا حسناً ، وأمر بمداواته حتى يبرأ ، ثم خيَّره بين البقاء معهم داخلا فى دعوتهم ، وبين الرجوع الى نصر على أن يعطى عهد الله وميثاقه ألا يحاربهم ، ولا يكذب عليهم ، وأن يقول فيهم ما رأى ، فاختار الرجوع الى مولاه وأعطى ذلك العهد ، وقال أبو مسلم لمن معه : إن هذا سيرد عنكم أهل الورع وسيفيدكم فائدة كبيرة ، فلما قدم يزيد على نصر قال له نصر : لا مرحبا بك ، والله ما ظننت القوم استبقوك إلا ليتخذوك حجة علينا ، فقال يزيد :

---

(١) سورة فاطر الايتان ٤٢ ، ٤٣ .

هو والله مـــا ظننت وقد استحلفونى ألا أكذب عليهم ، وأنا أقول إنهم يصلون الصـــلاة لمواقيتها بأذان وإقامة ، ويتلون كتاب الله ، ويذكرون الله كثيرا ، ويدعون الى ولاية رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، ومـــا أظن أمرهم إلا سيعلو ، ولولا أنك مولاى ، اعتقتنى من الرق ، ما رجعت إليك ، ولأقمت معهم (١) •

وقد صدق حدس أبى مسلم ، وصدق مـــا توقعه نصر ،فقد كان ذلك الحادث فتحاً جديداً ، سبب انهيـــال الوفود على أبى مسلم ، كمـــا سبب ألوانا من التراجع فى صفوف نصر ، إذ كان الأمويون يذيعون أن هـــذه حركة مجوسية تسعى للقضاء على الاسلام وعلى النظام •

أمـــا المثال الثانى فهو مقدرة أبى مسلم الفائقة على استغلال العصبية القبلية فى خراسان ،وقد كان العرب هناك متنافرين متحاربين ، فهنـــاك اليمنيون يقودهم جديع بن شعيب المعروف بالكرمانى ثم ابنـــه على من بعده • أمـــا النزاريون فقد انقسموا جبهتين : يقـــود شيبان الحرورى جبهـــة ربيعة ، وتدين مضر لنصر بن سيار الوالى الأموى ، والعجيب أن القوم أدركوا أن دعوة أبى مسلم خطر عليهم جميعـــا ، ولذلك فكروا فى نزع الخلافات التى بينهم ، ووقف الحروب المشتعلة ولو مؤقتـــاً ، ليتفرغ نصر بن سيار وحده أو بمساعدتهم لمحـــاربة أبى مسلم العـــدو المشترك ، ولكن أبا مسلم كان يقظا كبير الفطنة ، ففرق بينهم كلمـــا أوشك شملهم أن يجتمع ، وأوغر صدور طائفة على الأخرى ، وأثار الموتور منهم أن يطلب بالثأر من واتره، فضمن بذلك أن يظل الخلاف بين قبائل العرب ، وأكثر من ذلك ، فقد تعـــاون مع فريق منهم وهم اليمنيون ليحارب مضر ، واجتمع ضـــد نصر جيش أبى مسلم وجيش على بن الكرمانى وكان جيش

---

(١) ابن الاثير جـ ٥ ص ١٣٤ •

الكرمانى أسبق الى الاشتباك بجيش نصر ، وتأخر جيش أبى مسلم قصدا •
وبينمـا كانت الحرب دائرة بين نصر وعلى بن الكرمانى كان جيش أبى مسلم يتسوّر « مرو » ويزحف الى دار الامارة وأبو مسلم يتلو قوله تعالى (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيهـا رجلين يقتتلان : هـذا من شيعته ، وهذا من عدوه) (١) •

وهرب نصر بعد هزيمته فى هـذه الموقعة الفاصلة ، ثم تخلص أبو مسلم من زعمـاء اليمنيين • وقد كان منذ حين حليفاً لهم ، وواصل زحفه بعد ذلك حتى دانت له خراسان كلها (٢) •

وتقتضينا الأمانة التاريخية أن نقرر أن نصر بن سيار كان ذكيا واعيا ، بذل غاية الجهـد فى الوقوف أمام أبى مسلم وصـد تياره ، ولكن الظروف كلهـا كانت تسير على غير مـا يهوى ومـا يرسم ، ذكر المسعودى وغيره من المؤرخين كتباً ثلاثة أرسل بهـا نصر يستنجد ، ويصور الحالة التى تحيط به ، وفى كل كتاب من هـذه الكتب مقطوعة من الشـعر ، كأنه أرادها سجلا ، أكثر من النثر خلوداً ، وأفصح تعبيراً •. وكان كتـابه الأول الى مروان الخليفة يستنجد به ويستمد منه العون ، وقد ضمنه الأبيات الآتية :

أرى بين الرمـاد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان لم يطفها عقـلاء قوم	يكون وقودَها جثثٌ وهـام
فان النـار بالعودَيْن تذكى	وإن الحرب أولهـا كلام
أقولُ من التعجب ليت شعرى	أأيقـاظ أميـة أم نيـام
فان يك قومنا أضحوا نيامـا	فقلْ : قوموا فقد حان القيام

ولكن مروان كان مشتغلا بحروب الخوارج بالجزيرة ، وبحربه مع نُعيم بن ثابت بالشـام ، وبغير هذين من الفتن ، فكتب الى نصر يقول :

---

(١) سورة القصص : الاية رقم ١٥ .
(٢) ابن الاثير جـ ٥ ص ٢٤١ وما بعدها .

« إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب . فاحسم أنت هذا الداء الذى ظهر عندك » (١) .

أما الكتاب الثانى فقد وجهه نصر الى يزيد بن عمر بن هبيرة عامل مروان على العراق ، يستمد منه العون ويسأله النصرة ، وقد ضمنه أبياتاً من الشعر يسجل فيها أن الشر الذى نبت فى خراسان سيصل الى العراق ، إن لم يتعاون الجميع على كبحه والإجهاز عليه ، وفيما يلى هذه المقطوعة الشعرية :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه
وقد تبينتُ ألاَّ خير فى الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها
بيْضاً لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت
لمّا يَطرن ، وقد سُربلن بالزَّغَب
فان يَطِرْنَ ولم يُحتَل لهن بها
يُلهِبْن نيران حرب أيما لهب

... لكن نصراً لم يتلق أى عون من يزيد الذى تشاغل بدفع فتن العراق (٢) .

أما الكتاب الثالث فقد كان الى مروان الخليفة ، وقد أرسله نصر بعد أن هزم فى خراسان وغادرها وقد ذكر فى هذا الكتاب أن هذا الأمر الذى أزعجه سينمو حتى يملأ البلاد ، وضمن كتابه هذه الأبيات الشعرية :

إنّا وما نكتم من أمرنا	كالثور إذ قرّب للناخع
أو كالتى يحسبها أهلُها	عذراء بكراً وهى فى التاسع

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠٢ .
(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٠٢ .

كنا نرقعها فقد مزقت ... واتسع الخرق على الراقع
كالثوب إذ أنهج فيه البلى ... أعيا على ذى الحيلة الصانع(١)

وقد نزل نصر بعد أن ترك خراسان (سادة) من بلاد همدان والرى فمات بها كمداً (٢) .

وكانت انتفاضة خراسان على الدولة الأموية وخضوعها للعباسيين مطلعاً رائعاً لانتصارات الهاشميين ، قوى بعده جانبهم وعزت كلمتهم ، ثم سارت الجيوش والفرق من خراسان تغزو وتنتصر ، حتى وصلت العراق حيث اصطدمت ببطل من أبطال العرب هو يزيد بن عمر بن هبيرة وسيأتى ذكره فيما بعد ، وقد دافع يزيد وأعوانه عن العراق بشجاعة نادرة ، ولكنه اضطر أخيراً أن يخلى الكوفة عاصمته وأن يلجأ الى واسط التى كان لها سور قوى حيث تحصن بها حتى قتل مروان كما سنذكر فيما بعد .

وكان أبو مسلم يتطلع الى النصر الذى أحرزه فيطرب وينشد :

أدركت بالعزم والكتمان ما عجزت
عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى بجهدى فى دمارهم
والقوم فى غفلة بالشام وقد رقدوا
حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا
من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما فى أرض مسبعة
ونام عنها تولى رعيها الأسد (٣)

الانتصار والتقاء مراكز المحور :

تم انتصار أبى مسلم فى خراسان ، وأصبح الأمر كله فيها اليه ، فبقى هو فى خراسان أميراً لها . وبعث جيوشه بقيادة قحطبة بن شبيب

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠٤ .
(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٠٤ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٨٢ .

الطائى لمواصلة الزحف تجاه العراق ، وقد سار هذا يحقق نصرا تلو نصر حتى وصل الكوفة .

ومن الطريف أن الكوفة التى أنشئت لتكون نقطة اتصال بين خراسان والحميمة ، أصبحت فى أوائل سنة ١٣٢هـ نقطة الالتقاء بين الجيوش الزاحفة من خراسان والهاتفة لآل البيت ، وبين آل البيت النازحين من الحميمة ، أو قل الهاربين منها . وأصبح أبو سلمة نفسه نقطة الاتصال ، فلقد سارت الجيوش الموالية للهاشمين الى الكوفة ، بعد أن ظهرت انتصاراتها على ابن هبيرة فى العراق ، فألجأته الى إخلاء الكوفة ، والتحصن بواسط ، فلما وصلت هذه الجيوش الكوفة لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ١٣٢هـ ، أظهروا أبا سلمة وسلموا اليه الرياسة ، وحوالى ذلك التاريخ وصل الكوفة سرا ركب الهاشميين القادم من الحميمة حيث وضعوا مقاليد أمورهم فى يد أبى سلمة ، وقد أنزلهم هذا فى دار الوليد ابن سعد الجمال مولى بنى هاشم وتولى خدمتهم بنفسه ، وكتم أمرهم (١) .

وهكذا أصبح الأمر كله فى يدى أبى سلمة ، ولذلك سنخصه فى الصفحات التالية بحديث شامل لنرى كيف تصرف ولنرى بالتالى بزوغ مجد بنى العباس .

أبو سلمة الخلال

هو حفص بن سليمان ، وسمى الخلال نسبة الى خِلَل السيوف وهى أغمادها ، فقد كان يعملها . وكانت العرب تسمى من يعملها الخلال (٢) ، وقيل أنه سمى الخلال نسبة الى الخل فقد كانت له حوانيت يعمل فيها الخل (٣)

(١) الجهشارى ص ٨٥ والفخرى ص ١٢٤ .
(٢) الجهشيارى : ص ٨٤ .
(٣) الفخرى ص ١٣١ .

ولأبى سلمة ولصهره بكر بن ماهان من قبلـه نصيب كبير فى إقامة الدولة العباسية . فقد كان أبو سلمة عالما بالسياسة والتدبير ، ذا غنى ويسار ، حسن التصرف فيما يعترض الدعوة من مشكلات ، كما كان ينفق ماله بسخاء من أجل الدعوة وعلى رجالها ، وكان مركزه الكوفة نقطة الاتصال بين الحميمة وخراسان ، كما سبق القول ، ولكنه كان ينتقل كثيرا الى خراسان للإشراف على تقدم الدعوة ونجاحها ، ومن هنا يجب أن نعترف بفضل هذا الرجل فى الوصول بالدعوة الجديدة الى هذا النجاح العظيم .

ولما زحفت جيوش الخراسانيين من نصر الى نصر ، ووصلت الكوفة ، أظهر قوادها أبا سلمة ، وسلموا اليه الرئاسة ، وفى نفس الوقت تقريبا وصل الكوفة بنو العباس النازحون من الحميمة كما قلنا وسلموا زمام أمرهم الى أبى سلمة ، ولم يكن الزاحفون من خراسان يعرفون خبر وصول بنى العباس من الحميمة الى الكوفة ، ولا كان النازحون من الحميمة يعرفون أن أتباعهم بخراسان وصلوا بزحفهم الى الكوفة ، وكان أبو سلمة وخاصة خلصائه هم الذين يعرفون ذلك .

كيف تصرف أبو سلمة ؟

هل كان مخلصا اختلط عليه الأمر فتعثر ؟

هل خان الأمانة التى وضعها بنو العباس فى يده ؟

هل كان مخدوعا مع المخدوعين فظن أن الأمر حقا للرضا من آل محمد فحاول أن يختار هو الرضا من آل محمد ؟

هل كان انانيا فأراد أن يبقى الأمر فى يده ويعين خليفة من العلويين يحس دائما أنه مدين بمنصبه لأبى سلمة ؟

تعال بنا لنرى :

يروى أن وزير آل محمد فكر فيمن يسند له الخلافة ، فهداه

تفكيره — على ما يقال — الى ثلاثة من أعيان العلويين هم جعفر الصادق ، وعبد الله المحض بن الحسن بن على ، وعمر الأشراف بن زين العابدين ، فأرسل إليهم كتبا مع رجل من مواليهم ، وقال له : اقصِدْ أولا جعفر الصادق ، فان أجاب فأبطل الكتابين الآخرين ، وإن لم يُجِبْ فالقَ عبد الله المحض ، فان أجاب فأبطل كتاب عمر ، وإن لم يجب فالْقَ عمر . فذهب الرسول الى جعفر الصادق أولا ودفع اليــه كتاب أبى سلمة ، فقال جعفر : مالى ولأبى سلمة وهو شيعة لغيرى ؟ فقال له الرسول : اقرأ الكتاب . فقــال الصادق لخــادمه : أَدْنِ السراج منى ، فأدناه . فوضــع الكتاب على النار حتى احترق ، فقال الرسول ألا تجيبه ؟فقال : قد رأيت الجواب . ثم مضى الرسول الى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبّله ، وركب فى الحــال الى الصادق وقال : هــذا كتاب أبى سلمة يدعونى فيــه الى الخلافة ، قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهــل خراسان . فقال له الصادق : ومتى صار أهل خراسان شيعتك ، أأنت وجهت إليهم أبا مسلم ، هل تعرف أحدا منهم باسمه أو بصــورته ؟ وكيف يكونون شيعتك وأنت لاتعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبد الله : هــذا الكلام منك لشىء . فقــال الصادق : قد علم الله أنى أوجِب النصح على نفسى لكل مسلم ، فكيف أدخره عنك ؟ فلا تُمَنِّ نفسك بالأباطيل ، فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء . وقد جاءنى مثل الكتاب الذى جاءك . فانصرف عبد الله من عنده وقد عدل عن الاستجابة لدعوة أبى سلمة . وأمــا عمر الأشرف بن زين العابدين فانه رد الكتاب وقال : أنا لا أعرف صــاحبه فأجيبه (١) .

كان هــذا يجرى والسفاح وذووه يقيمون بالكوفة دون أن يعرف أحد من خبرهم شيئا سوى أبى سلمة وخاصة خدمة كمــا قلنا ، وكانت

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٦ والفخرى ص ١٣٢ .

جيوش الخراسانيين تعسكر فى ذلك الوقت بظاهر الكوفة بحمام أعيَن[1] ، واستمر الحال على ذلك نحوا من أربعين يوما ، فسأل الخراسانيون أبا سلمة عن الامام فأجاب : لا تعجلوا ، ليس هذا وقت خروجه لأن واسطا لم تفتتح بعد[2] .

ثم حدث بعد ذلك أنْ خرج أحد قادة الخراسانيين واسمه محمد بن ابراهيم الحميدى ، وكنيته : أبو حميد السمرقندى ، يريد الكناسة فلقى سابقا الخوارزمى ، وهو غلام كانوا أهدوه لإبراهيم الإمام ، فسأله أبو حميد عن الخبر ، فأخبره أن ابراهيم الإمام قد قتله مروان ، وأنه أوصى قبل مقتله الى أخيه أبى العباس واستخلفه من بعده ، وأنه قدم الكوفة ومعه عامة أهل بيته . فسار معه أبو حميد حتى دخل على القوم فعزّاهم فى ابراهيم الإمام وسأل عن ابن الحارثية ، فأشاروا الى أبى العباس ، فسلم عليه بالخلافة ، وقبّل يده ورجله وبايعه ، وخرج فأعلم جماعة من القواد المرابطين بظاهر الكوفة بحمام أعين ، فاستقر رأيهم على المضى الى أبى العباس ومبايعته ، فخرجوا اليه ، فلما عرف أبو سلمة هذا ركب فى أصحابه الى أبى العباس ، فأُغلق البابُ دونه ، فاستفتح أصحاب أبى سلمة الباب ، وقالوا : وزير آل محمد ، فأسمعه مَنْ بالداخل بعض ما يكره ثم أدخلوه ، فاستقبل القبلة فسلّم ثم سجد ، وقبّل يد أبى العباس وقدميه ، وبدأ فى الاعتذار ، فقال أبو العباس : عذرناك يا أبا سلمة ، غيرَ متفنّد ، وحقك لدينا معظّم ، وسابقتك فى دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة ، انصرف الى معسكرك لا يدخله خلل فانصرف الى معسكره بحمام أعين[3] .

ولكن الحقيقة أن أبا العباس قال هذا وهو يضمر غيره ، فلم تكن زلة أبى سلمة مغفورة لديه . ولكن أبا العباس كان لا يزال فى حاجة الى تأييد أبى سلمة ومناصرته ، ومن هنا قال هذا القول وهو يخفى سواه .

---

(١) مكان بالكوفة منسوب الى أعين ، مولى سعد بن أبى وقاص .
(٢) ابن الاثير ٥ : ١٥٣ .
(٣) الطبرى ٩ : ١٣٥ ، والجهشيارى ٨٦ — ٨٧ ، وابن الاثير ٥ : ١٥٣ .

خرج أبو العباس بعد هذا الى المسجد ، وخطب الناس وأخذ بيعتهم ، ووزع أهله وذويه على الجيوش المحاربة فى الميادين المختلفة ، كمــا ولى خاصته الإمارة على البلاد التى دانت لهم ، ثم التفت بعد ذلك الى أبى سلمة ليأتمر به انتقاما منــه لمــا اقترف ، فقد كان جهد بنى العباس الطويل على وشك أن يضيع بسبب تصرف أبى سلمة وخيانته •

ولكن أبا العباس حينما همّ بأبى سلمة قال له داود بن على : لا آمن عليك أبا مسلم — إن فعلت — أن يستوحش ، ولكن اكتب اليه فعرفه ما كان من أبى سلمة ، فكتب أبو العباس الى أبى مسلم يُعْلِمُه بمــا عزم عليه أبو سلمة من نقل الدولة عنهم وختم خطابه لــه بقوله : إننى قد وهبت جرمه لك • ولكن باطن الكتاب كان يفيد حثّ أبى مســلم على قتل أبى سلمة ، فلما قرأ أبو مسلم الكتاب ، فَطِنَ لغرض السفاح ، فوجه بالمرّار ابن أنس الضبى ومعه قــوم من أهل خراســان لقتل أبى سلمة فلمــا وافى المرار ومن معــه ، أمر السفاح منادياً ينــادى بالكوفة : إن أمير المؤمنين قد رضى عن أبى سلمة ، ثم دعاه قبل مقتله بيوم واحد فخلع عليــه ، ثم دعاه فى الليلة التالية فسهر معــه عامة ليله ، فلمــا انصرف أبو سلمة الى منزله ، اعترضه المرّار بن أنس وأصحابه فقتلوه • وأُغلِقَت أبواب المدينة ، وقيل لأبى العباس : إن أبا سلمة قتله الخوارج • فقال لليدين والفم (١) •

وكان مقتل أبى سلمة فى رجب سنة ١٣٢هـ (٢)

---

(١) دعاء بالسوء ومعناه كبه الله حتى يسقط على يديه وفمه •

(٢) انظر لذلك الموضوع : الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٩٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ٥ — ١٦٣ — ١٦٤ ، وابن خلكان : الوفيات ١ — ١٦٣ ، وابن خلدون : العبر ٣ : ١٧٦ وابن طباطبا : الفخرى ص ١٣٣ •

قضية ابى سلمة فى الميزان :

بقيت لى كلمة عن ذلك الموضوع أحاول أن أنصف بهـا الحق ، ويجدر بى قبل أن ألقى بهـذه الكلمه ان أوضح أن تلك الكلمة أو هـذا الرأى إنمـا هو من قبيل ما يعرف فى المناهج التاريخية بفلسفة التاريخ ، وإذا كانت أحداث التاريخ لا تتغير فان فلسفة التاريخ أو بعبـارة اخرى التعليق على أحداث التاريخ يمكن أن يتغير ، وعلى هـذا فإن من الطبيعى أن يختلف مؤرخ عن مؤرخ فى وجهة النظر بالنسـبة لحدث من الأحداث التاريخية ، بل إن المؤرخ الواحد قد يبدى اليوم رأيا فى موضوع ، ثم يبدى غدا سواه نتيجة معلومات جديدة تصـل اليه أو فكرة تخطر بباله •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن حكمنا على شخص مـا بأنه مدين ليس معنـاه أنه يستحق القتل بالنسبة للقانون الاسلامى ، فالحكم بالقتل فى التشريع الاسلامى له قواعده وأسبابه (١) ، ولكن دنيـا السياسة تختط لهـا على مسئوليتها مـا تراه ، وكل مـا يعنينا هنا هو أن نقرر أن هذا الشخص فى رأينا مدين أو برىء ، أما عقوبة المدين فقد قضى بهـا الخلفـاء على مسئوليتهم ، وكان بعضـهم يدافع عن رأيه بأنه يريق دم فرد ليضمن السلامة للألوف الذين سوف تأكلهم نار الحرب لو نجح هذا الرجل فى إعلان ثورته ، وسيكون هؤلاء الضحايا من أتباعه ومن معارضيه •

ولنعد إلى موضوعنا لنعرض رأينا فى أبى سلمة الخلال :

يؤخذ كثير من الناس بالدور الضخم الذى لعبه أبو سلمة الخلال فى الكوفة ، بل يزلقون قصداً فيذكرون أنه لعب دورا كبيرا فى قيـام الدولة العباسية ، ومن أجل هـذا يتلمسون الوسائل للدفاع عنه •

وهناك كذلك من يشكك فى الاتهـام الذى نسب الى أبى سـلمة

---

(١) فى الحديث الشريف لا يحل دم المسلم الا لثلاث : المرتد ، والقاتل عمدا ، والزانى المحصن •

بمحاولته تحويل نتائج الدعوة للعلويين ، ويعتمد هؤلاء على مـا جاء فى رواية ابن خلكان (١) ونصها « إن القوم توهموا من أبى سلمة أنه مال الى العلويين » •

وهناك أيضا من يرى إمكان أن يكون ابو سلمة كتب للعلويين لأنه خُدِعَ فى فهم دعوة الحميمة التى كانت تسـير باسم الرضا من آل محمد كمـا كان زعمـاء الحميمة أنفسهم يعلنون ذلك • فلمـا نجحت الدعوة وجد أبو سلمة — وهو وزير آل محمد — أن من واجبه أن يعين الخليفة ، وهداه تفكيره إلى أن العلويين أَوْلى بالخلافة مِنْ سواهم ، إذ قامت الدعوة الجديدة متصلة بكفاحهم ، واستغلت رفاتهم وضحاياهم ثم هم أكثر شهرة بين الناس ، وتعرفهم الجماهير أكثر مما يعرفون بنى العباس •

ويتساءل آخرون : ألم يكن من الأوفق أن يُغْفَرَ هـذا الخطأ لأبى سلمةَ — عَلَى فرض التسليم بالخطأ — كِفاءَ جهاده الطويل ، وكفاحه المرير ، وثروته العريضة التى أنفقها من أجل الدعوة ونجاحها ؟

ونجيب على وجهات النظر هـذه بالترتيب :

أمـا القول بأن أبا سلمة لعب دورا كبيراً فى قيـام الدعوة العباسية فهو خطأ كبير ندعو القائلين بـه لتصحيح أنفسهم وتمحيص آرائهم ، فلا شك أنه لعب دورا كبيراً ولكن ضد بنى أُمَيَّةَ ، أَمَّا فيما يتعلقُ بقيام الدولة العباسية فهو شىء تمّ من وراء ظهره كما سبق البيانُ ، وأبو سلمة أجدر أن يُتَّهم بمقـاومة قيام دولة بنى العبـاسِ مِنْ أنْ يُنْسَبَ اليه العملُ لقيامها •

أمـا رواية ابن خلكان التى تشكك فى اتهـام أبى سلمة بالرغبة فى تحويل الخلافة الى العلويين فهى رواية لا يمكن الأخذ بهـا ، إذ من الثابت

---

(١) وفيات الاعيان ١ : ١٦٣ .

أن أبا سلمة احتجز القادمين من الحميمة طيلة أربعين يومــا ، دون أن يخطو للأمام أية خطوة نحو إظهار الإمام علويا أو غير علوى أو حتى نحو السير بالأعمــال الحربية تجاه نصر جديد ، ولم يذع خبر قدوم بنى العباس الى الكوفة ، وتركهم فى شبه سجن كان هو وحده المتصرف فيه .

أما القول بأن أبا سلمة كتب للعلويين لأنه خُدع فى دعوة الحميمة ، فذلك شيء إن جاز على الجماهير فلا يجوز على القادة والوزراء ، وهل كان أبو سلمة يظن أن بنى العباس يضعون الخطط ويبثون الدعاة ، ويشعلون الثورة ، فإن فشلت الحركة أو ظهر خلل فيها قدموا دماءهم فداء لذلك كما حدث لإبراهيم الإمام ، وان نجحت الخطة سلموها لقمة سائغة إلى العلويين الذين لم يسهموا فى هذا النضال الطويل بقليل من الجهد أو كثير ؟ هل كان أبو سلمة يظن ذلك ؟ وهل لمثل أبى سلمة وضع التمويه الذى لجأ له قادة الحميمة ؟

وأخيراً هل مثل هذه الزلة يعفى عنها فى عالم السياسة ؟ الإجابة بالنفى فيما أرى وفى كلّ أو جلّ ما يرويه التاريخ مــن أحداث مماثلة ، أمــا العقوبة فمن الممكن أن تختلف ، ونرى فى الأحداث المماثلة من لجأ إلى القتل أو اتجه الى السجن أو اكتفى بالعزل حسب الظروف والأحوال .

ذلك كان انحراف أول وزير لدولة بنى العباس ، وتلك كانت نهايته .

نهاية بنى أميـــة

أعلنت الخلافة العباسية بالكوفة كما سبق القول ، ونريد هنـــا أن نقول إنه عقب اعلان خلافة بنى العباس بقى على العباسيين أن يتغلبوا على قوتين كبيرتين لبنى أمية ، إحداهما يقودها الخليفة الأموى مروان بن محمد ومقرها الجزيرة ، والثانية يقودها زيد بن عمر بن هبيرة ومقرهـــا واسط ، وطبيعى أن تتجـــه الجهود أولا للخليفة الأموى ، فخلافـــة بنى العباس لن تتوطد دعامتها حتى يسقط هذا الخليفة .

معركة الزاب ومقتل مروان :

دفع أبو العباس خيرة جنده لمواجهة مروان ، وولى أبو العبـــاس عمه عبد الله بن على قيادة هذا الجيش وكان مع مروان جيش كبير من أهل الشام ، يقدره المؤرخون بمائة وعشرين ألف مقاتل (١) ، ومع هذا فلم يكن من الممكن أن يحقق هذا الجيش النصر لقائده بسبب الظروف التى كانت محيطة بالموقف ، فدولة ناشئة قوية يدفعها نصر إلى نصر ، وروحها المعنوية قوية جياشة ، ودولة تغرب شمسها وتلاحقها الهزائم ، قلّ أمل ذويها فى النصر ، وضعضعت الانكسارات نفوسهم .

والتقى الجيشان على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة من جهة الشرق ، وكانت معركة شديدة حامية ، فيها العدد والذخيرة مع مروان ، وفيهـــا العزيمة والاصرار مع عبد الله بن على ، وهيهـــات أن يجدى عدد أو عتاد إذا تهاوت الروح المعنوية وضعف الإيمان بالمستقبل ،

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك جـ ٣ ص ٤٧ وابن طباطبا ص ١٢٥ .

وهكذا انتصر بنو العباس وانحدر جيش مروان واحتوى عبد الله بن على عسكره ، وكانت موقعة الزاب موقعة فاصلة ، لم يستطع مروان بعدها أن يلم شعث جنده أو أن يقف فى وجه الجيش الزاحف الصاخب ، وفتحت بعدها أبواب الشام فأخذت البلاد الشامية تسقط واحدة بعد الأخرى حتى اكتمل النصر للعباسيين ، أما مروان بن محمد فقد انحدر الى حران فلحق به عبد الله بن على ، فسار الى قنسرين فحمص فدمشق ، وعبد الله يتابعه ويستولى على البلاد عنوة أو صلحاً ، واستمر مروان فى تقهقره فسار الى فلسطين فمصر ، أما عبد الله بن على فقد استقر بالشام وأرسل أخاه (صالح بن على) لمتابعة مروان الذى اتجه نحو مصر العليا ، ودارت المعركة الأخيرة بين فصيلة من جند العباسيين وبين مروان فى قرية « بوصير » بمركز الواسطى بمحافظة بنى سويف ، وقد خر مروان فى هذه المعركة ، فاجتز العباسيون رأسه وحملوه الى أبى العباس السفاح بالكوفة ، فلما رآه العباس سجد ثم رفع رأســه وقال : الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرنى بك ، لم يبق ثأرى قبلك .

وبموت مروان انتهى ملك بنى أمية وأصبح السفاح الخليفة الوحيد بالعالم الإسلامى (١) .

يزيد بن عمر بن هبيرة واستسلام واسط :

بعد سقوط مروان اتجهت قوى العباسيين إلى يزيد بن عمر بن هبيرة للقضاء عليه ، إذ أصبح يمثل آخر حصون الأمويين وقلاعهم ، ويزيد بطل من أبطال العرب ، وهو كما يقول ابن قتيبة (٢) أحد القواد القلائل الذين جمع تحت أمرهم العراقان (الكوفة والبصرة) . وكان شيخاً جسيما طويلا خطيبا شجاعا ، ظل يحارب العباسيين حتى بعد أن أعلنوا خلافتهم ،

---

(١) انظر معركة الزاب بالفخرى لابن طباطبا ص ١٢٥ — ١٢٧ .
(٢) المعــارف ص ١٤٩ .

ولم يثنه عن مداومة العـداء إلا قتل مروان بن محمد وانتهـاء حكم الأمويين ، وهكذا كانت واسط التى تحصن بها ابن هبيرة ، آخر حصن عزّ على العباسيين تسوّرُه ، وما دخلوه إلا صلحاً (١) ولنعد إلى المسألة بشىء من التفصيل ٠

لما دخل أبو مسلم الخراسانى مدينة مرو حاضرة خراسان سنة ١٣٠هـ أقام بها ووجّه قَحْطَبَة بن شبيب الطائى — وكان قد وفد عليه حديثاً من قِبَل إبراهيم الإمام — فى جيش من الخراسانيين لقتال جيوش الأمويين ، فواتاه النصر عليهم حتى بلغ العراق ، وكان يزيد بن عمر بن هبيرة والياً عليه ، فأراد قحطبة أن يعبر الفرات ليواصـل الضغط على ابن هبيرة ، ولكن معن بن زائدة الشيبانى أحد الأبطال العرب الذين كانوا فى ذلك الحين مع ابن هبيرة ضرب قحطبة ضربة أوقعته فى الماء فأغرقته ، وحينئذ تولى الحسن بن قحطبة قيادة جيش العباسيين مكان أبيه ، وواصل زحفه على جيش الأمويين ، فاضطر ابن هبيرة أن يُخلى الكوفة وأن يدخل مدينة واسط حيث تحصن بها تحصنا محكما ، استمر أحد عشر شهراً ، حتى جاءهم خبر مقتل مروان بن محمد ، أتاهم به اسماعيل بن عبد الله القسرى وقال لهم : علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان ؟ فجنحوا حينئذ الى الصلح (٢) ٠

ووجّه العباسيون قوتهم كلها نحـو واسط ؛ المعقل الأخـير لبنى أمية ، حيث تجمع خيرة الصناديد والأبطال العرب ، ولذلك أرسل أبـو العباس السفاح أخاه المنصور لمعاونة الحسن بن قحطبة ، وكتب أبـو

---

(١) ابن خلـكان ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، ابن الاثـير ج ١ ص ١٦٤ ومـا بعدها ٠
(٢) ابن الاثير ج ٥ ص ١٦٥ ٠

العباس الى الحسن يقول : إن العسكر عسكرك ، والقواد قوادك ، ولكنى أحببت أن يكون أخى حاضراً ، فاسمع له وأطع ، وأحسن مؤازرته ، فلما قدم أبو جعفر المنصور على الحسن تحول الحسن عن خيمته وأنزله فيها ، وكان الحسن هو المدبر لذلك العسكر بأمر المنصور (١) .

وقد أدرك المنصور قوة ابن هبيرة وأنصاره من أبطال العرب ، كما يئس ابن هبيرة من النصر بعد أن قتل مروان ودالت دولة الأمويين ، فجرت بينهما محادثات للصلح ، ولنشط السفراء بين الاثنين ، حتى جعل أبو جعفر لابن هبيرة أمانا ، وكتب به كتاباً ، مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ، فأنفذه أبو جعفر الى أخيه السفاح ، فأمر بامضائه . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن على أبى جعفر وولى أمر جيش المسلمين ، ليزيد بن عمر بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم فمدينة واسط وأراضيها من المسلمين والمعاهدين، انى أمنتكم بأمان الله الذى لا إله إلا هو، الذى يعلم سرائر العباد ، ويعلم ما تخفى الصدور ، واليه الأمر كله ، أماناً صادقاً لا يشوبه غش ، ولا يخالطه باطل ، على أنفسكم وذراريكم وأموالكم ، وأعطيت يزيد بن هبيرة ، ومن أمنته فى أعلى كتابى هذا الوفاء بما جعلت لهم من عهد الله وميثاقه الذى واثق به الأمم الماضية من خلقه ، وأخذ عليهم به أمره ، عهداً خالصاً مؤكداً ، وذمةِ الله (٢) وذمةِ محمد ، ومن مضى من خلفائه الصالحين ، وأسلافه الطيبين ، التى لا يسع العبادَ نقضها ، ولا تعطيلُ شىء منها ولا الاحتقار لها ، وبها قامت السموات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها ، تعظيما لها ، وبها حقنت الدماء . وذمة روح

---

(١) المرجع السابق .

(٢) معطوف على قوله تعالى فيما سبق « من عهد الله وميثاقه » .

الله وكلمته عيسى بن مريم وذمة ابراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، ويعقوب ، والأسباط ، وأعطيتك ما جعلت لك من هذه العهود والمواثيق ، ولمن معك من المسلمين وأهل الذمة ، بعد استئمارى فيما جعلت لك منه أمير المؤمنين ، أعز الله نصره ، فأمر بإنفاذه لكم ، فاطمئن الى ما جعلت لك من الأمان والعهود والمواثيق ، وثق بالله وبأمير المؤمنين فيما سلّم منه ورضى به ، وجعلته لك ولمن معك على نفسى ، ولك علىّ الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذمم أشد ما أخذ الله وحرّمه وما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيه محمد (ص) ، فانه جعله كتابا مبينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ونوراً وحجة على العباد ، حتى ألقى الله وأنا عليه . وأنا أشهد الله وملائكته ورسله ، ومن قرىء عليه كتابى هذا من المسلمين والمعاهدين بقبول هذه العهود والمواثيق ، واقرارى بها على نفسى ، وتوكيدى فيها ، وعلى تسليمى لك ما سألت ، لا يغادَر منها شىء ، ولا ينكث عليك فيها ، وأدخلت فى أمانك هذا جميع مَنْ قبلى من شيعة أمير المؤمنين من أهل خراسان ، ومن لأمير المؤمنين عليه طاعة من المسلمين وأهل الذمة ، وجعلت لك ألا ترى منى انقباضا ، ولا ازوراراً ، ولا شيئا تكرهه فى دخولك على الى مفارقتك اياى ، ولا ينال أحداً معك أمر يكرهه ، وأذنت لك ولهم فى المسير والمقام ، وجعلت لهم أمانا صحيحاً ، وعهداً وثيقاً ، وان عبد الله بن محمد [يعنى نفسه] إن نقض ما جعل لكم فى أمانكم هذا ، فنكث أو غدر بكم ، أو خالف إلى أمر تكرهه ، أو تابع على خلافه أحدا من المخلوقين فى سر أو علانية ، أو أضمر لك فى نفسه غير ما ظهر لك ، أو أدخل عليك شيئا فى أمانه ، وما ذكره من تسليم أمير المؤمنين ، التماسَ الخديعة والمكر بك ، والإدخال المكروه عليك ، أو نوى غير ما جعل لك من الوفاء به ، فلا قَبِلَ الله منه صرفاً ولا عدلا ، وهو برىء من محمد بن على ، وهو يخلع أمير المؤمنين ، ويتبرأ من طاعته ، وعليه ثلاثون حجة يمشيها من موضعه الذى هو به من مدينة

واسط الى بيت الله الحرام الذى بمكة حافياً راجلا ، وكل مملوك يملكه من اليوم الى ثلاثين حجة [سنة] بشراء أو هبة أحرار لوجه الله ، وكل امرأة له طالق ثلاثاً ، وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أو متاع أو دابة أو غير ذلك فهو صدقة على المساكين ، وهو يكفر بالله وبكتابه المنزل على نبيه ، والله عليه فيما وكد وجعل على نفسه فى هذه الأيمان راع وكفيل ، وكفى بالله شهيداً » (١) .

ذلك هو كتاب الأمان ، وقد أثبتناه كله ليرى القارىء ما فيه من قوة وتوكيد ، وأنه لم يدع ثغرة للغدر وعدم الوفاء ، ومع هذا فلنواصل سيرنا لنرى ماذا تم لابن هبيرة ورجاله بعد ذلك :

لما تم كتاب الأمان ألقى كل من المعسكرين السلاح ، وانتهى الهجوم والدفاع ، وخرج ابن هبيرة الى أبى جعفر فى ألف وثلثمائة ، فاستقبله الحاجب وأذن له وحده أن يدخل على المنصور ، وقضى معه ساعة ثم خرج وظل يتردد عليه يوماً بعد يوم فى خمسمائة فارس وثلثمائة راجل ، فقيل لأبى جعفر : إن ابن هبيرة يأتى فيتضعضع له العسكر ، وما نقص من سلطانه شىء ، فأمره أبو جعفر ألا يأتى الا فى حاشيته ، فكان يأتى فى ثلاثين ، ثم صار يأتى فى ثلاثة أو أربعة (٢) . وكلم ابن هبيرة المنصور أول ما اتصل به فقال : ان دولتكم هذه جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوتها . وجنبوهم مرارتها ، لتسرع محبتكم الى قلوبهم ، ويعذب ذكركم على ألسنتهم ، ومازلت منتظراً لهذه الدعوة ، فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه ، فنظر الى وجهه وباسطه بالقول حتى اطمأن قلبه ، فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه : عجباً لمن يأمرنى بقتل مثل هذا (٣) .

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١٦٣ — ١٦٦ .
(٢) ابن الاثير جـ ٥ ص ١٢٥ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٤٩ طبعة لجنة التاليف ، والمبرد : الكامل ١ : ١٤٤ .

ولا شك أن هذه الجملة الأخيرة تشير الى أن قوى مهمة كانت تدفع أبا جعفر المنصور للقضاء على ابن هبيرة ، ولكن اعجاب المنصور بالبطل العربى من جهة وحرصه على الوفاء بعهده من جهة أخرى جعلت المنصور يصمد فترة من الزمن فى وجه القوى التى تدفعه للفتك به ، بيد أن دوافع التخلص من ابن هبيرة تابعت وتكاثرت ، وكان أبو مسلم الخراسانى من أهم من أشاروا بقتله ، فقد كتب الى أبى العباس السفاح يقول : (إنه قل طريق سهل تلقى فيه حجارة إلا ضر ذلك بأهله ، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة) فكتب أبو العباس الى جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة وألح عليه فى ذلك ، فكتب المنصور اليه : « لا أفعل وله فى عنقى بيعة وأيمان » فكتب اليه أبو العباس « والله لتقتلنه أو لأبعثن اليك من يخرجه من عندك ويتولى ذلك عنك (١) . وازاء الاصرار نزل أبو جعفر على رأى السفاح ورأى أبى مسلم ودبر مؤامرة للقضاء على ابن هبيرة . وقد وصف ابن الأثير (٢) وابن خلكان (٣) هذه المؤامرة التى حيكت للتخلص من ابن هبيرة وهاك موجزاً لها :

بعث أبو جعفر من ختم بيوت المال فى واسط ، ثم بعث الى وجوه من مع ابن هبيرة من القيسية والمضرية فأحضرهم ، فأقبل محمد بن نباته ، وحوثرة بن سهيل فى اثنين وعشرين رجلا فخرج حاجب أبى جعفر ، واستدعى ابن نباتة وحوثرة فأدخلا حجرة دون حجرة أبى جعفر ، بها ثلاثة من خواص المنصور ومائة من رجاله . فلما دخل ابن نباتة وحوثرة نزعت سيوفهما وكتفا ، ثم أدخل بعدهما اثنان وفعل بهما كذلك ، وهكذا إلى أن نزعت سيوف الجميع وكتفوا فقال أحدهم : أعطيتمونا الأمان ثم خنتم ، إنا لنرجو أن يدمركم الله ، وقال آخر : كأننى كنت أنظر إلى هذا ، ثم قتل الجميع وأخذت خواتمهم ، ثم أرسل المنصور نحواً من مائة

---

(١) الامامة والسياسة ٢ : ١٦٧ وابن خلكان ٢ : ٣٦٨ .

(٣) الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٦٦ .

(٢) وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٣٩٦ .

من أشداء رجاله الى ابن هبيرة بحجـة أنهم يريدون نقل خـزائن بيت المال ، فقال ابن هبيرة لحاجبه : انطلق فدلهم عليها ، ولكنهم بدل أن يأخذوها بدءوا ينظرون هنا وهناك ليطمئنوا أنه ليست هناك قوة تدافع عن ابن هبيرة ، فأنكر ابن هبيرة وقال : أقسم بالله ان فى وجوه القوم لشراً ، وكان معه ابنه داود وكاتبه عمر بن أيوب ، وحاجبـه ، وعدة مواليه ، وابن له صغير فى حجرة ؛ فأقبل رسل أبى جعفر نحوه ، فقام حاجبه فى وجوههم ، فضربه أحدهم ضربة صرعته ، وقاتل ابنـه داود فقتل ، وقاتل الموالى حتى قتلوا ، ونحى ابن هبيرة ابنه الصغير من حجره ، وخر ساجداً ، فقتل وهو ساجد ، ومضوا برءوسهم الى أبى جعفر وبهذه النهاية الأليمة انتهت فلول الأمويين ورسخ ملك بنى العباس .

تعريف بخلفاء العصر العباسى الأول

هناك مدرستان مختلفتا الاتجاه فيما يتعلق بالحديث عن الخلفاء المسلمين ؛ فالمدرسة القديمة تهتم بالدراسة العرضية أى بفترة زمنية تبدأ من البيعة للخليفة وتنتهى بموته أو سقوطه ، ويكون اسم الخليفة هو العنوان العام للبحث ، وترد تحته الأحداث المختلفة بعناوين فرعية ، بعضها للشئون الداخلية ؛ كالحركات الثورية وكالاصلاحات الداخلية وكالاهتمام بشئون الثقافة ونحو ذلك ، وبعضها للشئون الخارجية كالتوسع والحروب والارتباطات الدولية •

وحجة أصحاب هذه المدرسة أن الخلفاء المسلمين كانوا — فى عهد تمتعهم بالسلطة — ذوى نفوذ قوى كان ينعكس على الدولة ، فالخليفة العالم يهتم بالعلم ، والخليفة القوى يوسع دائرة سلطانه ويكثر من الفتوح وهكذا ، ويقول المثل العربى فى ذلك « الناس على دين ملوكهم » ومن أجل هذا أبرزت هذه المدرسة شخصية الخليفة وجعلت كل الأحداث صدى له وارتباطاً بـه •

وهذه المدرسة تُعدُّ امتداداً لامدرسة الزمنية التى كانت نهج بعض المؤرخين المسلمين الأول ، كالطبرى وابن الأثير وغيرهما ممن أوردوا الأحداث مرتبطة بالأعوام ، فذكروا أحداث السنة الأولى الهجرية ثم الثانية ، ثم الثالثة وهكذا •

أما المدرسة الحديثة فتنتقد الاتجاه السالف وترى أن البحوث إن جاز لها أن تتم على هذا المنهج فى الماضى ، فلا يجوز أن تستمر فى الحاضر على النهج القديم ، وذلك لسببيْن هامين هما :

أولا : أن الأحداث داخلية كانت أو خارجية لا تتوقف بنهاية عام أو موت خليفة ، وانما تسير من عام الى عام ، ومن خليفة الى خليفة ،

وهذا لا يجعل من المستساغ أن يتوقف الحديث عنها لأن العام قد انقضى أو الخليفة قد مات ، ليستأنف الحديث مرة أخرى فى العام التالى أو فى عهد الخليفة الجديد ، فليس ذلك إلا تقطيعا لأوصال الحديث بدون داع ، فحركات الخوارج أو حركات الشيعة ، والحروب الداخلية والخارجية يلزم أن يدرس كل منها مرتبط الأجزاء منذ بدأ حتى انتهى .

ثانيا : لا يميل الباحثون المحدثون الى ربط كل الأحداث بالخلفاء ، ويرى هؤلاء الباحثون أن الأحداث أقوى من الخليفة مهما كانت شخصيته ومهما كان سلطانه ، فهو ليس الخالق الوحيد أو الخالق المهم للأحداث ، وإنما هناك عوامل متعددة توجه سير التاريخ ؛ فحركات الشيعة والخوارج مثلا ليست من صنع الخلفاء ، مروان بن محمد كان أقوى من كثير من خلفاء بنى أمية ، ولكن الأحداث كانت أقوى منه فسقط وضاعت الخلافة فى عهده ، والمأمون كان من أعظم الخلفاء المسلمين ولكن للثورات فى الداخل والخارج شغلت عصره واستنفدت الكثير من جهده .

وتميل هذه المدرسة الى الدراسة الطولية أى دراسة الحدث ذاته دراسة تشمل العوامل التى أدت الى ظهوره ثم السير معه حتى نهايته ، وتمتد هذه الدراسة بطبيعة الحال من عام الى عام ، ومن خليفة الى خليفة ، فلا يكون الخليفة عنوان البحث ، بل يكون الموضوع هو العنوان ؛ وذلك مثل الموضوعات التى سبق ذكرها كالخوارج والشيعة والعلاقات الخارجية ، وهكذا ويمتد الحديث عن العصر كله الذى يؤخذ كوحدة واحدة لتجانس هام فيه ؛ كالعصر العباسى الأول الذى اتفق المؤرخون على أن له طابعاً يميزه عما سواه من عصور دولة بنى العباس .

على أننا وإن ارتضينا اتجاه هذه المدرسة فاننا لا نستطيع إغفال الحديث عن الخلفاء فى فترات عنفوانهم ، فطالما استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم وأفكارهم على شعوبهم كما حدث فى قضية خلق القرآن التى

سنعرض لها فيما بعد ، وطالما انعكست حياتهم على حياة الكثيرين من معاصريهم ، جدا كانت حياتهم أو لهواً •

ثم إن هناك أحداثا تُحدث من أعمال خليفة معين وينبغى لذلك أن تُنسب له ، وتُدرس معه ، وذلك كموقف الخليفة من تعيين ولى عهده ، وكالاصلاحات الداخلية التى يتجه لها هذا الخليفة أو ذاك ، وعلى العكس من هذا هناك أحداث أخرى ليست من صنع الخليفة ، وليست خاصةً بعهده كحركات الشيعة والخوارج ، وتلك ينبغى أن تُدرس مستقلة فى نطاق العصر [1] •

ومن أجل هذا فاننا نتخذ اتجاه المدرسة الحديثة ، فنتكلم عن التيارات متجمِّعةً ، ولكن مع بيان الأحداث التى كان الخلفاء مصدرها ، ومع إعطاء صورة عن الخلفاء فى عصورهم الزاهية ، وستساعدنا هذه الصورة فى بيان أثر الخلفاء فى أحداث العصر ، وبخاصة فى عصر كالعصر العباسى الأول الذى أعطيناه مزيدا من العناية فى هذا الجزء من « موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » فلنبدأ فى الأخذ بهذا الاتجاه ، ولنرسم لكل خليفة من خلفاء هذا العصر صورة أشد ما تكون صدقاً ودقة •

---

(١) وجهة النظر هـــذه اتبعناها ابتداء من الطبعة (الرابعة) •

أبو العباس عبد الله السفاح (١٣٢ — ١٣٦هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

هو أول خلفاء بنى العباس ، ولد بالحميمة سنة ١٠٤هـ ، وأمه ربطة بنت عبيد الله الحارثى ، بويع له فى اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ بالكوفة ، بعد مناورة فاشلة قام بها أبو سلمة الخلال ترمى لإسناد الخلافة للعلويين كما ذكرنا • وكان أبو العباس عند توليته الخلافة مريضاً ، ولذلك نجده يصعد المنبر بمسجد الكوفة ويلقى خطابا غير طويل ، وقد تحدث فى هذا الخطاب عن أرومة الرسول وأحقيتهم للخلافة ، وذكر بنى أمية وجَوْرَهم وطغيانهم ، وذكر أهل الكوفة بالخير ، فكان مما قاله لهم : أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ؛ وحباكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، ولقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا لحمل الأمانة • وختم أبو العباس خطابه بجملة ذات بال هى : أنا السفاح المبيح والثائر المبيد (١) •

وعقب القاء هذا الخطاب جلس أبو العباس على المنبر ، ووقف دونه عمه داود بن على ، فألقى خطابا طويلا ذكر فيه آل البيت وأنهم أحق بميراث الرسول ، وقرر أهداف بنى العباس من الخلافة فقال : إنا والله ما خرجنا لهذا الأمر لنكثر لجيناً ولا عقياناً (اللجين الفضة والعقيان الذهب) ولا نحفر نهراً ، ولا نبنى قصراً ، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا •••• وسوء سيرة بنى أمية فيكم وخرقهم بكم •• وذكر بالخير والثناء أهل خراسان (٢) •

---

(١) انظر الخطاب كله فى الطبرى ج ٩ ص ١٢٥ — ١٢٦ .
(٢) انظر الخطاب كله فى الطبرى ج ٩ ص ١٢٦ — ١٢٨ .

وعقب هذين الخطابين نزل الخليفة وتبعه عمه داود بن على فدخلا القصر ، وناب أبو جعفر المنصور عن أخيه فى أخذ البيعة له من الناس .

لقب « السفاح » :

يهمنا أن نعلق على الجملة الأخيرة من خطاب أبى العبـاس وهى : « أنا السفاح المبيح والثائر المبيد » ، فقد أصبح « السفاح » لقباً لأبى العباس عقب هذا الخطاب ، واللفظ يحتمل سفك الدماء وتهديد من تحدثه نفسه بالتمرد ، كما يحتمل السخاء وبذل المال ، وقد جاء فى القاموس سفح الدم كمنع : أراقة ، والدمع أرسله . ويستمر صاحب القاموس فيقول : والسفاح المعطاء والفصيح (١) .

وقد ورد لفظ « السفاح » فى الخطاب بعد الجملة التى قرر فيها أبو العباس الزيادة فى أعطيات جند الكوفة وهذا يجعل بعض الباحثين يميل الى أن المقصود باللفظ العطاء وبذل المال ، عـلى أن باقى الجملـة (أى قوله والثائر المبيد) يرجح ما مال له أكثر المؤرخين من أن المقصود التهديد بسفك دماء المخالفين .

من أخلاق السفاح :

ولكان أبو العباس السفاح كريماً حليما وقوراً ، عاقلا كاملا ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق (٢) ، ويقول عنه السيوطى (٣) إنه كان أسخى الناس ، ما وعد عدة فأخرها عن وقتها ، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها .

ومما يدل على كرم السفاح وسماحته هذه القصة الطريفة التى يرويها الأصفهانى ، وهاك نصها : « كان أبو دلامة واقفاً بين يدى السفاح فقال له : سلنى حاجتك . قال أبو دلامة : كلب أتصيد به . قال أعطوه إياه ،

(١) القاموس المحيط ج ١ ص ٢٢٨ — ٢٣١ .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٢٨ .
(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٠٠ .

قال : ودابة أتصيد عليها • قال : أعطوه دابة • قال : وغلام يصيد بالكلب قال أعطوه غلاما • قال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه • قال : أعطوه جارية • قال : هؤلاء عبيدك يا أمير المؤمنين ، فلابد لهم من دار يسكنونها • قال : أعطوه داراً • قال : فان لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون ؟ قال : أعطيتك مائة جريب عامرة ومائة غامرة • قال : وما الغامرة ؟ قال : لا نبات فيها • قال : قد أعطيتك أنا ياأمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فياف بني أسد : فضحك الخليفة وقال : اجعلوها كلها عامرة : قال أبو دلامة : فأذن لي أن أقبل يدك • قال : أما هذه فدعها • قال أبو دلامة : والله ما منعت عيالي شيئاً أقل ضرراً عليهم منها » (١) •

وكان أبو العباس في أوائل أيامه يظهر للندماء : ثم احتجب عنهم بعد سنة ، أشار عليه بذلك أسيد بن عبد الله الخزاعي ؛ فكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستار : « أحسنت والله ، أعد هذا الصوت » ؛ وكان لا يحضره نديم ، ولا مغن ، ولا مثله ، فينصرف الا بصلة أو كسوة قلت أو كثرت ، وكان لا يؤخر احسانه لغد ، ويقول : « العجب ممن يفرح بانسان فيتعجل السرور ، ويجعل ثواب من سره تسويفا وعدة » (٢) •

والسفاح من الخلفاء القلائل الذين قنعوا بزوجة واحدة • ولم يتجه للجواري والحسان ، ولعل من أسباب ذلك ، شخصية زوجته أم سلمة ومكانتها منه ، ويحدثنا المسعودي (٣) عن أبي العباس وأم سلمة حديثا طريفاً نقتبسه فيما يلي : كانت أم سلمة قد تزوجت من عبد الله بن الوليد

---

(١) الاغاني جـ ٩ ص ١١٦ •
(٢) الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك ص ٣٣ والمسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٨ •
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٥ — ٢١٧ •

بن المغيرة المخزومى ، فمات ، فتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموى فمات ، فبينما هى جالسة ذات يوم ، إذ مر بها أبو العباس السفاح وكان جميلا وسيما ، فسألت عنه وعرفته ، وأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لمولاتها : هذه سبعمائة دينار قدميها له اذا اشتكى الفاقة • وكانت أم سلمة تمتلك كثيرا من المال والحشم والجواهر • فأتته المولاة وعرضت عليه ذلك ، فقال السفاح : أنا مملق لا مال عندى • فدفعت اليه المال ، وأقبل الى أخيها وطلب أن يزوجه منها ، فزوجه إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى من يلوذ بها مائتى دينار ، وزُفَّتْ اليه فى ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى أصبح لا يقطع أمرا إلا بمشورتها حتى أفضت الخلافة إليه •

فلما كان ذات يوم فى خلافته ، خلا به خالد بن صفوان فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنى فكرت فى أمرك وسعة ملكك ، وقد مَلَّكْتَ نفسك امرأة واحدة ، فان مرضت مرضت ، وإن غابت غاب الأنس عنك ، وحرمت نفسك التلذذ بظريفات الجوارى والتمتع بما يُشْتَهى منهن ، فان منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، وإن منهن البضة البيضاء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العجزاء ، ولكل منهن فتنة ومذاق • وجعل خالد يطنب فى الوصف وكان إطنابه يزيد الموضوع حلاوة وطلاوة • فلما فرغ من كلامه ، قال أبو العباس : ويحك يا خالد ! ما صكَّ مسامعى والله كلام أحسن مما سمعته منك ، فأعد على كلامك ، فقد وقع منى موقعا • فأعاده عليه خالد أحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف ، وبقى السفاح مفكرا فيما سمع منه ، فدخلت عليه زوجته أم سلمة ، فلما رأته مفكرا مغتما قالت : إنى لأنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر فارتعتَ له ؟ قال : لم يكن من ذلك شىء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوى عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد ، فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال لها : سبحان الله ! ينصحنى وتشتمينه ؟ وخَرَجَتْ من عنده مغضبةً ، وأرسلت الى خالد جماعة من الرجال

الأقوياء وأمرتهم ألا يتركوا فيه عضواً صحيحاً ، قال خالد يحكى ما حدث له : انصرفتُ إلى منزلى وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما ألقيت إليه ، ولم أشكّ أن صلته ستأتينى . فلم ألبث حتى وصل الىّ أولئك الرجال وأنا قاعد على باب دارى ، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوى ، أيقنت بالجائزة واصلة ، حتى وقفوا علىّ فسألوا عنى ، فقلت هأنذا خالد . فسبق الىّ أحدهم بهراوة كانت معه ، فلما أهوى بها على وثبت فدخلت منزلى وأغلقت الباب علىّ واستترت ، ومكثت أياماً على هذه الحال لا أخرج من منزلى ، ووقع فى خلدى أنى أُتيتُ من قبل أم سلمة ، وطلبنى السفاح طلبا شديدا ، ولم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا على وقالوا : أجب أمير المؤمنين . فأيقنت بالموت ، فركبت وليس على لحم ولا دم . فلما وصلت الى الخليفة أَوْمَأَ الىّ بالجلوس ، ونظرت فاذا خلف ظهرى باب عليه ستور قد أرخيت ، وأحسستُ حركة خلف الستور ، فقال : يا خالد ! لم أرك منذ ثلاث . قلت : كنت عليلا يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ، إنك وصفت لى فى آخر دخلة من أمر النساء والجوارى ما لم يخرق مسامعى قط كلام أحسن منه ، فأَعِدْهُ علىّ . قلت : نعم ياأمير المؤمنين ، أعلمتك أن العرب اشتقّت اسم الضَّرَّة من الضرّ ، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان فى جهد ، فقال : ويحك ! لم يكن هذا فى الحديث ؟ قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأنهن القِدر يغلى . قال أبو العباس : برئتُ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعت هذا فى حديثك . قال : وأخبرتك أن الأربع من النساء شر دائم لصاحبهن ، يُشَيِّبْنَه ويُهرِمْنَه ويُسْقِمنه . قال : ويلك ؟ ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت .

قال خالد : بلى والله ، قال : ويلك ! وتكذّبنى ؟ قال : خالد قلت هامسا : وتريد أن تقتلنى يا أمير المؤمنين ؟ قال الخليفة : مُرّ فى حديثك ، قال : وأخبرتك أن أبكار الجوارى رجال ، ولكن لا خصى لهنّ ، قال خالد :

فسمعت الضحك من وراء الستر ، فقلت : نعم وأخبرتك أيضا أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، وعندك ريحانة من الرياحين ، وأنت تطمح بعينك الى حرائر النساء وغيرهن من الإماء • قال خالد ، فقيل لى من وراء الستر : صدقت والله يا عماه وبررت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ، ولكنه بدل وغير ونطق عن لسانك • فقال أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزاك وفعل بك وفعل ! فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة ، فما شعرت إلا برسل أم سلمة قد ساروا الىّ ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلام •

القضاء على الأمويين ونفوذهم :

لم ينس زعماء الدولة الجديدة عقب انتصارهم ، ضحاياهم من الهاشميين الذين اعتدى عليهم الأمويون ، وأزهقوا أرواحهم ، وحينما تضرعت ابنة مروان بن محمد الى صالح بن على هاتفة : نحن بناتك وبنات أخيك يا عم ، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا ، أجاب : لا نستبقى منكم أحداً ، رجلاً ولا امرأة ، ألم يقتل أبوك بالأمس ابنَ أخى ابراهيم بن محمد ؟ ألم يقتل هشامُ بن عبد الملك زيدَ بن على ابن الحسين ، وقَتَلَ امرأة زيد بالحيرة بيد يوسف بن عمرو الثقفى ؟ ألم يقتل الوليدُ بن يزيد يحيى بنَ زيد ؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد مسلمَ ابن عقيل ؟ ألم يقتل يزيدُ بن معاوية الحسينَ بن على بيد عمر ابن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ • • • فما الذى استبقيتم منا أهل البيت ؟ (١) •

وهكذا كان ينقم العباسيون على الأمويين ، ومن أجل هذا كان انتقامهم مرًّا قاسياً ، يقصدون به أن يثأروا لقتلاهم ، وأن يضمنوا ألا تقوم للدولة الأمويين قائمة ، أو يرفع لها صوت ، وقد عقد

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٠٧ •

الأصفهانى (١) فصلاً خاصاً ذكر فيه من قُتِلَ فى عهد أبى العباس السفاح من بنى أمية ، كما خصص ابن الأثير (٢) فصلاً مماثلا لهذا الغرض • وفيما يلى لقطات من ذلك •

لما قُتِلَ مروان بن محمد وحُمِلَتْ رأسه الى أبى العباس السفاح ووضعت أمامه خرّ لله ساجداً ، ثم رفع رأسه وقال : الحمد لله الذى أظهرنى عليك ، وأظفرنى بك ، ولم يُبْقِ ثأرى قِبَلَكَ وقِبَلَ رهطك أعداء الدين ، ثم تمثل بقول الشاعر :

لو يشربون دمى لم يَرْوِ شاربَهم
ولا دماؤهم للغيظ ترويني (٣)

ودخل سُدَيْف الشاعر على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد صفح عنه وأكرمه ، فقال سديف :

لا يغرّنك ما ترى من رجال
إن تحت الضلوع داء دويّا
جرد السيف وارفع العفو حتى
لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان : قتلتنى يا شيخ • • • • ودخل السفاح ، وأخِذَ سليمان فقتل (٤) •

---

(١) الاغانى ج ٤ : ٩١ — ٩٤ •
(٢) الكامل فى التاريخ ٥ : ١٦١ وما بعدها •
(٣) الاغانى ٤ : ٩١ — ٩٢ ، ويروى أنه بعد أن قتل مروان واحتوى قائد عباسى اسمه عامر على عسكره : دخل هذا الى الكنيسة التى كان فيها بنات مروان ونساؤه ، فقعد على فراشه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مروان الكبرى : يا عامر ! ان دهرا أنزل مروان عن فراشه ، واقعدك عليه فأكلت من طعامه ليلة قتله ، محتويا على أمره ، حاكما فى ملكه وحرمه وأهله ، لقادر أن يغير ذلك . فوصل هذا الكلام الى السفاح فاستهجن ما فعله عامر وكتب اليه يوبخه . شرح ابن ابى الحديد ٣ : ٢٠٥ •
(٤) الاغانى ٤ : ٩٤ ، وابن الاثير ٥ : ١٦١ .

واستطاع عمرو بن معاوية سليل بيت أبى سفيان أن يحصل على عفو أبى العباس بقصيدةٍ يقول فيها :

كيف بالعفو عنهم وقديماً قتلوكم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحيى بن زيد يا لها من مصيبة وتراث
والإمام الذى أصيب بحرّا ن إمام الهدى ورأس الثقات
قتلوا آل أحمد لاعفا الذنبُ لمروان غافرُ السيئات

فكان هجاؤه لقومه وسيلةً لنجاته ، وقد استشاط أبو العباس غيظا عقب سماع هذه القصيدة ، وجدّد فى بنى أمية القتل والتدمير .

وقَتَلَ سليمان بن على بالبصرة جماعة من بنى أمية عليهم الثياب الموشاة ، وأمر بهم فجرّوا بأرجلهم فألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب (١) :

ودخل شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم على عبد الله بن على بالشام ، وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام فأقبل عليه شبل فقال :

أصبح الملك ثابت الآساس
بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها
بعد ميل من الزمان وباس
لا تُقِيلنّ عبد شمس عثاراً
واقطعنْ كل رَقْلَةٍ وغراس (٢)
ذلّها أظهر التودد منها
وبها منكمُ كحزّ المواسى
ولقد غاظنى وغاظ رفاقى
قربُهم من نمارق وكراسى

---

(١) ابن الاثير ٥ : ١٦١ .
(٢) الرقلة : النخلة الطويلة ، والمقصود بالرقلة والغراس من شب منهم ومن لا يزال طفلا .

أنزلوها بحيث أنزلها اللـ
ـه بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً
وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذى بحران أمسى
ثاوياً بين غربة وتناس

فلما سمع عبد الله ذلك أمر بهم فقتلوا جميعاً ، وبسطت عليهم الأنطاع وجلس فوقها عبد الله ليأكل طعامه ، وهو يسمع أنين بعضهم (١) .

ولم يكتف العباسيون بالتنكيل بالأحياء بل يقال إن عبد الله بن على أمر بنبش قبور بنى أمية بدمشق فنبش قبر معاوية ، ويزيد ، وعبد الملك ، وهشام فلم يوجد فى القبر إلا العضو بعد العضو ، إلا هشام ابن عبد الملك ، فانه وجد صحيحاً لم يَبْلَ منه إلا أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه فى الريح ، مثلما فعل هذا بيزيد بن على ابن الحسين منذ بضع سنوات (٢) .

وربما علل بعض الباحثين لمثل هذه المعاملة بأن الشام بعد سقوط الأمويين كانت لا تزال تموج بأنصارهم ، ولولا هذه القسوة لهبت بالشام حركات كان يمكن أن تزعزع عرش الدولة الناشئة .

السفاح وولاية العهد :

كانت ولاية العهد مثار متاعب لخلفاء هذا العصر ، وبخاصة بسبب ولاية العهد لأكثر من واحد ، تلك السياسة التى اتبعها أكثر خلفاء العصر

---

(١) المرجع السابق . وقد وردت هذه القصيدة فى الاغانى ٤ : ٩٢ — ٩٣ منسوبة الى سديف وذكرت القصة فى الاغانى والفخرى ص ١٢٩ على انها وقعت أمام الخليفة .

(٢) ابن الاثير ٥ : ١٦١ .

العباسى الأول ، واستنفد التفكير فيهـا كثيراً فى نشاطهم ، والعجيب أن أغلب قصـور الخلفاء فى هـذه الفترة شغلت بمشكلة ولاية العهـد ، شغل بهـا المنصور والمهدى والهادى والرشيد والأمين ، وقل من خلفاء هـذا العصر من انتفع بالأحداث والتـاريخ فتلافى الوقوع فى هـذه المشكلة ، ويجدر بنـا قبل أن نتكلم عن الأحداث المتصـلة بولاية العهـد فى هـذا العصر أن نذكر كلمـة موجزة عن الاتجـاه الاسلامى نحـو ولاية العهـد :

الإسلام وفكرة ولاية العهد :

تحدثنا عن فلسفة الاسلام تجـاه ولاية العهد فى كتابنا « السياسة فى الفكر الاسلامى » ولكنا هنـا نذكر إلمامة قصـيرة عن هذا الموضوع فنقرر أن الاسلام لا يعرف التوارث فى الحكم ، ولا يقر حكومة للمستقبل مع حكومة قائمة بالأمر ، والاسلام يدع للمسلمين أمر اختيار رئيسهم وليس ذلك الأمر للخليفة ، ولكن أغلب الخلفاء تحايلوا لتعيين ولاة العهـود من أبنائهم ، ومنهم من اختار اثنين أو ثلاثة من الأبناء ممـا عقد المشكلة وزادهـا صعوبة .

ومع هـذا فموقف الخليفة السفاح من هـذه المشكلة كان يسيراً بالنسـبة لتطورات المشكلة فيمـا بعد ، إذ المعروف أنه عقـد ولاية العهد لأخيه المنصور وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد ابن على ، وتوفى بعد ذلك بمدة وجيزة .

وزراء السفاح وكبار الرجال فى عهده :

وأشهر الرجال الذين اعتمد عليهم السفاح أخوه أبو جعفر المنصور ، وأعمامه عبد الله وداود وصالح أولاد على بن عبد الله بن العباس ، وأبو مسلم الخراسانى ، وسيرد فيمـا بعد مزيد من الحديث عن أهم هؤلاء ، أمـا وزراء السفاح فهم أبو سلمة الخلال وقد سبق الحديث عنـه ، وخالد بن برمك ، وسيرد ذكر مفصل له مع الكلام عن البرامكة .

وبمناسبة الحديث عن الوزارة والوزراء ينبغى أن نذكر ملاحظتين مهمتين :

الأولى — أوردنا فى كتابنا « السياسة فى الفكر الاسلامى » دراسة شاملة عن منصب الوزارة : نشأته وتطوره وأنواعه وشروط الوزراء وعملهم فليرجع لذلك من يشاء .

الثانية — بعض الوزراء فى العصر العباسى الأول كانوا تابعين للخلفاء ومنفذين لتعليماتهم ، وسنورد مع كل خليفة وزراءه من هـذا النوع ، ولكن هناك وزراء آخرين فى هـذا العصر لعبوا دوراً كبيراً فى الحياة العامة ، وكان لهم نفـوذ أوسع ، وسنخص هؤلاء بحديث خاص عنوانه « مشاهير وزراء العصر » وبخاصة أن هؤلاء قد ارتبطوا بالمؤامرات التى حاكها الربيع بن يونس وابنه الفضل .

وفاة السفاح :

بقى السفاح فى الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر ، ومات فى مدينـة الأنبـار يوم الأحد فى النصف الأول من شهر ذى الحجة سنة ١٣٦هـ ، وقد تلت وفاته أحداث سنشرحهـا فى حديثنا عن الخليفة المنصـور فيمـا يلى :

أبو جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

فحل بني العباس هيبة وشجاعة وحزما ورأيا وجبروتاً (١) وهو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، كان العضد الأقوى والساعد الأشد للسفاح في أثناء حياة السفاح ، ثم آل له الأمر سنة ١٣٦هـ فواجهته مشكلات جسام استطاع بمواهبه أن يتغلب عليها ، فدعم بذلك أساس الدولة وقوّى بنيانها .

وقد ولد المنصور بالحميمة سنة ١٠١هـ من أم ولد اسمها سلامة ، وولاه السفاح عهده ، فلما مات السفاح — وأبو جعفر بالحجاز أميراً للحج — أخذ عيسى بن موسى البيعة له بالأنبار ، وبايعه الناس في كل مكان عقب ذلك إلا عبد الله بن على ومن معه وسنتحدث عنه فيما بعد .

شخصية المنصور :

نقتبس من ابن طباطبا بعض فقرات تشرح لنا نواحي مهمة في حياة المنصور ، قال :

كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم وذوى الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة ، وقورا شديد الوقار ، حسن الخلق ، تراه في بيته من أشد الناس احتمالا للعبث والمزاح ، فاذا لبس ثيابه وخرج الى المجلس العام تغير لونه ، واحمرت عيناه ، وانقلبت جميع أوصافه ، وهو يقول في ذلك لأولاده : يا بنيّ إذا رأيتموني قد لبست ثيابي وخرجت الى المجلس فلا يدنونّ أحدٌ مني مخافة أن أعرّه بشيء (٢) .

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٠١ .
(٢) الفخري ص ١٣٥ — ١٣٦، وأعره إي أخيفه وأزعجه .

ويروى ابن طباطبا عن يزيد بن عمر هبيرة قوله فى المنصور : ما رأيت رجلا فى حرب أو سلم أمكر ولا أنكر ولا أشد تيقظا من المنصور ، لقد حاصرنى تسعة شهور ، ومعى فرسان العرب ، فجهدنا كل الجهد لننال من عسكره شيئا ، فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره وكثرة يقظته ، ولقد حصرنى وما فى رأسى شعرة بيضاء ، ثم انقضى ذلك وما فى رأسى شعرة سوداء (١) .

والمنصور هو الذى أصل الدولة وضبط الملكة ، ورتب القواعد ، وأقام الناموس واخترع أشياء ذات بال (٢) . وقد قابل المنصور ثورات خطيرة من شأنها أن تهز العروش وتزعزع النفوس ، ولكن المنصور كان ثابت الجأش خلالها واستطاع بكياسته ومهارته أن ينتصر فيها جميعا ، لقد ثار فى وجهه عمه عبد الله بن على ومعه صناديد الجيش العباسى ، وتفاقم فى عهده خطر أبى مسلم ، وهب فى وجهه محمد بن عبد الله (النفس الزكية) وأخوه ابراهيم ، ولكنه فى هذه وسواها كان بطلا ، وكان سياسيا حكيما فانتصر فيها جميعا انتصارا مؤزرا كما سنروى ذلك فيما بعد ، وقد استطاع المنصور بذلك أن يجعل ملك بنى العباس راسخ الأساس قوى الدعائم ، وأن يترك لابنه المهدى مملكة عريضة مهيبة الجانب فى الداخل والخارج .

ولا أدل على حذق المنصور وعمق تفكيره من تصرفه إزاء هذه المشكلات . فقد استعان بأبى مسلم الخراسانى فى القضاء على عبد الله ابن على ، حتى إذا فرغ أبو مسلم من ذلك جاء الدور عليه . وكذلك استعان بعيسى بن موسى فى القضاء على محمد بن عبد الله بن الحسن وأخيه ابراهيم ، واختار عيسى بن موسى لأنه كان فى ذلك الحين وليا

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ — ١٣٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣٧

لعهده ، فهو حريص على سلامة هذا الملك الذى سيؤول إليه فيما بعد ، ولما انتهى عيسى من مهمته كاشفه المنصور بنيته ، وأرغمه على أن يقدم المهدى على نفسه فى ولاية العهد .

وكان المنصور شديد الشغف بابنه المهدى ، فكان اذا صادر أحدا على مال وضع ذلك المال فى مكان خاص ببيت المال ، وكتب عليه اسم صاحبه، فلما مرض مرض الوفاة قال لابنه المهدى : يا بنى إنى قد أفردت كل شىء أخذته من الناس على وجه المصادرة ، وكتبت عليه أسماء أصحابه ، فاذا وليت أنت فأعده الى أربابه ، ليدعو لك الناس ويحبوك(١).

حرص المنصور :

ومما عرف به المنصور أنه كان شديد الشغف بالمال ، بارعا كل البراعة فى ابتكار الطرق لجمعه والحصول عليه ، روى أنه عمل للكوفة والبصرة خندقا وسورا ، وقرر أن يجمع نفقاتهما من الأهلين ، ورغب ألا يفوته أحد منهم ، فأمر أن يمنح كل فرد بهما خمسة دراهم ، فتقدموا جميعاً لأخذ هذه الدراهم وبذلك تمكن من حصر عددهم ، ثم أمر أن يجبى من كل واحد أربعون درهما . فقال الشاعر فى ذلك :

يا لقوم ما لقينا من أمير المؤمنينا
قسم الخمسة فينا وجبانا أربعينا (٢)

وكان المنصور بخيلا ممسك اليد ، حدث الوضين بن عطاء قال : استزارنى أبو جعفر وكانت بينى وبينه خلالة وصداقة قبل الخلافة ، فصرت الى مدينة السلام ، فخلونا يوماً ، فقال يا أبا عبد الله ، ما مالك ؟

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ١٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٢ .

قلت الخبر الذى يعرفه أمير المؤمنين . قال : وما عيالك ؟ قلت ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن ، فقال لى : أربع نساء فى بيتك ؟ قلت : نعم . وردد المنصور علىّ ذلك ثلاثاً حتى ظننت أنه سيمولنى . ثم رفع رأسه إلىّ وقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل يَدُرْنَ فى بيتك (١) .

ويُرْوَى أن أبا دلامة دخل على المنصور فأنشده :

رأيتك فى المنام كسوت جلدى ثياباً جمة وقضيت دينى
فصدّق يا فدتك الناس رؤيا رأتها فى المنام كذلك عينى

فأمر له بذلك ، وقال له : لا تتحلم علىّ ثانية ، فأجعل حلمك أضغاثا والا أحققه (٢) .

ولما مات ابنه الأكبر جعفر ، جزع المنصور عليه ، وطلب من حاجبه الربيع بن يونس أن يُحْضر له من بين بنى هاشم مَن يُنشده قصيدة أبى ذؤيب :

* أمن المنون وريبها تتوجع *

لعله يتسلى بها ، ولكن الربيع لم يجد من بين بنى هاشم من يحفظها ، فحزن لذلك المنصور ، وأمره أن يحضر له من ينشده إياها من بين العامة ، وَجدّ الربيع حتى أحضر له شيخاً كبيراً مؤدّباً ، وبدأ الشيخ ينشد القصيدة حتى قال :

* والدهر ليس بمتعب من يجزع *

فقال المنصور : صدق والله ، أنشدنى هذا البيت مائة مرة ليتردد هذا المصراع علىّ ، ففعل الرجل ، فلما انتهى الشيخ من الإنشاد خرج ،

(١) المرجع السابق ص ١٠ .
(٢) الاغانى ج ٩ ص ١١٢ .
(٣) الاغانى ج ٩ ص ٥٩ .

فتبعه الربيع وقال له : أأمر لك أمير المؤمنين بشيء ؟ فأراه صرة فى يده فيها مائة درهم (١) .

وهناك أقاصيص كثيرة لا يقف المنصور موقف المانع المقتر فحسب ، ولكنه يسترد أو يحاول أن يسترد مِنَحاً دفعها سواه من الأجواد ، فقد روى الأصفهانى أن المؤمل الشاعر قدم على المهدى بالرَّى ، وهو إذ ذاك ولى عهد ، فامتدحه بأبيات ، فمنحه المهدى عشرين ألف درهم ، فكتب بذلك صاحب البريد الى المنصور ، فكتب المنصور الى المهدى يعذله ويلومه ، وطلب الشاعر حتى أُتِىَ به ، فقال له المنصور أتيتَ غلاماً غراً كريماً فخدعته فانخدع ، أنشدنى ما قلت فيه ، فأنشده قصيدته التى منها :

هو المهدىُّ إلا أن فيه — مشابه صورة القمر المنير
لقد سبق الملوكَ أبوه حتى — بقوا ما بين كابٍ أو حسير
فإن بلغ الصغيرُ مدى كبير — فقد خُلِقَ الصغير من الكبير

فقال المنصور : أحسنت ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم ، يا ربيع أعطه منها أربعة آلاف وخذ الباقى ، ولما آلت الخلافة الى المهدى حضر الشاعر ورفع له ظلامة بين رقاع المظالم فلما قرأها المهدى ضحك ، وأعاد له ما أخذ منه ، وزاده أربعة آلاف درهم (٢) .

وكان مسلم الحادى ممن يجيدون الحداء ، وقد حدا يوماً للمنصور حداء أطرب المنصور وأعجبه حتى ضرب برجله المحمل ، ثم قال : يا ربيع ، أعطه عشرين درهماً ، فقال مسلم : يا أمير المؤمنين ، والله لقد حدوت لهشام ، فأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقال المنصور : تأخذ من مال المسلمين ثلاثين ألف درهم من أجل حداء ؟ يا ربيع ، وكّل به من يستخلص منه هذا المال . قال الربيع : فما زلت أمشى بينهما وأروض المنصور فما سكت حتى قبل مسلم على نفسه أن يحدو للمنصور فى ذهابه وإيابه بغير مئونة (٣) .

---

(١) البيهقى ، المحاسن والمساوىء ٢٧٠ — ٢٧١ .
(٢) الابشيهى ، المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ١٧٢ .

المنصور والشراب والندماء :

ولم يكن المنصور يحب الشراب ، ولا يسمح به على مائدته ، فقدم عليه بختيشوع الطبيب مرة ، فأمر المنصور أن يُعَدّ له طعام ، فلما جلس بختيشوع الى المائدة طلب شراباً ، فقيل له : لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين . فقال : لا آكل طعاماً ليس معه شراب ، فأُخْبِرِ المنصور بذلك ، فقال : دعوه ، فلما حضر العشاء فُعل بـه مثل ذلك ، فطَلَبَ الشراب ، فقيل له : لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين فتعشى وشرب ماء دجلة ، فلما كان من الغد ، نظر الى مائه وقال : ما كُنت أحسب شيئاً يغْنى عن الشراب ، فهذا ماء دجلة يغنى عنه (١) .

وكان المنصور لا يظهر لنديم قط ، فاذا جلس يسمع جعل بينه وبين الستارة عشرين ذراعاً ، وبين الستارة والندماء مثلها ، وكـان لا يُثيبُ أحداً من ندمائه وغيرهم درهماً فيكون له رسماً فى ديوان ، ولم يُقْطِع أحداً ممـن كان يُنْسَب إلى ملهية أو ضحك أو هزل موضع قدم مـن الأرض ، وكان يتذكر أعطياته مدة لا تقل عن عشر سنوات ، ويستطيع أن يتذكّر بها من نالها ، وكان أبو جعفر يقول : من صنع مثل مـا صُنِع إليه فقد كافأ ، ومن أضعف كان مشكوراً ، ومن علم أن ما صَنَع فالى نفسه صَنَع ، لم يستبطىء الناس فى شكرهم ، ولم يستزدهم فى مودتهم ، ولا تلتمس من غيرك شكر ما وقَيْتَ به عرضَك ، واعلم أن طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك ، فأكرم وجهك عن رده (٢) .

ومن أجمل ما وُصف به أبو جعفر المنصور قول ابن هرمة :

إذا ما أتى شيئاً ، مضى كالـذى أتى
وإن قـال : إنى فاعل ، فهـو فـاعل

---

(١) الطبرى ٩ : ٣٠٩ .
(٢)

كريم له وجهان : وجه لـه الرضـا
أسـيل ، ووجـه فى الكريهة باسـل
فـأمٌ الـذى آمنتَ آمنة الـردى
وأمٌ الذى حـاولتَ بالثكل ثـاكل (١)

وزراء المنصور وكبار رجال دولته :

وزر للمنصور أبو أيوب المورياني والربيع بن يونس ، وطبيعى أنه فى عهد خليفة قوى كالمنصور كان نفوذ الوزراء محدوداً ، ولـم يكونوا سوى صدى لاتجاهات الخليفة ورغباته .

وعلى ذكر الربيع بن يونس ينبغى أن نقول كلمة سريعة سنعود لها بكثير من الشرح والتفصيل ، تلك الكلمة هى أن الربيع بن يونس وابنه الفضل بن الربيع مثلا فى قصور الخلفاء العباسيين دوراً بالغ المدى فى مجال الدس والمؤامرة ، واستطاع كل منهما أن يوقع الردى بمن نافسه فى هذه القصور ، وكان أبو أيوب المورياني من ضحايا الربيع ، كمـا كان من ضحاياه معاوية بن يسار الذى كان وزيراً للمهدى . ثم جاء الفضل ابن الربيع فورث الدس عن أبيه ، فكان من أهم العوامل التى قضت بنكبة البرامكة ، كما أثار الفتنة بين الأمين والمأمون ، تلك الفتنة التى كانت سبب حرب طويلة قاسـية .

تلك كلمة موجزة سنشرحها بتفصيل كاف فيما بعد .

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم المنصور فى الميادين العسكرية ، عيسى بن موسى ، وأبو مسلم الخراسانى ، ومعن بن زائدة الشيبانى ، ومن العلماء الذين تألقوا فى عهد المنصور محمد بن عبد الرحمن بن أبى

---

(١) ابو على القالى : ذيل الامالى والنوادر ص ٤٠ .

ليلى قاضى قضاة المنصور ، والإمامان العظيمان أبو حنيفة النعمان ومالك ابن أنس .

هذا ولم يستتب الأمر لأبى جعفر المنصور إلا بعد صراع طويل مرير ضد عمه عبد الله بن على الذى ادعى أن السفاح عينه ولياً لعهده وأنه لذلك أولى بالخلافة من المنصور ، ثم ضد أبى مسلم الخراسانى الذى كان نفوذه يهدد سلطان العباسيين ، وفيما يلى وصفٌ لهذا الصراع ضد هذين البطلين .

المنصور وعبد الله بن على

كان السفاح قبيل وفاته قد عقد لأخيه المنصور وجعله ولى عهد المسلمين ، وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على ، ثم توفى السفاح بعد مدة وجيزة كما قلنا ، وكان المنصور آنذاك حاجاً بمكة ، فقام عيسى بن موسى بأخذ البيعة للخليفة الجديد ، وكتب له يعلمه بموت السفاح والبيعة له ، وقد جزع أبو جعفر عندما وصله الخبر جزعاً شديداً . فسأله أبو مسلم الخراسانى وكان يحج معه : ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟ فقال : أتخوّف شر عمى عبد الله بن على وشغبه علىّ . قال أبو مسلم لا تخفه فأنا أكفيكه ان شاء الله ، انما عامة جنده ومَنْ معه من أهل خراسان ، وهم لا يعصوننى ، فسرّى عن المنصور ، وبايع له أبو مسلم كما بايع له الناس هناك .

ولما عرف عبد الله بن على وهو والى الشام خبر وفاة السفاح والبيعة للمنصور ، أمر منادياً فنادى : الصلاة جامعة . فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم كتاب عيسى بن موسى اليه بوفاة السفاح ودعاهم الى نفسه ، وأعلمهم أن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود الى مروان بن محمد ، دعا بنى أبيه فأرادهم الى السير اليه ، وقال : مَنْ سار منكم اليه ، فهو ولى عهدى . فلم ينتدب غيرى ، وعلى هذا خرجتُ من عنده ، وقتلتُ من قتلت . وشهد له أبو غانم الطائى وخفاف المرزوى وغيرهما من القواد ، فبايعه جيشه كما بايعه أهل الشام والجزيرة الذين كان هواهم مع

الأمويين ، وكانوا يرحبّون بأى خلاف يقع فى صفوف العباسيين ، واتسع بذلك نفوذ عبد الله ، وهكذا أعلن عبد الله بن على تمرده على الخليفة الجديد ، فتحقق بذلك ما توقعه المنصور .

ولما عرف المنصور ما فعله عبد الله كتب إليه :

سأجعل نفسى منك حيث جعلتها

وللدهر أيام لهن عواقب

وسيّر إليه جيشاً عظيما بقيادة أبى مسلم ، وهكذا تقف وجهاً لوجه قوتان عظيمتان على رأسهما أعظم قائدين فى ذلك التاريخ .

أسباب انتصار أبى مسلم على عبد الله بن على :

وقد جرت عدة أحداث جعلت كفة أبى مسلم ترجح كفة عبد الله بن على . ومن ذلك ما يذكره المؤرخون من أن عبد الله خاف ألا يناصحه أهل خراسان الذين كانوا معه ، فقتل منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً ، وان كان هذا الرقم يبدو أنه مبالغ فيه إلى حد كبير .

ومن ذلك أيضا ما روى أن عبد الله تشكك فى قائد من أمهر قواده هو حميد بن قحطبة . وأراد أن يتخلص منه ، ولكن الطريق الذى سلكه لذلك لم يكن طريقا حكيما ، فانه أخبره أنه ولاه إمارة حلب وكتب معه كتابا الى واليها ، فلما سار حميد ومن معه شوطا بدأ حميد يوجس خيفة من الكتاب المغلق الذى يحمله ، ففتحه فوجد به أمرا بالفتك به موجها الى والى حلب ، فقرأه حميد على من معه ، وأخبرهم عزمه على أن ينحدر الى العراق ، فتبعه ناس كثيرون ممن كانوا معه .

ومن ذلك أيضا خدعة قام بها أبو مسلم ، فان جيش عبد الله كان قد اتخذ له مكاناً حصيناً عسكر فيه ، فأرسل أبو مسلم اليه يقول : إنى لم أومر بقتالك ، ولكن أمير المؤمنين ولانى الشام ، فأنا أريدها . فقال من كان مع عبد الله من أهل الشام : كيف نكون معك وهذا

يأتى بلادنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبى ذرارينا ؟ ولكن نخرج الى بلادنا فنمنعها ونقاتله ، وعبثاً حاول عبد الله أن يخبرهم أنها خدعة من أبى مسلم ، فلما نزل عبد الله عند رغبتهم ، وترك مكانه الحصين وتحول نحو الشام ، تحول أبو مسلم وعسكر فى ذلك المكان الحصين .

ودارت الحرب الضروس بين القوتين الهائلتين ، وكانت سجالا فى أغلب معاركها ، وبعد خمسة أشهر استطاع أبو مسلم أن ينتصر وأن يهزم أصحاب عبد الله ، ولما أحس عبد الله الهزيمة سأل أحد أصفيائه أن يشير عليه بالفرار أو البقاء . فأشار عليه أن يصبر ويقاتل حتى الموت ، فان الفرار قبيح بمثله ، وقد عابه على مروان بن محمد ، لكن الحرص على البقاء تغلب على عبد الله ، ففر ولجأ إلى أخيه سليمان بن على بالبصرة ، واستطاع بهذا أن يطيل عمره فترة من الزمن ، ولكنها بلا شك كانت فترة مملوءة بالأكدار سنعود للحديث عنها بعد قليل ، وبفرار عبد الله استسلم جيشه فاحتواه أبو مسلم [١] .

ويخطر الآن بالذهن سؤالان لهما شىء من الأهمية :

(أولا) هل حقيقة وعد السفاح عبد الله بولاية العهد ؟ وبماذا توحى الروايات التاريخية ؟ .

الظاهر لى صدق عبد الله فى هذا الزعم ، بدليل شهادة هؤلاء الشهود واستمرارهم على الكفاح بجانبه هذه المدة الطويلة دون أن تظهر أية بادرة لخورهم ورجوعهم عن شهادتهم ، ثم ان توقع المنصور أن يثور عبد الله دون سواه ليدل على أن هناك وعداً من السفاح توقع المنصور أن يكون دعامة يعتمد عليها عبد الله فى دعواه ، غير أن هذا الوعد ان كان قد حصل لم يدعم بسجل كتابى .

(ثانياً) واذا كان عبد الله يسعى لهذا المنصب لأنه رأى فى نفسه الكفاءة له ، فلماذا ثار على المنصور ولم يثر على السفاح ؟

---

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١٧٣ — ١٧٥ ، ومروج الذهب للمسعودى ص ٢٣٤ .

الجواب : أن الوقت الذى ولى فيه السفاح لم يكن يسمح بالخلاف بين صفوف العباسيين ، فكل ما كانوا يهتمون به فى ذلك الجو هو نزع السلطان من الأمويين ، وجعل الخلافة فيهم ليحققوا بذلك هدفاً طال سعيهم إليه ، وكفاحهم من أجله •

وهل كان منصب الخلافة عند تولية السفاح منصباً براقاً يدعو للتنافس ؟ •• أعتقد أن الاجابة يجب أن تكون بالنفى •• لأن السفاح تولى فى فترة شاذة ، ولا تزال لدى مروان جيوش قوية تدافع عنه ، فالذى يشغل هذا المنصب سيكون كبش الفداء لو أصيبت الحركة بنكس ولو مدة قصيرة •

نهاية عبد الله بن على :

لجأ عبد الله بن على كما قلنا الى البصرة حيث يقيم أخواه سليمان وعيسى فبلغ ذلك المنصور ، فأرسل الى سليمان وعيسى فى إشخاص عبد الله ، فتوسطا له عند المنصور ، ليرضى عنه ولا يؤاخذه بما جرى منه ، فقبل شفاعتهما ، واتفقوا على أن يكتبوا له أماناً من المنصور ، وكان عبد الله بن المقفع يعمل كاتبا لعيسى بن على فطلب اليه عيسى وسليمان أن يعمل نسخة للأمان فعملها ووكدها ، واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع فيها ، وترددت بين أبى جعفر وبينهم فى النسخة كتب إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، بحيث لا يتهيأ لأبى جعفر إيقاع حيلة فيها لفرط توكيد ابن المقفع ، واحتياطه ، وفيما يلى فقرات من هذا الكتاب الطويل •

« وإن أنا نلت عبد الله بن على أو أحداً ممن معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت الى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كتابة ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفى من محمد بن على بن عبد الله ، ومولود لغير رشدة [أى ولد سفاح وزنى] ، وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين : ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من

طاعتي ، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق ، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين ، وأنا متبرىء من الحول والقوة ومدّع ، وكافر بجميع الأديان ، ألقى ربي على غير دين ولا شريعة ، محرّم المأكل والمشرب ، والمناكح والمركب والرق والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطي ، ولا نية لي سواه ، ولا يقبل الله مني إلا إياه والوفاء به (١) .

فوقّع المنصور الكتاب وأرسله الى عمه عيسى قائلا : اذا وقعت عيني على عبد الله فهذا الأمان له ، لأني لا آمن أن أعطيه إياه قبل رؤيتي له ، فيسير في البلاد ، ويسعى على بالفساد . فقدم سليمان وعيسى بعبد الله وقواده ومواليه على المنصور في ذي الحجة سنة ١٣٩هـ ، فلما قدموا عليه أذن لسليمان وعيسى فدخلا عليه ، وأعلماه حضور عبد الله ، وسألاه الإذن له ، فشغلهما بالحديث ، وكان قد هيأ لعبد الله مكانا في قصره ، وأمر به أن يصرف اليه بعد دخول سليمان وعيسى ففُعِل به ذلك ثم نهض المنصور وقال لسليمان وعيسى : خذا عبد الله معكما الآن ، فلما خرجا لم يجدا عبد الله فعلما أنه ألقى القبض عليه ، فرجعا الى المنصور فمُنعا عنه (٢) وأُخذت عند ذلك سيوف من حضر من أصحابه وحبسوا ثم أمر المنصور بقتل بعضهم بحضرته ، وبعث الباقين الى أبي داود خالد ابن ابراهيم بخراسان فقتلهم هناك (٣) .

أما عبد الله فقد ظل في الحبس ، حتى سنة ١٤٧ هـ ، وقد أراد المنصور أن يحج هذا العام بعد تقليده المهدي ولاية العهد وتقديمه فيها على عيسى ابن موسى ، وكأن المنصور أحس بأن حياة عبد الله ربما تكون خطراً على ابنه كما كانت خطرا عليه ، ولذلك نجد المنصور يتوق إلى أن يتخلص نهائياً من عمه عبد الله بن على ، ويود لو استطاع أن يجعل المؤامرة مزدوجة ،

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ١٠٣ — ١٠٤ .

(٢) لم تقع عين المنصور على عبد الله ومعنى هذا عدم التزامه بتنفيذ العهد . ومن عجب أن يقتنع الناس بمثل هذا العهد ، وكان عليهم أن يتذكروا ما حدث لأبي سلمة ولابن هبيرة .

(٣) ابن الاثير ٥ : ٣٨٠ .

فيتخلص فى الوقت نفسه من ابن أخيه عيسى بن موسى ، وهكــذا دبر المنصور المؤامرة التى يحكيها لنا الجهشيارى (١) ، وابن الأثير (٢) كما يلى :

دفع المنصورُ عمه عبد الله بن على إلى عيسى وأمره سراً بقتله ، وقال له : إن الخلافة صائرة اليك بعد المهدى ، فاضرب عنقه ، وإياك أن تضعف فتنتقض على أمرى الذى دبرته ، ثم مضى إلى مكة ، وكتب الى عيسى من الطريق يستعلم منه ما فعل فى الأمر الذى أمره به ، فكتب عيسى فى الجواب : قد أنفذتُ ما أمرت به ، فلم يشك أنه قتله ، ولكان عيسى حين أخذ عبد الله من المنصور دعا أحد كتابه وأخبره الخبر ، فقال الكاتب : أراد أن تقتله ثم يقتلك به ، لأنه أمر بقتله سراً ، ثم يدّعيه عليك علانية ، فلا تقتله واكتم أمره ، ففعل عيسى ذلك . فلما قدم المنصور ، أو عز إلى أعمامه من يحركهم للشفاعة فى أخيهم عبد الله ، ففعلوا وشفعوا ، فقبل شفاعتهم ، وقال لعيسى فى حضرتهم : إنى كنت دفعت اليك عمى وعمك عبد الله ليكون فى منزلك ، وقد كلمنى عمومتك فيــه ، وقد صفحت عنــه ، فأْتنــا بــه .

قال عيسى : يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرنى بقتله ؟ قال المنصــور مــا أمرتك بقتله . قــال : بلى أمرتنى . قــال : مــا أمرتك إلا بحبسه ، وقد كذَبْتَ . ثم قــال المنصور لعمومتــه : إن هــذا قد أقر لــكم بقتل أخيكم ، قــالوا فادفعه الينــا للقود ، فســلمه اليهم وخرجوا به إلى الرحبــة ، واجتمع النــاس ، وذاع الأمر ، وقــام أحدهم ليقتله ، فقــال عيسى : أفاعل أنت ؟ قــال : إى والله . قــال : ردونى إلى أمير المؤمنين ، فردوه اليه ، فقال له : إنما أردتُ أن أقتله لتقتلنى ، هذا عمك حىّ سوى ، قال : ائتنا به ، فأتاه به ، قال : يدخل حتى أرى رأيى . ثم انصرف الجمع .

وإذ أخفقت هــذه المؤامرة ، أعمل المنصور فكره لينجح فى مؤامرة

(١) الوزراء والكتاب ص ١٣٠ .
(٢) الكامل فى التاريخ ٥ : ٢١٥ — ٢١٦ .

أخرى ، فدفع عبد الله بن على الى أبى الأزهر المهلب بن أبى عيسى ، فلم يزل عنده محبوساً ثم أمره بقتله ، فدخل عليه ، وأخذ معه جارية له ، فبدأ بعبد الله فخنقه حتى مات ، ثم مده على الفراش ، ثم أخذ الجارية ليخنقها ، فقالت : يا عبد الله ، قِتلةٌ غير هذه ، فكان أبو الأزهر يقول : ما جزعت لأحد قتلته غيرها ، ثم وضعها بعد أن خنقها على الفراش بجانب عبد الله ، وأدخلت يده تحت جنبها ويدها تحت جنبه كالمتعانِقَيْن ، ثم أحضر القاضى ابن علام وغيره فنظروا الى عبد الله والجارية على تلك الحال وتقرر قتلهما رجماً فأمر بالبيت فهدم عليهما (١) .

وقيل فى قتله : إن المنصور جعله فى بيت أساسه ملح ، وأجرى الماء فى أساسه فسقط عليه فمات (٢) .

وهكذا انتهى عبد الله ، لم يغن عنه حسبه ولا نسبه ، ولا جهاده لتكوين الدولة ، ولا وقوفه فى وجه مروان وأمام جيوش الأمويين ، ولا كتاب الأمان المحكم ، ومن العجيب أن هذه السنوات الطويلة بين هزيمة عبد الله سنة ١٣٦هـ وبين مقتله سنة ١٤٧هـ كرواية ابن الأثير ، أو سنة ١٤٩هـ كرواية الطبرى لم تستطيع أن تخفف من حنق المنصور عليه ، أو بغضه له ، ويحق للإنسان أن يتساءل : ما كان ضرَّ المنصور لو عفا عنه بعد أن تقلمت أظافره كما عفا المأمون عن ابراهيم بن المهدى وعن الفضل بن الربيع (٣) .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٣ : ٢٤٤ .
(٢) ابن الاثير : ٥ : ٢١٦ .
(٣) اقرأ عن هـذا الموضوع غير المراجع السابقة : الفخرى ص ١٤٤ وما بعدها وابن خلدون ، من جـ ٢ ص ١٨٥ .

ابن المقفـــع

وصلة الفتك به بعبد الله بن على

وقصة عبد الله بن على لها ذيل وتكملة ، فهناك مؤامرة أخرى تتصل بهذه القصة ، إنها المؤامرة التى راح ضحيتها أديب فريد ذائع الصيت هو عبد الله بن المقفع ، فلنسرد فيما يلى خطوط هذه المؤامرة :

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه « ابن المقفع » : « إن حياة أبى جعفر المنصور — وبخاصة الجانب الخفى منها — تدل دلالة واضحة على نزعته ، وتوضح للمؤرخين بجلاء كيف أصبحت الخلافة على أيدى العباسيين ملكاً يستهان فيه بواجبات الدين والقرابة والأخلاق معاً ، ولا ينظر فيه إلا للمطامع المادية والأهواء السياسية ليس غير(١) » وهذا القول — فى تقديرنا — ينقصه التحليل ، وفيه تعميم لايقبله الفكر العلمى .

والقضاء على ابن المقفع — على أى حال — له جانب خاص من الخطر ، ذلك لأنه قطع لتيار من الثقافة الرفيعة ، وقضاء على قبس من النور الوهاج ، وقد عبر ابن المقفع عن هذا المعنى فى مقطوعة شعرية رائعة تذف بها فى وجه قاتله . هى : والله إنك لتقتلنى ، فتقتل بقتلى ألف نفس ، ولو قتل مائة مثلك ما وفوا بواحد ، ثم أنشد :

إذا ما مات مثلى مات شخص   يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدرى   بموتك لا الصغير ولا الكبير(٢)

ومات ابن المقفع غدرا كما سيأتى بيانه ، ولكن الغدر بهذا الرجل حدث جليل ، لأنه كان مثالا فى الوفاء ، فمن المؤلم أن تكون نهاية هذا الوفى الأمين غدرا وخيانة . وقد ذكر الجهشيارى صوراً من وفاء ذلك الرجل نقتبس فيما يلى بعضها :

---

(١) دكتور عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع ص ٢٣٣
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١١٠ .

طلبَ عبدُ الحميد بن يحيى كاتبُ مروان بن محمد عقب قتل هذا الخليفة ، وكان عبد الحميد قد لاذ بابن المقفع لصداقة بينهما ، ففاجأهما الطلب ، وهما معا . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما « أنا » خوفاً من أن ينال صاحبه بمكروه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع ، فقال : ترفقوا ، فإنّ فى علامات ، فولوا بنا بعضكم ، ويمضى بعضٌ يذكر تلك العلامات إن وَجّهَ بكم ، ففعل ذلك ، وأخذ عبد الحميد (١) .

وكان بين ابن المقفع وبين عمارة بن حمزة مودة ، فأنكر أبو جعفر المنصور على عمارة فى وقت من الأوقات شيئا ونقله الى الكوفة ، وكان ابن المقفع اذ ذاك بها ، فكان ابن المقفع يأتيه فيزوره ، فبينما هو ذات يوم عنده ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ، يُعلِمُه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع ، وأن ضيعته لا تصلح إن ملكها غيره ، وأن كلا من الضيعتين تساوى ثلاثين ألف درهم ، وأنه ان لم يبتعها فالوجه أن يبيع ضيعته ، فقرأ عمارة الكتاب وقال : نحن مع حالنا فى الاضاقة والاملاق الى البيع أحوج ، وكتب الى وكيله ان يبيع ضيعته وينصرف اليه . وسمع ابن المقفع الكلام وانصرف الى منزله ، ومن هناك أرسل سُفتجة (٢) الى الوكيل بثلاثين ألف درهم . وكتب اليه على لسان عمارة : انى كنت كتبت اليك ببيع ضيعتى ، ثم حضرنى مال ، وقد أنفذت اليك سُفتَجة ، فابتعْ الضيعة المجاورة ، ولا تبعْ ضيعتى ، وأقم بمكانك ، وأنفذ الكتاب بالابتياع الىّ ، فورد الكتاب على الوكيل فنفذ ما فيه ، وكتب الى عمارة يذكر له أنه قد اشترى الضيعة المجاورة ، وأنه صارت له ضيعة نفيسة . فلما قرأ عمارة الكتاب أكثر

---

(١) الجهشيارى . الوزراء والكتاب ص ٨٠ .

(٢) السفتجة : أن يعطى مالا لاخر ؛ وللاخر مال فى بلد المعطى فيوفيه اياه هناك . كما فى القاموس المحيط ١ : ١٩٤ . فكان عمارة أدان ابن المقفع بالكوفة وسدد ابن المقفع الدين من ماله بالبصرة لوكيل عمارة .

التعجب ولم يعرف السبب ، ثم سأل عمن حضر ورود كتاب الوكيل ، فقيل له : ابن المقفع ، فعلم أنه من فعله ، فلما صار إليه بعد أيام وتحدثا ، قال عمارة : بعثتَ بتلك الثلاثين ألف درهم الى الوكيل ، وكنا اليها هاهنا أحوج . قال : فان عندنا فضلا ، وبعث اليه بثلاثين ألفا أخرى [١] .

ولكن خلق الوفاء النادر لم يغن عن ابن المقفع شيئاً ، بل غُدِر به واغتيل ، فلماذا ؟ ثم ان ابن المقفع رجل أديب ليست له أطماع سياسية يخشى منها على كيان الدولة ، كما كان يخشى على الدولة من ابن هبيرة أو من الثائرين العلويين وأمثالهم من رجال السياسة والحرب ، ومن هنا يتساءل الباحثون — دون جواب شاف — عن السبب الذى حدا بتدبير مؤامرة لاغتيال هذا الأديب الكبير ، ومن هنا يحاول الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه عن « ابن المقفع » [٢] أن يتلمس العلة التى دعت للفتك بهذا الرجل ، ويميل ، أو على حد تعبيره « يزعم » أن الزندقة كانت هى السبب الذى تذرع به المنصور فى قتله [٣] ولكن الدكتور حمزة يعود فيسأل : « واذا كان ابن المقفع قتل لزندقته ، فلماذا يقتله المنصور غدرا ، وبطريق المؤامرة ، وكان يكفى أن يتذرع المنصور بهذه التهمة الكبرى فيقتله جهرا وبعلم من الناس جميعا ؟ » . وينتهى الدكتور حمزة من بحثه بأن يعلن أن قتل ابن المقفع كان علانية . ولكن سيادته بذلك يخالف جميع المصادر التى بأيدينا والتى تنص على أن ابن المقفع مات بمؤامرة دُبِّرت لاغتياله ، وقَتْلُه بمؤامرة معناه أن الزندقة لم تكن سبب الفتك به .

ويقول الدكتور طه حسين إن رسالة الصحابة [٤] وحدها كانت

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٠٩ — ١١٠ .
(٢) من ص ٢٢٧ الى ص ٢٤٠ .
(٣) ص ٢٣٦ .
(٤) اقرأها بجمهرة رسائل العرب التى جمعها الاستاذ احمد زكى صفوت جـ ٣ من ص ٢٥ الى ص ٤٧ .

السبب فى قتل ابن المقفع (١) لأن ابن المقفع كتب هـذه الرسالة للمنصور ، ووضع نفسه فيها موضع الناقد وصاغ هـذا النقد فى صـورة بلاغية رائعة فيهـا إجلال واحترام ودعاء ، ولكن النقد لم يَخْفَ على المنصور ، فحنق عليه ، إذ أن الحاكم المستبد يكره النصـح ويضيق بالنقد مهمـا كان رقيقاً مهذباً ، ويضـيف الدكتور طه حسين أن هـذه الرسالة كانت برنامج ثورة .

وأيا مـا كانت الأسباب فان السبب المباشر ، وطريقة تنفيذ المؤامرة ، يوضحها لنا كل من الجهشيارى ، وابن خلكان وهاك خلاصة ذلك :

مرَّ بنـا أن ابن المقفع هو الذى أملَى كتـاب الأمان الذى أمضاه المنصور لعبد الله بن على ، وقد سبق أن أوردنا منـه بعضه ، وظهر منه أن ابن المقفع وكده توكيداً عظيمـا استجابة لرأى عيسى بن على وأخيـه سليمان اللذين كانا يعرفان خلق الغـدر فى ابن أخيهما المنصور ، فأرادا أن يحتاطا لأخيهمـا عبد الله بن على ، وألا يدعـا للمنصور فرصـة للحنث بعهـده ، فطلبا من ابن المقفع مزيداً من الاحتراس والحيطة ، وقد استجاب لهمـا ابن المقفع ، ولكنه — والحق يقـال — ارتكب الشطط فى ذلك وأسَفَّ ، فما كان له أن يكتب على لسـان الخليفة عبارة مثل « وإن أنا نلت عبد الله بن على بمكروه . . فأنـا نفىٌّ من محمد بن على بن عبد الله ، ومولود لغير رشـدة » [أى ولد سفاح وزنى] فهـذا ومثله ممـا ورد فى الكتاب ، أثار حنق المنصور على الكاتب ، فسأل : مَنْ كتب هـذا الأمان ؟ فقيل : ابن المقفع كاتب عيسى بن على . فقـال أبو جعفر : فمـا أحد يكفينيه (٢) .

لقد حكم المنصـور بالإعدام على ابن المقفع بهـذه الجملة ، فقد كان حوله أعوان سـوء يعرفون كيف تُحقَّق أمثـال هـذه الرغبات ،

---

(١) انظر « من حديث الشعر والنثر » ص ٤ .
(٢) الوزراء والكتاب ص ١٠٤ .

وكان ضمن حاشية الخليفة مولاه أبو الخصيب مرزوق بن ورقاء الذى كان يعرف أن سفيان بن معــاوية والى البصرة يضطغن على ابن المقفع أشياء كثيرة (١) • ويتمنى لو تتــاح له الفرصة لينتقم منــه على استخفافه به واحتقاره له . فكتب أبو الخصيب الى والى البصرة — وكان ابن المقفع يقيم بهــا مع عيسى بن على — يخبره برغبــة الخليفة ، فَسُرَّ سفيان والى البصرة بهــذا التفويض الذى يشفى غلته ، وظل ينتظر الفرصــة لينفذ مــا طلِبَ منه وما يتوق له •

وحدث بعد ذلك أن عيسى بن على قال يوماً لا بن المقفع : سرْ الى سفيان فقل له كذا وكذا ، فقال له : وجّه معى ابراهيم بن جبلة فإنى لا آمن سفيان • فقال : كلا ، انطلقْ اليــه ولا تخف ، فانه لم يكن ليعرض لك وهو يعلم مكانك منى ، فقال ابن المقفع لإبراهيم بن جبلة : انطلق بنــا الى سفيان نبلغه رسالة الأمير • فمضيا ، فجلســا على باب الديوان ، وبعثــا الى سفيان يطلبان الإذن بالدخول عليه ، فجــاء الآذن لابراهيم ابن جبلة فدخل ، ثم خرج الآذن فأذن لابن المقفع ، فلمــا دخل عدل به الى مقصــورة أخرى فيها شيرويه الملاديسى وعتّاب المحمدى ، فأخذاه فشدّاه وقيداه ، فقال ابراهيم لسفيان : إيذن لابن المقفع • فقال سفيان للآذن : إيذن له فخرج الآذن ثم رجع فقــال : قد انصرف ، فقال سفيان لابراهيم : هو أعظم كبراً من أن يقيم وقد أذنت لك قبله . مــا أشك فى أنه قد غضب • ثم قــام سفيان وقال لابراهيم : لا تبرح حتى أعود لك ، ودخل المقصورة التى فيهــا ابن المقفع • فقال له لمــا رآه : وقعتَ والله • فقــال ابن المقفع أنشدك الله • فقــال سفيان : أمى مُغْتلمة كمــا كنت تقــول ، إن لم أقتلك قتْلةً لم يقتل بهــا أحد قط • وأمر بتَنور فسُجِر ، ثم أمر فقطعت أعضــاؤه عضواً عضواً وألقى فى التنّور ، وكان ابن المقفع وهو يَعذب ينشــد قبل أن تزهق روحه البيتين الذى ســبق إيرادهمــا :

(١) انظر صورا منهــا فى الجهشيارى ١٠٤ — ١٠٥ ا وابن خلكــان ١ : ١٥٠ •

إذا مـا مات مثلى مـات شخص
يمـوت بمـوته خـلق كثير

وأنت تموت وحـدك ليس يدرى
بمـوتك لا الصـغير ولا الكبير

ولمـا فرغ سفيان من ابن المقفع ، رجع الى ابراهيم فحدثه ساعة ، ثم خرج ابراهيم ، فقال له غلام ابن المقفع ، مـا فعل مولاى ؟ قال : مـا رأيته ، قال : بل دخل بعدك ، فقـال : ما رأيته ، ورام الرجوع الى سفيان فحُجِبَ ، وانصرف ، وانصرف معـه غلام ابن المقفع ، وهو يبكى ويصيح قَتَلَ سفيانُ مولاى (١) .

ولمـا عرف عيسى بن على وسليمان أخوه أن ابن المقفع دخل دار سفيان سليما ولم يخرج منهـا ، ثارا وتوعدا ، وخاصما سفيان الى المنصور ، وأحضراه اليـه مقيدا ، وحضر الشهود الذين شاهدوا ابنَ المقفع وقد دخل دار سفيان ولم يخرج ، فأقاموا الشهادة عند المنصور ، فقـال لهم المنصور : أنا أنظر فى هـذا الأمر ، ثم قال للشهود : أرأيتم إن قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هـذا البيت وأشـار الى باب خلفه ، وخاطبكم ، مـا ترونى صانعا بكم ؟ أأقتلكم بسفيان ؟ فرجعوا كلهم عن الشهادة ، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكره ، وعلموا أنه قُتل برغبة المنصور (٢) .

---

(١) الوزراء والكتاب ١٠٥ — ١٠٧ .
(٢) ابن خلكان ١ : ١٥٠ .

المنصور وأبو مسلم الخراسانى

مقدمة عن علاقة الفرس بالعباسيين :

كان للفرس دور كبير فى قيام الدولة العباسية ، ومن الواضح أن بلاد خراسان اختيرت بعناية ودقة لهذه المهمة الكبيرة ، وقد سبق أن أوردنا (١) رأى محمد بن على بن عبد الله بن العباس الذى استعرض به جهات العالم الاسلامى فوقع اختياره على خراسان ليغرس فيها النبت الذى شاءه ، وقد أثبتت التجارب أن خراسان كانت جديرة بثقة زعماء الحميمة •

هذا فيما يتعلق بالدور الذى لعبه الفرس متصلا بالحركات التمهيدية لقيام الدولة ، أما الجولات العسكرية التى أعلنت بعد الدور السرى فقد تمت على أرض فارسية وبسيوف الفرس • وجيوش أبى مسلم هى التى زحفت بعد الاستيلاء على مرو وخراسان فاستولت على الكوفة • وقضت بقيادة عبد الله بن على على آخر قوة أموية جمعها مروان بن محمد على نهر الزاب • كل هذا وسواه تم بواسطة الفرس ، فلماذا كان كل هذا الجهد ؟ وماذا كان هدف الفرس من هذا الصراع ؟ وهل كانت هناك أسباب خفية لذلك ؟

نعم كانت هناك أسباب خفية أفصحت عنها بعض الأحداث ، لقد ذكر المؤرخون نظرية الحق الالهى The Divine Right التى كانت سائدة فى فارس قبل الاسلام ، والتى تقضى أن الأسرة المالكة تجرى فيها دماء إلهية ، وهى بهذا صاحبة الحق فى الحكم ، وعلى الناس أن يسمعوا لها ويطيعوا ، واختيار الملوك من هذه الأسرة واجب مقدس (٢) فكان صراع الفرس فى جانب آل البيت تحقيقا لهذه النظرية •

---

(١) ص ٣١ ، ٣٢ •

(٢) انظر الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف . من الطبعة الثامنة .

هذا جانب ، وجانب آخر أهم ، هو أن بلاد فارس كانت قبل الاسلام دولة عظيمة الخطر ، وكان الفرس يعدّون العرب أقل الأمم خطرا ، فلما زالت دولة الفرس على يد العرب ، ويئس الفرس من الانتصار على العرب ، لجئوا الى حيلة أخرى هى أن يستعملوا فريقا من العرب ليضربوا به العرب الآخرين ، وليضعوا فريقهم فى كراسى السلطان ، ثم ليحكموا العالم الاسلامى عن طريق هذا الفريق أو هذه الدمى التى شاء الفرس أن تكون لها الاسم وأن يكون لهم السلطان الحقيقى ، وقد أفصح قادة الفرس أحيانا عن هذه النوايا ، ومن ذلك :

١ — كتب المنصور لأبى مسلم الخراسانى يوليه الشام ومصر بدلا من خراسان ، ولكن أبا مسلم يصرخ فى وجه هذا الاقتراح ويقول : يولينى الشام وخراسان لى (١) ؟ .

٢ — قال مؤدب المأمون فى عهد هارون الرشيد للفضل بن سهل إن المأمون لَجَميلُ الرأى فيك ،وإنى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته مال كثير . فاغتاظ الفضل من ذلك وقال للمؤدب : ألك علىّ حقد ؟ الى إليك إساءة ؟ فقال المؤدب : لا والله ، ما قلت هذا إلا محبة لك . فقال : لى إنى أحصّل عن طريقه مالا كثيرا ؟ والله ما صحبته لأكتسب منه مالاً قلّ أو جلّ ، ولكن صحبته ليمضى حكم خاتمى هذا فى الشرق والغرب (٢) .

ذلك كان هدف الفرس وقد اتضح فى تصرفات الكثيرين منهم ، اتضح فى تصرفات أبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى والبرامكة وآل سهل ، على ما رأينا آنفا ، وعلى ما سنرى فيما بعد . بيد أن العباسيين لم يكونوا فى هذا العصر من السهولة بالمدى الذى توقعه الزعماء الفرس ،

---

(١) الطبرى وابن الاثير وسيأتى ذلك مفصلا بعد قليل .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٩٧ والجشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٢٦ .

لقد كان خلفاء بنى العبـاس فى العصر الأول أبطالا عمالقـة ، وكانوا لا يقبلون أن يكونوا دمى فى يد أحد ، ومن هنـا وقع صراع طويل بين هاتين القوتين ، ومن هنـا كان الفرس يريدون إسناد الأمر للعلويين إذ كان هؤلاء الى اليسر والبساطة أقرب ، وكان يمكن أن يحقق الفرس معهم مـا عجزوا عن تحقيقه مع العباسيين ، ولكن يقظـة العباسيين حالت دون ذلك • فلم يبق إلا ثورات يقوم بهـا الفرس بشكل مباشر أو خفى ضـد الحكم العباسى ، ولم يبق على العباسيين إلا أن يضربوا بيـد من حديد كل حركة ضدهم وكل ثورة تهـدد كيانهم ، وكثيرا مـا لجأ الفريقـان الى الحيل والدسائس والمؤامرات ، لجأ لهـا الفرس لينالوا السلطان ، ولجأ لهـا العباسيون للقضـاء على مناوئيهم ، وسنسرد هنـا صورا من الحركات والمؤامرات ، التى حدثت فى عهـد المنصور ، ولا شك أن فى قمتهـا ذلك الصراع الذى حدث بين المنصور وبين أبى مسلم الخراسانى ، وهـاك الحديث عنـه :

أبو مسلم الخراسانى ومحاكمته وقتله:

يقترن اسم أبى مسلم الخراسانى بالانتصـارات التى أحرزهـا العباسيون ، أو قل : يقترن اسمه بدولة العباسيين ، ومن الحق أن نوضح أنه حين كان بنـو العباس يستمتعون بهـدوء الحميمة ، وصفاء العيش فيهـا كان أبو مسلم يحمل العبء كله فى خراسان ، لقد زوده ابراهيم الإمام حين أرسله الى خراسان ببعض النصـائح وبعث له براية النصر ، ولكنـه لم يزوده بالمـال ، ولم يرسل له فيالق الجنود ، بل ترك الأمر الى أبى مسلم ، ليجمع حوله الجند ، وتكاليف الكفاح •

وكانت فى أبى مسلم ملامح النجابة ، وقوة العزم ، والنبوغ النادر ، وكل هـذا لم يفارقه قط طيلة المدة التى لمع فيهـا اسمه ، وكان اسم أبى مسلم معروفا فى العـالم الاسلامى بأسره ، فى المـدة بين ١٢٨ و ١٣٢هـ

حينمـــا كان ابراهيم الامام وأبو العباس السفاح والمنصور لا يعرفهم إلا خاصة ذويهم فى الحميمة ، وبقى أبو مسلم بعد سنة ١٣٢هـ الدرع الواقى للدولة الجديدة ، فهـــو يحبط كل مؤامرة تثـــور فى وجهها ، وهو يرسل الجيوش والقواد لتحاصر ابن هبيرة ، وتحـــارب عبد الله بن على ويتلقى به كلمـــا حزب أمر ، أو هبت عاصفة .

ومع هـــذا فالسيفان لا يجتمعان فى جراب واحد كمـــا يقول المثل العربى ، وإذا كانت بطولة أبى مسلم أسهمت فى إقامة الدولة العباسية ، فإن بطولة أبى مسلم نفسها جعلت من المستحيل استمرار الثقة بينه وبين الخلفـــاء الذين أصبح لهم السلطان الشرعى عقب إعلان الدولة العباسية ، ولنعد للمسألة من أولهـــا :

طفولة أبى مسلم قد اختلفت فيهـــا الآراء (١) ، ولعل من أوضحهـــا أنه كان مولى لبكر بن ماهان الذى سبق الحديث عنـــه ، وعن بكر تلقى أبو مسلم أصـــول التشيع ، ثم اتصـــل بمحمد بن على سنة ١٢٥هـ ثم بابنه ابراهيم ، وكانت تظهر عليـــه مخايل النجـــابة ، وقوة العزم ، ونبوغ الشباب ، وكانت الشـــيعة بخراسان فى حاجة الى مثله ليشرعوا فى العمل ، فاختاره ابراهيم لتلك المهمة ، وأرسله الى خراسان وأوصاه (٢) .

ونزل أبو مسلم خراسان ليجـــد نفسه أمام بطل من أبطـــال العرب ، هو نصر بن سيار ، معـــه الجند والمـــال ولكن أبا مسلم أعمل الحيلة على النحو الذى سبق إيضاحه ، حتى كتب له النجاح ، ودانت له خراسان ، وزحفت جيوش أبى مسلم تتبع فلول الأمويين ، وتهاجم العراق ، حتى كتب لهـــا النصر هنا ، كمـــا كتب لها هناك .

وكان أبو مسلم غيوراً على الدعوة ، حتى لقد دبر قتل أبى سلمة الخلال حينمـــا اتهم بالميل للعلويين ، مع مـــا بين الاثنين من صـــلة

---

(١) انظر فى ذلك ابن خلكان ١ : ٢٨٠ — ٢٨١ .
(٢) الحضرى : محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ص ٢٨ .

الصداقة والرحم (١) وحينمـا اتهم سليمان بن كثير بأنه قـال لأحد العلويين : « إذا شئتم فادعونا الى مـا تريدون » لم يتردد أبو مسلم أن يستدعى سليمان ، ويسأله : أتحفظ قول الامام لى « ومن اتهمته فاقتله ؟ » فأجاب سليمان : نعم • قـال أبو مسلم : فانى أتهمك • قـال سليمان : أنشدك الله ، فأجاب : لا تناشدنى ، فإنك منطوٍ على غش الإمـام • وقتله (٢) •

وهكذا كان موقف أبى مسلم من الدعوة ومن العباسيين ، ولكن أبا مسلم كان مسرورا بالنصر الذى أحرزه ، فبدا منـه شىء من الاغتياظ أو التيه ، وكان العباسيون يخشـون أن ينقلب عليهم ، والعباسيون أعرف الناس بقدرته وشجاعته وبراعته ، وبخاصة بعد أن أصبح معـه المال والرجال •وكان المنصـور أكثر العباسيين حقدا على أبى مسلم ، وكراهية له ، أما أسباب هذه الكراهية ، فهى قبل كل شىء التنافس وخوف المروق ، يُروى أن أبا جعفر المنصور سأل سَلْم بن قتيبة : ما ترى فى أبى مسلم ؟ فأجاب سلْم : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (٣) » قال المنصور : حسبك الله أبا أمية • لقد أودعتهـا أذنا واعية (٤) •

* وقد تزعم المنصـور — منذ كان وليا للعهـد — حركة خفية ترمى الى الايقاع بأبى مسلم والفتك به (٥) • وبخاصة بعد أن زار خراسان ،

---

(١) كان أبو سلمة صهر بكر بن ماهان ، وكان أبو مسلم مولى بكر
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ٢ ة ١٦١ •
(٣) سورة الانبياء الاية ٢٢ •
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٩٣ ، ابن خلكان ١ : ٣٨٣•
(٥) ويبدو أنه من الاسباب التى دعت المنصور وهو ولى العهد أن يبغض أبا مسلم ويكيد له ، أن المنصـور كان يتوقع أن يجله أبو مسلم ويكبره ابان حيـاة السـفاح ، ولكن أبا مسلم كان يتجـه بالاجـلال والاكبـار الى الامام فقط ، ويرتفع بنفسـه عن أن ينحنى لسـواه ، وسيرد فى هـذا البحث أمثلة تؤيد هـذا الاتجاه فى أبى مسلم ونزيد هنـا مـا رواه ابن عبد ربه (العقد الفريد ١ : ٢٠) أن أبامسلم دخل على السفاح وعنده المنصور ، فسلم أبو مسلم عى أبى العباس ، فقال له : يا أبا مسلم ، هـذا أبو جعفر ، فأجاب أبو مسلم : يا أمير المؤمنين ، هذا موضع لا يؤدى فيه الا حقك •

ورأى بنفسه نفوذ أبى مسلم هناك : فعـاد السفاح يقول : لستُ بخليفة مـا دام أبو مسلم حيا (١) .

ومرت الأيام وأبو مسلم يزداد فى خراسان سلطانا وجاها ، وكلمـا توطد سلطانه بخراسان كلمـا قلّ تقديره وإجلاله لخلفـاء بنى العباس ، ويقول الجهشيارى (٢) فى ذلك : فثقلت وطأةأبى مسـلم على أبى العباس ، وكثر خلافه إياه ورده لأمره .

ولم يكن فى حول العباسيين أن يقوموا بأى تصرف ضـد أبى مسلم وهو فى خراسان ، فقد كانوا يدركون أنه هناك أقوى منهم جاها وأوسـع سلطة ، ولذلك تجدهم يلتمسون الوسائل لإخراجه من خراسان واستقدامه الى العراق حتى يكون من الممكن أن يرجحوه فى القوة والنفـوذ ، وبدأت بذلك مؤامرة صامتة ، اشترك فيهـا أبو الجهم بن عطية الذى كان ينوب عن أبى مسلم فى قصر الخليفة ، والذى وافق على أن يأتمر مع الخليفة ضـد أبى مسلم ، وكان عمله الطبيعى أن يكون ناصحا لأبى مسـلم ، وأن يكتب له مـا يجرى فى قصر الخلافة من أسرار ، ويحكى لنا الجهشيارى هـذه المؤامرة فيقول (٣) :

قال أبو العبـاس لأبى الجهم : اكتب اليـه وأشر عليه بالاستئذان فى القدوم علينـا لتجديد العهد لنـا . فكتب اليـه أبو الجهم بذلك ، فقبل رأيه وكتب مستأذنا ، فمنعه أبو العباس وقال له : خراسان لا تحتمل مفارقتك لهـا وخروجك عنهـا . وتركه شهرا ، ثم قال لأبى الجهم : أَعِدْ الكتاب بمثل ذلك . فأعاده ، فكتب أبو مسلم مستأذنا ، فمنعـه وأجابه : إنّ خروج أمير المؤمنين اليك أسهل من الإذن لك ، وإخلائك مـا قد أصلحه الله بك . ثم تركه شهرا وقال لأبى الجهم : أعد الكتـاب وأشر

---

(١) البداية والنهاية ١٠ : ٥٤ .
(٢) الوزراء والكتاب ص ٦٣ .
(٣) الوزراء والكتاب ص ٦٣ .

عليـه بأن يذكر شـدة شوقه ومحبته لمشاهدة نعمة الله عندنا . ورغبه فى الاستئذان كذلك للحج ، فكتب أبو الجهم بذلك له • وكتب أبو مسلم الى أبى العبـاس بنحو مـا كتب به أبو الجهم فوافق أبو العباس •

وهكذا جرت هـذه المناورات لإغراء أبى مسـلم بالقدوم ، ومن الواضح أن رفض أبى العباس رغبة أبى مسلم مرتين كان المقصـود به بعث الطمأنينة فى نفس أبى مسلم ، وجعله يحس بالرضا عنـه وعن سيرته بخراسان وعدم حرص الخليفة على إبعاده عنها •

ولمـا أذن الخليفة لأبى مسلم بالحضور والحج كتب له أن يحضر فى خمسمائة من الجند ، فكتب اليـه أبو مسلم : انى قد وترت الناس ولست آمن على نفسى ، فكتب اليـه : أن أقبل فى ألف ، فانمـا أنت فى سلطان أهلك ودولتك ، وطريق مكة لا يحتمـل العسكر ، وأمر السفاح القواد وسائر الناس أن يتلقوه ، ولمـا وصل أبو مسلم دخل على السفاح فأكرمه وعظمـه (١) •

وكان أبو العبـاس حينما أذن لأبى مسلم بالقدوم للحج أدرك أن من الطبيعى أن يكون أبو مسلم أمير الحج فى ذلك العـام ، ولكنه لم يرد أن يمنحـه هذا الشرف إذ كان ذلك سيزيده جلالا فى العـالم الاسلامى كله ، فكتب الى أخيـه المنصور — وكان أميرا على الجزيرة وأرمينيـة وأذربيجان — يقول : « إن أبا مسلم كتب إلىّ يستأذن فى الحج ، وقد أذنت له ، وقد ظننت أنه إذا قدم فسيسألنى أن أوليه إقامة الحج للنـاس ، فاكتب لى تستأذننى فى الحج ، فانك اذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك » فكتب أبو جعفر يستأذن فى الحج ، فأذن له ، فوافى الأنبار حيث اجتمع العدوان اللدودان بعاصمة الخلافة •

وقد انتهز المنصـور فرصة بعد أبى مسلم عن خراسان ووجوده فى

---

(١) انظر ابن الاثير ٥ : ١٧١ ، وابن خلدون ٣ : ١١٩ .

عاصمة الخلافة فى جند قليلين ، فقال للسفاح : يا أمير المؤمنين ، أطعنى ، واقتل أبا مسلم ، فو الله إن فى رأسه لغدرة ، وحاول السفاح أن يثنى أخاه عن ذلك قائلا له : يا أخى قد عرفتَ بلاءه وما كان منه ، ولكن المنصور أجاب : إنما ذلك كان بدولتنا ، ووالله لو بعثت سنورا لقام مقامه وبلغ ما بلغ فى هذه الدولة . وخضع السفاح لهذا الضغط المتواصل ، فسأل المنصورَ : كيف تقتله ؟ فأجاب المنصور : إذا دخل عليك وحادثته ، وأقبل عليك . دخلتُ فتغفلتُه ، فضربته من خلفه ضربة أتيت بها على نفسه ، فسأل أبو العباس : كيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم ؟ فأجاب المنصور : لو علموا أنه قتل تفرقوا وذلوا . ولكن التردد غلب على السفاح . فقال : عزمت عليك إلا كففتَ عن هذا .

وثابر المنصور على إصراره ، فهتف : أخاف والله إن لم تتغد به اليوم أن يتعشى بك غداً . فاستسلم أبو العباس وقال : دونكه فأنت أعلم . وبينما كان المنصور يستعد لهذا الأمر كان أبو العباس يراود نفسه ، فرجع عن موافقة المنصور ، وبعث اليه ألا ينفذ الأمر الذى عزم عليه [1] .

وإذا كان هناك وفاء فى نفس السفاح حال دون الفتك بأبى مسلم ، فان أبا مسلم لم يفلت من ضغط السفاح ، وتضييقه عليه ، ومحاولة الحد من نفوذه وسلطانه ، وقد رأينا كيف أنه حدّد لأبى مسلم عدد الجند الذين يقدم فيهم ، ليقلل من جلال موكبه ، وليزيل عظمة ركبه ، وكيف أنه لم يشأ أن يمنحه إمارة الحج واستقدم أخاه المنصور لهذا الغرض ، فلما وافى موسم الحج قال أبو العباس لأبى مسلم : لولا أن أبا جعفر حاج لوليتك الموسم ، ويهمس أبو مسلم معلقا على هذا بقوله : أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا [2] .

---

(١) الطبرى ٩ : ١٥٣ ، الامامة والسياسة ٢ : ١٧٠ ، ابن الاثير ٥ : ١٢١ .

(٢) ابن الأثير ٥ : ١٧٥ .

ويذهب الفارسان العظيمان للحج ، ويتباريان فى الإعطاء والسخاء ويحتفى الحجيج بهذا أو ذاك ، فتزيد الهوة بين الاثنين .

وبينما كان أبو جعفر وأبو مسلم فى الحجاز ، ورد الخبر بوفاة السفاح وتولية المنصور الخلافة ، ويقف أبو مسلم من المنصور موقفا كله ولاء يرويه لنا ابن الأثير (١) فيقول : إن المنصور حينما بلغته وفاة السفاح والبيعة له كتب إلى أبى مسلم يستدعيه ، فأقبل أبو مسلم اليه ، فأخبره المنصور الخبر ، فبكى أبو مسلم واسترجع ونظر الى أبى جعفر وقد جزع جزعا شديدا ، فقال له : ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟ قال أتخوف شرّ عمى عبد الله وشغبه علىّ ، فأجاب أبو مسلم : لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله ، إنما عامة جنده ومن معه من خراسان ، وهم لا يعصوننى فسُرِّىَ عن أبى جعفر ، وفى رواية أخرى لابن الأثير أيضا (٢) : أن أبا مسلم عرف الخبر قبل المنصور فكتب اليه : عافاك الله ومتّع بك ، إنه أتانى أمر قطعنى ، وبلغ منى مبلغا لم يبغله منى شيء قط، وفاة أمير المؤمنين ، فنسأل الله أن يعظم أجرك ، ويحسن الخلافة عليك ، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك ، وأصفى نصيحة لك ، وحرصاً على ما يسرك ، منى . ويسوق ابن الأثير أيضا (٣) وابن طباطبا (٤) رواية تدل على مدى استعداد أبى مسلم لخدمة المنصور ، وهاك نصها :

لما عاد أبو مسلم والمنصور من الحج قال أبو مسلم له : إن شئتَ جمعتُ ثيابى فى منطقتى وخدمتك ، وإن شئتَ أتيتُ خراسان فأمددتك بالجنود ، وإن شئت سرتُ إلى حرب عبد الله . فأمره المنصور بالمسير لحرب عبد الله .

---

(١) الكامل فى التاريخ ٥ : ١٧٢ .
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٣) المرجع السابق ص ١٧٣ .
(٤) الفخرى ص ١٤٤ .

ولبَّى أبو مسلم الأمر وزحف الى عبد الله كما سبق القول • واستطاع أبو مسلم أن يثبت عرش بنى العباس ، وأن ينتصر على أعداء الخليفة العبـــاسى •

وما إن انتهت هذه العاصفة بفضل أبى مسلم حتى أسفر المنصور عن عدائه إليه ، ووجد الفرصة سانحة ، فقد مات السفاح الذى كان درعاً له ، ثم إن أبا مسلم بعيد عن خراسان عرينه الحصين ، فصمم أبو جعفر ألا يدع أبا مسلم يعود إلى ذلك العرين ، وكانت هذه هى النقطة الفاصلة ، فبُعْد أبى مسلم عن خراسان فيه أمْن" للخليفة وتصغير" لأبى مسلم ، ووجود أبى مسلم بخراسان يُعلى قدرَه ولا يجعل أحداً يضـــاهيه فى جبروته • وسارت الأحداث سراعاً على النحو التالى :

لـــا ظفر أبو مسلم بعبد الله بن على ، بعث أبو جعفر إليه مولاه أبا الخصيب ، ليكتب ما أصاب أبو مسلم من الأموال ، فهمّ أبو مسلم بقتله ، وقال : أمين على الدماء خائن فى الأموال ؟ ثم كلَّم أبو مســـلم فى أبى الخصيب ، وقيل له : إنما هو رسول • فخلى سبيله • فرجع إلى أبى جعفر فأخبره بمـــا كان (١) •

ظهرت حينئذ الوحشة بين الاثنين ، وحرص المنصور على منعه من الرجوع إلى خراسان فكتب إليه كتاباً مع يقطين بن موسى • يقول فيه : لقد وليتك مصر والشام ، فذلك خير لك من خراسان ، فوَجّه° إلى مصر من أحببت وأقم° بالشام لتكون قريبا من أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب • فلما أتاه هذا الكتاب غضب وقال : يولينى بالشام ، **وخراسان لى ؟** فكتب الرسول الى أبى جعفر بذلك ، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعاً على الخلاف وخرج يريد خراسان ، فسار المنصور من الأنبار الى المدائن وكتب الى أبى مسلم فى المسير اليه ، فاستشار أبو مسلم خواصه ، فأشاروا عليه ألا يذهب إلى المنصور بعد ما كان بينهما ، فكتب إليه أبو مسلم :

---

(١) ابن الاثير جـ ٥ : ١٧٠ •

« إنه لم يبق لأمير المؤمنين — أكرمه الله — عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان : أن أخوف ما يكون الوزراء ، إذا سكنت الدهماء • فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيتَ ، حريّون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك ارادتها نقضتُ ما أبرمتُ من عهدك ضناً بنفسى » (١) •

وهكذا أسفر العداء ووضح البغض ، وأدرك المنصور أن إفلات أبى مسلم منه ، ووصوله الى خراسان، سيكون صدعاً للدولة ، وربما كان قضاء عليها ، فأعمل فكره ، واتخذ كل الوسائل ليحول بين أبى مسلم وبين خراسان • والحقيقة أن هذا كان امتحانا قاسيا مرّ به أبو جعفر المنصور ، واستطاع بمواهبه أن ينجح فيه ، بعد أن استغل كل السبل التى تحقق له هذا الهدف •

فأولا — أرسل إلى أبى مسلم كتاباً يردّ به على كتابه السابق وفيه : قد فهمتُ كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لِستْرِ جرائمهم ، فلمَ سوّيت نفسك بهم ؟ وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت عليه ، وليس مع الشريطة التى اشترطتَها سمعٌ منك ولا طاعة ، وحمّلَ إليك أميرُ المؤمنين عيسى بنَ موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت اليها • وأسألُ الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فانه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده من الباب الذى فتحه عليك •

وثانيا — طلب المنصور من عمه موسى بن على ومن حضر من بنى هاشم أن يكتبوا إلى أبى مسلم ، فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه ،

---

(١) الطبرى ٩ : ١٦١ وابن الاثير ٥ : ١٧٤ — ١٧٥ •

ويسألونه أن يتم ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذرونه عاقبة البغى ، ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور .

وثالثاً — لما ظهر للمنصور أن الملاينة أصبحت لا تفيد ، وعرف إصرار أبى مسلم على المسير إلى خراسان خوفاً من أبى جعفر ، ونزولاً على إشارة ناصحيه وأصفيائه ، أرسل أبا حميد المروزى وقال له : كلم أبا مسلم بألين كلام ، أمّنه وأعلمه أنى رافعه ، وصانع به من الخير ما لم يصنعه أحد إن هو صلح ورجع ، فإن أبى أن يرجع فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : لستُ من العباس ، وإنى برىء من محمد ، إن مضيتَ مشاقاً ولم تأتنى ، إن وكلتُ أمرك إلى أحد سواى ، أو لم أقاتلك بنفسى ، ولو خضتَ البحر لخضته ، ولو اقتحمتَ النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك . فذهب أبو حميد وألقى برسالة اللين واللطف واستعمل فيها أسلوباً رقيقاً عذباً وأفسح لأبى مسلم من الآمال ، ورسم له صورة رائعة للمستقبل ، ولكن أبا مسلم لم يقْبَل ، فلما يئس أبو حميد ألقى بالرسالة الأخرى وحذَّر ، فاضطربت لها نفس أبى مسلم .

ورابعاً — أرسل أبو جعفر الى أبى داود خليفة أبى مسلم بخراسان كتاباً يوليه هذه البقاع ، ليضمن انحيازه الى الخلافة ، وكان فى الكتاب : إن لك إمرة خراسان ما بقيت . وقد سُرَّ أبو داود بهذا المنصب الخطير فكتب الى أبى مسلم : إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله ، وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تخالفن إمامك ، ولا ترجعن إلا بإذنه .

وخامساً — أراد أبو مسلم أن يستوثق من الحالة لدى المنصور ، ومن هَوَى الهاشميين نحوه ، فأرسل أحد أصفيائه ، واسمه أبو إسحاق ، ولكن سرعان ما اشترك هذا أيضاً فى المؤامرة ، فإنه لما قدم على بنى هاشم أحسنوا استقباله وأجازه المنصور ، وقال له : اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان ، فرجع أبو إسحاق ولخدع أبا مسلم ، وقال له : ما أنكرت منهم شيئاً ، رأيتهم معظّمين لحقك ، يرون لك ما يرونه لأنفسهم وأشار

عليه أن يرجع الى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان (١) .

وهكذا سُدّت كل الطرق فى وجه أبى مسلم وجازت عليه الحيلة ، فلم يكن بد من رجوعه إلى المنصور .

وواصل أبو جعفر الحيلة ، وأبو مسلم فى الطريق إليه ، خوفاً من أن يتردد فيعود الى التمرد ، فنرى الخليفة يوعز الى أبى أيوب المرويانى أن يرسل إلى أبى مسلم من يخبره أن أمير المؤمنين قد عزم على أن يوليه ما وراء بابه ، ويريح نفسه ، ويتودع ، وليبلغه هذا لا على أنه رسالة ، وإنما على أنه شيء عرفه فسارع من نفسه ليبلغه : طمعاً فى أن يكافئه أبو مسلم على هذه البشرى عندما تصير له الأمور (٢) . وحين اقترب أبو مسلم من الأنبار نجد المنصور يأمر الناس بتلقّيه والاحتفاء به ، فيتلقاه بنو هاشم والناس مرحبين مستبشرين (٣) .

ووصل أبو مسلم ، ودخل على المنصور فاستقبله هذا الاستقبالا حسناً ، وقبّل أبو مسلم يده ، وجالسه ساعة ، ثم أمره المنصور أن ينصرف ليروّح عن نفسه ، ويدخل الحمام ويستريح .

والآن .. وقد تمكن المنصور من أبى مسلم كان من الممكن أن يفتك به بصور شتى . ولكن المنصور سلك طريقاً آخر جعل الفتك بأبى مسلم لوناً خاصاً فى التاريخ ، فقد استدعى المنصور أبا مسلم فى اليوم التالى لوصوله ، وأجرى له محاكمة ، أهملها بعض المؤرخين وذكرها بعضهم ، ولكن أحداً على العموم لم يبرز خطرها ، ولم يبين أهميتها . وتمتاز هذه المحاكمة بشيئين هامين :

أولهما : أن الخصم فيها كان وحده الحكم .

ثانيهما : أن الحكم كان قد حُدّد قبل بدء المحاكمة ، فإن المنصور

---

(١) الطبرى ٩ : ١٦١ وما بعدها ، وابن الاثير ٥ : ١٧٦ — ١٧٧ .
(٢) الجهشيارى ص ١١٢ .
(٣) ابن الاثير ٥ : ١٧٧ .

كان قد دعا عثمان بن نهيك ، وأربعة من الحرس ، منهم شبيب بن رواح ، وحرب بن قيس ، وأجلسهم خلف الرواق ، وأمرهم بالدخول ، وقتل أبى مسلم إذا صفق بيديه .

وجرت المحاكمة ، وكشف القناع عن تهم أبى مسلم على النحو التالى :

المنصور : أخبرنى عن سيفين لعبد الله بن على أصبتهما .

المتهم : هذا أحدهما ، وانتضاه أبو مسلم وناوله للمنصور فقلّبه وهزه ، ثم وضعه تحت فراشه .

المنصور : كتبت إلى السفاح تنهاه عن الموات ، كأنك أردت أن تعلمنا الدين .

المتهم : ظننت أنه لا يحل ، فلما أتانى كتابه اقتديت برأيه .

المنصور : أخبرنى عن تقدمك إياى بطريق مكة .

المتهم : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس .

المنصور : فجارية عبد الله بن على ، أردت أن تتخذها لنفسك ؟

المتهم : لا ، إنما وكلت بها من يحفظها .

المنصور : فمراغمتك ، ومسيرك الى خراسان ؟

المتهم : خشيت منك ، فقلت آتى خراسان ، وأكتب بعذرى فأذهب ما فى نفسك .

المنصور : فالمال الذى جمعته بحران .

المتهم : أنفقته فى الجند تقوية لكم .

المنصور : ألست الكاتب الى تبدأ بنفسك ؟ وتخطب آسية بنت على ؟ وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس ؟ ، لقد ارتقيت — لا أم

لك — مرتقى صعبا ، وما الذى دعاك الى قتل سليمان بن كثير ، مع أثره فى دعوتنا ؟

المتهم : أراد الخلاف فقتلته •

وضاق أبو مسلم بهذه التهم الصغيرة التى تتضاءل أمام كفاحه من أجل الدولة فقال : كيف يقال لى هذا بعد بلائى وما كان منى ؟

فأجابه المنصور : يا ابن الخبيثة ، لو كانت أَمَةٌ مكانك لأغنت ، انما كان ذلك بدولتنا وريحنا • فأقبل أبو مسلم يقبل يد الخليفة ويعتذر • ولكن المنصور ازداد غضبا ، فكبر ذلك على أبى مسلم وصاح :

دع هذا فانى أصبحت لا أخاف إلا الله •

فشتمه المنصور ، وصفق بيديه فخرج الكمين وأخذوه بسيوفهم حتى قتلوه ولفوه بالبساط وكان ذلك فى شعبان سنة ١٣٧هـ وخرج الوزير فصرف الناس وقال : الأمير قائل عند أمير المؤمنين ، فانصرفوا وأمر لهم بالجوائز ، ودخل عيسى بن موسى فسأل عن أبى مسلم ، فقال المنصور كان هنا • فأخذ عيسى يثنى على أبى مسلم وبلائه وطاعته فقال المنصور : والله مــا أعلم على وجه الأرض عدواً أعدى لكم منه ، هو ذا فى البساط ، فاسترجع عيسى ، فأنكر عليه المنصور وقال : وهل كان لكم ملك معه ؟

ومما قاله المنصور والسيوف تعتور أبا مسلم :

زعمتَ أن الدَّيْن لا ينقضى   فاستوف بالكيل أبــا مجرم
سُقِيتَ كأساكنتَتَسْقِى بها   أمرَّ فى الحلْق من العلقم (١)

ومما قاله أبو دلامة فى ذلك :

أبا مسلم خوفتنى القتل فانتحى   عليك بما خوَّفتنى الأسد الورد

(١) المسعودى • مروج الذهب ٢ : ٢٢٥ ومــا بعدها ، وابن الاثير ٥ : ١٧٧ — ١٧٨ ، وابن خلدون : العبر ٣ : ١٨٣ — ١٨٤ •

أبا مسـلم ما غـيَّرَ الله نعمـة على عبدِه حتى يغيِّرَها العبدُ (١)

وهكذا خَفَتَ ذلك الصوت الذى طالما أرعد ، وانكب ذلك الأسد الهصور الذى طالما أخاف وعربد .

وقد علق الاستاذ الخضرى على نهاية أبى مسلم تعليقا جديرا بالذكر نقتبسه فيما يلى (٢) :

« إن نوابغ القواد الذين خدمـوا الخلفاء وأسسـوا ملكهم انتهت حياتهم فى الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبى مسلم ، وسبب ذلك أن هؤلاء القواد يكونون فى بادى الأمر ذوى الكلمة المسموعة والسلطان الواسع بين جنودهم لأنهم هم المباشرون للحروب والوقائع وهم الذين يقدمون للجند أعطياتهم ، فاذا ساعدهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصـارات الباهرة . وقامت الدولة ببأسهم وشدة حزمهم ، لـم يكن لنفوذهم فى الدولة حد يقفون عنده ، لأنهم يرون أن الأمر انما جاء لصاحبهم بفضل مجهودهم الذى بذلوه ، فاذا كان الخليفة بعيد الهمة ذكى الفؤاد لم يسعه أن يحتمل كل هذا ، واذا ألجأته الضرورة حمله على مضض ، فاذا أمكنته الفرصة لم يتأخر عن انتهازها . وليس من طبيعة القائد الفاتح أن يضرب صفحاً عما له من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت إدراكها .

« ومع ما بدا من أبى مسلم من العسف الشديد لا نبخسه حقه ولا نتأخر عن الاعتراف بأنه كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام ولو كانت الضحايا التى ذهبت فى تأسيس الدولة أقل مما ضحى به لعددناه من كبار السواس الا أنه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة فى نظره كافية لإزهاق نفس المتهم ، فمثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات ولكن لا نصفه بحسن السياسة وسعة الدهاء ، وما رأيت أجهل من أبى مسلم فى قدومه على المنصور بعد ما احتج به على سليمان بن كثير شيخ للدعوة

(١) الاغانى ٩ : ١١٥ .
(٢) محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ص ٨١ ، ٨٢ .

بقوله : أتذكر قول الامام لى : من اتهمته فاقتله ؟ فاذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها واجبا . أفلا يكون فيما صنعه مع أبى جعفر ما يدعو الى الريبة فيه فيستحق به القتل ؟ فهو اذا كان قادما على القتل بمقتضى أصل كثيراً ما نفذه ، ولذا لا يكون قتله محلا للاستغراب « وكذلك نُولِّى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » (١) .

ويقول ابن طباطبا (٢) : وكأن المخترع لدولة يكون عنده من الدالة والتبسيط ما تأنف منه نفوس الملوك ، فكلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به .

محاولات الثأر لأبى مسلم

عقب مقتل أبى مسلم قام الفرس بحركات متعددة تعبيرا عن سخط الفرس ضد العباسيين ، وكانت هذه الحركات — من جهة أخرى — محاولة للأخذ بثأر أبى مسلم ، وسنوجز هنا القول عن اثنتين من تلك الحركات ، وسنذكر — عند الحديث عن المهدى — حركة المقنع الخراسانى (٣) التى كانت أيضاً تسير فى هذا المضمار :

(أ) سنباذ :

كان سُنْبَاذ رجلا مجوسيا من بعض قرى نيسابور ، وكان من أصحاب أبى مسلم وصنائعه ، فلما قتل أبو مسلم ثار سنباذ ، وكثر أشياعه ، وأطاعه أكثر أهل الجبال ، وغلب على كثير من بلاد خراسان ، واضطر المنصور أن يرسل اليه جيشا كثيفا خاض معه معارك واسعة ، وتظهر لنا قوة سنباذ والعدد الذى دان له بالولاء مما تذكره لنا المراجع عن القتلى الذين خروا من أتباعه فى المعارك ضد جيش الخلافة ، فقد

---

(١) سورة الانعام الاية ١٢٩ .
(٢) الفخرى ص ١٤٨ — ١٤٩ .
(٣) ص ١٢٧ .

ذكر ابن طباطبا (١) أن عدد القتلى من جيش سنباذ بلغ حوالى ستين ألفا (٢) .

(ب) الراوندية :

تنسب هذه الطائفة الى مدينة « راوند » وهى بالقرب من أصفهان ، وقد كانت هذه المدينة مهد دعوة هذه الطائفة ، ومن ثم نسبوا اليها .

وكانت هذه الجماعة تقصد الى أن تثأر لأبى مسلم الخراسانى ، ولكنها اتخذت طريقا ملتويا ترمى به أن تـُعـَمـِّى على الخليفة ، وأن تثير عليه سخط الناس ، فأظهرت له الاجلال والعبودية ، وأعلنت ألوهيته ، وأن روح الله حلت به ، وأن عبادته واجبة ، وأنه الذى يطعمهم ويسقيهم ، وقد جاءوا الى قصر المنصور فطافوا به وقالوا : هذا قصر ربنا ، فأخذ المنصور رؤساءهم وحبس منهم مائتى رجل ، وقد ثار الباقون عليه ، فخرج لهم ، ويبدو أنه ظن أنهم ربما امتنعوا عن أن يمسوه بسوء وهو إلههم كما يزعمون ، ولكنهم تكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ، وفى هذا الوقت ، قفز رجل ملثم ، وقاتل بين يدى المنصور قتالا شديدا ، وأبلى بلاء حسنا ، ولم يزل يقاتل حتى تكشف الحال عن نصر له مظفر ، وعن هزيمة ساحقة للراوندية ، وحينئذ قال المنصور : من أنت ؟ قال طـَلـِبـَتـُك يا أمير المؤمنين ، معن بن زائدة ، قال المنصور : أمنك الله على نفسك ومالك وأهلك ، مثلك يصطنع ، وأحسن اليه ، وولاه اليمن . وكان معن مستترا من المنصور بسبب قتاله مع ابن هبيرة ضد جيوش العباسيين (٣) .

وقد حدثت هذه المعركة فى مدينة « الهاشمية » (٤) ولذلك كان يطلق على هذه المعركة « الهاشمية » وقد ورد ذكر ذلك اليوم فى قصيدة مروان

---

(١) الفخرى ص ١٤٧ .
(٢) انظر كذلك ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ١٨٠ .
(٣) ابن الاثير ٥ : ١٨٧ — ١٨٨ ، الفخرى ١٢٨ — ١٢٩ .
(٤) سنتحدث عن مدينة الهاشمية عند الكلام عن « عواصم الخلافة العباسية فى هذا العصر » .

ابن أبى حفصة الذى منحه معن بن زائدة عليها ، مائة ألف درهم . ويروى المسعودى (١) أن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له : هيه يا معن ، تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم من أجل قوله :

معن زائدة الذى زيدت به شرفا على شرف بنو شيبان
إن عدّ أيام الفعال فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته لقوله :

مازلتَ يوم الهاشمية ذائداً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهنّد وسنان

قال المنصور : أحسنت يا معن (٢) .

المنصور وولاية العهد :

سبق لنا أن ذكرنا أن السفاح قبل وفاته عقد لأخيه المنصور وجعله ولى عهد المسلمين ، وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى ، فلما آلت الخلافة للمنصور عيَّن ابنه المهدى ولياً للعهد بعد عيسى بن موسى ، وكان المنصور فى السنين الأولى من خلافته يستعين بعيسى بن موسى فى الملمات ، ويلقى به فى خضم الأحداث ليدفع به النوازل ، ولقد قال له المنصور عندما ثار العلويون : والله ما يُراد إلاّ أنا أو أنت . فإما أن تذهب لقتالهم أو أذهب أنا . وقد كان عيسى يتقبل هذا بمزيد من الرضا . أليس ولىّ عهد المسلمين وهذا الملك سيئول إليه يوماً ؟

بيد أن المنصور كان يضمر شيئا آخر فإنه ما كان يحس باستقامة الأمور إليه على ما يهوى ، حتى كشف عن نيته ، ليزحزح عيسى بن موسى ويقدّم عليه ابنه المهدى ، وإن ارتكب

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٣١ — ٢٣٢ .
(٢) أنظر أيضا الاغانى ج ٩ ص ٤١ .

من أجل ذلك أبعد الشطط ، وأوقع الناس فى الحرج ، إذ كانوا قد أقسموا أغلظ الإيمان أن يحترموا الوثيقة التى دونها السفاح .

وواجه المنصور عيسى بالأمر وطلب منه زحزحة نفسه ليتقدم المهدى عليه فى ولاية النعهد ، ولكن عيسى رفض هذا الطلب وقال : ماذا أصنع بالأيمان التى فى رقبتى وفى رقاب الناس بالعتاق والطلاق والحج والصدقة ؟ ليس إلى ذلك سبيل ؛ فتغير المنصور عليه ، وباعده بعض المباعدة ، وصار يأذن للمهدى قبله ، ويجلسه عن يمينه فى المكان الذى كان يجلس فيه عيسى ، وأخذ يتقصد أذاه فكان يأمر أن يحفر الحائط من المكان الذى جلس فيه عيسى ينتظر الإذن ، وبهذا يسقط التراب على رأسه ، ثم يأذن له فيدخل دون أن ينفض التراب ، فيقول له المنصور : ياعيسى . ما يدخل علىّ أحد بمثل ما تدخل أنت به من الغبار والتراب ، أفكل هذا من الشارع ؟ فيقول عيسى : أحسب ذلك يا أمير المؤمنين ؛ وإلا يشكو .

وهناك أساليب كثيرة من هذا النوع ذكرتها كتب التاريخ (١) وكلها تدل على الضغط والقسر اللذين عومل بهما عيسى بن موسى ليستجيب لرغبة الخليفة ، وسواء كان قد استجاب عيسى أو أرغم ، سواء أتم هذا من جهته أو أن جماعة شهدوا عليه أنه خلع نفسه وهو لم يخلعها . فإن الأمر على كل حال انتهى على النحو التى تريده القوة القاهرة ، ولكن هذه القواة القاهرة لم تكتف بأن تنال مرامها ، بل ألزمت عيسى أن يواجه الناس فى المسجد الجامع ، ومعه الوزير ، ليعلن بنفسه للجموع : إنى قد سلمت ولاية العهد للمهدى ، وقدمته على نفسى . ولكن الوزير لم يكتف بهذا ، فقال : ليس هكذا أيها الأمير ولكن قل : لحقه ومكانته ، وأخبر بما رغبت فيه وأعطيت . ويعلن عيسى بعد هذا قوله : نعم قد بعت نصيبى من تقدمى فى ولاية عهد عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهدى

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ٢١٤ — ٢١٥ ، والفخرى ص ١٤٩ — ١٥٠ .

من بعده ، بعشرة آلاف درهم ، بطيب نفس منى ، ورغبت فى تصييرها إليه ، لأنه أولى بالتقدم فيها ، وأحق ، وأقوم عليها ، وأقوى على القيام بها منى (١) • فكان بعض المتجّان من أهل الكوفة اذا مر بهم عيسى بن موسى يقولون : هذا الذى كان غداً فصار بعد غد (٢) •

وفـــاة المنصور :

فى سنة ١٥٨هـ خرج المنصور حاجًا ، وفى الطريق إلى مكة عرضت لـــه العلة ، ولكنه قاومها وحث الخطا ، بيد أن الموت نزل به قبيل دخوله مكة فى السادس من ذى الحجة •

---

(١) الجهشيارى ص ١٢٧ .
(٢) المصدر السابق .

المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد المهدى بالحميمة سنة ١٢٦ هـ ، وعندما تولى المنصور الخلافة كان المهدى فى العاشرة من عمره وكان عيسى بن موسى ولياً لعهد المنصور تبعاً لعهد السفاح ، ولكن المنصور عنى بابنه المهدى ليؤهله لولاية عهده ، فاتجه لتثقيفه ، كما اتجه لتعليمه البطولة وقيادة للجيوش ، فأما فيما يتعلق بتثقيفه فقد عهد به إلى المفضل الضبى الذى تولى تعليمه اللغة والأدب ، وحبب له الشعر والفصاحة ، وقد ألف له المفضل كتاب « أمثال العرب » وجمع له مختارات شعرهم فى « المفضليات » ، فنشأ المهدى فصيحاً يقول الشعر ويجيده ويحفظ كثيراً منه ومن أمثال العرب (١) .

أما البطولة وقيادة الجيوش فإنا نجد المنصور يدفعه إليها منذ بلغ الخامسة عشرة ، فقد أرسله إلى خراسان وطبرستان على رأس جيوش كبيرة للقضاء على فتن وثورات بها ، وبخاصة فتنة على الجبار بن عبد الرحمن الأزدى (٧٥٧) الذى كان عاملا للمنصور على خراسان وتمرد عليه ، وطبيعى أن المنصور وضع مع ابنه خيرة القواد ومشاهير الأبطال ليضمن النصر لجيش المهدى ، وعقب انتصار المهدى فى هذه الحروب تزوج ريطة بنت عمه السفاح سنة ١٤٤ هـ .

واكتمل المهدى ثقافياً وحربياً فولاه أبوه العهد ثم قدمه على عيسى ابن موسى كما ذكرنا آنفاً ، واستعان به أبوه فى إدارة شئون خراسان ، ولما عاد من الرى بنى المنصور له ولجنده مدينة الرصافة سنة ١٥١ هـ ثم جعله أميراً للحج سنة ١٥٣ هـ .

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٩١ .

و فى سنة ١٥٨ هـ ذهب المنصور ليحج وترك المهدى نائباً عنه ببغداد ، فمات المنصور فى رحلته كما سبق ، وتمت البيعة للمهدى عقب ذلك ، وكان أبو دلامة الشاعر أول من هنأ المهدى بالخلافة ، وعزاه فى وفاة أبيه ، وكانت قصيدته فى ذلك رقيقة جميلة نقتطف منها الأبيات التالية :

عيناى : واحـــدة ترى مسرورة	بأميرها جذلى ، وأخــرى تذرف
تبكى ، وتضحك تارة ، ويسوؤها	مـــا أنكرت ، ويسرها مـــا تعرف
فيسؤوها موت الخليفة مُحْرِماً	ويسرُّها أن قـــام هـــذا الأرأف
أهدَى لهذا الله فضلَ خلافـــةٍ	ولذاك جنات النعيم تزَخرَف (١)

بين عهدين :

يبدو الفرق واضحاً جداً بين عهد المنصور وعهد المهدى ، فالمنصور — وعهده يعتبر امتداداً لعهد أخيه السفاح — كان يبنى دولة ويؤسس ملكا ، وكان له أعداء يقفون فى طريقه ، وأمامه صعاب تعترض تقدمه ، وكانت الخزانة فى أول عهد المنصور خاوية لكثرة ما أعطى السفاح للأصـــدقاء والجند يستميلهم ويشجعهم ، لهذا نجد عهد المنصور يمتاز بالبطش والعنف ، ويمتاز كذلك بالحرص والبخل ، وكلا الاتجاهين ردّ فعل للأحداث حوله ، ليقضى على أعدائه ويزيل من طريقه الصعاب ، ثم ليوطد بالمال ملكه ؛ ويجىء عهد المهدى وقد استقرت الدولة وأمنت على نفسها وتغلبت على أعدائها ، واتسعت مقدرتها المالية ، ومن أجل هذا اشتهر المهدى باليسر والرخاء وبإصلاحات داخلية رائعة تدل على نضج فى التفكير ، ورقى فى الإدارة والسياسة ، وسنتحدث عن هذه الإصلاحات فيما يلى :

إصلاحاته الداخلية :

بدأ المهدى عهده ، بأن أطلق المسجونين إلا من كان محبوساً بأمر القضاء ، كما أجرى الأرزاق على مَنْ بقى مسجونا وعلى المجذومين ،

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٠٦ — ١٠٧ .

وكانوا من قبل يتركون فريسة للجوع إلا أن يموتهم ذووهم ، وأمر المهدى بالزيادة فى المسجد الحرام ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان المهدى أول خليفة عباسى جلس للنظر فى المظالم ، وكان إذا جلس قال : أدخلوا علىّ القضاة حتى يتحتم علىّ ردّ المظالم ولو بدافع الحياء منهم ، ومن المظالم التى أنصفها المهدى تلك القضية التى يقصّ خبرها مسور بن مساور ، قال : ظلمنى وكيل المهدى وغصبنى ضيعة لى . فكتبت الى المهدى أتظلم ، فوصلت الرقعة وعنده عمه العباس وأحد قضاته ، فاستدعانى المهدى وسألنى عن حالى فذكرته ، فقال : أترضى بأحد هذين ؟ قلت : نعم . فاستدعانى حتى التصقت بالفراش وحاكمنى ، فقال له القاضى : أطلقها له يا أمير المؤمنين . قال : قد فعلت (١) .

وأمر المهدى ببناء القصور فى الطرق المؤدية إلى مكة لحراسة المسافرين وإيوائهم ، وكذلك أمر ببناء الأحواض التى يستقى منها رجال القوافل ويسقون منها دوابهم ، وأكثر من الآبار والتكايا وعمر ما كان منها موجوداً ، وأقام المهدى البريد بين بغداد وأشهر المقاطعات الإسلامية .

وقد سبق أن ذكرنا أن المنصور أوصى المهدى أن يرد الأموال التى صادرها إلى أصحابها ، وكان المنصور قد احتفظ بهذه الأموال وعليها أسماء أصحابها ليحبب ابنه إلى الناس .

ومن مآثر المهدى أنه رفع عن دافعى الضرائب المؤن والكسور ؛ فمن جهة المؤن قضى المهدى أن يتحمل بيت المال نفقات جباة الأموال ، وكان على الناس من قبل أن يتحملوا هذه النفقات ، وأما الكسور فقصتها : أن الناس حتى عهد المنصور كانوا يؤدون الخراج بالدرهم الوافى وهو ثمانية دوانيق لا بالدرهم المستعمل بين الناس وهو ستة دوانيق ، فلما ولى المهدى قال : معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً ، فقيل له : إن أسقط

---

(١) ابن الاثير . الكامل فى التاريخ ، ج ٦ ص ١٩ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ .

أمير المؤمنين هذا خسرت بيوت الأموال ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢ من الدراهم فى العام . فقال : علىّ أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً مهما نقصت بيوت الأموال (١) .

وليس هذا كل ما فعله المهدى مع أهل الخراج ، بل إنه أمر أن يطالبوا باللين واليسر وكانوا من قبل يعذبون بصنوف من العذاب ، فلما تقلد المهدى الخلافة تقدم الى عبد الله وزيره ، أن يكتب الى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج (٢) .

المهدى والعلويون :

وقرّب المهدى العلويين ، وأطلق المسجونين منهم ، وأوقف اضطهادهم الذى عانوه فى عهد أبيه ، وكان السبب فى ذلك أنه كان يصلى فى بهو فى ليلة مقمرة ، فقرأ فى صلاته قوله تعالى « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » (٣) فلما أتم صلاته التفت إلى الربيع بن يونس وقال : يا ربيع ، استدع لى موسى بن جعفر . وكان هذا محبوساً عند الربيع ، فلما حضر موسى قال له المهدى : يا موسى إنى قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثّق لى أنك لا تخرج علىّ . قال : نعم ، ووثق له . فخلاّه (٤) .

ومما زاد فى إحسان المهدى للعلويين مكانة يعقوب بن داود منه ، فقد كان هذا كبير الميل للعلويين ، وقد انتهز فرصة رضاء المهدى عنه وتقريبه له فأمّن العلويين . وولى كثيراً من الزيدية أعمالا للدولة فى الشرق والغرب (٥) ولما حج المهدى سنة ستين ومائة وفى صحبته يعقوب بن داود أخذ هذا منه أمانا للحسن بن عبد الله بن الحسن ، وأحضره له

---

(١) جميل نخلة مدور ، حضارة الاسلام فى دار السلام ٦٤ — ٦٥ ، وانظر الماوردى . الاحكام السلطانية ص ١٣٨ .

(٢) الجهشيارى ة الوزراء والكتاب ١٤٢ — ١٤٣ .

(٣) سورة محمد الاية ٢٢ .

(٤) ابن الاثير ج ٦ ص ٢٨ .

(٥) الجهشيارى ص ١٥٨ .

فأحسن إليه المهدى ووصله بمال ، وأقطعه مالا من الصوافى بالحجاز ، وأحمدَ فعلَ يعقوب فى ذلك (١) .

المسعودى وإصلاحات المهدى وكرمه :

يقول المسعودى فى ذلك (٢) : كان المهدى محبباً الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر فى المظالم ، والكف عن القتل ، وتأمين الخائف ، وإنصاف المظلوم ، وبسط يده فى العطاء ، فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ٦٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الدراهم و ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ من الدنانير سوى ما جباه فى أيامه ، فلما فرغت بيوت الأموال أتى أبو حارثة الهندى خازن بيوت أمواله ، فرمى بالمفاتيح بين يديه وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فرغ ما بها ، ففرق المهدى عشرين عاملا لجباية الأموال ، فوردت الأموال بعد أيام قلائل ، فتشاغل أبو حارثة عن الدخول على المهدى ثلاثة أيام ، فلما دخل عليه : قال له المهدى : ما أخرك ؟ قال : الشغل بتصحيح الأموال . قال المهدى : أنت أعرابى أحمق ، كنت تظن أن الأموال لا تأتينا إذا احتجنا إليها ؟ قال أبو حارثة : ان الحادثة اذا حدثت لم تنتظرك حتى توجه فى استخراج الأموال وحملها . وقيل : إن المهدى فرق فى عشرة أيام من صلب ماله عشرة آلاف درهم ، فعند ذلك قام شبة بن عقال على رأسه خطيباً فقال : وللمهدى أشباه ، فمنها القمر الزاهر ، والربيع الباكر ، والأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، فأما القمر الزاهر فأشبهَ منه حسنَه وبهاءه ، وأما الربيع الباكر فأشبه منه طيبه وهواءه ، وأما الأسد الخادر فأشبه منه عزمه ومضاؤه ، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وسخاؤه .

وكان سرف المهدى مقصوداً له ، حكى الجهشيارى (٣) : أن المهدى أراد أمراً فقال له يعقوب بن داود : هذا يا أمير المؤمنين السرف ، فقال

---

(١) الجهشيارى ص ١٥٦ .
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .
(٣) الوزراء والكتاب ص ١٥٩ وانظر كذلك ابن الاثير ج ٦ ص ٢٤ .

المهدى : ويلك ! ! وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف ؟ ويلك يا يعقوب ! لولا الإسراف لم يعرف المقل من المكثر .

وقد سبق أن أوردنا قصة المؤمل الشاعر مع المهدى فى عهد المنصور ، تلك القصة التى تدل على كرم المهدى وسخائه ، ونضيف الآن قصة أخرى تدل على هذا السخاء ، ذكر عبد الأعلى بن عبد الله الجمحى أنه حمل دَيْنا فى معسكر المهدى ، وأن المهدى ركب يوماً بين اثنين من رجاله أحدهما اسمه عبد الله والثانى اسمه عمر بن بزيغ ، وركب الجمحى خلفهم على برذون قطوف [ضعيف المشى] ، فقال المهدى : ما أنسبُ بيت قالته العرب ؟ فقال عبد الله :

وما ذرفت عيناكِ إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتَّل

فقال المهدى : هذا أعرابى قح . فقال عمر بن بزيغ : قول كثير :

أريد لأنسى ذكرها ، فكأنها تمثَّلُ لى ليلى بكل سبيل

فقال المهدى : ما هذا بشىء ، إنه يحاول أن ينسى ذكرها ، فقال الجمحى : حاجتك عندى يا أمير المؤمنين ، فقال : الحقنى . قلت : لا لحاق لى مع دابتى . فقال المهدى : احملوه على دابة قوية . فقلت : هذا أول الفتح . وحُمِلتُ عليها فلحقته ، فقال : ما عندك ؟ قلت : قول الأحوص :

إذا قلتُ إنى مشتفٍ بلقائها فحُمَّ التلاقى بيننا ، زادنى سقما

فقال : أحسنت والله . اقضوا دينه (١) .

المهدى والندماء والشراب :

وكان المهدى أول أمره يحتجب عن الندماء متشبهاً بالمنصور نحواً من سنة ، ثم ظهر لهم ، فأشار عليه أبو عون بأن يحتجب عنهم ، فقال : إليك

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٤٤ — ١٤٥ .

عنى يا جاهل ، إنما اللذة فى مشاهدة السرور ، وفى الدنو ممن سرنى ، فأما من وراء ، فما خيرها ولذتها ؟ ولو لم يكن فى الظهور للندماء والإخوان إلا أنى أعطيهم من السرور بمشاهدتى مثل الذى يعطوننى لجعلت لهم ذلك حظاً وافراً (١) :

وكان المهدى لا يشرب النبيذ ، ولكن أصحابه كانوا يشربون عنده فكان يعقوب بن داود ينهاه عن ذلك ويعظه ، ويقول : ليس على هذا استوزرتنى ولا عليه صحبتك ، أبعد الصلوات الخمس فى المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ ؟ فضيق على المهدى حتى قيل :

فدع عنك يعقوب بن داود جانبا   وأقبل على صهباء طيبة النشر(٢)

مزيد من صفات المهدى :

وكان المهدى كثير العطايا ، يواترها ، قلَّ مَنْ حضره إلا أغناه ، وكان لين العريكة ، سهل المعاملة لذيذ المنادمة ، ضاحك السن ، قليل الأذى والبذاء (٣) .

وكان كثير العفو ، يروى أنه عتب غير مرة على أحد القواد ، وقال له فى آخر الأمر : إلى متى تذنب ؟ فأجاب : إلى أبد نسىء ، ويبقيك الله فتعفو عنا ، فاستحيا منه ورضى عنه (٤) .

ومن حيله الطريفة التى لجأ إليها ليقلل من ورع أحد علماء عصره وعفته ، ما ذكره الفضل بن الربيع قال : دخل شريك — وكان كثير الورع والابتعاد عن مواطن الشبه — على المهدى يوما ، فقال له المهدى : لابد أن تجيبنى إلى خصلة من ثلاث . قال : وما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال :

---

(١) الجاحظ : التاج ٣٤ — ٥٢ .
(٢) ابن الاثير ٦ : ٢٤ .
(٣) الجاحظ : التاج ص ٣٥ .
(٤) ابن الاثير ٦ ، ٢٧ .

إما أن تلى القضاء ، أو تُحدِّث ولدى ، وتعلمهم ، أو تأكل أكلة . ففكر شريك ثم قال : الأكلة أخفهن على نفسى . فطلب المهدى إلى الطباخ أن يُعدّ له مائدة كثيرة الخير . ويدأ شريك يأكل ، واستهواه الطعام اللذيذ فأكل حتى شبع ؛ قال القيم على المطبخ للمهدى بعد ذلك : يا أمير المؤمنين ليس يُفلِح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً . قال الفضل بن الربيع : فمال شريك بعد هذا إلى حياة الرخاء ؛ فَوَلِىَ القضاء ، وعلم الأولاد ، وحدَّث ، ولقد كُتِبَ بأرزاقه مرة إلى الجِهْبِذ فاختلفا عند الدفع ، فقال الجهبذ : إنك لم تبع قمحا . قال له شريك : بلى والله لقد بعت أعظم من القمح ، لقد بعتُ دينى [1] :

وزراء المهدى

لم يكن للوزراء فى عهد المنصور نفوذ يذكر بسبب قوة الخليفة وحرصه على أن يدبر الأمور بنفسه ، ولذلك كان الوزراء بجواره قوة تنفيذية فقط تعمل بوحيه وإرشاده ؛ دون سلطان أو ابتكار ، فلما جاء عهد المهدى واستقرت الأمور ، لجأ الخليفة إلى شىء من الدعة ، وَوَكَل كثيراً من الأمور للوزراء يديرونها حسبما يرون ، وربما دعاه الى ذلك مكانةُ أول وزرائه أبو عبيد الله معاوية بن يسار الذى كان مثالا نادراً فى الكفاءة والنزاهة ، فاطمأن له المهدى وترك له أمور الدولة ، وقد حسده الربيع بن يونس ودبَّر ضده الحيل ، وحاك المؤامرات ليتخلص منه ، ونجح الربيع فى دسه وائتماره كما سيأتى خبر ذلك مفصلا عند الكلام عن ابن يسار فى « مشاهير وزراء العصر » .

يعقوب بن داود :

واستوزر المهدى بعد ابن يسار يعقوبَ بن داود بن طهمان وكان

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤٧ .

وابناه : علىٌ ويعقوب ، كتابا لنصر بن يسار أمير خراسان (١) ، وكان يعقوب يعتنق مذهب الشيعة ، وقد التحق هو وأخوه فترة بإبراهيم بن عبد الله بن الحسن ، فلما قُتِل ابراهيم سُجِن يعقوب فى عهد المنصور ، وظل بالسجن حتى أطلقه المهدى مع من أطلق من المسجونين .

وتحالفت ظروف كثيرة لصالح يعقوب ، فقد كانت وزارة المهدى فى يد أبى عبيد الله بن يسار وكان الربيع بن يونس يكيد له ، فوجد الربيع من الضرورى أن يدفع لساحة المهدى رجلا له كفاءة ممتازة ، وشخصية قوية ، ليتحول انتباه الخليفة إليه ، ولينازع أبا عبيد الله فى مكانته ، وفى الوقت نفسه كان المهدى يخاف من بنى الحسن أن يحدثوا أمراً لا يُتَدارك ، فطلب رجلا له أُنْس ببنى الحسن ليستعين به على أمرهم ، فدله الربيع على يعقوب بن داود ، فاستحضره المهدى وخاطبه ، فرأى أكمل الناس عقلا وأفضلهم سيرة ، فشغف به ، واستخلصه لنفسه (٢) .

وبدأت بكل هذا كفة معاوية بن يسار تشيل ، وأخذت كفة يعقوب ترجح ، وانتهى الأمر بعزل معاوية وإسناد الأمر كله ليعقوب ، فاستوزره الخليفة واتخذه أخاً فى الله ، وفوض إليه الأمور كلها وسلم إليه كل الدواوين ، وشغل الخليفة وقته باللهو واللعب وسماع الأغانى ، وسعد بعض الناس بمكانة يعقوب من المهدى ، وسخط آخرون ، وممن باركوا هذه الصلة سَلْم الخاسر الذى يقول :

قل للامام الذى جاءت خلافته   تُهْدَى إليه بحق غير مردود

نعم المعين على التقوى أعِنْتَ به   أخوك فى الله يعقوب بن داود

وعبّر بشار بن برد عن سخط الآخرين بقوله :

بنى أمية هبوا طال نومكم   إن الخليفة يعقوب بن داود

---

(١) ابن طباطبا ، الفخرى ص ١٦٠ .
(٢) المرجع السابق .

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا   خلافة الله بين الناى والعود (١)

وعمل يعقوب على التقريب بين الخليفة وبين بنى الحسن ، فأخذ أماناً للحسن بن عبد الله بن الحسن واستحضره ، فأحسن إليه المهدى ، ووَصَلَه بمال ، وأقطعه أرضاً ، وأحمد فعل يعقوب فى ذلك كما سبق (٢) .

وكأنما كانت ميول المهدى الطيبة نحو العلويين مشجعاً ليعقوب ليزيد صلته بالعلويين قوة ، فاتخذ أعداء يعقوب ذلك وسيلة لإثارة المهدى ، وبخاصة أن يعقوب أرسل الى العلويين فأتى بهم من كل ناحية ، وولاهم أمور الخلافة فى الشرق والغرب ، وكان ذلك مما أخذ عليه (٣) .

وبدأ الخليفة يشكّ فى ولاء يعقوب إليه ، ودخل فى روعه أن يعقوب لا يزال على ولائه للعلويين ، فأراد المهدى أن يمتحنه فى ذلك ، فدعا به يوماً وهو فى مجلس فرشُهُ موردّة ، وعليه ثياب موردة ، وبين يديه جارية لم يُرَ أحسن وجهاً منها ، ويقع المجلس وسط بستان رائع . ثم قال الخليفة : يا يعقوب ، كيف ترى هذا المجلس ؟ قال : فى غاية الحسن ، فمتّع الله أمير المؤمنين به ، قال المهدى : فهو لك وجميع ما فيه ومائة ألف درهم ، وهذه الجارية ، ليتم سرورك ، فدعا له يعقوب بما يجب .

وقال له المهدى : لى إليك حاجة أريد أن تضمن لى قضاءها .

قال يعقوب : أنا عبدك الطائع لجميع ما تأمر به .

قال المهدى : تقسم بالله وتضع يدك على رأسى وتقسم به ثلاثاً أنك ستفعل .

فأقسم يعقوب بالله وبرأس الخليفة ثلاثاً أنه سيفعل ما يريده الخليفة ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٦١ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١١٥ .
(٢) الجهشيارى ص ١١٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١١٨ .

فذكر لـه الخليفة رجلا علوياً وقال له : أحب أن تكفينى أمـره فانى خائف أن يخرج علىَّ .

قال يعقوب : سمعاً وطاعة .

وجعل يعقوبُ الجارية قريبة منه لشدة سروره بها وفرط حرصه عليها ، ووجَّه للعلوى فأحضره وخاطبه فوجده لبيباً ذكياً ، وأحسَّ العلوى بما يُراد به فقال ليعقوب : ويحك يا يعقوب ، تلقى الله بدمى ، وأنا رجل من ولد فاطمة وليس لى ذنب ؟ قال يعقوب : لا والله ، خذ هذا المال وانج بنفسك ، وكانت الجارية ترى ذلك فأرسلت الى الخليفة من يعلمه به ، فشحن الخليفة الدروب بالرجال حتى حصَّل العلوى وجعله فى بيت قريب من مجلسه ، ثم استدعى يعقوب بعد عدة أيام وسأله عن العلوى فقال : أراح الله منه أمير المؤمنين . قال المهدى : قد مات ؟ قال يعقوب . نعـم قال : بالله ؟ قال يعقوب : أى بالله . فطلب المهدى من يعقوب أن يضع يده على رأسه ويقسم على ذلك ، ففعل . فقال المهدى لغلام له : أخرج إلينا مَنْ فى هـذا البيت ، فأخرج العلوىَّ . فلما رآه يعقوب تحـير وامتنع عليه الكلام فما درى ما يقول . فقال له المهدى : قد حلَّ لى دمك ، ولو آثرت إراقته لأرقته ، ولكن احبسوه فى المطبِق (سجن مظلم تحت الأرض) فحُبِس به ، وأمر أن يطوى خبره عنه وعن كل أحد ، فأقام فى الحبس ما تبقى من عهد المهدى وجميع أيام الهادى وخمس سـنين وشهرين من أيام الرشـيد .

ثم ذكَّر يحيى بن خالد الرشيد به ، وشفع إليه فيه ، فأمر بإخراجه ، فأخرج وقد ذهب بصره ، فأحسن إليه الرشيد وردَّ إليه ماله ، وقال له : ما تريد يا يعقوب ؟ قال : يا أمير المؤمنين ما بقى فىَّ مستَمْتَع ولا بلاغ ، وأريد المجاورة بمكة ، فأمر له بما يصلحه ، وذهب إلى مكة وجاور بها ، حتى مات سنة ١٨٦ هـ (١) .

---

(١) الجهشيارى . الوزراء والكتـاب ص ١١٩ — ١٢١ والفخرى لابن طباطبا ص ١٦١ — ١٦٢ .

الفيض بن ابى صالح :

والفيض بن أبى صالح من أهل نيسابور ، كان ذووه نصـــارى ، فانتقلوا الى بنى العباس وأسلموا ، وتربى الفيض فى الدولة العباسية وتأدب وبرع ، وكان سخياً مفضالاً متخرّقاً فى ماله ، جواداً عزيز النفس كبير الهمة كثير التيه والكبر ، وكان يحيى بن خالد إذا اســتعظم أحدٌ كَرَمَه وجودَه قال : لو رأيتم الفيض لصغر عندكم أمـرئ (١) ، وفى كرمه يقول الشـــاعر :

ولائمــة لامتْك يــا فيض فى النــدى
فقلت لهــا لن يقدح اللــوم فى البحر
أرادت لتَثْنِى الفيض عَن سَنَنِ الندى
ومن ذا الذى يَثْنِى السحاب عن القطر

وكان الفيض قد وصف للمهدى لما عزم على إبعاد يعقوب بن داود ، فلما قَبَض عليه أحضر الفيض واستوزره وفوض الأمور إليه ، ومات المهدى وهو وزيره ، فلما ولى الهادى لم يستوزره ، وبقى الفيض الى أول عهد الرشيد حيث مات سنة ١٧٣ هـ .

كبار الشخصيات فى عهد المهدى :

لمع أفراد من أسرة البرامكة فى عهــد المهدى كما لمعوا من قبل فى عهدى السفاح والمنصور ، وسنخصص للبرامكة حديثاً خاصاً فيما بعد .

ومن كبار الرجال فى دولة المهدى أيضاً شريك القاضى وعافية القاضى

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتــاب ص ١٢٣ — ١٢٥ والفخرى لابن طباطبا ص ١٦٣ — ١٦٥ .

ومالك بن الهيثم ، ويزيد بن منصور خال المهدى والمشرف على تربية الهادى ، وأبان بن صدقة (١) •

المهدى والمقنع الخراسانى :

ولعل حركة المقنع الخراسانى كانت محاولة فارسية للثأر لأبى مسلم الخراسانى أيضاً ، او أنها كانت محاولة فارسية لسلب النفوذ والسلطة من العباسيين •

وقد ظهر المقنع الخراسانى فى مدينة مرو ، وكان رجلا أعور قصيراً ، يسمى المقنع لأنه عمل لوجهه قناعا من ذهب ليغطى عَوَرَه ، وادعى المقنع الألوهية ، وكان يقول : إن الله خلق آدم ثم تحول فى صورته ، ثم خلق نوحاً وتحول فى صورته وهكذا للى أبى مسلم الخراسانى ، وسمى نفسه هاشما ، وكان يقول بالتناسخ ، وبايعه خلق كثيرون ، وكانوا يسجدون له ، ويتجهون بسجودهم إليه إذا كانوا بعيدين عنه •

وكان ظهور المقنع فى عهد المهدى ، وقد أقلق الخليفة ظهوره وبخاصة أن أتباعه كثروا وأحرز بعض الانتصارات ، وأسر كثيراً من نساء المسلمين وأطفالهم ، وقد أرسل إليه المهدى جيشاً كبيراً ولكنه اعتصم بقلعة عز تسلقها ، وطال الحصار حتى يئس المقنع من النجاة فأشعل ناراً وألقى بنفسه فيها ولحق به كثيرون من أهله والمؤمنين به •

المهدى وولاية العهد :

اتجه المهدى إلى جعل الخلافة لابنيه الهادى والرشيد ، ولكن عيسى ابن موسى — الذى كان ولياً للعهد بعد المهدى بوصية من المنصور — كان يقف حائلا دون تحقيق هذه الرغبة •

---

(١) انظر الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٠٤ و ١٠٦ •

ومن سوء حظ عيسى بن موسى أنه عانى مرتين الاضطهاد والتعسف بسبب ولاية العهد ، وقد ذكرنا المرة الأولى فى عهد المنصور ، وهو الآن فى عهد المهدى يواجه هذا العناء للمرة الثانية ؛ يقول الجهشيارى (١) : ولما حال الحول على المهدى فى الخلافة ، تقدم الى أبى عبيد الله بمناظرة عيسى ابن موسى على أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، فناظره وقـال له : إن المنصور قدّم المهدى عليك وعوضك ، فإن أخرجت نفسك من هذا الأمر عوضك المهدى ما هو أنفع لك وأبقى عليك ، وإن أبيت استحل منك المحظور بمعصيتك وخلافك أمره ، وقد لزمتك طاعته ووجب عليك القبول منه . ويضيف ابن الأثير (٢) أن عيسى رفض أن يذعن لهذه الرغبة فأوعز المهدى الى أمير الكوفة أن يعمل على الإضرار به ، ولكن هذا لم يجد سبيلا الى الإضرار بعيسى لأنه كان مقيما بالرّحبة بالقرب من الكوفة ، وكان لا يأتى الكوفة إلا قليلا ، فاستقدمه المهدى الى بغداد فامتنع عن القدوم ، ولكن المهدى أرغمه على الحضور ، وأوعز الى بعض رجاله لينكلوا به ويسيموه العذاب فى بغداد . وإزاء هذا العنت لم يجد عيسى بدا من الاستسلام ، فخلع نفسه ، واستطاع المهدى بذلك أن يجعل ابنه الهادى ولياً للعهد سنة ستين ومائة . وفى سنة ست وستين ومائة أخذ المهدى البيعة بولاية العهد لابنه هارون الرشيد ، ليكون خليفة بعد أخيه موسى الهادى .

وفـــاة المهـــدى :

اختُلِفَ فى سبب موت المهدى فقيل إنه طارد ظبياً فى إحدى مرات خروجه للصيد ، فدخل الظبى بابَ خربةٍ ، فدخل فرس المهدى خلفه دون أن يتمكن المهدى من ردّه ، وكانت عتبة الباب العليا غير مرتفعة ، فاصطدم بها الخليفة ، وسقط ومات لساعته ، وقيل إن إحدى جواريه جعلت سماً

---

(١) الوزراء والكتاب ص ١٤٥ — ١٤٨ .
(٢) الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ١٥ .

فى بعض المآكل لجارية أخرى ، فأكل المهدى منه تظرفاً وهو لا يعلم ، فمات ؛ وقال أبو العتاهية يصف جواريه وقد برزن بعد موته يبكينه وعليهن المسُوح .

رحن فى الوشى وأقبلـــ ـــن عليهن المســوح
كل نطاح لـه يــو ما من الدهر نَطُوح
لستَ بالباقى ولو عُمِّرتَ ما عُمِّر نوح
فعلى نفسك نُح إنْ كنت لابد تنوح (١)

(١) الفخرى ص ١٥٧ .

الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

استطاع المهدى — كما ذكرنا آنفاً — أن يزيل عيسى بن موسى من طريق ابنه الهادى ، ثم عيّن ابنه الهادى ولياً للعهد سنة ١٦٠ هـ ثم عاد فعين الرشيد سنة ١٦٦ هـ ولياً للعهد بعد الهادى . ولما توفى المهدى تمت البيعة للهادى ، وكان الهادى آنذاك بجرجان يقود جيوش الخلافة فى حروب ضد العصاة والمتمردين هناك ، وكان أخوه هارون بالعاصمة ، فأخذ هارون البيعة للهادى وأرسل إليه يعزيه ويهنئه .

ويصف ابن طباطبا (١) الهادى بأنه كان متيقظا ، غيوراً ، كريماً شهماً ، أيّداً ، شديد البطش ، جرىء القلب ، مجتمع الحِس ، ذا إقدام وعزم وحـزم .

ويقول الجاحظ عن الهادى (٢) : كان الهادى شكس الأخلاق ، صعب المرام ، قليل الإغضاء ، سيىء الظن ، قلّ من توقّاه وعرف أخلاقه إلا أغناه ، وما كان شىء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال ، وكان يأمر للغنى بالمال الخطير الجزيل ، فيقول : لا يعطينى بعدها شيئا ، فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية .

ومن فصاحة الهادى ما قاله لابراهيم بن مسلم بن قتيبة وقد مات له ولد فاشتد حزنه عليه ، فقال له الهادى : يا إبراهيم ، سرّك ابنك وهو عدوٌّ وفتنةٌ وحَزَنَكَ وهو صلاة ورحمة ؟ قال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، ما بقى منى جزء فيه حزن إلا امتلأ عزاء (٣) .

---

(١) الفخرى ص ١٦٥ .
(٢) التاج فى أخلاق الملوك ص ٣٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١٦٦ ، ويروى الجهشيارى هذه القصة على أن الطفل ابن ابراهيم الحرانى (انظر ص ١٢٩) .

ذكاء وحيلة :

ومن ذكاء الهادى وحسن تصرفه عند الملمّات ما يرويه المسعودى (١) أنه كان فى بستانه يوماً فجاءه رجاله وقد ظفروا ببطل من أبطال الخوارج ، فأمر بإدخاله ، فلما قرب الخارجى منه نزع سيفاً من أحد الحرس وتأهب للاعتداء ، فهرب منه الحرس خوفاً ، وأقبل الخارجى يريد قتل الهادى ، ولكن الهادى ظل رابط الجأش ، حتى قرب منه الخارجى ، فصاح الهادى : اضرب عنقه . فتوهم الخارجى أن خلفه أحد أتباع الهادى فاستدار إليه ، وحينئذ انقضّ الهادى عليه ورمى به الى الأرض وأخذ السيف منه وقتله به .

عزم الهادى ويقظته :

وكان الهادى حازماً ، يعرف اللهو ، ولكن اللهو لا يشغله عن واجبه . بل يعطى الجد وقته ، ويدع للهو مجالسه ؛ لم يستفد منه لاهٍ أكثر مما يجب أن يستفيد ؛ ولا أوذى منه جادٌّ وإن سبّب جِدُّه للهادى بعض الضيق ؛ ومما يدل على أن اللهو لم يكن يستبد بالهادى ما حكاه الجاحظ قال :

جلس الهادى يوماً وعنده بعض المغنين فقال لهم : من أطربنى اليوم منكم فله حكمه . فغناه إبراهيم الموصلى :

* سليمى أجمعت بَيْنَا *

فطرب حتى قام من مجلسه واستعاده ، فأعاده إليه . فقال الهادى : أنت صاحبى فاحتكم . فقال ابراهيم : يا أمير المؤمنين ، حائط عبد الملك ابن مروان ، وعينه الجرّارة بالمدينة . فدارت عينا الهادى فى رأسه حتى صارتا جمرتين ثم قال : يا ابن اللخناء ، أردت أن تسمع العامة أنك أطربتنى ، وإنى حكمتك فأقطعتك ، أما والله لولا بادرة جهلك التى غلبت

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

على صحيح عقلك وفكرك ، لضربت الذى فيه عيناك ، وسكت هنيهة . قال إبراهيم : فرأيت ملك الموت قائماً بينى وبينه ينتظر أمره . ثم دعا ابراهيمَ الحرانى فقال : خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت المال فليأخذ منه ما شاء (١) .

ومما يدل على حصافة الهادى وأنه كان لا يتبع هواه ما حكاه عبد الله بن مالك قال : كنت أتولى شرطة المهدى فكان الخليفة يأمرنى بضرب ندماء الهادى ومن يغنون له وحبسهم صيانةً له منهم ، فكنت أفعل ، وكان الهادى يرسل إلىّ بالتخفيف عنهم فلا أقبل ، فلما مات المهدى وولى الهادى أيقنت بالتلف ، فاستحضرنى يوماً ، فدخلت عليه وهو جالس على كرسى ، والسيف والنطع بين يديه ، فسلمت ، فقال : لا سلم الله عليك ، أتذكر يوم بعثت إليك فى أمر الحرانى وضربه فلم تقبل قولى ؟ وكذلك يوم بعثت إليك فى أمر فلان وفلان — وعدّد ندماءه — فلم تلتفت الى قولى ؟ قلت : نعم ، أفتأذن لى فى ذكر الحجة ؟ قال : نعم . قلت : ناشدتك الله ، لو أنك قلدتنى ما قلدنى المهدى ، وأمرتنى بما أمر ، فبعث إلىّ بعض بنيك بما يخالف أمرك فاتبعتُ قوله ، وتركت قولك ، أكان يسرك ذلك ؟ قال : لا . قلت فكذلك أنا لك ، وكذلك كنت لأبيك . فاستدنانى فقبلت يده ، ثم أمر بالخلع ، وقال : وليتك ما كنت تتولاه ، فامض راشداً ، فمضيت مفكراً فى أمرى وأمره ، وكان الذى يدور فى نفسى أن الخليفة حدَث يشرب ، والقوم الذين عصيته فى أمرهم هم ندماؤه ووزراؤه وكتابه ، وكأنى بهم حين يغلب الشراب عليه يغلبونه على رأيه ، ويحسنون له هلاكى . قال عبد الله : فإنى لجالس وعندى بنيّة لى والكانون بين يدى ، وقدامى رقاق وكامخ ، وأنا أشطره بالكامخ وأسخنه بالنار وآكل وأطعم الصغيرة ،

---

(١) الجاحظ : التاج ٣٦ — ٣٧ . ويذكر الجهشيارى هذه القصة ولكنه يروى أن الشعر الذى غنى به الموصلى هو .

وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

(انظر الوزراء والكتاب ص ١٣٣ — ١٣٤) تحقيق الصاوى .

وإذا بوقع حوافر الخيل ، فظننت أن الدنيا قد زلزلت ، فقلت : هذا ما كنت أخافه ، وإذا بالباب قد فتح ، وإذا الخدم دخلوا والهادى فى وسطهم على دابته ، فلما رأيته وثبت فقبلت يده ... فقال لى : يا عبد الله ، إنى فكرت فى أمرك ، فقلت : ربما سبق إلى ذهنك أنى اذا شربت وحولى أعداؤك أزالوا حسن رأيى فيك فيقلقك ذلك ، فصرت إلى منزلك لأونسك ، وأعلمك أن ما كان عندى من الحقد عليك قد زال جميعه ، فهات وأطعمنى مما كنت تأكل ، لتعلم أنى قد تحرمت بطعامك (١) .

الهادى والشراب :

ومن جهة الشراب ، فقد خطا الهادى خطوة جديدة فى تاريخ نشره ؛ لقد كان المنصور — كما سبق — لا يشرب ولا يسمح بالشراب على مائدته ، فخطا المهدى الخطوة الأولى بأن سمح لندمائه بالشرب فى حضرته مع أنه هو لم يشرب ، ولكن الهادى والرشيد شربا ، إذ كانا قد تعلما الشراب فى قصر أبيهما وهما أميران ؛ يروى إبراهيم الموصلى — وكان كثير الشرب شغوفاً به — أن المهدى قال : لا تدخل على موسى وهرون ألبتة ، فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن بك ولأصنعن . فقلت : نعم . ثم بلغه أنى دخلت عليهما **وشربت معهما ، وكانا مستهترين بالنبيذ** ، فضربنى ثلاثمائة سوط ، وقيدنى وحبسنى (٢) .

هذا وقد اتضح شرب الهادى قبل خلافته وبعدها من قصة عبد الله ابن مالك التى سبق إيرادها .

وزراء الهادى وكبار رجال دولته :

لما بويع الهادى استوزر الربيع بن يونس ثم بعد فترة استوزر إبراهيم ابن ذكوان الحرانى ، وكان ابراهيم قد اتصل بالهادى فى أيام

---

(١) ابن الاثير ٦ ، ٣٤ — ٣٥ ، الفخرى ١٦٥ — ١٦٦ .
(٢) الاغانى ج : ٥ : ص ٤ .

حداثته ؛ كان يدخل عليه مع معلم كان يعلّم الهادى ، فخف إبراهيم على قلب الهادى وألفه وصار لا يصبر عنه ، ثم سُعِىَ به الى المهدى فكره لابنه صحبته ، فنهاه عنه فلم ينته ، فتهدده بالقتل والهادى لا يباعده ، واشتدت به السعايات الى المهدى ، فأرسل الى ابنه الهادى أن أرسل إلىّ إبراهيم الحرانى ، ولما توانى الهادى فى ارساله هدده المهدى بعزله من ولاية العهد ، فأرسله الهادى ، ولما رآه المهدى أقسم ليقتلنه ، ولكن المهدى مات من ليلته فنجا الحرانى من القتل ، وآل الأمر إلى الهادى فاستوزره (١) .

ومن الرجال الذين اعتمد عليهم الهادى علىّ بن عيسى بن ماهان ، وإسماعيل بن صبيح ، وعبد الله بن مالك ، ومحمد بن فروخ ، ويزيد بن مزيد ، والثلاثة الأخيرون كانوا قادة جيوش الهادى وهم الذين زيّنوا له خلع هرون الرشيد وتولية جعفر ابنه .

الهادى وولاية العهد :

لما مات المهدى سنة ١٦٩ تولى ابنه الهادى الخلافة تنفيذا لوصية أبيه ، وعلى الرغم من ضيق عهد الهادى ، فإنه اتسع لمحاولات جمة قام بها هذا ليخلع أخاه ، ويوصى بالخلافة لابنه جعفر ، ولندع الجهشيارى وابن الأثير يتكلمان : تنكر موسى لهارون الرشيد وعمل على خلعه وتقليد ابنه جعفر ، وهو طفل ، وبذل لهارون (الهنىّ والمرىّ) من أعمال الرّقّة ، فعزم هارون على القبول وقال : إذا نزلتُ على (الهنىّ والمرىّ) وخلوت بابنة عمى أم جعفر ، فما أريد شيئاً ، ولكن يحيى بن خالد منعه من تنفيذ ما عزم عليه ، وقال له : إنها الخلافة ، ولعل ما تقدّر أنه يبقى لك لا يبقى ، ولم يزل به حتى عدل ، ووصل الى الهادى

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧٨ والجهشيارى الوزراء والكتاب ص ١٢٦ .

امتناع الرشيد وموقف يحيى ، فأوعز الى رجاله بتحقير شأن الرشيد ، وإثارة عيوبه وانتقاصه فى مجلس الجماعة ، كما استحضر يحيى وسأله : لِمَ تدخل بينى وبين أخى وتفسده علىّ ؟ فقال يحيى : من أنا حتى أدخل بينكما ؟ انما صيرنى المهدى معه ثم أمرتنى أنت بالقيام بأمره ، فانتهيت الى أمرك . فسكن الهادى اليه ووصله ، وبدأ يناظره فى خلع الرشيد ، فقال له يحيى ان حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التى تعقد عليهم ، ولو تركت الأمر فى بيعة أخيك بحاله ، وبويع لجعفر من بعده كان أوكد لبيعته . فقال له : صدقت ونصحت . ولكن للهادى لم تطب نفسه بعد ذلك لهذا الرأى فأرسل إلى يحيى وحبسه ، ولكن يحيى سأل أن يخلو بالهادى ، فأجيب ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان ما نعوذ بالله منه قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هرون فهل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ فقـال : لا . قال يحيى : فدع الأمر حتى يبلغ جعفر فاذا بلّغنا الله ذلك ، فعلىّ أن آخذ بيـد هرون حتى يبايعه : واذكر يا أمير المؤمنين أنك لو بايعت لجعفر قبـل بلوغه ، وحدث مـا نعوذ بالله منـه ، وثب على هـذا الأمر أكـابر أهلك ، وخرج عن ولد أبيك ، ووالله لو لم يعقد المهدى لهرون ؟ لوجب أن تعقـد أنت له ليكون فى بنى أبيك . فشكر له هـذا القول وأطلقه (١) .

ولكن الهـادى عاود محاولاته : وضيق على الرشيد ، فأشار عليه يحيى أن يخرج للصيد ، ففعل ، ولم ينقـذ الرشيد من محاولات الهادى إلا موت الأخير دون أن يصل إلى الهدف الذى سعى إليه (٢) .

وفاة الهادى ومؤامرة الخيزران للتخلص منه :

ليست وفاة الهـادى عادية كوفيات غيره من الخلفـاء ومن الناس ، ولكنهـا طراز وحدهـا قلّ أن يتكرر فى أى مكان أو أى زمان ، فاغلب

---

(١) الجهشيارى ١٦٩ — ٧٠ ، وابن الاثير جـ ٩ ص ٣٢ .
(٢) انظر المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ٢٦١ .

المؤرخين يرون أن الهـادى مات قتيـلا بمؤامرة دبَّرتهـا أمه الخيزران ، وأسارع فأقرر أن الانسان يحس أن الطبيعة الانسانية تأبى أن ترتكب أمٌ هـذا المنكر الجسيم مع ابنهـا ، ولهذا يتردد بعض المؤرخين المحدثين فى التسليم بهذه المؤامرة ، ولهم الحـق فى التردد ، غير أن الطبيعـة الانسانية أيضـا تقرر أن نفس الانسان أعز عليه من كل نفس ، وأن حق الدفاع عن النفس مشروع •

فاذا جاز ما يذكره بعض المؤرخين من أن الهـادى حاول أن يسمّ أمه ، كان فى ذلك مـا يرجّح إمكـانَ تدبير الخيزران مؤامرةً للفتك بالهـادى ، دفاعا عن نفسها ، ورغبة فى استعادة نفوذهـا الذى فقدته بسـبب صرامة الهـادى وشراسـته ، ولنسق فيمـا يلى من المعلومات التاريخية مـا يلقى الضوء على هذه التيارات الخفية ، التى اتخذت من قصر الخلافة فى ذلك العهد مسرحا لهـا :

كان المهـدى سمحاً ، رضىَّ الخلق ، صفىَّ النفس ، قطيع الخنـا ، ضاحك السن ، قليل الأذى والبذاء [1] وكانت زوجتـه الخيزران امرأة قوية ، تحب النفوذ ، وتهوى السلطان ، وقد وجدت فى أخلاق المهـدى مـا وافق طبيعتها وشجعها عـلى التمـادى ، فكانت تـأمر وتنهى ، وتشفع وتُبْرِم وتنقض [2] : ويقـول Sayed Ameer Ali [3] : إن المهدى جعل لهـا السيادة عليه وعلى من فى بلاطه ، فازدحم قصرهـا بالأمراء والعظماء والطامعين فى المناصب وطلاب الحاجات •

ولمـا مات المهدى وتولى الهـادى الخلافة ، ظنت المرأة أن سلطانها سيتسع ، ونفوذهـا سيمتد ، وتخيلتْ أن الابن سيكون أكثر استجابة لهـا من الزوج ، وحسبتْ أنهـا ستتغلب على ذلك الشـاب الحدث ،

---

(١) الجاحظ . التاج : ص ٣٥ .
(٢) الفخرى ص ١٦٧ .
(٣) A Short History of the Saracens p. 231.

وتطويه تحت جناحها أكثر مما فعلت بأبيه ، ولكن الهادى كان يختلف اختلافاً بيّناً عن المهدى ، لقد كان كما يقول الجاحظ (١) : « شكس الأخلاق ، صعب المرام ، قليل الاغضاء ، سيء الظن » • وكانت الغيرة من أبرز صفاته ، فقد حكى ابن الأثير (٢) : أن المهدى مات والهادى بجرجان يحارب أهل طبرستان ، فشغب جند بغداد يطالبون بأرزاقهم ، فاستدعت الخيزران يحيى البرمكى والربيع بن يونس لتستشيرهما فيما يمكن تدبيره حتى يصل الخليفة الجديد ، فأما الربيع فدخل عليها ، وأما يحيى فامتنع لما يعلم من غَيْرَةِ الهادى ، وعمل على جمع المال وتهدئة الجند ، فلما علم الهادى بذلك كتب الى الربيع يتهدده بالقتل ، وكتب الى يحيى يشكره ، ولولا حيلة أشار بها يحيى على الربيع ، لكان من المحتمل أن يوقع الهادى بالربيع •

ولكن أولئك الذين مُنحوا حساسية مرهفة كحساسية يحيى بن خالد كانوا قليلين ، ومن أجل هذا بقى باب الخيزران كما كان من قبل ملجأ للوزراء والأمراء ، والعلماء ، والشعراء ، وطلاب الحاجات ، وكانت الخيزران تستبد بالأمور دون الهادى ، وتسلك بالأمر مسلكها مع المهدى ، حتى مضت أربعة أشهر كان الناس خلالها ينثالون الى بابها ، وكانت المواكب تغدو إليها وتروح (٣) •

واحتمل الهادى هذه الفترة بدافع البر بأمّه ، ولكن المرأة تمادت ، وأوشكت أن تنكر وجوده ، وكانت تبرم الأمر ، وتقدمه اليه ليوقعه ويمضيه ، فتيقظت شخصيته ، وتحركت نفسه ، ووجد ألاّ مناص من وقف هذا التيار الجارف ، ووضْعِ حَدٍّ لهذا العدوان الصارخ على مسئولياته وواجباته •

---

(١) التـاج ص ٣٥ .
(٢) الكامل فى التاريخ ٦ : ٢٩ .
(٣) ابن الاثير ٦ : ٣٣ .

وبدأ الهـادى مقاومته بتأجيل النظر فى طلباتها وعدم الإسراع فى تلبيـة رغباتها ، سألته مرة أن يولى خاله الغطريف اليمن ، فوعدهـا بذلك ، ثم كتبت له يوما رقعـة تتنجّز فيهـا أمره ، فردّ إليهـا رسولها يقول لهـا خيّريه بين اليمن وطلاق ابنته (زوجة الهـادى) ، أو المقام عليها دون أن يولّى اليمن • فأيهمـا اختار فعلته • فأخطأ الرسول فى فهم كلام الهـادى ، وعاد للخيزران ليقول لهـا : يقول لك الخليفة : اختارى للغطريف ، فظنت أنه يخيـرها بين ولايات متعددة ، فاختارت ولاية اليمن ، وأعادت الرسول بذلك ، فقال للهادى : اختارت ولاية اليمن ، فغضب الهـادى ، وطلق ابنـة خاله ، ولمـا وصـل خبر الطلاق بيت الهـادى ، ارتفع الصياح منه ، فقال : مـا هذا ؟ قالوا : من دار بنت خالك ، وعرف أن الرسول أخطأ فى تبليغ الرسالة (١) •

ثم تقدمت الخيزران بمطلب جديد ، وأخطأها فى هـذه المرة التوفيق أيضا ، وبلغ طغيانها القمة ، فقد بدا للهـادى : أولا — أنهـا لا ترجو ولكنها تأمر ، وتضمن النفاذ سلفا لصاحب الحاجة ، وثانيا — أنهـا لا تكتفى بالتوسط فى الأمور العادية ، ولكنهـا تبرم الرأى أيضـا فى عظائم الأمور ، وثالثا — ظهر للهـادى أن صلتها ليست مقصورة على أخيهـا الغطريف وأمثاله من محارمها ، بل تمتد الى غيرهم من القادة والرؤساء • فتحركت فيه النخوة والغيرة ، وأصر على أن يثبت شخصيته ، ويسيطر وحده على زمام الأمر ، فبدأت العاصفة ، ولنسمع الى المسعودى ، وابن الأثير ينقلان لنا هذه الرواية :

كلمت الخيزران ابنهـا الهادى ذات يوم فى أمر ، فلم يجـد الى إجابتها سبيلا ، فاعتل لهـا بعلة ، فقالت : لابد من إجابتى ، قال : لا أفعل ، قالت : فانى قد ضمنت هـذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب الهـادى ، وقال : ويل لابن الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبهـا ، لا قضيتها

---

(١) الاغانى ١٣ : ١٢ — ١٣ والطبرى ١٠ : ٤٣ •

لك ، قالت : إذاً والله لا أسألك حاجة أبدا • قال إذاً والله لا أبالى ، وقامت مغضَبة • فقال : مكانك فاستوعبى كلامى ، والله — وإلا كنت نفياً من قرابتى من رسول الله (ص) — لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى وخاصتى ، لأضربن عنقه ، ولأقبض ماله ، ما هذه المواكب التى تغدو وتروح الى بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ إياك وإياك ، لا تفتحى بابك لمسلم ولا ذمى •

فانصرفت وهى لا تعقل ما تطأ ، دون أن تنطق بحلو أو بمر • ثم إنه قال لأصحابه : أيما خير ، أنا وأمى أو أنتم وأمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك ، قال : فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقال : فعلت أم فلان ، وقالت أم فلان ؟ قالوا : لا نحب ذلك ، قال فما بالكم تأتون أمى فتتحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها (١) •

وهكذا تأزمت الأمور بين الخليفة وأمه ، وأحست الخيزران بفراغ كبير بعد أن جفاها الناس ، ولم يعد أحد يستطيع أن يسعى إليها ، فنقمت على ابنها ذلك وكرهته •

ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل جدّت أمور أخرى ، تفاقم الخلف بسببها ، وعظمت الهوة ، فالهادى يصر على خلع الرشيد ، والرشيد هو الأمل الباقى للخيزران ، لأنه الابن الوديع السمح ، الذى يرجى أن يكون صورة من أبيه ، تستعيد الخيزران فى ظله نفوذها ومكانتها الذابلة (٢) • وامتلأ القصر فى ظل هذه الحركات بالجواسيس ، فللهادى عيون على أمه من خدمها ، وللخيزران على ابنها عيون من خدمه ، وتعرف الخيزران من عيونها أن الهادى يتسقط أخبارها ، ويحاصرها بحصار قوى ، وتقع فريسة للانفعالات المختلفة والعواطف

---

(١) المسعودى . مروج الذهب ٧ : ٢٥٧ — ٢٥٨ وابن الاثير ٦ : ٣٣ — ٣٤ .

(٢) الفخرى ص ١٦٨ .

المتباينة ، فمرة تثور نفسها ، ويتجلى خوفهـا على الرشيد فتتمنى لو تنتقم من الهادى وتزيله من الوجود ، ولكن كيف وهو ابنهـا وقطعة من كبدها ، فهـل تقوى على ذلك ؟ •

ويعرف الهـادى أن أمه تؤلب الرشيد عليه ، وتحثه على ألا يخلع نفسه ، فيتزايد حنقه عليهـا ، ويصر على أن يفعل شيئا ، فيرسل لهـا طعاماً مسموماً ، ولكنهـا تختبر هـذا الطعام قبل أن تتناوله فتلقى بعضاً منـه الى كلب ، فيترنح ، ويهـوى لساعته ، ويسألهـا الهادى عن الطعـام ، فتقول : كان طعاماً طيباً ، ولكنـه يدرك أنها لم تأكل منه فيقول : مـا أكلت منه ، ولو فعلت لاسترحت منك ، متى أفلح خليفـة له أم (١) ؟

وتصبح المسألة بالنسبة للخيزران دفاعاً عن النفس ، ويتحقق لها أن الهـادى عاق ، وأن من الممكن أن تضع مكانه ابناً آخر عرف بالبر والرحمة والحنان • فيقال : إنها أوعزت الى بعض الجوارى فقتلنه بالجلوس على وجهـه وهو مريض ، وظللن يكتمن أنفاسه حتى زهقت روحه ، فأرسلت الى يحيى بن خالد تعلمه بموته (٢) • وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ١٧٠هـ •

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٣٤ •

(٢) المرجع السابق وابن خلدون ٣ : ٢١٧ ، والفخرى ص ١٦٨ •

الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

يعتبر عصر هارون الرشيد واسطة العقد بالنسبة للخلافة العباسية أو قل بالنسبة للتاريخ الاسلامى الوسيط كله ، فقد اكتملت للدولة ألوان من العظمة والقوة والمجد العلمى ، وكانت الدولة مهيبة الجانب ، فاحترمتها الدول المجاورة وهابتها ، وفى الداخل كان الرشيد أقوى من كل الأحداث ومن الفتن التى ثارت هنا وهناك ، فكان الاستقرار طابع الدولة والعظمة طابع الخليفة ، ويقول السيوطى إن أيام الرشيد كانت كلها أيام خير ، كأنها فى حسنها أعراس (١) .

وقد ولد الرشيد بالرى سنة ١٤٥هـ وأمه أم ولد شهيرة هى الخيزران سالفة الذكر ، وهى أم الهادى ، ونشأ الرشيد نشأة رائعة ربّت فيه قوة الشخصية وسماحة النفس ، وألقى به أبوه المهدى فى خضم الأحداث ، فجعله أميراً للصائفة سنة ١٦٣هـ وفى سنة ١٦٤ ولاه المغرب كله من الأنبار حتى أطراف إفريقية ، فكان الرشيد يرسل من قبله الولاة لهذه البقاع ، وفى سنة ١٦٥ هـ عاد المهدى فعين الرشيد أميراً للصائفة مرة أخرى حيث جرت معركة هرقلة الشهيرة التى سنتحدث عنها فيما بعد ، وكانت إيرينى آنذاك وصية على ابنها قسطنطين السابع ، وفى سنة ١٦٦ عينه أبوه ولياً للعهد بعد الهادى ، ولما مات الهادى تولى الرشيد الخلافة سنة ١٧٠هـ .

شخصية الرشيد وأخلاقه :

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، كان يحج سنة ويغزو سنة طيلة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشياً ولم يحج ماشياً غيره ، وكان يتشبه فى أفعاله

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١١٢ .

بالمنصور إلا فى بذل المـال ، فانه لم يُر خليفة أسمح منـه بالمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخَّر ، يحب الشـعر والشعراء ، ويميل الى أهل الأدب والفقـه . وكان كثير التواضع للعلماء (١) .

وكان من أبرز صفات الرشيد أنه ريح عاصفة حيناً ، ونسيم رُخاء حيناً آخر ، وأن عواطفه أكثر تحكما فيه من عقله ، يثور فيزأر ويضطرب ، ويوعظ فيبكى وينتحب، وكـان يقرِّب الفكِـهِ المهذار ، كمـا يدنى الفارس المغـوار .

وممـا يدل على تحكم عواطفه فيه أنه مرة حبس أبا العتاهية ، وجعل عليه عيناً يأتيه بما يقول ، فرآه يوماً وقد كتب على الحائط :

أمـا والله إن الظلم لؤم — وما زال المسىء هو الظلوم
الى ديَّان يوم الدين نمضى — وعند الله تجتمع الخصـوم

فأخبر بذلك الرشيد فبكى وأحضره واستحله وأعطاه ألف دينار (٢) .

وقال الأصمعى : صنع الرشيد طعاماً ، وزخرف مجالسه ، وأحضر أبا العتاهية وقال له : صف لنـا ما نحن فيه من نعيم هـذه الدنيـا ، فقال أبو العتـاهية :

عش مـا بدا لك سـالماً — فى ظـل شاهقة القصـور

فقال الرشيد : أحسنت ثم ماذا ؟ فقال :

يُسْعَى إليك بما اشتهيت — لدى الرواح وفى البكور

فقال : حسن ، ثم ماذا ؟ فقال :

فـإذا النفـوس تقعقعت — فى ظل حشرجـة الصدور
فهنـاك تعـلم موقنـا — مـا كنت إلا فى غرور

---

(١) الفخرى ١٦٩ — ١٧٠ .
(٢) ابن الاثير ٦ : ٧٢ .

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى لأبى العتاهية : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته ! فقال الرشيد : دعه ، فانه رآنا فى عمىً فكَرِهَ أن يزيدنا منه (١) •

وقد أدرك بعض المقربين إليه من الشعراء هذه النزعة العاطفية فيه ، فكان أبو العتاهية مثلا يستغل هذه النزعة ليمكر بالرشيد ، وليثير أحزانه ويستنزل دموعه انتقاماً منه فى بعض الأحيان ، حدَّث أبو العتاهية قال : كان الرشيد يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء أن يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه • فقيل له : ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو فى الحبس ، قال أبو العتاهية : فوجَّه الىَّ الرشيد أن أقول شعراً ليسمعه منهم ، ولم يأمر بإطلاقى ، فغاظنى ذلك ، فقلت والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يُسَرُّ به ، وعملت شعراً ، ودفعته الى من حفظه من الملاحين ، فلما ركب الحراقة سمعه ، وهو :

خانك الطرفُ الطَّموح ... أيها القلب الجموح
لدواعى الخير والشر دُنُوٌّ ونزوح
هل لمطلوب بذنب ... توبةٌ منه نصوح ؟
كيف إصلاح قلوب ... إنما هنَّ قروح
أحسن الله بنا أنَّ ... الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا ... بين ثوبيه فضوح
كم رأينا من عزيز ... طويت عنه الكشوح
صاحَ منه برحيل ... صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس فى الأر ... ض على قوم فتوح

(١) الفخرى ١٦٩ — ١٧٠ ، ابن الأثير ٦ : ٧٢ — ٧٣ •

سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
كلنا فى غفلة والـ موت يغدو ويروح

قال : فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكى وينتحب (١) .

وكما كان الرشيد سريع البكاء كان سريع الضحك ، فقد روى ابن الأثير (٢) أن الرشيد كان لا يصبر عن ابن أبى مريم الضحاك الفكه حتى أنه أسكنه معه فى قصره : وقد مر به الرشيد فى فجر ليلة وهو نائم ، فكشف اللحاف عنه وقال : كيف أصبحت ؟ فأجاب : ما أصبحتُ بعد ، اذهب الى عملك . قال الرشيد : قم الى الصلاة . فأجاب : هذا وقت صلاة أبى الجرود ، وأنا من أصحاب أبى يوسف (٣) . فمضى الرشيد يصلى ، ثم قام ابن أبى مريم ، وجاء حيث يصلى الرشيد ، فسمعه يقرأ فى الصلاة « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » (٤) فقال ابن أبى مريم : ما أدرى والله !! فما تمالك الرشيد أن ضحك ، ثم قال وهو مغضب : أفى الصلاة أيضا ؟ قال ابن أبى مريم : ما صنعتُ ؟ قال . قطعتَ علىّ صلاتى . قال : والله ما فعلتُ ، إنما سمعت منك كلاماً غمّنى حين قلت : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » فقلت : لا أدرى . فعاد الرشيد الى الضحك ، ثم قال : إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما .

وكان الرشيد واسع العطاء كثير السخاء يهتف به الشاعر فيستجيب ويفيض جوده ، حتى يصل به الى حد السرف ، وقد وقف رجل من بنى أمية فى طريقه ومعه كتاب فيه :

---

(١) الاغانى ٣ : ١٧١ — ١٧٢ .
(٢) الكامل فى التاريخ ٦ : ٧١ — ٧٢ .
(٣) أبو الجرود أحد الفقهاء الذين يرون التبكير بصلاة الصبح ويميلون الى أدائه فى الغسق ، وكان أبو يوسف لا يرى ذلك .
(٤) سورة يس الاية رقم ٢٢ .

يا أمين الله إني قائل قول ذي لب وصدق وحسب
لكم الفضل علينا ، ولنا بكمُ الفضل عن كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشما وهما بعد لأم ولأب
فصِلِ الأرحام منا إنما عبد شمس عم عبد المطلب

فأمر له بألف دينار لكل بيت وقال : لو زدتنا لزدناك (١) ٠

هذا مثل عادى من جود الرشيد ، ولن نحاول إثبات أمثلة أخرى ، فجود الرشيد الزاخر تفيض به كل كتب الأدب والتاريخ ٠

عظمة الدولة فى عهد الرشيد :

كانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة مملكة ، فقد جبى الرشيد معظم الدنيا ، وكان أحدُ عماله صاحبَ مصر ، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء ما اجتمع على باب الرشيد ، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه الى أعلى درجة ، وكان أديباً شاعراً ، رواية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذوق مهيباً عند الخاصة والعامة (٢) ٠

وفى عهده تقرر أن يلتزم بيت المال بالإنفاق على المسجونين بأن يصرف لكل منهم ما يكفى لطعامه ، وأن تقدم لهم كسوة للصيف وكسوة للشتاء (٣) ، وكان المهدى قد قدّم بعض ذلك على أنه عطاء ، ولكن الرشيد جعله التزاماً ٠

ومن أهم ما اكتسب الشهرة لهرون الرشيد رعايته للعلم وتأسيسه

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٣٨٠ ، والجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٤٤ ٠
(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧١ — ١٧٢ ٠
(٣) الخراج لابى يوسف ص ٨٨ ٠

« بيت الحكمة » ذلك المعهد الذى كان المنار للثقافة والفكر فى العالم آنذاك ، والذى انبعثت منه الشعلة التى أضاءت الطريق للنهضة الأوربية فيما بعد . ومما كسب الشهرة للرشيد كذلك كتاب « ألف ليلة وليلة » ذلك الكتاب الذى صوّر سحر الشرق أجمل تصوير ، والذى احتل أرفع مكان فى الأدب العالمى ، وقد تُرجم هذا الكتاب الى معظم لغات العالم .

ترف القصور فى عهد الرشيد :

يقول ابن خلدون(١) : « إن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدى أهل الملك قبلها ، كثر رياشها ونعمتها ، فتكثر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته ، الى نوافله ورقته وزينته ، ويذهبون الى اتباع من قبلهم فى عوائدهم وأحوالهم ، وينزعون مع ذلك الى رفه الأحوال فى المطاعم والملابس والفرش والآنية ، ويتفاخرون فى ذلك ، ويفاخرون غيرهم من الأمم فى أكل الطيب ، ولبس الأنيق ، وركوب الفاره ، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك ، وترفهم فيه ، الى أن يبلغوا من ذلك الغاية التى للدولة أن تبلغها بحسب قوّتها ، وعوائد من قبلها ، ولا يحصل الملك إلا بالمطالبة والمغالبة ، فإذا حصلت الغاية ، انقضى السعى إليها ، وقلت المتاعب التى كانوا يتكلفونها فى طلب الملك ، وآثر ذووه الراحة والسكون والدعة ، ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المبانى والمساكن والملابس فيبنون القصور ، ويجرون المياه ، ويغرسون الرياض ، ويستمتعون بأحوال الدنيا » .

وذلك هو ما تمّ أو بعض ماتم فى عهد الرشيد ، وساعده على ذلك شبابه الغض ، وقصر أبيه الذى نشأ فيه ، ورجاله الذين حملوا عنه أعباء الحياة ومسئوليات الملك ، مهدوا له سبل الترف وأسباب النعيم . ثم من المسلم به أن المال عصب المتعة وسلم الترف ، وقد توافر المال

---

(١) المقدمة ١١٧ — ١١٨ .

لدى الرشيد ولدى رجاله ، وللمـال سحر وإغراء ، روى ابن خلدون[1] أن المحمول الى بيت المـال فى أيام الرشيد بلغ ٧٥٠٠ قنطـار فى كل سنة ، وذلك يعـادل خمسة وسبعين مليوناً من الجنيهات غير الضريبة العينية التى تشمل الحبوب والأقمشة وغيرها ، وإيراد كهـذا فى تلك الأيام كان إيراداً أقرب الى الخيال منـه الى الحقيقة ، ومن لك فى خليفة كان يستلقى على ظهره ، وينظر الى السحابة المارة ويقول : اذهبى الى حيث شئت فسيأتنى خراجك[2] ؟

وأصبح بهـذا عهد الرشيد عهد شباب الدولة ونضارتها كمـا سبق ، وهو يعتبر فى الذروة من عهود بنى العباس ، وقد وصلت بغداد فيه الى قمـة مجدها ، ومنتهى فخارها ، وامتدت الأبنية فى كل جانب منها امتداداً عظيمـا حتى صارت بغداد كأنهـا مدن متلاصقة تبلغ الأربعين ، وبلغ سكانها نحوا من مليون نسـمة [3] • وأصبحت مركزاً تجارياً عظيمـا وسوقاً رائجة تنثال عليهـا البضائع والأموال من كل صوب •

ولم يكن الرشيد وحده هو الذى وصل الى هـذا الحد ، بل إن رجال دولته وعظماءها وكثيراً من ولاته وقواده كانوا فى أوج عظمتهم ، وأنضر أيامهم ، وأكثرها بهجة وجلالا ، لقـد كثرت فى ذلك العهد القصور الشاهقة التى تموج بالرياش الفاخر ، والأثاث الثمين ، وتعج بالجوارى والقيان وتزخر بالشعر والموسيقى والغناء • وقد قرأ القوم آيات القرآن الكريم التى تصف الجنة ، فتعجلوا هـذه الأوصاف فى الدنيا ، فهنا قصر الخلد الذى شُبّه بجنة الخلد التى وُعِدَ بهـا المتقون [4] • وهناك قصر السـلام الذى لوحظ فى تسميته قوله تعـالى « لهم دار السلام

---

(١) المقدمة ١٢٧ .

(٢) صبح الاعشى ٣ : ٢٧٠ .

(٣) طه الراوى : بغداد مدينة السلام ص ٣٤ .

(٤) انظر سورة الانعام الاية ١٢٨ .

عند ربهم » (١) • وأغلب قصور هـذا العهد تجرى من تحتهـا الأنهار وتموج بحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون •

وحول قصر الخلد كانت الجنـات الملتفة ، والحدائق المتسـعة ، والأزهار المونقة ، من ورد وبهـار ، وياسمين وجلنار ، وسوسن وأقحوان ، الى غير ذلك ممـا اختلفت ألوانه ، وعبق أريجه ، وتضوع الجو بطيبه ، وفى خلال ذلك تجرى القنوات والغدران والجداول ، ومن دونهـا دجلة تزهو بفلكها وزوارقها ، وقد أقبل الأمراء والسراة : يشيدون حول الخلد قصورهم ، ويفتنون فى هـذه القصور مـا مكنتهم وسائلهم الكثيرة ، وأموالهم الموفورة ، وأخيلتهم الخصـبة ، وروح الترف التى كانت تسيطر عليهم • فهـا هو ذا بإزاء الخلد ، وعلى الضفة المقابلة فى ذلك المنحنى ، قصر أبى أيوب سليمان بن أبى جعفر المنصور ، الشـاعر الأنيق الرقيق ، وعم الخليفة ، وها هو ذا الى جنوبى الخلد ، قصر أم جعفر زوج الرشيد الحبيبة ، ثم ها هى ذى قصور البرامكة فى رحبة الخلد تجاه باب خراسان ، الى غير ذلك من القصور التى جمعت من الزينة ومظاهر الترف مـا جعل من تلك الضاحية جنة الأرض •

وكانت مجالس اللهو والغناء والموسيقى فيهـا ، تضاعف فتنتها ، وتزيدها متاعاً الى متـاع ، وكان يناوح هـذه الضاحية القائمة عـلى الشاطىء الغربى للنهر ضاحية الرصافة ، وضاحية الشماسية ، وكلتاهما من أحياء السراة والمترفين ، وفى الشماسية كانت إقطاعات البرامكة ، وفيها بَنَوْا طائفة من القصور الرفيعة ، وكان قصر الخلد يشرف على هذه الأحياء الأنيقة فى الشاطىء الشرقى ، فكـان ذلك ممـا يزيده جمالَ منظرٍ وروعةً وفتنة • وكان يتألف من الضفتين فى هـذا الوضع مجموعةٌ مونقة من القصور والجنان ، يتوسطها النهر فجمعت بذلك بين الجمـال

---

(١) سورة الفرقان الاية ١٦ •

المطبوع والمصنوع ، وتمثلت فيها على أحسن وجه مظاهر هذه الحضارة التى اكتملت للعراق فى هذه الفترة (١) .

وقد وصف على بن الجهم القصر الهارونى [لعله منسوب الى هارون الرشيد] بقصيدة رائعة منها :

وقبةِ ملك كأن النجـو	م توحى إليهـا بأسرارها
تخرُّ الوفود لهـا سجدا	إذا مـا تجلت لأبصـارها
وفوارةٍ ثأرهـا فى السماء	فليست تقصر عن ثأرهـا
تردُّ على المزن مـا أنالت	الى الأرض من صوب مدرارها
إذا أوقـدت نارُهـا بالعراق	أضـاء الحجازَ سنا نورها
لهـا شرفات كأن الربيع	كساها الرياض بأنوارها (٢)

ويقول Richard Coke (٣) : وحظى هرون الرشيد بصيت عريض قلَّ أن سجله التاريخ لغيره من الملوك والسـلاطين ، وعليه تدور أقاصيص ألف ليلة وليلة ، التى ترجمت الى معظم اللغـات ، وانتشرت بذلك فى جميع أقطار العالم ، وتسربت الى أغلب البيوت والمحافل ، وعلى الرغم من بعض نواحى الضعف فى شخصية الرشيد ، يعتبر بحق أحد عظمـاء الملوك فى التاريخ ، وفى عهـد الرشيد شمل الرخاء الامبراطورية الاسلاميـة على نحو لم يتوافر من قبل ، وكانت حكومة الرشيد مهيبـة الجانب فى الداخل والخارج ، وشاعت العدالة بين الناس ، واتصلت بغداد بتجـارة واسعة مع بقـاع العالم المختلفة التى كانت معروفة فى ذلك العهـد ، ويمتـاز هرون الرشيد بأنه بالإضافة الى حماية رعيته وتأمينهم ، جلب لهم ألوان الحضارة والمدنية والفنون والآداب . وفى عهـد هارون وصلت بغداد الى قمـة العظمة واتسعت اتساعا عظيما فى كل اتجاه ، وتألفت الأبنية

(١) طه الحاجرى : قصر الرشيد ٢١ — ٣٢ .
(٢) الاغانى ج ٩ ص ١١٤ .
(٣) Baghdad; the City of peace p.p. 61-64 abridged.

فيهـا ، وشمل التجديد والزخرفة جميع الأبنية التى بنيت قبل عهد الرشيد : حتى أصبحت تتمشى مع العهـد الجديد ، فأصبحت سـمعة بغداد ، وجمالها ، والثقافة فيهـا ، وألوان الملذات والسرور ، وصنوف الترف والرخاء أصبح كل ذلك مشهوراً فى العالم كله ، ومـا استطاع الرّحالة أن يجدوا لبغداد فى عهد الرشيد نظيراً .

والقصة التالية ترينا صورة من الترف والغنى التى كانت طـابع الهدايا التى اعتـاد العظماء والسراة أن يقدموها فى المناسبات المختلفة ، قال المسعودى (١) : كانت أم جعفر قد كتبت الى أبى يوسف تستفتيه فى مسألة ، فأفتاها بمـا عَرَفَ أنه يوافق هواهـا على حسب مـا أوجبته الشريعة عنده ، وأدّاه اجتهـاده إليه ، فسُرّت أم جعفر من الإفتاء ، وبعثت الى أبى يوسف بحُقٍّ فضـة فيه حقان ، فى كل حق لون من الطيب ، كمـا بعثت له بجام ذهب فيه دراهم وبجـام فضة فيه دنانير ، وشفعت ذلك بغلمـان ، وتخوت من ثياب ، وحمار ، وبغل ، ويسـتمر المسعودى فيذكر أن الهدية وصلت أبا يوسف وعنده بعض أصـحابه ، فقال أحدهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيهـا ، فقال أبو يوسف تأولتَ الخبر على ظاهره ، لقـد كان ذلك حينمـا كانت هدايا الناس التمر واللبن ، أمـا الآن فهدايا الناس العَيْن والوَرِق (الذهب والفضة) وأمثالهمـا وذلك للمُهدَى اليـه خاصة تبعاً لقوله تعـالى « ذلك فضل الله يؤتيه من يشـاء ، والله ذو الفضل العظيم (٢) » .

وكان اهتمام القوم بالمحافل والأندية اهتماماً ملحوظاً ، كمـا اهتموا بالصـيد والقنص ، وعنوا من أجل ذلك بتربية صنوف متعددة من السباع والطيـور .

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٦٥ .
(٢) سورة الحديد الاية ٢١ .

أما عن ملابسهم وطعامهم فعندنا من النصوص ما يوضح الترف البالغ الذى وصل اليه القوم فيهما : دخل أبو قابوس النصرانى الحميرى — وكان منقطعا الى البرامكة — على جعفر بن يحيى فى يوم بارد ، فتبين عليه جعفر أثر البرد ، فألقى اليه مُطرّف خز كان شراؤه جملة كبيرة ، وانصرف أبو قابوس ، فحضره عيد لهم ، فالتمس فى ثيابه ما يشاكل ذلك المطرف فلم يجده ، فقالت ابنته : لو كتبت الى جعفر فعرفته حالك لوجه إليك ما تلبسه مع هذا .. فكتب إليه :

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا
رأيت مباهاة لنا فى الكنائس

فلو ضمّ هذا المطرف الخزّ جبةٌ
لباهيت أصحابى به فى المجالس

فلا بدّ لى من جبة من جبابكم
ومن طيلسان من جياد الطيالس

ومن ثوب قوهى وثوب غلالة
ولا بأس لو أتبعت ذاك بخامس

إذا تمت الأثواب فى العيد خمسة
كفتك ، فلم تحتج الى لبس سادس

لعمرك ما أفرطت فيما سألته
ولا كنت لو أفرطت فيه بيائس

فلما قرأ جعفر بن يحيى هذه القصيدة وجه اليه من كل صنف ذكره عشر قطع (١) .

ذلك مثال واضح لملابس سراة الناس فى هذا العهد ، وهو يطابق أيضا ما ذكره الأصفهانى (٢) من أن ابراهيم بن المهدى كان يلبس

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ٢١٠ .
(٢) الاغانى ٩ : ٥٩ — ٦٠ .

المطرف وجبة من الخز ، وأنه أهدى المطرف مرة الى إسحق الموصلى عندما لقنه هـذا لحناً من ألحانه ، وأن قيمة هـذا المطرف كانت مائة ألف درهم فيمـا يذكرون .

فاذا ذهبنـا الى الطعام ذكرت لنـا المصادر مـا يدل على الترف البالغ الذى هو الى السرف أقرب : حدث ابراهيم بن المهـدى قـال : استزرت الرشيد بالرقة ، فزارنى ، وكان يأكل الطعام الحـار قبل البارد ، فلمـا وضعت البوارد رأى فيمـا قرب اليـه منها جام قريض سمك ، فاستصغر القطع وقال : لم صغر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هـذه ألسنة السمك . قال : فيشبه أن يكون فى هـذا الجام مائة لسـان . فقال مراقب مطبخه : يا أمير المؤمنين ، فيهـا أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه أكثر من ألف درهم .. قال ابراهيم بن المهدى : وكان شراء الجام مائتين وسبعين دينـار (١) .

فانظر مدى هـذا الترف فى تلك العصور المبكرة ، وعاء على المائدة ثمنه مائتان وسبعون ديناراً وأغلب الظن أن كل الأوعيـة على المـائدة من هـذا الطراز ، ثم هناك الطعام الحـار والطعام البارد ، وألسـنة السمك لون من ألوان البوارد ، وقيمة هـذا اللون فى الوعاء ألف درهم ، ولو أن ابراهيم بن المهـدى أكمل لنـا وصف المائدة لنقل لنـا صورة رائعة لطعامهم وشرابهم وربمـا بدت لنـا الى الخيال أقرب منهـا الى الحقيقة .

فاذا تركنا هـذه المائدة التى أعدت للخليفة ، وذهبنا الى مائدة أخرى لم تكن معدة ولا مقصودة بقدر مـا كان الأنس والطرب همـا المقصودين ولم تكن مقدمة الى خليفة ولا الى أمير ، وإنمـا الى رجل قد يكون من الطبقة الثانية أو الثالثة ، إذا ذهبنا الى هذه المائدة فماذا سنرى هناك ؟ ..

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٧٩ — ٢٨٠ .

استمع الى مخـــارق يحدثنـــا حديث هـــذه المائدة فيقول : جاءنى أبو العتاهية فقال : قد عزمت على أن أتزود منك يوما تهبه لى ، فمتى تنشط ؟ .. فقلت متى شئت . . فقـــال : أخاف أن تقطع بى (أى أن تتخلف وعدك) فقلت : والله لا فعلت وإن طلبنى الخليفة . فقـــال : يكون ذلك فى غد . فقلت : أفعل . . فلمـــا كان الغد باكرنى رسوله (رسول أبى العتاهية) فجئته ، فأدخلنى بيتـــا نظيفا ، فيه فرش نظيف ، ثم دعـــا بمائدة عليها خبز سميذ وبقـــل وملح وجدى مشوى فأكلنا منه ثم دعـــا بسمك مشوى فأصبنا منـــه حتى اكتفينا ، ثم دعـــا بحلواء فأصبنا منهـــا وغسلنا أيدينا ، وجاءونا بفاكهة وريحـــان وألوان من الأنبذة فقـــال : اختر مـــا يصلح لك منهـــا . فاخترت وشربت ثم أخذت أشرب ويشرب معى ، وأغنى له وهو يسمع حتى صارت العتمة (١) .

إن ترف هؤلاء القوم قد بلغ الغاية وأربى ، وإن دراسته دراسة كاملة تستدعى عمـــلا مستقلا ، فلنتوقف الآن عنـــه لننتقل بالحديث الى موضوع آخـــــر .

أحداث مهمة فى عهد الرشيد :

وتبرز فى عهد الرشيد أحداث ذات بال سنوليهـــا العناية فى مواضعها المخصصة لهـــا ، ومن هـــذه الأحداث ثورات الخوارج وسيرد ذكرهـــا عند الحديث عن الخوارج ، ومنهـــا كذلك الحرب مع الروم وسترد عند الكلام عن العلاقات الخارجية ، كما سيرد الحديث مفصـــلا عن البرامكة فى حيز خاص بين « مشاهير وزراء العصر » .

وفى عهـــد الرشيد ظهرت دولة الأدارسة ببلاد المغرب . كونهـــا إدريس بن عبد الله الذى فر من موقعـــة « فخ » التى حصلت فى عهـــد الهـــادى ، وسيأتى ذكرهـــا عند الكلام عن ثورات العلويين ، واتخـــذ الرشـــيد حيلة للوقوف فى وجه الأدارسة ، فأقطع ابراهيم بن الأغلب

---

(١) الاغانى ٣ : ١٧٣ — ١٧٤ .

منطقة تونس ، وكان ذلك بدءاً لقيام دولة الأغالبة كما سيأتى فيما بعد (١) •

ثورة خراسان :

وفى عهد الرشيد حصلت أزمة عنيفة فى خراسان ، فان الرشيد — مخالفا رأى يحيى بن خالد — عيّن على بن عيسى بن على بن ماهان والياً على خراسان ولكن هذا الوالى استبد بالأهلين وعسف وظلم ، فأخذ من أموالهم ما طاب له دون حساب ، واضطهد منهم من اشتكى أو من هدد بالشكوى ، ووصلت أخباره الرشيد ، كما وصلته الأنباء أن على بن عيسى يهدد الشاكين بأنه لا يخشى الرشيد ، وأن طاعته له مشروطة بعدم التدخل فى شئون ولايته ، فغضب الرشيد على علىّ وسار لمحاربته بنفسه ، ولكن عليا قابله بالرى وقدم فروض الطاعة كما قدم ألوانا من الهدايا والطرف للرشيد وكبار رجال دولته الذين صحبوه ، فرضى عنه الرشيد وعاد الى بغداد وأعاده الى خراسان •

وعاد على بن عيسى لينتقم بحرارة ممن اتهمهم بالكتابة ضده الى بغداد • وفى نفس هذه الفترة ، وبين هذا الغيظ المستعر فى نفوس أهل خراسان ثار رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وانضم له الخراسانيون نكاية فى على بن عيسى ، وعمت الثورة البلاد وتفاقمت ، وأدرك الرشيد أن لابد من عزل على بن عيسى ، فأرسل له هرثمة بن أعين على رأس جيش كبير ، فقبض هرثمة على علىّ بن عيسى وأهله وصادر أمواله الطائلة ، وأرسل عليا ، مكبلا الى بغداد • ولكن هرثمة لم يستطع أن يقضى على ثورة رافع التى وجدت استجابة تامة من الجماهير ، فاضطر الرشيد أن يسير بنفسه لمواجهة هذا الثائر • وكانت هذه هى الرحلة التى مات فيها الرشيد على ما سنذكر فيما بعد •

ومن الواضح أن ثورة رافع كانت رد فعل لطغيان عامل الخليفة ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٨ •

فكان هو السبب الرئيسى لقيامها واستفحالها ، ويذكر المؤرخون أن السبب المباشر لثورة رافع أنه تعرّف على زوجة يحيى بن الأشعث ، وكانت امرأة ذات مال وجمال ، فشكت له من زوجها وأنه هجرها ، فأغراها رافع بالردّة لتنفصم عرى الزوجية ، ثم العودة للإسلام ليتزوجها هو ، وفعلت المرأة وتزوجها رافع ، وعلم الرشيد بذلك فكتب الى على بن عيسى ليفرق بينهما وليعاقب رافعا على فعلته ، ولكن رافعا استجار بابن على بن عيسى فأجاره ، ثم هب ثائراً وتبعه الناس وقوى أمره على ما مرّ ذكره ، وقد ظل رافع فى سلطانه حتى خضع للمأمون عندما أقام هذا بخراسان وحسنت سيرته (١) ٠

الرشيد وولاية العهد :

إذا جاز لنا أن نتلمس العذر لالخلفاء السابقين فى سياستهم الخاصة بمشكلة ولاية العهد ، فإنه لا يجوز لنا أن نتلمس العذر للرشيد ، ذلك أن المشكلة كانت محصورة فى أولاده دون أى دخيل يزعجه ، وكان يعرف مَنْ مِنْ أولاده يجب أن يكون ولىّ عهده ، ثم كان يدرك أن السياسة التى يتبعها فى هذا الموضوع سياسة فاشلة ستؤدى الى القطيعة وسفك الدماء ٠

ولكن الرشيد اهتدى الى هذه النتائج عندما استغل عقله وفكره فى هذا الموضوع ، غير أنه كان أحياناً يطرح العقل والفكر ، ويستجيب لنداء القلب والعاطفة فى بعض الأمور حتى الخطيرة التى تتعلق بمستقبل الدولة وسير الأمور فيها ٠ ولنعالج المشكلة من أولها :

يروى الجهشيارى (٢) أن الرشيد كان يحب زوجته زبيدة ، ويَجِد بها وجداً شديداً ، وأنه لما عرض عليه الهادى أن يُقطعه إقطاعاً كبيراً على أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، قَبِلَ ذلك العرض وقال : « إذا

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك جـ ١٠ ص ١٠٠ وما بعدها ٠

(٢) الوزراء والكتاب ص ١٧٠ ٠

نزلتُ على (الهنيء والمريء) وخلوت بابنة عمى فما أريد شيئاً » • •

وهكذا كانت زبيدة تعدل الخلافة عند الرشيد ، ألا يعدل رضاها ولايةَ العهد لابنها الأمين ؟ ويقول السيوطى (١) : إن الرشيد بايع لمحمد لحرص أمه زبيدة على ذلك •

والأمين ابن زبيدة ، فمن الطبيعى أن تحبه وأن ترجو له المجد والخير ، ولكن من الحق علىّ أن أقرر ، أننى — على الرغم من محاولاتى — لم أجد فيما قرأت حديثاً صريحاً من زبيدة للرشيد تحضه على إيثار ابنها ، وإن كان من الحق أيضاً أن نقرر أنها لم تسلم من الإيعاز والتدبير ، ولننظر الى القصة الآتية لنرى ما فيها من الإيعاز : روى المسعودى (٢) أن أم جعفر دخلت على الرشيد فقالت له : ما أنصفت ابنك محمداً ، حيث وليته العراق وعريته من العدو والقواد ، وصيرت ذلك الى عبد الله دونه • فقال لها الرشيد : إنى وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من صاحب السلم •

لا نزاع أن هذه القصة توحى بأنها كانت يقظة تتطلع لمصلحة ابنها ، وتبنى له مستقبله ، وفيها إيعاز بأنها تفطن لكل ما يدور حول ابنها ، ولا تسمح لأحد أن يمتاز عليه •

ومن جهة التدبير فقد دل عليه ما ذكره ابن الأثير (٣) أن سبب البيعة للأمين أن خاله عيسى بن جعفر بن المنصور جاء الى الفضل بن يحيى بن خالد فسأله فى ذلك ، وقال له : إنه ولدك وخلافته لك ؛ فوعده بذلك وسعى فيها حتى بايع الناس له بولاية العهد •

والذى أفهمه من هذه الرواية أن سعى عيسى كان بتدبير أخته زبيدة • وأنه كان باسمها يتكلم ، ثم كان هذا يتفق ورأى بنى هاشم الذين يفضلون

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١١٣ •

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ •

(٣) الكامل فى التاريخ ٦ : ٤٠ •

محمد بن زبيدة على المأمون بن مراجل • وقد استطاع عيسى بحديثه الى الفضل أن يأتى البيوت من أبوابها : فقد كان البرامكة يحرصون على إرضاء زبيدة ، لتميل الى جانبهم بدلا من انحيازها الى جانب الفضل بن الربيع الذى كان بها يقوى وعليها يعتمد •

وانضم بذلك البرامكة الى المعسكر الذى يعمل لصالح محمد الأمين ؛ وأرسلوا الوفود للرشيد يحثونه على البيعة له ، فخضع الرشيد لكل هذه الرغبات ، وعقد لابنه محمد ولاية العهد سنة ١٧٥ هـ ولقبه بالأمين •

ويورد الأصفهانى قصة تبين صورة من الصور التى اتبعت فى التأثير على الرشيد ، كما تبين إدراك الرشيد لعقلية الأمين والمأمون • قال الأصفهانى (١) •

وجه الفضل بن يحيى وفداً من خراسان الى الرشيد يحرّضونه على إعلان البيعة لابنه محمد ، ويبدون استبشارهم وسرورهم لما أذيع من عزم الرشيد على هذا الأمر ، وقد وقف شاعرهم محمد بن ذؤيب العمانى ينشد عنهم أرجوزة طويلة منها :

لما أتانا خَبَرٌ مشهَّرُ
أغَرُّ لا يخفى على مَنْ يُبْصِر
جاء به الكوفى والمبصِّر
والراكب المنْجِد والمغوِّرُ
قلت لأصحابى ووجهى مُسْفِرُ
فاز بها محمد فأقصروا
وقلَّدَ الأمرَ الأغرُّ الأزهر
فابتهج الناس به واستبشروا
وهللوا لربهم وكبروا

---

(١) الاغانى ١٧ : ٧٨ — ٨٠ •

شكراً ، ومن حقهم أن يشكروا
فانظر لنا وخل من لا ينظر
واجسر كما كان أبوك يجسر
لا خير في مجمجم لا يظهر
ولا كتاب بيعة لا ينشر
وليت شعرى والحديث يؤثر
أترقد الليل ونحن نسهر
خوفاً على أمورنا ونضجر ؟
فأحكم الأمر وأنت تقدر
فمثل هذا الأمر لا يؤخر

فلما فرغ من الإنشاد قال له الرشيد : أبشر يا عمانى بولاية محمد العهد فقال : أى والله يا أمير المؤمنين ، بشرى الأرض المجدبة بالغيث ، والمرأة النزور بالولد ، والمريض المدنف بالبرء . قال الرشيد : ولم ذاك ؟ قال لأنه نسيج وحده ، وحامى مجده ، وموري زنده . قال : فما بالك فى عبد الله ؟ قال مرعى ولا كالسعدان . فتبسم الرشيد وقال : قاتله الله من أعرابى ، ما أعرفه بمواضع الرغبة ، وأسرعه الى أهل البذل ، وأبعده من أهل الحزم والعزم ، والذين لا يستمنح مالديهم بالثناء ، أما والله إنى لأعرف فى عبد الله حزم المنصور ونسك المهدى ، وعز نفس الهادى ، ولو شئت أن أنسبه إلى الرابعة لنسبته .

ثم إن الرشيد بعد أن عقد البيعة للأمين لم يستشعر الراحة ، ولم تطب نفسه لهذا التصرف ، وبالتالى أدرك البرامكة سوء المغبة فى هذا الوضع الجائر ، فليس من العدل أن تكون ولاية العهد للأمين دون المأمون مع أن الأول أحدث سناً وأقل كفاءة ، وكان المأمون فى حجر جعفر فأشار هذا على الرشيد بأن يبايع له بعد محمد (١) .

---

(١) الجهشيارى ص ٢١١ .

ويسوق لنا المسعودى عن الأصمعى رواية تدل على أن نفس الرشيد لم تهدأ للظلم الذى ارتكبه فى حق الدولة ، وحق ابنه المأمون ، قال الأصمعى : بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ، فكان يقعد مرة ، ويضطجع مرة ، وهو يبكى ، ثم أنشأ يقول :

قلّدْ أمور عباد الله ذا ثقة
موحّد الرأى لانكْسٌ ولا بَرِمُ
واترك مقالة أقوام ذوى خطل
لا يفهمون إذا ما معشرٌ فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمراً عظيما ، ثم قال لمروان الخادم : على بيحيى ، فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ، إنى قد عنيت بتصحيح هذا العهد ، وتصييره الى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون الى محمد بأهوائهم ، وفى محمد ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طبيعته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء فى رأيه ، وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصيل الرأى ، الموثوق به فى الأمر العظيم ، فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم ، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية ؛ فأشِرْ علىّ فى هذا الأمر برأيك ، مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك الرأى ، لطيف النظر . فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، إن كل زلة مستقالة ، وكل رأى يتلافى خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا ؛ فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة ، فأمرنى بالتنحى فقمت وقعدت ناحية ، وكنت أسمع كلامهما ، فما زالا فى مناجاة ومناظرة طويلة ، حتى قضى الليل ، وافترقا على عقد الأمر لعبد الله بعد محمد (١) .

وعلى هذا بايع الرشيد سنة ١٨٢هـ لعبد الله المأمون بولاية العهد

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٧٢ — ٢٧٣ .

بعد الأمين وولاه ولاية خراسان وما يتصل بها الى همدان (١) .

ويبدو أن التوفيق قد أخطأ الرشيد فيما يختص بولاية العهد ، ويبدو كذلك أن محمد بن ذؤيب العمانى أحسّ أن فى أرلجيزه فعل السحر على الرشيد وأنه يستطيع بها أن يعين ولاة العهود . ولذلك نجده يجىء مجلس الرشيد وينشده أرجوزة منها :

قل للإمــام المقتــدَىٰ بأمّهِ (٢)
ما قاسم دون مــدى ابن أمّه
وقــد رضينــاه فقــم وسمّهِ

وما إن يسمع الرشيد ذلك القول ، حتى يهتز ويبتسم ويقول : ويحك يا ابن ذؤيب . أما رضيت أن أوليه العهد وأنا جالس فأردت أن أقوم على رجلىّ ؟ فقال له العمانى : ما أردت يا أمير المؤمنين قيامك على رجليك ، إنما أردت قيام العزم . قال الرشيد : فإنا قد وليناه العهد . وأمر بالقاسم أن يحضر ، فلما حضر أومأ إليه الرشيد فجلس مع أخويه ،قال لــه : يا قاسم ، عليك جائزة هذا الشيخ ، فقد سألنا أن نوليك العهد وقد فعلنا . فقال : حكمك يا أمير المؤمنين (٣) .

قال المسعودى (٤) : « فبايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهــد بعد المأمون فإذا أفضت الخلافة الى المأمون كان أمره إليه ، إن شاء أن يُقِرّه أقره ، وإن شاء أن يخلعه خلعه » .

وفى هذه العبارة التى أضافها الرشيد فى بيعة القاسم ما يــدل على أن الأمر كان مضطرباً عليه ، وأنه لم يكن يصدر فى أحكامه عن عقيــدة

(١) ابن الاثير ٦ : ٥٣ .
(٢) أمه : رأيه أو محتده .
(٣) الاغانى ١٧ : ٨٠ .
(٤) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ .

وإيمان ؛ وما كان للرشيد أن يتصرف بمثل هذه الروح فى هـذه الأمور الخطيرة • وقد سبق لنا أن قررنا أن الرشيد كان يدرك أن السياسة التى يتبعها فى هذا الموضوع سياسة فاشلة ، ويعرف أنها ستؤدى الى القطيعة وسفك الدماء • ولنستمع الآن إلى الكسائى يحدثنا عن إحساس الرشيد فى هذا الأمر ، قال الكسائى : جلست عند الرشيد مرة ، فلما وثبتُ للقيام قال : اقعد • فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه ولم يبق إلا خاصته • فقال لى : يا على ، ألا تحب أن ترى محمداً وعبـد الله ؟ فقلت : ما أشوقنى إليهما يا أمير المؤمنين ، وأسرنى بمعاينة نعمـة الله على أمير المؤمنين فيهما • فأمر بإحضارهما ، فلم ألبث أن أقبلا ككوكبى أفق يزينهما هدوء ووقار ، وقد غضَّا أبصارهما ؛ وقاربا خطوهما حتى وقفـا على باب المجلس ، فسلما على أبيهما بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء ، فأمرهما بالدنوّ منه ، فصير محمداً عن يمينه ، وعبد الله عن يساره ؛ ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ، ففعلت ، فما سألتهما عـن شىء إلا أحسنا الجواب فيه ، والخروج منه ؛ فسرّ بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ، ثم قال لى : يا على كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هما كما قال الشاعر :

أرى قمرَىْ مجد وفرعَىْ خلافة   يزينهما عـرق قـديم ومحتـد

يا أمير المؤمنين ، هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسـة ، وتمكنت فى الثرى عروقه! وعذبت مشاربه ، أبوهما أغرّ ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمـه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقـان بلسانه ، ويتقلبان فى سعادته ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما • فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء ، وأغصان هذه الشجرة المباركة ، أذرب لسانا ، ولا أحسن ألفاظاً ، ولا أشدّ اقتداراً على تأدية ماحفظ منهما • فضمهما الرشيد إليه ، وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج •

فلما خرجا أقبل على ّ فقال : كأنك بهما وقد حم القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وبلغ الكتـــاب أجله قد تشتتت كلمتهمـــا ، واختلف أمرهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك حتى تسفك الدماء ، وتقتل القتلى ، وتهتك ستور النساء ، ويتمنى كثير من الأحياء أنهم فى عداد الموتى !! (١) .

كان الرشيد بهذا كأنما يقرأ المستقبل ، ومن أجل ذلك بذل وبذل البرامكة معه أقصى الجهد رجاء أن يوفى ولاة عهده بما وعدوا ، وأن يبروا بما أقسموا عليه ، واتجهت عنايتهم إلى الأمين فهـــو ولى العهد الأول ، وفى يده مفتاح الفتنة إن غدر ، وتضاعفت جهودهم لأن الثقة بالأمين لم تكن قوية ، وقد سجل الرشيد ذلك فى رده على زبيدة حينما قالت لـــه : أعريت محمداً من العدّة والقواد ، وصيَّرت ذلك الى عبد الله دونه ، فأجابها : إنا نتخوف ابنك عـــلى عبـــد الله ، ولا نتخوف عبد الله عـــلى ابنك (٢) .

وكان أبرز ما فعله الرشيد ليتحاشى الغدر من أولاده ، وليحمى المسلمين من فتنة عاصـــفة ، أن سار الى مكـــة حاجاً سنة ١٨٦ ومعـــه أولاده ووزيره والفقهاء والقضاة والقواد ، وهناك كتب كتاباً على محمد الأمين وأشهد فيه من حضر، بالوفاء للمأمون ، وكتب كتاباً على المأمون وأشهد فيه على الوفاء للأمين ، وعلّق الكتابين فى الكعبة ، وجدد العهود عليهما فيهـــا (٣) .

وقد أراد جعفر البرمكى أن يؤكد على الأمين أن يكون وفياً لأخيه باراً بعهده ، فطالبه أن يضيف فى قسمه قوله : خذلنى الله إن خذلته . فقال ذلك ثلاث مرات (٤) :

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٧١ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ .
(٣) ابن الاثير ٦ : ٥٧ ، وابن خلدون ٣ : ٢٢٢ .
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٣ والجهشيارى : الوزراء والكتـــاب ص ٣٢٢ .

ولم ينفع كل هــذا الاحتياط فمــا إن مات الرشيد حتى هبت فتنة هوجاء بين الأمين والمأمون ، فأكلت الآلاف من المسلمين ، وكان الأمين أحد ضحاياها ، وسنرى تفصيل ذلك عند الكلام عــن الأمين وولايــة العهــد (١) .

وزراء الرشيد وكبار رجال دولته :

شغل البرامكة مناصب مختلفة فى دولة الرشيد ، وكان إليهم مرجع كل الأمور أو أكثرها ، وبعد نكبة البرامكة استوزر الرشيد الفضل بــن الربيع ، وسيأتى حديث خاص عن البرامكة وعن الفضل بن الربيع .

وقد عدد الخطيب البغدادى رجال القمة فى بلاط الرشيد فقال (٢) : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد فى مجال الجد والهزل ، وزراؤه البرامكة ، لم يرَ مثلهم سخاء وعظمة ، وقاضية أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبى حفصه ، كان فى عصره كجرير فى عهد بنى أمية ، ونديمه العباس بن محمد ، وحاجبه الفضل بن الربيع أتيه الناس وأشدهم تعاظما ،ومغنيه إبراهيم الموصلى واحد عصره فى صناعته ، وضاربه زلزل ، وزامره برصومــا ، وزوجته أم جعفر أرغب الناس فى خير ، وأسرعهم الى كل بر (٣) .

نهايــــة الرشـــيد :

قلنا فيما سبق إن الرشيد اضطر أن يسير بنفسه لقمع الثورة التى قام بها رافع بن ليث بخراسان ، وقد أناب الرشيد عنه ببغداد ابنــه الأمين وخلف معه يحيى بن سليم الكاتب يكتب له ويدبر أمــره (٤) ، وصحب الرشيد فى هذه الرحلة ابنه المأمون ووزيره الفضل بن الربيع ، واسماعيل بن صبيح ، وجمع كبير من كبار القادة ، وجيش ضخم به أمهر

---

(١) ص ١٦٧ .
(٢) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١١ .
(٣) انظر كذلك الوزراء والكتاب للجشهيارى ص ١٤٦ تصحيح الصاوى .
(٤) الوزراء والكتاب ص ٢١٤ تصحيح الصاوى .

جنود الخلافة ، ولكن العلة اشتدت على الرشيد فى الطريق ، فحط رجاله فى طوس ، ولما اشتدت وطأة المرض عليه بعث بابنه المأمون على رأس جيش الى خراسان ، ومعه مؤدبه الفضل بن سهل ، وبقى الرشيد بطوس ومعه وزيره الفضل بن الربيع وقطعة من الجند وبعض الأموال ، ولكن الرشيد أحس بدنو أجله فأوصى وزيره الفضل بن الربيع — إن حم القضاء — أن يلحق بالمأمون ، ومات الرشيد بعد ذلك . وكانت وفاته سنة ١٩٣هـ وسنه أربع وأربعون سنة ، وبضعة أشهر . أما موقف الفضل بن الربيع من وصية الرشيد فسيأتى تفصيله فيما بعد (١) .

---

(١) ص ٣١١ وما بعدها .

الأمين (١٩٣ — ١٩٨هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد أبو عبد الله محمد الأمين سنة ١٧٠هـ بعد مولد أخيه المأمون بستة أشهر ، وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، وليس فى خلفاء بنى العباس مَنْ أمه وأبوه هاشميان سواه(١) .

وقد جعل الرشيد ولاية عهده لأولاده الثلاثة الأمين فالمأمون فالقاسم ، وزاد الرشيد على ذلك فقسم الدولة بينهم ، فجعل خراسان خالصة للمأمون له عليها النفوذ الكامل ، وجعل الجزيرة للقاسم ، وجعل العراق للأمين ، وتوفى الرشيد كما سبق القول بطوس وهو فى طريقه لخراسان لقمع ثورة رافع بن ليث ، وكانت وفاته بعد أن أوفد ابنه المأمون لخراسان لنفس الغرض ، وتخلف هو بسبب المرض ، ولما مات الرشيد تمت البيعة للأمين فى كل البقاع دون خلاف من أحد .

وقد خان الفضل بن الربيع وصية الرشيد بأن يتبع المأمونَ الى خراسان هو ومن معه ، وعاد الفضل بعد موت الرشيد الى بغداد بإيعاز الأمين ، وكان هذا التصرف سبباً فيما تلا ذلك من أحداث سنذكرها فيما بعد عند الكلام عن الفضل بن الربيع بين « مشاهير وزراء العصر (٢) » والمهم هنا أن نذكر أن الفضل — خوفا من المأمون بسبب ذلك — باعد بين الأخوين وعمل على عزل المأمون والقاسم وتولية موسى ابن الأمين ، وفيما يلى حديث ذلك .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٨٧ ، ويقول الاستاذ الخضرى ان ذلك لم يتفق لغيره من الخلفاء جميعا الا لعلى بن أبى طالب وابنه الحسن اذا اعتبرنا ان الحسن كان من الخلفاء .

(٢) ص ٣١٢ وما بعدها .

الأمين وولاية العهـد :

انتهى دور الرشيد فى مأساة ولاية العهـد على النحو الذى رأينـاه من قبل ، وبدأ الآن دور ابنـه الأمين ، ولسنا فى حاجة الى البحث والتنقيب عمـا كان يضمره من الوفاء أو النكث ، فان الأمين يكفينـا عبء محاولة الغور فى نفسـه لنستشف مـا كان يخطر تهـا ، لأنه هو عبر عن خطرات قلبه ، عقب القسـم الذى أدّاه فى البيت الحرام ، حكى الفضـل بن الربيع أن محمدا قال عند خروجه من بيت الله : يا أبا العباس ، هو مـا أجد من نفسى أن أمرى لن يتم ، فقـال له : ولم ذاك أعزّ الله الأمير ؟ قال : لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغـدر • قال له الفضل : سبحان الله !! أفى هـذا الموضع ؟ فقـال الأمين : هو مـا قلت لك (١) •

ومـا إن توفى الرشيد وتسلم الأمين الخلافة حتى جدّ ليوفى لنفسه مـا أحب وليحقق مـا كان أضمر • فخلع المأمونَ والقاسمَ ، وبايع لابنـه موسى بالعهـد بعده ، وأوفد وزيرَهُ الفضـل بن الربيع أحدَ الحجبة وسألة التلطف فى أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى بيت الله الحرام بالبيعة ، ففعل الحاجب ذلك ، وسرق الكتابين ، ورجع بهما الى الفضل ، فدفعهما الى محمد فمزقهمـا (٢) •

لقد فتح الأمين بذلك باب العاصفة التى هبت فأتت عليه ، وعلى ملكه ، وعلى أولئك الذين زينوا له النكث بالعهـد ، وعدم الوفاء بالوعد ، ولنـا عودة فيمـا بعد الى تفاصيل هـذا الغدر ، وأثر الفضل بن الربيع فيـه عند حديثنا عن هـذا الوزير بين « مشـاهير وزراء العصر » •

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٢٢ •
(٢) المرجع السابق ٢٩٢ •

السفيانى ومحاولة إحياء الخلافة الأموية :

وقد انتهز على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معـــاوية المعروف بالسفيانى فرصـــة الفتنة بين الأمين والمأمون فخرج فى الشـــام داعيـــاً الى نفســـه ومحاولا أنيعيد مجد بنى أمية ، وقد استطاع أن يتغلب على عامل الأمين بدمشق ، وأن يحتل عاصمته الأمويين ويمد نفوذه الى مـــا حولهـــا من بلاد ، وكانت بغداد فى شغل عنه بحروبهـــا ضد المأمون ، وبهـــذا أوشك أن يتمكن سلطان السفيانى ، وأن يتم له الاستقلال ببلاد الشام ، ولم تكن الجيوش التى بعثهـــا الأمين بقيـــادة الحسين بن على ابن عيسى ذات غناء فى القضـــاء على السفيانى ، ولم يضعف من شوكته إلا نزاع داخلى هبّ بين اليمنيين والمضريين ، فشغل دمشق عن تحقيق آمال السفيانى وتلاشت أحلامه لهـــذا السبب (١) .

وزراء الأمين وكبار الرجال فى عهده :

وقد وزر للأمين الفضل بن الربيع ، ومع أن هـــذا اختفى ســـنة ١٩٦هـ عندمـــا قلّ الأمـــل فى انتصـــار الأمين ، فانه لم يعـرَف عن الأمين أنه استوزر أحداً ســـواه ، ومن أهم الرجـــال الذين اعتمد عليهم الأمين ، العباس بن الفضـــل بن الربيع وكان يتولى الحجـــابة للخليفة ، وبكر بن المعتمر وكان له ديوان الخاتم (٢) . ومن رجـــاله كذلك على بن عيسى بن ماهان وقد قتل فى حروبه ضـــد طاهر بن الحسين ، والحسين بن على بن عيسى وكان كأبيه فى قلة غنائه وقلة وفائه ، وقد انتهز فرصـــة رجحان كفـــة المأمون فى حروبه ضـــد الأمين ، فثـــار على الأمين وقبض عليه وسجنه وبايع للمأمون ، ولكن جند الحسين ثاروا عليـــه وأطلقوا سراح الأمين وأعادوه للخلافة ، ومع هـــذا عفا الأمين عنـــه ولكنه لم يستقر ، فحـــاول الهرب من بغداد ربمـــا لتدبير غدر جديد ، ولكن جند الأمين قبضوا عليه وقتلوه .

---

(١) انظر الطبرى ج ١٠ ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٣٦ .

شخصية الأمين وأخلاقه :

يقول ابن طباطبا (١) : كان الأمين كثير اللهو واللعب منقطعاً الى ذلك مشتغلا به عن تدبير مملكته .

ويروى الجاحظ عن إسحاق بن ابراهيم الموصلى أنه قال ، ما كان أعجب أمر المخلوع ، أما تبذله فما كان يبالى أين قعد ومع من قعد ، وكان لو كان بينه وبين ندمائه حجاب خرّقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا ، وكان من أعطى خلق الله لذهب وفضة ، وأنهبهم للأموال إذا طرب أو لها ، وقد رأيته وقد أمر لبعض أهل بيته فى ليلة بوقر زورق ذهباً فانصرف به ، وأمر لى ذات ليلة بأربعين ألف دينار فحملت أمامى . . . وقد رأيته يوما وعلى رأسه بعض غلمانه فنظر اليه فقال : ويلك ! ! ثيابك هذه تحتاج الى أن تغسل ، انطلق فخذ ثلاثين بدرة فاغسل بها ثيابك [البدرة كيس فيه عشرة الآف درهم] (٢) .

وكان الأمين فى نهاية الشدة والقوة والبطش حتى يروى أنه قتل مرة أسداً بيديه ، وله فصاحة وبلاغة وأدب ، ولكنه كان سيىء التدبير ، ضعيف الرأى ، أرعن ، لا يصلح للامارة (٣) .

وعقب بيعته أرسل فى طلب الخصيان وابتياعهم ، ووجه الى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم اليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، واحتجب عن أخوته وأهل بيته ، واستخف بهم وبقواده وقسم ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلواته ، وعمل خمس حراقات فى دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق فى عملها مالا عظيما ، فقال أبو نواس فى ذلك :

---

(١) الفخرى ص ١٨٧ .
(٢) التاج ٤٢ — ٤٣ .
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١١٦ .

سخر الله للأمين مطـايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فـإذا مـا ركابه سرن براً	سار فى الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث تـمر مرّ السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحـ	ين تشق العباب بعد العبـاب
تسبق الطير فى السماء إذا ما اسـ	تعجلوها بجيئه وذهاب (١)

ويسجل لنـا أبو الفرج الأصفهانى عن مخـارق صورة ناطقة من صور مجون الأمين وخلاعته ، وهى تدل على أن الرجل كان ينغمس فى المرح والخلاعة الى قمتـه ، وأنه كان ينسى نفسـه إذا دقت الدفوف وحفت به الجوارى ، قال مخارق : مرت بى ليلة مـا مرّ بى قط مثلها ، جاءنى رسول محمد الأمين وهو خليفة ، فأخذنى وركض بى إليـه ركضا ، فحين وافيت وجدت ابراهيم بن المهـدى قد أُتِىَ به على مثل حـالى ، فنزلنـا فاذا هو فى صحن لم أر مثله ، مُلِىءَ شـمعا من شمع محمد الأمين الكبـار ، وكانت الدار مملوءة بالوصائف يغنين ويطبّلن ، ومحمد فى وسطهن يرتكض ، فجاءنا رسوله فقـال : قوما فى هـذا البـاب ممـا يلى الصحن فارفعا أصواتكما بالغنـاء وإيا كما أن تقصرا ، ثم أخـذ الجوارى والمخنثون يزمرون ويضربون :

هذى دنانير تنسانى وأذكرها	وكيف تنسى محبا ليس ينساها

فمـا زلنـا نشق حلوقنا ونرفع أصواتنا خوفاً من التقصير ، ومحمد يجول دون سأم ، يدنو منـا مرة ويبعد أخرى ، ويحول الجوارى بيننا وبينـه أحيانا حتى أصبحنا (٢) .

ومن عجيب مـا روى عن الأمين أنه ظل سادرا فى ضلاله ومجونه حتى الساعة التى كان فيهـا عرشه يهتز من تحته ، والشدة تحيط به

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٩٩ — ١٠٠ .
(٢) الاغـانى ١٦ : ١٣٣ .

من كل جانب ، حدث علُّوَيه أن الأمين كان يجلس الى إحـدى جواريه تغنيه وقد أحيط به ، وبلغت حجارة المنجنيق بساطه (١) .

ومن ذلك أيضا مـا رواه ابراهيم بن المهـدى قال : استأذنت الأمين يوما ، وقد اشتد الحصـار عليه من كل وجه فلمـا دخلت إذا هو كالوَالِـه وحوله خدمه وغلمانه ، وكلهم يبحثون فى بركة ماء القصر ، وفى المجرى الذى يصـل البركة بدجـلة ، والأمين يتبعهم ويشرف عليهم ، فسلمت عليـه فلم يرد ، فثنيت بالسـلام ، فقال : لا تؤذونى ، فمقرطتى قد ذهبت من البركة الى دجلة (والمقرطة سمكة كانت قد صيدت له وهى صغيرة ، فقرطها حلقتين من ذهب فيهمـا حبتا درّ) فقـال ابراهيم بن المهـدى : فخرجت وأنا يائس من فلاحه ، وقلت : لو ارتدع فى وقت لكـان هـذا الوقت (٢) .

وممـا يدل على تفاهة عقل الأمين مـا حدَّث حمـاد بن إسحق عنه قال : دخلت على الأمين فرأيته مغضبا كالحاً ، فقلت له : مـا لأمير المؤمنين ، تمم الله سروره ولا نقصـه ، أراه كالحائر ؟ قـال : غاظنى أبوك السـاعة لا رحمه الله ، والله لو كان حيا لضربته خمسمائة سـوط ، ولولاك لنبشت السـاعة قبره وأحرقت عظامه . فقلت : أعوذ بالله من سخطك يا أمير المؤمنين ، ومَنْ أبى ومـا مقداره حتى تغتـاظ منه ؟ ومـا الذى غاظك فلعل له فيه عذرا ؟ فقـال : شدة محبته للمأمون ، وتقديمه إياه علىّ ، حتى قال فى الرشيد شعرا قدَّم فيـه المأمون علىَّ ، وغنَّيته السـاعة فأورثنى هـذا الغيظ . فقلت : والله مـا سمعت بهذا قط ، ولا لأبى غناء إلا وأنا أرويه ، ما هو ؟ فقال :

أبو المأمون فينـا والأمين لـه كنفان من كرم ولين

فقلت له : يا أمير المؤمنين ، لم يقـدم أبى المأمون لشـدة محبته

---

(١) الجاحظ : التاج ص ٤٣ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٣٠١ — ٣٠٢ .

له ، وإنمــا لأن الشعر لا يصح وزنه إلا هكذا • فقــال : كان ينبغى له إذ لم يصح الشــعر إلا هكذا أن يدعه الى لعنــة الله • فلم أزل أداريه وأرفق به حتى سكن ، فلمــا حضر المأمون سألنى عن هــذا الحديث فحدثته به فجعل يضحك ويعجب منه [١] •

سيرة الأمين ونقد التاريخ :

أوردنا فيمــا سبق طرفا ممــا ذكرته كتب الأدب والتاريخ عن مجون الأمين واستهتاره ، وهناك رأى يثير الشــك حول مــا نسب للأمين من خلاعة وانحلال ، ويرى هــذا الاتجاه أن مــا كُتِبَ عن الأمين أو أكثره مصنوع ، ذلك لأنه كتب فى عهــد المأمون ، فروعى فيه إظهــار الأمين فى صورة ماجنة خليعة إرضاء للخليفة القائم وتبريرا لقتل الأمين ، كمــا تأثر مــا كتب عن الأمين بنهايته وهزيمته أمام أخيــه ، والمهزوم غالبــا يتحمل اللوم والمسئولية ، وربمــا كان فى الأمين ميل للهــوى والعبث ، ولكن الكتّاب بالغوا فى تصويره مبالغة واضحة •

وأنا لا أقبل هــذا الرأى لأن فيه تشكيكا فى التراث الضخم الذى بين أيدينا ، ثم إن مــا كتب عن الأمين لم يكتب كله ولا جلّه فى عهد المأمون ، وإذاً فلا نفوذ للمأمون فى توجيه هــذا التاريخ ، وقد كَتَبَ عن الأمين كثير من ثقــات المؤرخين والكتّاب ، وكلهم أجمعوا على خلاعتــه وإسرافه فى التهتك والمجون مع أنهم استقوا معلوماتهم عن مصـــادر مختلفة ، ورواة متعددين ، ولا يمكن أن نعتقد أن هــذه المصادر وأولئك الرواة قد أجمعوا على باطل ، هــذا ولم يتول الخلافة أحد من ذرية المأمون ، وعلى ذلك فلا يمكن أن نقول إن نفوذ المأمون عاش طويلا وأثر فى كتــابة تاريخ هذه الحقبة ، وهناك دليل قاطع على خلاعة الأمين ومجونه ، وهو المديح الذى سجله له شاعراه الحســين بن الضحاك وأبو نواس وغيرهما ، ففى هذا المديح ذكر لا المواقف عظمة وبطولة حربية ، وإنمــا وصف لحراقات دجلة

---

(١) الاغانى ١٠ : ١١٨ — ١١٩ •

وليالى الأنس فيهـا والجوارى والغلمان (١) •

وقد رضى المعتصم والواثق والمتوكل عن الحسين بن الضحاك أو الخليع كمـا يسميه الأصفهانى ونادموه وشربوا معـه مع أنه كان النديم المفضل لدى الأمين وكان مغضوبا عليـه من المأمون ، وهذا يدل على أن تيار السخط ضد الأمين وأتبـاعه كان قد توقف ، فلابد بعد ذلك أن يكون المؤرخون قد كتبوا بوحى من النزاهة والعدالة يدعونا الى أن نجل آراءهم ، ونثق فى كتابتهم الى حد كبير ، وليس معنى هـذا أن كل مـا كتب عن الأمين صحيح فى جملته وتفصيله ، فانى أميل الى القـول بأن بعض الرواة استغلوا حماقة الامين ومجونة فوضعوا بعض الاقاصيص عنـه ، ولكن هـذا يجب ألا يثير الشكوك حول التراث العلمى الضخم الذى كتبـه الثقات من المؤرخين ، هـذا ومن مهمة المؤرخ الحديث أن يزن الأمر وأن ينتقى لكتابته مـا تدل الدلائل على صحته وصدقه ، وهـذا مـا حاولناه فيمـا قدمناه من دراسات عن الأمين : إذ اعتمدنا على أوثق المصـادر وعلى مـا سجله شاعرا الأمين وصفياه الحسين بن الضحاك وأبو نواس •

نهـاية الأمين :

زحفت جيوش المأمون من خراسان بقيـادة طاهر بن الحسـين وهرثمة بن أعين ، وصلت فى زحفهـا الى أسـوار بغداد ، وأخذت تدق لأبوابها ، وانفض أغلب أتبـاع الأمين عنه ، فحاول هـذا أن يستسلم لهرثمة حيا ولكن رجال طاهر هاجموه وقضـوا عليه ؛ وانتهى بذلك عهده ، وسنروى ذلك مفصـلا عند الكلام عن الفضل بن الربيع بين « مشاهير وزراء العصر » •

---

(١) اقرأ ديوان أبى نواس فى مواضع متعددة واقرأ كذلك عصر المأمون لفريد رفاعى ٣ : ٢٩٢ — ٣٠٢ وترجمـة الحسين بن الضحاك فى الاغانى ٦ : ١٦٥ — ٢٠٥ وقد أوردنا بعض هذا الشعر فيما سبق •

المأمون (١٩٨ — ٢١٨هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد عبد الله أبو العباس المأمون سنة ١٧٠هـ فى نفس الليلة التى مات فيها عمه الهادى ، وقد سبق أن ذكرنا أن ولادته كانت قبل أخيه الأمين بستة أشهر ، وأمُّ المأمون أم ولد اسمها مراجل ، وقد فَضَّلَه الأمين بسبب أمه زبيدة فكانت له ولاية العهد الأولى مع أن المأمون — بالإضافة الى أنه أسنُّ منه — كان أذكى وأقدر على تصريف الأمور كما سبق .

وعلى كل حال فقد جعله الرشيد وليا للعهد بعد الأمين ، كما أسند اليه ولاية خراسان وما يتصل بها الى همدان ، ولم يجعل للأمين أى سلطان عليه فيها .

وقد سبق أن أشرنا الى الصراع الدامى بين الأمين والمأمون ، ذلك الصراع الذى أثارته حماقة الأمين وخيانة الفضل بن الربيع حينما عملا على عزل المأمون من ولاية العهد وتولية موسى بن الأمين ، فتسببا فى معارك حربية طويلة سقط فى نهايتها الأمين سنة ١٩٨هـ فتولى المأمون الخلافة عقب ذلك ، وسيأتى تفصيل هذا الخلاف عند الكلام عن الفضل بن الربيع (١) والفضل بن سهل (٢) بين « مشاهير وزراء العصر » .

المشكلات التى صادفها المأمون :

انتصر المأمون على أخيه وأصبح خليفة ، ولكن التركة التى تسلمها كانت مثقلة ، مليئة بالمتاعب والأحداث ، فانشغاله فى حروبه ضد أخيه هيأ الفرصة للساخطين وأعداء الدولة ، وانتصارُه بسيوف الفرس أثار العرب ، وانتقاله من خراسان الى بغداد اثار الفرس . وهكذا هبَّت

---

(١) ص ٣١٢ وما بعدها .
(٢) ص ٣٢٦ وما بعدها .

حركات متعددة فى وجه المأمون ألزمته أن يبذل جهداً كبيراً طيلة خلافته ليداوى الصدع الذى قُدِّر عليه أن يقابله . ومن أهم ما شهده عصر المأمون من تمرد ما يلى :

١ — ثورة أبى السرايا .

٢ — ثورة نصر بن شَبَث .

٣ — ثورة بغداد .

٤ — حركات الزط المدمرة .

٥ — ثورة المصريين .

٦ — ثورة بابك الخرمى .

وسنذكر فيما يلى كلمة عن كل من هذه الثورات فيما عدا ثورة بابك التى سيجىء الحديث عنها عند الحديث عن الزنادقة لأن ثورة بابك لم ترتبط فقط بعهد المأمون بل كانت بعيدة الجذور فى مجال الانحراف .

ثورة أبى السرايا :

أبو السرايا هو السرى بن منصور الشيبانى ، أحد القادة الكبار فى جيش هرثمة ، ويبدو أنه أحس بخيبة أمل فقد رأى — كما سيأتى تفصيل ذلك — أن هرثمة بعد أن انتصر فى صراعه ضد الأمين قد جرّده الفضل بن سهل من السلطة وعين بدلا منه أخاه الحسن بن سهل ، ومن أسباب ثورة أبى السرايا كذلك تأخُّر أجره وأجر الجند معه ، فخرج من جيش هرثمة وتبعه عدد كبير ، ودعا للطالبيين واستولى على الكوفة وامتد سلطانه الى المدائن وما حول الكوفة من مدن وأرسل له الحسن ابن سهل عدة جيوش ولكنها انهزمت أمام قوة أبى السرايا ، ولم يجد الحسن بدا من الاستعانة بهرثمة ، فسار هرثمة الى أبى السرايا وأوقع به ، واضطر أبو السرايا الى الهرب وإخلاء الكوفة ، وطاردته جنود الخلافة

حتى تمَّ القبض عليه وهو جريح جراحاً بالغــة أصابته فى إحدى المعارك التى هزم فيهــا ، وجىء به الى الحسن بن سهل فقتله وصلبه ســنة ٢٠٠هـ بعد ثورة استمرت عشرة أشهر (١) .

٢ ـ ثورة نصر بن شبث :

نصر بن شَبَث عربى شريف رأى كفــة العرب تشيل وكفــة الفرس ترجح مع قتل الأمين وانتقــال الأمر للمأمون ، فقاد ثورة يدافع بهــا عن العنصر العربى ، وبدأت ثورته عقب مقتل الأمين أى ســنة ١٩٨هـ ، واتخذ مِنْ يكسوم شمال حلب مركزا له ، ثم زاد نفــوذه وكثر أتباعه وتوالت انتصاراته ، ونصح له بعض أتبــاعه بالبيعة لأحــد العلويين بالخلافة ، ولكنــه أجاب : أبايع لبعض أولاد السوداوات فيقول إنــه خلقنى ورزقنى ؟ فقــالوا : تبايع لبعض بنى أميــة . فأجاب : أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل ، وإنمــا هواى فى بنى العباس ولــكنى أحاربهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم .

وقد أصــدر المأمون أوامره لطاهر بن الحسين ليسلم بغداد للحسن ابن سهل ويخرج لمحــاربة نصر ، فخرج طاهر ودارت عدة معــارك بين الاثنين دون نتيجة حاسمة ، ويبــدو أن طاهراً لم يكن جاداً فى حربه ضــد نصر ، فلمــا قدم المأمون بغداد عين لحربه عبد الله بن طاهر ، أمــا طاهر بن الحسين فقد جعلت له ولاية خراسان ، ونشط عبد الله فى حرب نصر حتى ضيق عليه ، فاضطر لطلب الأمان ، فأعطاه المأمون كتــاب أمان ودخل بغداد مسالما سنة ٢١٠ بعد حروب طويلة مدمرة (٢) .

٣ ـ ثورة بغداد وتعيين ابراهيم بن المهدى خليفة :

بعد مقتــل الأمين حاول الفضــل بن ســهل ـــ كمــا سيجىء تفصيله ـــ أن يستبد بالسلطان ، فعين أخاه الحسن بن سهل والبــا على

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٢٤٢ وما بعدها .
(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٢٥٢ .

العراق ، وكان للفضل السلطان فى خراسان ، واتضــح أن المأمون كانت تـُعـَمـَّى عليه الأمور من خلفه ، وأبعد الفضلُ بن سهل عن العاصمة القائدين المظفرين طاهراً وهرثمة كمــا مرّ ، وعمل الفضل كذلك على تعيين ولى العهــد من العلويين فهيأ بذلك للسلطان أن يـَنـْتقل من بنى العبــاس الى العلويين ، وكل هــذا أثار ثائرة بغداد ، فتمردت على الحسن بن سهل ، وحاول هــذا أن يتغلب على هــذه الصعاب فلم يستطع ، وزاد فى دقة موقف المأمون أن الحسن بن سهل مرض مرضا أبعده عن مسرح الأحداث ، فانتهز أهل بغداد هــذه الفرصة ، فاجتمعوا وقرروا عــزل المــأمون وتولية ابراهيم بن المهــدى ، وكان ذلك فى أول ســنة ٢٠٢هـ ، ودانت لإبراهيم الكوفة والسواد والمدائن • •

وابراهيم هو ابن الخليفة المهــدى ، وأخو هرون الرشيد ، اتجه للشعر والموسيقى والغنــاء فبرز فيهــا ، ولكنه عندمــا أتيحت له فرصة لدخول معمعة السياسةدخلها دون تردد ، فالعرش والجــاه والسلطان لها بريق يجذب القلوب ويستهوى النفوس ، ويندر أن يستطيع مقاومتها إنســان •

وأمام هــذه الأحداث قرر المأمون أن يتصرف بحزم ليستعيد ملكه ونفوذه ، فقــام برحله من مرو الى بغداد ، وتخلص فى الطريق من الفضل ابن سهل ومن الرضا ، فكــان ذلك كافياً لعودة النــاس اليه وانفضاضهم من حول ابراهيم بن المهدى الذى دفعــه الخوف الى الاختفــاء ، ودخل المأمون عاصمة ملكه سنة ٢٠٤هـ حيث استتب له الأمر •

وكان ابن عائشة وهو ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الإمام ، من أنصــار ابراهيم بن المهــدى واختفى معــه حيناً ، وقد انتهز ابن عائشة المشكلات التى كان يعانيها المأمون بعد وصوله بغداد فدبـّر مؤامرة سنة ٢١٠هـ ترمى الى خلع المأمون واعادة ابراهيم بن المهــدى للخلافة وكان لا يزال مختفيــا ، وقد عرف المأمون خبر هــذه المؤامرة فى شــهر

صفر سنة ٢١٠هـ فقبض على ابن عائشة وأنزل به العقـاب على هـذه المؤامرة ، وعفـا عن أكثر من ذكرت أسماؤهم معـه فى هذا التدبير .

وقد ظل ابراهيم بن المهـدى مختفيا حتى ربيع الآخر من هـذا العـام فقبض عليه حرس المأمون ، واقتادوه اليه ، فقـال له المأمون : هيه يا ابراهيم ؟ فقـال ابراهيم : يا أمير المؤمنين ، ولى الثأر محكم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، وجعل كل ذى ذنب دونك ، فان تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك . قال المأمون : بل أعفـو يا عمـاه ، أطلقوا عن عمى حديده ، وردوه الى مكرمـا (١) .

٤ — ثورة الزط :

الزط — كمـا يقول ابن خلدون (٢) — قوم من أخلاط الناس انتهزوا فرصة انشغال الجند بالحروب ، فغلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها ، وأفسدوا البلاد ، ويرجع أصلهم الى الهند ويعرفون بالنوّر ، وكان همهم الشغب والخطف ، وقد حاول المأمون بعد عودته الى بغداد أن يتغلب عليهم ، ولكنهم كانوا إذا توقعوا الهزيمة انماعوا فى الفيافى ، فاذا خف ضغط الجند عادوا الى فسادهم وتجمعاتهم ، وعلى هـذا طال أمد فسادهم حتى تغلب عليهم المعتصم سنة ٢١٩هـ بواسطة قائده عجيف بن عنبسـة الذى أوقع بهم الهزيمة عدة مرات ، فاستسلموا وطلبوا الأمـان فنقلوا الى ثغر « عين زربة » . وانتهى بذلك خطرهم .

٥ — ثورة المصريين :

هبت بمصر ثورة عارمة بدأت بخلافات بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فقد ناصرت القيسـية الأمين وناصرت الكلبيـة (اليمنيون) المأمون وانتهز بعض المصريين هذه الثورة فهبوا فى وجه العرب ، وقد

(١) الاغانى جـ ٩ ص ٥٧ والطبرى جـ ص ٧٠ وما بعدها .
(٢) العبر جـ ٣ ص ٢٥٧ .

انتدب المأمون عبد الله بن طاهر للقضاء على هذه الثورة ، وقد تمكن من ذلك عبد الله ، ولكنه لما ترك مصر عادت الثورة فاضطر المأمون أن يحضر بنفسه لإصلاح الأحوال وإعادة الأمن إلى نصابه (١) :

المأمون والعلويون :

نال العلويون فى عهد المأمون حظوة عظيمة ، ولأول مرة فى تاريخ هذه الدولة ، يعلن الخليفة العباسى أنه نظر فى ولد بنى العباس وولد على فلم يجد فى وقته أفضل ولا أحق بالأمر من على بن موسى الرضا ، فبايع له بولاية العهد ، وضرب اسـمه معه على الدراهم والدنانـير ، وزوجه ابنته أم حبيبة ، كما زوج ابنته الأخرى أم الفضل من محمد بن موسى الرضا ، وأمر المأمون بخلع السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة شعار العلويين ، وربما كان ذلك اتساعاً فى أفق المأمون ، أو ربما كـان ذلك محققا لآمال الخراسانيين الذين كانوا الى أولاد على أميل •

وقد فسر المأمون موقفه من العلويين لعمة أبيه زينب بنت سليمان ابن على ، وكانت موضع تعظيم العباسيين وإجلالهم وهى من طبقة المنصور• وقد سألت زينب المأمون : ما الذى دعاك الى نقل الخلافة من بيتك الى بيت على ؟ فقال : يا عمة ، إنى رأيت علياً حين ولى الخلافة أحسن الى بنى العباس ، فولى عبد الله البصرة وعبيد الله اليمن وقثم سمرقند ، وما رأيت أحداً من أهل بيتى حين أفضى الأمر إليهم كافئوه على فعله فى ولده ، فأحببت أن أكافئه على إحسانه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنك على بر بنى على والأمر فيك ، أقدر منك على برهم والأمر فيهم (٢) •

وعلى كل حال فلم يتم الأمر للعلويين بسبب ثورة بغداد التى سبق الحديث عنها ، فأرغم المأمون على التخلص من على الرضا وخلع

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٩٢ ، وتاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان جـ ٢ ص ٣٧ •

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٩٤ — ١٩٥ والمسـعودى جـ ٢ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ •

الخضرة وعاد للسـواد (١) وسيأتى فيمـا بعد (٢) من التفضـيل عن نهـاية على الرضا .

دول تنشأ فى عهد المأمون :

حدث فى عهـد المأمون شىء حصل نظير له فى عهـد الرشيد ، فقـد سبق أن أشرنا الى نشأة الأدارسة فى المغرب والأغالبة فى تونس ، وفى عهد المأمون بدأت الدولة الطاهرية بتعيين طاهر بن الحسين أميراً لخراسان سنة ٢٠٥هـ وقد استمرت الدولة الطاهرية الى سنة ٢٥٩ .

وبدأت أيضاً الدولة الزيادية بتعيين محمد بن ابراهيم الزيادى (من ولد زياد بن أبى سفيان أميراً لبلاد اليمن وتهـامة وكان ذلك سنة ٢٠٣هـ ، ليقضى على المتشيعين بهـا ، فذهب الى اليمن وفتح تهامة ، واختط مدينة زَبيد سنة ٢٠٤هـ ومات سنة ٢٤٥هـ وتوارث أولاده الملك من بعـده فأصبحت لهم اليمن دولة شبه مستقلة ، وقد ظل الملك فى أحفـاده ومواليه حتى سـنة ٤٠٩هـ .

أخلاق المأمون :

المأمون من ألمع شخصيات الخلفاء العباسيين ، ويعتقد كثير من الباحثين أنه لولا شخصية المأمون وكفاءته لهزت أحداث عصره الدولة الإسلامية ولعرضتها للخطر والانحلال .

ومن أبرز ما يذكر للمأمون ثقافته الرفيعـة وحبه للعلم وخدماته الثقافية التى جعلته فى القمة بين خلفاء المسلمين ، وقد جمع فى بيت الحكمة كنوز العلوم الأجنبية ، وأمر بأن تُشْتَرَى وتجمع له المؤلفات الأجنبية ، ثم أمر بترجمتها الى اللغة العربية وفى عهده ظهر الفيلسوف العربى الكبير الكندى الذى كتب فى عدة علـوم ، وترجم الحجاج بن يوسف بـن مطر

---

(١) اقرأ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ١١١ .
(٢) ص ٢٣٥ .

للمأمون مصنفات إقليدس وكتاب بطليموس الشهير عند العرب بالمَجَسْطى ، وسنتحدث عن النهضة الثقافية فى مكان خاص .

وكان العفو من أبرز صفات المأمون ، وهو كما يصفه شيخ كوفى « يوسفى العفو مع قلة التثريب »(١) . وقد عفا المأمون فى مواضع قلّ من يعفو فى نظائرها ، وعفا عن أشخاص جلّ ذنبهم وعظمت جريرتهم إليه وكان يقول : لو عرف الناس حبى للعفو لتقربوا إلىّ بالذنوب(٢) ولا معنى لعقوبة بعد قدرة(٣) .

لقد عفا عن الفضل بن الربيع الذى هيج عناصر الشر عليه ، وأعد قيدا من فضة وسلمه الى على بن عيسى ليقيّده به عقب القبض عليه ، واكتفى المأمون عقب انتصاره بأن قال : أجعله بحيث إذا قال لم يطع ، وإذا دعا لم يجب ، ورد عليه داره ولم يوقع به أى عقاب(٤) .

وعفا عن ابراهيم بن المهدى الذى نصب نفسه خليفة فى بغداد حينما كان المأمون فى مرو على الرغم من أن المعتصم والعباس بن المأمون أشارا بقتل ابراهيم ، ولكن المأمون هتف : أطلقوا عن عمى حديده ، وردوه الىّ مكرماً ، فلما ردّ قال : يا عم ، صر الى المنادمة ، وارجع الى الأنس ، فلن ترى منى أبداً إلا ما تحب وخلع عليه وحمله ، وأمر له بخمسة آلاف دينار(٥) .

وعفا عن الحسين بن الضحاك الذى يقول فى رثاء محمد الأمين :

فلا تمت الأشياء بعد محمد ولازال شمس الملك فيه مبدّدا
ولا فرح المأمون بالملك بعده ولازال فى الدنيا طريداً مشرداً

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٣١٩ .
(٢) الفخرى ص ١٩٥ .
(٣) فريد رفاعى : عصر المأمون ١ : ٣٥٠ .
(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣٠٣ .
(٥) الاغانى ٩ : ٥٧ .

والذى يقول :

أردّ يــداً منى إذا مــا ذكرتــه على كبد حرَّى وقلب مفتَّتِ
فلا بات ليل الشــامتين بغبطــة ولا بلغت آمــالهم مــا تمنَّتِ

ويطلب الحسين العفو فتدمع عينا المأمون ويقول : قد عفوت عنك ، وأمرت بإدرار أرزاقك وإعطائك ما فات منها ، وجعلت عقوبة ذنبك امتناعى عن استخدامك (١) .

وكان المأمون قليل اللهو ، أقام بعد قدومه بغداد عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الغناء ، ثم سمعه من وراء حجاب ، متشبها بالرشيد ، فكان كذلك سبع حجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين (٢) .

وكان لا يشرب النبيذ إلا قليلا (٣) ، وقد صرفه عن اللهو والشراب انصرافه الى العلم ، وحبه للكتب وتمتعه باللذة العقلية ، ثم إعادة بناء الدولة بعد أن أوشكت أن تتصدع ، وتذهب ريحها .

محنة خلق القرآن :

ومن المسائل التى أثيرت فى عهد المأمون مسألة خلق القرآن ، أو محنة خلق القرآن كما اصطلح على تسميتها . وقد وقف فيها المعتزلة مؤيدين بالمأمون ضد أهل السنة والمحدثين ، وكان المعتزلة يقولون بنفى صفات المعانى عن الله تعالى ومنها الكلام ، لأن إثباتها يؤدى الى تعدد القدماء ، وذلك ينافى التوحيد ، وكان من النتائج اللازمة لذلك قولهم : إن القرآن مخلوق لأنه أصوات وحروف ، وهى ليست قائمة بذاته تعالى ، بل يخلقها الله فى غيره كاللوح المحفوظ أو يوحى بها جبريل أو إلى النبى ، وكان المعتزلة يؤيدون قولهم بأدلة عقلية وأدلة نقلية ، ولكن أهل السنة والمحدثين

---

(١) الأغانى ٦ : ١٧٥ .
(٢) الجاحظ : التاج ص ٤٢ .
(٣) انظر الطبرى ١٠ : ٢٥٦ .

عارضوهم بإصرار وبدون أدلة قوية يعضدون بها وجهة نظرهم ، وتدخل المأمون تدخلا عنيفاً واستغل سلطانه ليرغم الناس على القول بخلق القرآن ، ويأخذ عليه كثير من المفكرين هذا الموقف الذى حارب فيه الحريات ، واستعمل السيف لتقوية جانبه ، وأرهق علماء عصره الذين عارضوه فيما اعتقد ، ولكن المنصف ربما استطاع أن يلتمس العذر للمأمون ، لأنه لم ير المسألة تمسه هو فلو كانت تمسه لعفا كشأنه فى حب العفو ، ولكنه رأى المسألة أعمق ، رآها مسألة إسلامية تتعلق بصميم العقيدة ، ورأى أن من لم يعترف بها يصبح خارجاً على الدين ، فأعلن أن من واجبه وهو خليفة للمسلمين يقوم بشئون دينهم ودنياهم ألا يستعمل فى أمور الدولة هؤلاء الخارجين ، وأن من واجبه أن يحمى جماهير الناس من فكرتهم التى يراها مارقة كافرة ، وقد زاد سخط المأمون على المحدثين ، لجمود موقفهم ، ولعدم دفاعهم عن آرائهم بالمنطق أو بالمنقول ، ومن ثم استهدفوا لغضبه وإيقاعه بهم ، وقد وضح المأمون المشكلة وموقفه منها فى كتابين أرسلهما وهو بالرقة الى نائبه فى بغداد إسحق بن ابراهيم ، ومن هذين الكتابين نقتطف ما يلى :

أما بعد ، فإن من حق الله على خلفائه فى أرضه ، وأمنائه على عباده ، الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحمّلهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسننه ، والائتمام بعدله فى بريته ، أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدُلّوا عليه تبارك اسمه وتعالى بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفة التى جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردّوا من أدبر عن أمره ، ويَنهَجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويقفوهم على حدود إيمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم : ويكشفوا لهم عن مغطّيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبيّنة على كافتهم ، ويتذكروا ما الله فرضه من مساءلتهم عما تَحمّلوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدّموا عنده : وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله .

ومما تبيَّنه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع فى الدين من وكفِه [الوكف : العيب والإثم] وضرره ، ما ينال المسلمين من القول فى القرآن الذى جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم باقياً لهم ، واشتباهه على كثيرين منهم ، حتى حَسُن عندهم ، وتزيَّن فى عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذى بان به عن خلقِه ، وتفرد جلالته بابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته التى لا يُبلغ أولاها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شىء من دونه خلقا من خلقه ، وحدثا هو المحدِثُ له ، وإن كان القرآن ناطقاً به ، ودالا عليه ، وقاطعاً للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى فى ادعائهم فى عيسى ابن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول عن القرآن : « وجعلناه قرآنا عربيا » (١) وتأويل ذلك إنا خلقناه كما قال جل جلاله : « وجعل منها زوجها ليسكن إليها » (٢) ، وقال « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشا » (٣) ، وقال « وجعلنا من الماء كل شىء حى » (٤) ، فسوَّى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التى ذكرها فى شية الصنعة [أى فى حسن الصنعة] ، وأخبر أنه جاعله ، وحدَّه فقال : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ (٥) ، فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « لا تحرك به لسانك لتعجل به » (٦) ، وقال : « وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » (٧) ، وقال : « من أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذَّب بآياته » (٨) ، وجعل له أولا وآخرا فدل على أنه محدود فى قوله : « لا

---

(١) سورة الزخرف الاية ٣ .
(٢) سورة الاعراف الاية ١٨٩ .
(٣) سورة النبأ الاية ١٠ .
(٤) سورة الانبياء الاية ٣٠ .
(٥) سورة البروج الايتان ٢١ و ٢٢ .
(٦) سورة القيامة الاية ١٦ .
(٧) سورة الانبياء الاية ٢ .
(٨) سورة الانبياء الاية ٢ .

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » (١) ، وقرر أنه نسخ بعضه فى قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » (٢) ، وقال عز وجل « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق » (٣) ، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها ، وتلا به متقدمها ، وقال : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٤) ، وكل محكم مفصل له محكم مفصل ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه .

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس وأغروا به الجهال .

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم فى القرآن ، الثلم فى دينهم والجرح فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد فى قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحده [وهى الوحدانية والقدم] ، وشبهوه به ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظاً فى الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحداً منهم محل الثقة فى أمانة ، ولا عدالة ، ولا شهادة ، ولا صدق فى قول ولا حكاية ، ولا تولية لشىء من أمور الرعية ، وإن ظهر قصد بعضهم [استقامته] ، وعرف بالسداد مسدد فيهم ، فإن الفروع مردودة الى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا ، فاقرأ على جعفر

---

(١) سورة فصلت الاية ٤٢ .
(٢) سورة البقرة الاية ١٠٦ .
(٣) سورة طه الاية ٩٩ .
(٤) سورة هود الاية الاولى .

ابن عيسى وعبد الرحمن بن إسحق القاضى كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك وانصحهما على علمهما فى القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شىء من أمور المسلمين ، الا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق ، فإن قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك ، فتقدم إليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونصهم عن قولهم فى القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله ، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد فى أمره ، وافعل ذلك بمن فى سائر عملك من القضاة ،وأشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله (١) .

وقد تزعم أحمد بن حنبل الفريق الذى عارض فكرة خلق القرآن ، ولكن المطلع على كتب الأدب والتاريخ يدرك أن أحمد بن حنبل وأنصاره لم يدافعوا دفاعاً عقلياً ولا نقلياً عن رأيهم ، ومن أمثلة ذلك أن الواحد منهم كان يقول : إن القرآن مجعول لقوله تعالى : « إنا جعلناه قرآنــاً عربياً » (٢) ، فإذا سئل : هل المجعول مخلوق ؟ أجاب : نعم . فإذا قيل له : فالقرآن إذاً مخلوق رفض أن يجيب بالإيجاب (٣) .

وقد احتمل أحمد بن حنبل وبعض أصحابه كثيراً من الأذى والضرر لموقفهم ذلك ، وعدم تحولهم عن رأيهم ، وقد اعتبرت الجماهير هذا الموقف لونا من ألوان البطولة والإيمان فيهم ، وينبغى أن نبرز أن الضرب المتلف وقع بهؤلاء بعد وفاة المأمون ، ويخيل لى أن شيئاً من هذه القسوة العنيفة مــا كان ليحصل لو كان المأمون حياً ، ولكن المأمون نصح أخاه المعتصم بأن يأخذ الناس بالقول بخلق القرآن ، وكان المعتصم رجل حرب ، فتلقى هذا التوجيه من أخيه كما يتلقى الجندى أوامر قائده ، ونفذه تنفيذاً حرفيا

---

(١) أحمد زكى صفوت : جمهرة رســائل العرب ٣ : ٤٠ — ٤٧ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٣ .

(٣) انظر نماذج من هذه المناقشات فى طبقات الشافعية ١ : ٢٠٥ — ٢١٥ .

فكان فيه قاسياً وغليظاً ، وقد ظلت الحال على ذلك حتى جاء عهد المتوكل فأوقف القول بخلق القــرآن وانتصر الى أهل السنة ودالت بذلك دولــة المعتزلـــــة .

وزراء المأمون :

وكان المأمون من الخلفاء العظام ، ومع الخليفة العظيم يهون شأن الوزراء ، أو قل إنها تأخذ مكانها الصحيح فلا يطغى الوزير على الخليفة ، وقد أراد الفضل بن سهل أول وزير للمأمون أن يستأثر بالســلطان وأن يجعل المأمون تابعاً له ، وكانت هذه ذلة كبيرة من الفضل دفع حياته ثمناً لها وسنتحدث عن الفضل حديثاً خاصاً عند الكلام عن « مشاهير وزراء العصر »

وأراد المأمون أن يخفف على آل الفضل المصيبة فيه ، فكان مما فعله أن استوزر الحسن أخاه وقربه إليه ، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته ، فكان إذا حضر الحسن طال الحديث بينهما وكلما أراد الانصراف منعه المأمون وظل ذلك حتى مرض الحسن فانقطع عن مجلس المأمون ، واستخلف الحسن عنه أحمد بن أبى خالد لذلك ، ثم استوزره المأمون ، ولكن ظلت مكانة الحسن بحيث كان فى الصدارة كلما استطاع أن يحضر لدار الخلافة .

زواج المأمون من بوران :

ومن الأحداث الهــامة المتصلة بالحسن بن سهل زواج المأمون من من بوران بنت الحسن بن سهل ، ويقول عنــه ابن طباطبا [1] : بذل الحسن فى هــذا الزواج من الأموال ونثر من الدرر مــا يفوق حد الكثرة ، حتى إنه عمل بطاطيخ من عنبر وجعل فى وسط كل واحدة منهــا رقعــة بضيعة من ضياعه ونثر هــذه البطاطيخ فمن وقعت فى يده بطيخة منها فتحهــا وتسلم الضــيعة التى فيها ، وكانت دعوة عظيمة تتجــاوز حد

---

(١) الفخرى ص ١٩٧ — ١٩٨ .

التجمل والكثرة ، حتى أن المأمون نسبه فى ذلك الى السرف ، وفرش الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً من الذهب ، وينثر عليه ألف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ ، فلما رآه المأمون قال : قاتل الله أبا نواس ، كأنه شاهد مجلسنا هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها
حصباء در على أرض من الذهب(١)

أحمد بن أبى خالد الأحول :

ومن وزراء المأمون أحمد بن أبى خالد الأحول ، ويروى أنه لما عرض المأمون على أحمد الوزارة تنصل منها ، وقال : يا أمير المؤمنين أعفنى من التسمية بالوزارة ، وطالبنى بالواجب فيها ، واجعل بينى وبين العامة منزلة يرجونى لها صديقى ويخافنى لها عدوى ، فاستحسن المأمون جوابه ، وقال لابد من ذلك ، واستوزره •

وأحمد بن أبى خالد كان جليل القدر من عقلاء الرجال ، وكان قبل الوزارة كاتبا فصيحا بصيرا بالأموال ، وظل أحمد بالوزارة حتى مات سنة ٢١١هـ (٢) •

أحمد بن يوسف :

كان أحمد كاتباً فاضلا ، أديبا شاعراً ، فطناً بصيراً بآداب السلاطين ، يروى ابن طباطبا أنه لما مات أحمد بن أبى خالد استشار المأمون الحسن بن سهل فيمن يوليه الوزارة ، فاشار عليه بأحمد بن يوسف وابن عباد بن يحيى ، وقال : هما أعرف الناس بطبع أمير المؤمنين ، فقال : أختر لى أحدهما • فاختار له أحمد بن يوسف ، ففوض المأمون إليه الوزارة •

---

(١) انظر كذلك ابن خلكان جـ ١ ص ٧٢ ولطائف اللطائف ص ٧٤ .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٩٩ .

ويحكى أن المأمون استشار أحمد بن يوسف فى رجل ، فوصفه أحمد وذكر محاسنه ، فقال له المأمون : يا أحمد لقد مدحته على الرغم مما بينكما من عداء . فقال أحمد : لأنى كما قال الشاعر :

كفى ثمناً بمـا أسديت أنى صدقتك فى الصديق وفى عدائى
وأنى حين تنـدبنى لأمـر يكون هواك أغلب من هوائى

ويقال إنه زل فى مجلس المأمون مرة فتأسف وأصابه كمد لازمه حتى مـات .

وبعد أحمد بن يوسف استوزر المأمون أبا عباد بن يحيى كمـا يقول ابن طباطبا (١) وبعض المؤرخين لم يذكروا أبا عباد بين وزراء المأمون ، وليس لابن يحيى امتيـاز يذكر : واستوزر المأمون بعـده أبا عبد الله محمد بن يزداد بن سُوَيْد وكان متأدبا بارعا فى كل شىء ، كمـا كان شاعراً مجيداً ، وقد ظل بالوزارة حتى مات المأمون (٢) .

كبار الرجال فى دولة المأمون :

ومن كبار الرجال فى دولة المأمون ، يحيى بن أكثم التميمى وكان قاضى القضـاة للمأمون ، كمـا كان من كبار المحدثين ، وقد غضب عليه المأمون فى أخريات حياته فذكر عنه فى وصيته للمعتصم أن به خبث سريرة وسوء طوية ، وحذّر المعتصم من الاعتمـاد عليه ، ولم نر فى كتب التـاريخ التى أطلعنا عليها أسبابا وأحداثا تسبّب هذا الاتهام .

ومن كبار الرجال كذلك فى دولة المأمون أحمد بن أبى داود المعتزلى ، وكان عالمـا فاضلا مسموع الكلمة فى البلاط ، وقد طال عمره وتعمقت صلته بكثير من الخلفاء ، فكان قاضى القضاة للمأمون والمعتصم والواثق وأول عهـد المتوكل ، وفى سـنة ٢٢٣هـ مرض وعجز عن العمل ، فقـام ابنه

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

أبو الوليد مقامه ، ولم يكن أبو الوليد كأبيه فى حسن سيرته ، فغضب المتوكل عليه وصادر أمواله وأموال أبيـــه ، وأعاد يحيى بن أكثم الى الرضا وولاه قضاء القضـــاء والمظالم من جديد •

كلمة ختامية عن ولاية العهد :

يجدر بنـــا أن نقرر أن المأمون كان أول خليفة عباسى أفاد من أحداث التاريخ ، ونظر للخلافة لا على أنهـــا ملك خاص له يتوارثه أبنـــاؤه وينتقل فى ذراريه ، بل على أنهـــا مصلحة عليـــا يجب أن يُلحظ فيهـــا خير الناس وإسعادهم • ومن أجل هـــذا عيَّن شخصاً واحداً ليكون ولى عهـــده ، ولاحظ الكفـــاءة والمقدرة فيه ، فتجاوز ابنـــه وعين أخاه المعتصم • واقتدى المعتصم بالمأمون فعهـــد بولاية العهـــد لشخص واحد هو ابنـــه الواثق ولايؤخذ عليـــه أنه عين ابنه ، لأن الواثق فى الحقيقة كان جديرا بإسناد هذا المنصب اليه ، وكان الواثق فى درجة رفيعـــة من خوف الله وخشيته ، ولذلك لم يعين ولياً لعهـــده ، وقال عندما سئل عن ذلك : لا أريد أن أتحمل وزرهـــا حياً وميتاً • وهكـــذا كان المأمون أستاذاً لخلفائه الأقربين فى مسألة ولاية العهد ، كما كان أستاذا لهم فى سواها من المسائل •

مدى خطورة ولاية العهد لأكثر من واحد :

فى ختام الكلام عن ولاية العهـــد نسأل سؤالا هاما : هل كانت ولاية العهد لأكثر من واحد مصـــدر خطر على الدولة الاسلامية ، وسببا من أسباب سقوط الأمويين والعباسيين ؟

لقد كتب المؤرخون كثيرا فى هذا الموضوع ، وانتهوا الى نتيجة واحدة هى أن هذا النظام كان من دواعى الاضطراب والضعف فى هاتين الدولتين ، ومن أهم العوامل التى أدت الى سقوطهما ، ولكنى لا أرى هـــذا الرأى وأعتقد أن هـــذا الجرح لم يكن بعيد الغور ، وأن تغيير ولى العهـــد كان — كمـــا ذكرنا فى أول بحثنا هنـــا عن ولاية العهد — مثار متاعب للخلفاء لا للدولة الاسلامية ، إذ كان هذا التغيير يستلزم اضطهاد شخص ولى

العهد الذى كان يؤدى بنفسه لو رفض الإذعان كما فعل بعمرو بن سعيد ابن العاص ، أو يطاطىء للعاصفة ويتنحى عن ولاية العهد كما فعل عيسى بن موسى .

أما الحرب التى أثارها عبد الله بن على ، وتلك التى أثارها المأمون فقد كان الدافع لهـا إحساس هذين بالقوة ، فمع الأول جيش كبير ، ومع الثانى خراسان ، زعماؤها وجنودها ، ولولا هـذه القوة لتم إبعادهما دون كبير عناء ، ولظلت المسألة محصورة فى نطاق القصور دون أن تصل الى ميادين القتال ، وقد كان الفضل بن سهل يدرك هـذا تماما ولذلك نجده يشير على المأمون أن يسافر مع أبيه فى رحلة خراسان ، وكان الرشيد قلده هـذه البلاد وما إليها الى همدان ، ولكن الرشيد عزم على تخليفه ببغداد . فقال الفضل للمأمون : لا تقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل وغير مأمون إنْ يحدثْ عليه حادث أن يثب عليك أخوك فيخلعك (١) .

فهـذه الحروب لم يكن سببها تولية العهد لأكثر من واحد ، ولكن كان سببها القوة التى استشعرها المأمون ليدافع عن حقه ، واستشعرها عبد الله بن على فطالب بالخلافة ، مع أنه لم تكن لديه وثيقة بولاية العهد .

وقد تدهورت الدولة الفاطمية فى مصر بعد مدة قصيرة من قيامها ، أى منذ عهد الحاكم ، مع أنه لم يكن فى نظام هـذه الدولة جعل ولاية العهد لأكثر من واحد .

وفاة المأمون :

توفى المأمون وهو غاز بطرسوس سنة ٢١٨هـ وكانت سنه آنذاك ثمانية وأربعين عاما رحمه الله رحمة واسعة كفاء ما قدم للاسلام والمسلمين من جهد وخير .

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٦١ .

المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد أبو إسحق محمد المعتصم سنة ١٨٧هـ من أم اسمها ماردة ، واتجه في نشأته اتجاها عسكريا ، دفعته اليه شجاعته وإعجابه بالبطولة ، ولهذا لم تكن له ثقافة عالية ، فحرمه الرشيد من ولاية العهد . وفى خلال خلافة المأمون كان المعتصم يده اليمنى فيما صادف من مشكلات وما خاض من حروب ، وقد جعله المأمون واليا على الشام ومصر ، ثم عينه وليا لعهده ، فتولى الخلافة عقب وفاة أخيه .

وتصرف المأمون فى ولاية العهد يضعه فى صف واحد مع خيرة الخلفاء المسلمين وقادة الرأى ، فقد كان ابنه العباس يحظى بمكانة رفيعة بين الجند وتؤهله مواهبه للخلافة ، ولكنه تركه إذ رأى أن المعتصم يرجحه كفاءة وشجاعة ، وهو موقف لم يقفه إلا القلة الممتازة من الخلفاء والسلاطين . وأدرك المأمون أن أخاه المعتصم تنقصه الثقافة والخبرة العلمية ، ولذلك نجد المأمون يضع للمعتصم دستورا مفصلا يشرح له ما يجب أن يَعْمَل وما يجب أن يدع . ويشمل هذا الدستور مسألة خلق القرآن ، وضرورة أخذ الناس بها لأنها — فى رأى المأمون — أصل من أصول الدين لاتصالها بالوحدانية ، كما يشمل هذا الدستور حث المعتصم على القضاء على الخرمية ، ويشمل أخيرا تحليل بعض الشخصيات البارزة ، يوصيه ببعضهم ويحذره من الآخرين ، وقد سبق أن أوردنا من الوصية ما يتعلق بيحيى بن أكثم . ونقتبس من الطبرى (١) بعض فقرات أخرى منها :

« . . . . . وخذ بسيرة أخيك فى القرآن ، واعمل فى الخلافة عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه . . . . . ولا تغفل أمر الرعية ،

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك جـ ١٠ ص ٢٩٤ .

الرعية الرعية ، العوام العوام ، فان الملك بهم ، الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين . . . . . . خذ من أقويائهم لضعفائهم ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم . . . . . والخرمية فأغزهم ذا حزم وصرامة واكنفه بالأموال والسلاح والجنود والفرسان والرجالة ، فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك . . . . . وأبو عبد الله أحمد بن داود لا يفارقك ، وأشركه فى المشورة فى كل أمرك ، فانه موضع لذلك . . . . » .

ومن أجل هـذا يمكننا أن نقول إن المعتصم كان فى أغلب أمره امتدادا لأخيـه المأمون ، كان امتدادا له فى مسألة خلق القرآن ، وفى موقفـه من الزط حتى استطاع أن يقضى عليهم كمـا ذكرنا من قبل ، وفى صراعه الناجح مع الخرمية ، وفى هيبته وجلاله أمام الروم حيث أثبت كفاءة ممتـازة فى موقعة عمورية ، وستأتى تفاصيل صراعه مع الخرمية (١) ومع الروم (٢) فى أمكنتهـا المخصصة لهـا من هـذا الكتاب .

ولم تكن للعلويين حركات خطيرة خلال عهـد المعتصم ، وكل مـا قام به هؤلاء هو الثورة التى أشعلها محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على ابن الحسين بن على ، وقد بدأهـا فى الكوفة ثم رحل عن الكوفة واستأنف نشـاطه فى خراسان ، ولكن عبد الله بن طاهر أخفت هـذه الثورة وقبض على محمد وسلمه للمعتصم الذى سجنـه فى سامرا ، ولم يعرف عن السجين شىء بعد ذلك (٣) .

المعتصم والترك :

دفعت الأحداث المعتصم الى فقـدان الثقة فى الفرس والعرب ، أمـا الفرس فقد اتضح أنهم يقصـدون الى الاستبداد بالسـلطة ، وقد ظهر منهم ذلك فى ظروف متعددة ، وأنزل بهم الخلفاء العباسيون ألوانا

---

(١) ص ٢٢٠ — ٢٢١ .
(٢) ص ٢٦٤ — ٢٦٦ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٧ .

من التنكيل بدأت بأبى سلمة الخلال فأبى مسلم الخرسانى ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ فالفضل بن سهل ، وأصبح واضحا أن الثقة بين الخلفاء وبين الفرس لم تعد موفورة ، وأما العرب فقد أدركوا أن سلطانهم قد زال بزوال دولة الأمين بسيوف الفرس مما سبب ثورة نصر بن شبث التى يرى بعض الباحثين أنها كانت دفاعا عن العرب ، وماتت ثورة نصر ولكن الثقة بين الخلفاء والعرب لم تعد كما كان يجب أن تكون ٠ وقد اضطر المعتصم فى ضغط هذه الأحداث أن يبحث عن عنصر جديد يعتمد عليه وتتوفر الثقة بينه وبينه ٠

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان على المعتصم أن يخوض غمار حروب طويلة ومعارك شديدة ضد الزط وبابك الخرمى والروم ٠٠٠٠ ولهذا رأى ضرورة تقوية جيشه بعناصر عرفت بالشجاعة والبطولة لينتصر بهم فى هذه الحروب ٠

ويعلل الامام محمد عبده (١) تصرف المعتصم بقوله : إن الخليفة ظن أن الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى ، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه من الملك ٠

من أجل هذا فتح المعتصم الطريق للترك ليصلوا الى جيش الخلافة ، وقد استقدمهم المعتصم من بلاد ما وراء النهر ، إما عن طريق النخاسة وإما على سبيل الجزية التى كان على أمراء هذه البلاد أن يؤدوها ، وبدأ المعتصم بأن أسند لهؤلاء الأتراك أمر سلامته الشخصية فجعل منهم حرسه الخاص ، ثم أدخلهم فى جيشه المحارب واستطاعوا بشجاعتهم وبطولتهم أن ينالوا تقدير الخليفة ، وأن يصلوا الى

---

(١) الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ١١٢ — ١١٣ ٠

القمة فى أمور الحرب ، وحرصا على مكانتهم عملوا على إسقاط أسماء كثيرين من العرب من الجيش الاسلامى ليخلو لهم الجو .

وقد أراد المعتصم أن يتخلص من سلطان الفرس وسلطان العرب ولكنه وقع وأوقع أولاده وأوقع الدولة الاسلامية فى شر مرير حيث وضع شاء أو لم يشأ أمور الدولة فى أيدى هؤلاء الأوغاد الطغاة (١) .

وقد بدأ شر الأتراك يظهر فى عهد المعتصم ، فاعتدوا على كثيرين من الناس ، فى بغداد واعتدى الناس عليهم ، ولما كثرت الشكوى منهم بنى المعتصم مدينة سامرا وانتقل إليها ونقل إليها جيشه .

وعلى كل فان شخصية المعتصم لم تدع للأتراك فرصة للطغيان ، وكذلك لم يستطيعوا فى عهد الواثق بن المعتصم أن يستبدوا بالأمر ، ولكنهم بعد الواثق أخذوا يزحفون بسرعة الى السلطة الكاملة ، فكان لهم منها نصيب كبير فى عهد المتوكل ثم اكتمل سلطانهم فى عهد المنتصر .

وأهم القادة الأتراك الذين لمعت أسماؤهم فى عهد المعتصم ، الأفشين (حيدر بن كاوس) وقد كان له سهم بارز فى الانتصارات التى شهدها عهد المعتصم ضد الزط وبابك الخرمى والروم ، ولكنه اتهم بالردة وبمحاولة الاستقلال ببلاده أشروسنة (التركستان الروسية) وقامت الأدلة على ذلك فقبض عليه المعتصم وسجنه وظل بالسجن حتى مات ، ومن زعماء الأتراك كذلك إيتاخ وأشناس وبغا الكبير .

وبعد ، فهل يلام المعتصم على أنه جلب الأتراك الأوغاد ومنحهم القيادة فى جيش المسلمين أو أنه يلتمس له العذر ؟ سؤال قدمنا عناصر الإجابة عنه بإيجاز ، وأغلب المؤرخين يلقون على المعتصم تبعة ما جلبه الأتراك من فساد على الاسلام والمسلمين .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٤٦ — ٤٨ .

وكان من نتائج المكـانة التى منحها المعتصم للأتراك أن دبر العرب ثورة ضـد الخليفة وضد الأفشين ، وكانت هـذه الثورة ترمى الى قتل المعتصم وقائده وتنصيب العباس بن المأمون خليفة ، وفيمـا يلى موجز الحديث عن هذه الثورة :

العباس بن المأمون وثورته على المعتصم :

كان العباس بن المأمون — كما سـبق القول — قائدا مبرزا فى حياة أبيـه ، ولكن المأمون آثر عليه أخاه المعتصم لميزات رآها فيه ، وعقب موت المأمون تردد بعض القـادة فى البيعة للمعتصم ، وفكروا فى البيعـة للعباس ، ولكن هـذا التردد كان قصـير العمر لأن العباس نفسـه أسرع بالبيعة الى عمـه تنفيذا لرغبة أبيه .

بيد أن موقف المعتصم من العرب وتفضيله الأتراك عليهم ومنحـه الأفشين سلطانا استطاع به أن يسـقط من الجندية أسماء كثيرين من أبطال العرب ، كل هـذا جدد الرغبة فى البيعـة للعباس ، وتم اعداد مؤامرة بقيـادة عجيف بن عنبسـة صاحب المكانة المرموقة فى حروب المعتصم ، وكانت المؤامرة تقصـد قتل المعتصم والأفشين وأشناس وتعيين العباس خليفة وإعادة تنظيم الجيش وقادته ، ولكن هـذه المؤامرة كشف أمرهـا ، وقد كشـف عنهـا مدبروهـا أنفسهم ، إذ يقـال إنهم شربوا خمراً وأثقلوا منهـا ، فلعبت الخمر بهم فأفضـوا بسر المؤامرة الى من نقلهـا للمعتصم ، فقبض المعتصم على المتآمرين ، ومنع المـاء عن العباس حتى مات ولحق به عجيف بن عنبسـة يده اليمنى فى هـذه المؤامرة .

وزراء المعتصم :

تحدثنا آنفـاً عن أهم الرجال فى دولة المعتصم ، ونخصص بعض الفراغ هنـا للحديث عن وزرائه ، ونشـير الى أنه مع قوة الخليفة وظهور عناصر الأتراك بجانبه مع مـا نعموا به من نفوذ وسلطان ، ثم مع مكانة

أحمد بن أبى داود ، مع هـذا كله لم يكن للوزارة شأن كبير . وفى ضـوء ذلك نوجز الكلام عن هؤلاء الوزراء.

أول من وزر للمعتصم كاتبـه قبل الخلافة الفضل بن مروان ، وكان عامياً لا علم له ولا معرفة ، كمـا أنه لم يكن حسن السـيرة ، ولم يطل صـبر المعتصم عليه فنكبه وصادر أمواله (١) .

ثم استوزر بعده أحمد بن عمار ، وهو رجل ثرى كريم ، ولكنـه كان جاهلا بآداب الوزارة وجاهلا بالأدب واللغة ويروى أنه ورد على المعتصم كتاب يذكر فيـه العامل « خصب الناحية وكثرة الكلأ » فسأل الخليفة وزيره عن الكلأ فلم يعرف ، فقال الخليفة : خليفة أمى ووزير عامى ، واستَدْعِيَ أحدَ الكتـاب فأدْخِل محمد بن عبد الملك الزيات فسأله الخليفة عن الكلأ فشرحه شَرْحَ عالم فطن ، فصرف المعتصم أحمد ابن عمار صرفا جميلا واستوزر الزيات (٢) .

وكان الزيات من خيرة النـاس ذكاء وأدباً وخبرة ومعرفة بآداب الرياسة وقواعد الملوك ، وقد نهض بأعبـاء الوزارة نهوضا لم يكن لمن تقدمه من أترابه ، ولكنه كان جباراً متكبراً ، وقد ظل وزيراً للمعتصم حتى مات المعتصم (٣) .

وفـاة المعتصم :

توفى المعتصم سـنة ٢٢٧هـ بعد أن عهـد بالخلافة من بعـده لابنه الواثـق .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٢) ان طباطبا : الفخرى ص ٢٠٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد الواثق سنة ١٩٦هـ من أم ولد رومية اسمها قراطيس ، ونشأ مقتديا بعمه المأمون فى صفاته واتجاهاته ، وكانت له شخصية كبيرة وعقل راجح وبصيرة فى تدبير الأمور ، وقد ولاه أبوه السلطان فى بغداد عندما انتقل مع جيشه الى سامرا ، وعهد له بولاية العهد ، فتولى الخلافة بعد موت المعتصم سنة ٢٢٧هـ ، ويقول عنه ابن طباطبا (١) : كان الواثق من أفاضل خلفاء بنى العباس ، وكان لبيباً فطناً فصيحاً شاعراً ، وكان يتشبه بالمأمون فى حركاته وسكناته ، ولما ولى الخلافة أحسن الى بنى عمه الطالبيين وبرّهم .

الأتراك بعد المعتصم :

وصل القواد الأتراك فى عهد الواثق الى مكانة مرموقة ، وقد خلع الواثق على أشناس لقب السلطان ، وبذلك اعترف له بحقوق تعدو نطاق المهام العسكرية الخاصة ، حتى إذا توفى الواثق فى سن مبكرة كان وصيف — خَلَفُ أشناس — قد أمسى من القوة بحيث يستطيع أن يرفع الى العرش الرجل الذى يرتضيه ، وبخاصة أن الواثق لم يختر أحداً لولاية عهده وقد نَصَّبَ وصيف بادئ الأمر محمد بن الواثق خليفة على المسلمين ، وكان لا يزال دون سن الرشد ولكنه سرعان ما استبدل به عمه جعفراً المتوكل على الله ، وقد حاول الخليفة الجديد أن يتخلص من صانعى الملوك فأوقع بابن الزيات وقضى على إيتاخ ، ولكن محاولته لم تتم لأن الأتراك ثاروا ضده مع ابنه المنتصر واستطاعوا قتله ، واكتمل لهم بذلك السلطان ، وبدأ عصر ضعف الخلافة (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص ٥٢ — ٥٤ .

ثورة الجزيرة العربية فى عهد الواثق :

هبت فى عهــد الواثق ثورات قوية فى نواح متعــددة من الجزيرة العربية ، فبنو سليم من قيس غيلان أشعلوا ثورة تمرد وفســاد حيث كانوا ينزلون بالقرب من المدينة ، وتمرد بنو مرة وفزارة فى فدك ، وتمرد بنــو نمير فى اليمامة ، وقد أرسل الواثق لهؤلاء وأولئك خيرة قــواده فأعادوا الأمن الى نصــابه وقبضوا على المردة والعصــاة ، وأعملوا السيف فى بعض المجرمين وأخمدوا كل الفتن ، ولمع فى هــذه المعارك اسم بغــا الكبير الذى قاد جيش المسلمين فى أكثر هذه المعارك .

الواثق ومحمد بن عبد الملك الزيات :

كان الزيات وزير المعتصم كمــا سبق القول ، وكان المعتصم أمر لابنــه الواثق بمــال وهو ولى للعهــد وأحاله به على ابن الزيات ، ولكن الوزير لم ينفذ ذلك الأمر وأشار على المعتصم ألا يعطيه هــذه العطية ، فقبل المعتصم قوله ، فأقسم الواثق إن آل اليه الأمر أن يقتل ابن الزيات شر قتــلة .

وآل الأمر للواثق ، فرأى أولا أن يجــد من يصلح للوزارة غير ابن الزيات فاستدعى عشرة من الكتاب واختبرهم فلم يجــد فيهم من يرضيه ، فقــال للحاجب : أدخل مَن المُلك محتــاج اليه ، محمد بن عبد الملك الزيات . فأدخله الحاجب ، فقــال له الواثق : سأستبقيك خوفاً مــن خلوّ الدولة من مثلك ، وسأ كفر عن يمنيى ، فانى أجد المال عوضا ولا أجد عن مثلك عوضاً (١)

نكبة الكتاب فى عهد الواثق :

اشتهر عن الواثق هــذا الحادث الذى نكب فيه الكتاب ظناً منــه

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠٨ .

بأنهم يرتشـــون ، وقد تسـلم بيت المال مبالغ كبيرة منهم ، نسردهـا فيمـا يلى :

أحمد بن الخصيب وكتّابه	١٫٠٠٠٫٠٠٠	دينار
سليمان بن وهب كاتب إيتاخ	٤٠٠٫٠٠٠	«
أبو الوزير	١٤٠٫٠٠٠	«
إبراهيم بن رباح وكتّابه	١٠٠٫٠٠٠	«
نجـاح	٦٠٫٠٠٠	«
الحسن بن وهب	١٤٫٠٠٠	«
أحمد بن إسرئيل	١٤٫٠٠٠	«

صفات الواثق ووفاته :

قلنـا إن الواثق جعل المأمون قدوته ، ومن هنـا يتضح لنا موقفه من التشدد فى القول بخلق القرآن ، وتقريب العلمـاء ، ورعايته للرعية ، وعدم حرصه على تولية ابنـه العهد ، ومات الواثق سنة ٢٣٢ بعد قرن من قيـام الدولة العباسية ، ويعتبر هـذا القرن أزهى عصور الدولة ، وبموت الواثق بدأ عهـد جديد سنوجز القول عنه فيما بعد .

الشراب والمذاهب فيـه

نختتم حديثنا عن الخلفـاء بكلمة عامة عن المذاهب فى الشراب ، فقد رأينـا مواقف الخلفاء تجـاه الشرب وكيف قربوا نحوه رويداً رويداً حتى انتصر الميل الى الشرب والمنادمة جميعا ، وبذلك شاع بين طبقات الناس ، فمـا هى الاتجاهات فى هـذه المسألة ؟

يبـدو لى أنه كانت هناك أتجاهات ثلاثة نحو هـذا الموضوع :

١ — مذهب أهل الورع والتقى ، وهؤلاء استجابوا لقوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . فهل أنتم منتهون ؟ (١) » .

وقد عدّ هؤلاء القوم كلّ مسكر خمراً ، فحرموا كل أنواع المسكرات ، ثم حرموا قليلَ ما يسكر كثيره ، وقد قال بهذا الأئمة الثلاثة ، مالك والشافعى وابن حنبل (٢) .

٢ — مذهب المستهترين من الشعراء ومن جرى مجراهم ، وهؤلاء أعلنوا تمردهم ، وشربوا كل الأنواع ، وأمضوا لياليهم بين الكأس والطاس ، وقد عبر عنهم أبونواس بقوله :

فإن قالوا : حرامٌ قل : حرام
ولكن اللذاذة فى الحرام

وقوله :

حجُّ مثلى زيارةُ الخمّارِ
واقتنائى العَقَارَ شربُ العُقَار

ما أبالى إذا المدامة دامت
قولَ ناهٍ ولا شناعة جار (٣)

وقوله :

لمثلى من الفتيان حلت له الخمرُ
وطابت له اللذات واسترخِص السكر (٤)

---

(١) سورة المائدة الايتان ٩١ — ٩٢ .
(٢) ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ١١٣ .
(٣) ديوان أبى نواس ص ٢٠٥ .
(٤) اى صار السكر مرخصا به .

فقـد كـان شربى لا يكـدر مجلسى
ولا يعترى فيه خِصام" ولا هَجْر (١)

٢ ــ مذهب الامام أبى حنيفة وأكثر أهل العراق الذى يفسر الخمر فى الآية السابقة بعصير العنب ، ويقولون بحصر الحرمة فيها ، أما النبيذ وهو ما أخذ من التمر فليس حراما اذا لم يسـكر ، ويستدلون على هـذا بقوله تعـالى « ومن ثمرات النخيل والأعنـاب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » (٢) . مادام ذلك لم يسكر ، فاذا أسكر كان خمرا ، كمـا يستدلون على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : حرمة الخمرة بعينهـا والسكر من كل شراب . ويـُرْوَى أن عيسى بن موسى سأل أحد شيوخ العلمـاء عن النبيذ فقال : حلال" ، وقد أدركنا أبناء الصحابة والتابعين وهم يشربونه ، ورُوِىَ بعضهم أن عمر بن الخطاب كان يشرب النبيـذ ويقول : إنا نأكل لحوم هـذه الإبل فنشرب عليهـا النبيذ الشديد ليقطعهـا فى بطوننا (٣) [أى ليساعد فى عملية الهضم] ، ويروى الجهشيارى (٤) . أن شريكـا القاضى تحدث عند أبى عبيد الله معـاوية بن يسار يوما بحديث فى تحليل النبيذ ، فقـال عافية القـاضى وكان حاضراً : مـا سمعنا بهذا الحديث ، فقال شريك : وما يضر عالمـاً أن جهل جاهل ؟ .

وذكر أبو سهل الرازى عن منصور بن أبى مزاحم قال :

كنت عند أبى عبيد الله ، وحسن بن حسن عنده ، وشريك حـاضر . فقـال أبو عبد الله لشريك : حدثنـا فى النبيذ . فحدثه بحديث همـام عن عمر بن الخطاب فيـه . فقال حسن : مـا سمعنا بهذا فى الملة الآخـرة ، إن هـذا إلا اختلاق . فقال شريك : أجل ، شغلك عنـه جلوسك على الطنافس ، فى صدور المجالس ، وعرفناه بسعينا . فاستزاده أبو عبيد الله ، فقال : لا أعرض الحديث للكذب (٥) .

---

(١) ديوان أبى نواس ص ٣٠٦ .
(٢) سورة النحل الاية رقم ٦٧ .
(٣) الاصفهانى : محاضرات الادباء ١ : ٤١٢ .
(٤) الوزراء والكتاب ص ١٤٤ .
(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة .

المشـــكلات الـكبرى
التى قابلها العباسيون خلال هذا العصر

صـــادف العباسيون كثيرا من المتاعب ولم يضنوا بالأرواح ولا بالدم الذكى فى سبيل إقامة دولتهم ، ولكن قيامهـــا لم يكن نهاية الكفاح ، ولم يضع حداً للتعب والعنـــاء ، بل استمر هـــذا الجهاد بنفس العنف والقسوة للمحافظة على هذه الدولة ، ورعاية شئونها ، وكانت تتجدد المشـــكلات أمام الخلفاء العباسيين ، وكلما تخطوا مشكلة برزت أخرى ، وقد شملت هذه المشكلات القضاء على العلويين الذين هبوا المرة بعد الأخرى فى وجه بنى العباس ، وشملت كذلك القضـــاء على ثورات هبت من صفوف بنى العباس أنفسهم ، ومن صفوف الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية ثم انقلبوا فى بعض الأحيان يكيدون لهـــا ، وغير ذلك من الثورات ، وقد تحدثنـــا من قبل عن بعض هـــذه المشكلات وسنورد فيما يلى حديثا عن أنواع أخرى منهـــا :

وممـــا يذكر أن القوة لم تكن دائمـــا الوسيلة التى يلجأ اليهـــا لمقابلة هـــذه الانتفاضات وتلك الثورات ، بل كثيرا ما لجأ الخلفاء الى سلاح آخر هو سلاح المؤامرة والتدبير السرى ، عن طريق طعنة صامتة ، أو سم زعاف ، ويصف ابن طباطبا هـــذا الاتجـــاه فى خلفاء بنى العباس فيقول : كانت الدولة العباسية دولة ذات خُدَع ودهـــاء ، وغدر ، وكان قسم التحيل والمخادعة أوفر من قسم القوة والشدة [1] .

وعلى هـــذا النحو تخلص الرشيد من إدريس بن عبد الله ، وتخلص المأمون من الفضل بن سهل ، وتخلص المعتصم من محمد بن القاسم ، وسنرى فيمـــا بعد صورا مفصلة عن هـــذه المؤامرات التى دارت فى

---

(١) الفخرى ص ١٢٧ .

قصور الخلفاء ، وسنرى كذلك بعضا من بطانة الخلفاء يعْتَرفون بأنهم يحْكِمون تدبير الدسائس للنيل من أعدائهم عن طريق هذا السلاح الخطير •

ويعلل الخلفاء بأن الفتك بأعدائهم بمثل هذه الصورة كان يحمى الدولة من ثورات لا تدْرى نتائجها ، فهو تضحية بشخص أو بأشخاص قليلين رجاء السلامة للكثيرين • وذلك هو رأيهم على مسئوليتهم •

وهناك حقيقة ينبغى إبرازها ، وهى أن توالى الثورات والفتن فى هذه الدولة جعل الخلفاء العباسيين يحسون أن دولتهم مهددة ، وأنه ينبغى للمحافظة عليها أن يقتلوا أحيانا بالشبهة ، وهكذا تلاحقت الحركات ، وبالتالى توالت حملات الإيقاع والتنكيل ، وفيما يلى صورة موجزة لأحداث هذا العصر :

(أ) العلويون

احتمل العلويين كما قلنا من قبل عبء الكفاح الطويل الشاق ، ولكنهم فى طرفة عين وجدوا أنفسهم صفر اليدين ، بل زاد غيظَهم لأن غيرهم جنى ثمار كفاحهم ، وتملك الغرسَ الذى سقوه بدمائهم ، ومن أجل هذا قامت قائمتهم ، وهبوا هنا وهناك يزعزعون هذا البنيان ، ويحاولون أن يحطموا أركانه ، ولكن هيهات ، لقد كان بنيانا متين الأساس ، حديد التشييد ، ولم يكن هدْمه سهلا ، فاصطرعت القوتان ؛ لا يألو العلويون جهداً أن يثيروا العصيان والتمرد ، ولا يدخر العباسيون قوة فى التنكيل بهم ، حتى إن المؤرخين يذكرون أن العلويين قاسوا من قسوة العباسيين أضعاف ما احتملوه من طغيان الأمويين • وفيما يلى الخطوط الهامة لهذا الصراع العنيف :

النفس الزكية :

هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية ، كان من سادات قريش ، وأكثر رجالها فضلا وشرفاً وعلماً ، وقد امتنع عن مبايعة السفاح كما امتنع هو وأخوه

ابراهيم عن البيعة للمنصور ، وقد اختفى محمد منذ ظهور أمر العباسيين ، وجدَّ هؤلاء فى البحث عنه دون جدوى ، ولما اشتد خوف المنصور منه ، نكل بابيه عبد الله المحض ، وحبس آل الحسن كلهم ، فدفع ذلك محمدا الى إعلان ثورته فى شهر رجب سنة ١٤٥هـ وقد دخل المدينة المنورة ومعه بعض أعوانه ، فانهزم أمامهم أميرُ المدينة ، وأطلق محمد سراح المسجونين ، واستتب لمحمد الأمر فيها •

وكان المنصور فى ذلك الحين مشغولا ببناء بغداد ، فأوقف العمل وسارع ليكون قريبا من الثائر • وقد استطاع بمهارته أن يسدَّ عليه مسالك النجاح ، فأقفل أبواب الكوفة لأن أهلها شيعة علويون يُخشى أن ينضموا لمحمد بن عبد الله ، كما أخذ يعمى الأخبار على أهل خراسان خوفا من الانضمام بعواطفهم أو بسيوفهم للثائر العلوى •

ومن الحيل التى عملها المنصور ليخدع محمدا وليوهمه أن دعوته قد عمت البقاع ، وأن عليه الخروج بها من المدينة ليتلقى التأييد الكامل ، أن كتب لمحمدٍ علَى ألسن القادة أو دفع هؤلاء للكتابة اليه يدعونه للظهور ويعلنون له أنهم يتبعونه ويؤيدونه ، فعجَّل محمد بالظهور ظنا منه أن الجيوش التى سيرسلها المنصور ستنضمُّ اليه ، وتأخذ جانبه •

وأعد المنصور جيشا لمحاربته بقيادة ولى عهده فى ذلك الحين عيسى ابن موسى وقال له : امض أيها الرجل ، فوالله ما يراد غيرى وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص أنا ، فاستجاب عيسى وسار بجيشه ، ودارت رحى الحرب ، فانهزم العلويون وأعوانهم فى رمضان من العام نفسه ، وخرَّ محمد صريعا بعد أن أبدى ضروبا من البسالة والاقدام •

وتمتاز هذه الثورة العلوية عن غيرها من الثورات ، بالكتب الرائعة التى تبودلت بين أبى جعفر المنصور ومحمد بن عبد الله ، وقد شُحِنَتْ بالحجج السياسية والمنطقية والدينية ، وقد دافع كل منهما فى كتبه الى صاحبه عن وجهة نظره ، وبيَّن أحقيته بخلافة المسلمين ، ونقَض حجج خصمه ، ولم تُجْدِ هذه الكتب من الناحية العملية ، بل كان منطق السيف أقوى ، ولكنها ظلت بالرغم من هذا سجلات مهمة ، يرجع اليها

الدارسون والباحثون ، وكان المنصور يتولاها بنفسه ، فلما عرض عليه وزيره أبو أيوب أن يتولى الاجابة عنه قال : يا هذا ، ليس ذلك اليك ، اذا نحن تقارعنا عن الأحساب فدعني وإياها »(١) .

ابراهيم بن عبد الله :

هو أخو النفس الزكية السالف الذكر وكان حصيفا داهية ، اختفى عن عين المنصور ولكن المنصور لم يختف عن عينه ، يحكى ابن طباطبا(٢) أن ابراهيم كان فى حالة تغيبه يحضر الى عسكر المنصور متخفيا ، وربما جلس مع المنصور على السماط وقد نزل ابراهيم الكوفة ليقوم بدعوته فيها ، ولكنه وجد الكوفة مملوءة بالأرصاد والعيون ، فلم يجد بداً من إعمال الحيلة لمغادرتها الى البصرة ، فأرسل رجلا من أتباعه يسمى سفيان بن زيد الى المنصور فقال له : يا أمير المؤمنين ، تؤمّنني وأدلك على ابراهيم ؟ فقال المنصور : أنت آمن ، أين هو ؟ قال : بالبصرة ، فوجّه معي برجل تثق به ، واحملني على دواب البريد ، واكتب الى عامل البصرة حتى أدله على مكانه فيقبض عليه ، فوجّه معه أبا سويد ، وخرج سفيان بن زيد ومعه غلام عليه جبة من الصوف ، وعلى عنقه سفرة فيها طعام ، وركبا مع سويد على خيل البريد ، فلما وصل البريد الى البصرة قال سفيان لأبى سويد : انتظر حتى أتعرّف خبر الرجل ، ومضى ولم يعد ، وكان الغلام الذى عليه الجبة الصوف هو ابراهيم بن عبد الله(٣) .

وفى البصرة دعا ابراهيم لنفسه فاستجاب له الناس ، وانتهز فرصة اشتغال المنصور بحرب النفس الزكية فمدّ سلطانه حتى شمل الأهواز وواسط ، ولكن ما كاد عيسى بن موسى ينتهى من حرب النفس

---

(١) الجهشيارى ص ١١٥ وانظر عن هذه الثورة وعن الكتب المتبادلة بين المنصور ومحمد : ابن الاثير ؛ ١٩٦ وما بعدها ومروج الذهب ٢ : ٢٣٧ وما بعدها . والفخرى ص ١٤٢ وما بعدها . والطبرى الجزء التاسع . وصبح الاعشى الجزء الاول ص ٢٣١ وما بعدها .

(٢) الفخرى ص ١٤٤ .

(٣) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٤٥٣ — ٤٥٤ .

المزكية ، حتى جاء كتاب المنصور يستحثه بالقدوم ليتولى حرب ابراهيم ، فسار اليه وهزم جيشه وقتله قبيل نهـاية ذى القعدة من العـام الذى قتل فيـه أخوه [١] .

الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب :

كان الحسين بن على من سـادة بنى هاشم وفضلائهم ، وكان قد عزم على الخروج ، واتفق معـه جماعة من أعيـان أهل بيته ، ثم وقع من عامل المدينـة تهضم لبعض آل على فى **عهـد الخليفة الهـادى** ، فثار آل أبى طالب بسبب ذلك ، واجتمع علـى الحسين ناس كثيرون فكسروا السجون وأخرجوا من بهـا ، وبويع الحسين بن على ؛ فلمـا عرف الهادى خبر هـذه الثورة ، أرسل اليهم محمد بن سليمان بن على فى عسـكر كثيف ، فالتقـوا بموضع يقال له « فخ » بين مكة والمدينة فاقتتلوا قتـالا شديدا ، ثم قـتـلَ الحسين بن على وحمل رأسه إلى موسى الهادى [٢] ، ولم تنته موقعة « فخ » عند هـذا الحد ، بل فرَّ منهـا رجلان من العلويين كان لهمـا شأن كبير فى التاريخ فيمـا بعد ، على ماسيلى إيضاحه :

يحيى بن عبد الله :

هو أحد الرجلين اللذين فرَّا فى موقعـة فخ ، وقد سـار الى بلاد الديلم ، ودعا لنفسـه ، فاشتدت شوكته ، وكثرت جموعه ، وأتاه الناس من الأمصار ، **وكان ذلك فى عهد الرشيد** ، فاغتمَّ الرشيد بذلك ، وندب له الفضـل بن يحيى فى خمسين ألفـاً ، وولاه جرجان وطبرستان والرى وغيرهـا من هـذه المناطق ، فتوجه الفضل بالجنود ، فتلطَّف بالثائر العلوى وحذره وخوفه ، ورغبه وبسط أمله ، وكاتب صاحب الديلم ، وبذل له ألف ألف درهم على أن يسهل له موافقة يحيى على الصلح ، فوافق يحيى

---

(١) انظر المراجع السابقة .
(٢) الفخـرى ص ١٦٦ — ١٦٧ ، ابن الاثير جـ ٦ ص ٣٠ ، ومروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

على ذلك بشرط أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه ، يشهد فيه القضاة والفقهاء وجلة بنى هاشم ومشايخهم ، فأجابه الرشيد الى ذلك وسُرَّ به ، وعظمت بذلك منزلة الفضل عنـده ، وسـير الأمان مع هدايا وتحف ، فقـدم يحيى مع الفضل الى بغداد ، فلقيه الرشيد بكل مـا أحب ، وأمر لـه بمـال كثير (١) .

ثم خـاف الرشيد منه بعد ذلك فقبض عليـه وسجنه ، وسعى أحد الزبيريين بالسـجين وأتهمـه بأنه يدعو لنفسـه ، فجمع الرشيد بينهما ، فأنكر يحيى مـا ادعاه الزبيرى ، وطلب منه أن يحلف فقـال الزبيرى والله الطالب الغالب . . . . ولكن يحيى قاطعه قائلا : دع هـذه اليمين فان الله إذا مجَّده العبد الحانث لم يعجّل عقوبته ، ولكن احلف بيمين البراءة ، قل برئت من حول الله وقوته ، ودخلت فى حول نفسى وقوتهـا إن كان . . . . فارتاع الزبيرى من هـذه اليمين وتردد ، ولكن الرشيد سأله مـا معنى امتناعك إن كنت صادقا .. ولم يجـد الرجل بدا من الحلف ففعل ، ولكن مـا انقضى النهـار حتى مات (٢) .

وكان البرامكة يحسون أنهم مسئولون عن سلامة يحيى ، لأنهـم الذين استنزلوه من حصونه ، ولهـذا سهلوا له سبيل الخروج من بغداد بعد ما توثقوا منـه أنه لن يقـوم بنشـاط ما ، وقد نقم الرشيد منهم ذلك فكان هـذا من أسباب الايقاع بهم على مـا سيأتى ، أمـا يحيى بن عبد الله فقد أعيد القبض عليه وقتله الرشيد شرَّ قتلة .

إدريس بن عبد الله :

هو الرجل الثانى الذى فرَّ من موقعـة « فخ » وقد ولَّى وجهه تجـاه مصر فشمالى إفريقية حتى استقر بالمغرب الأقصى ، وقد التفَّ حوله البربر واعتنقوا دعوته ، فأنشأ هناك الدولة الإدريسية ، والبربر

---

(١) ابن الاثير جـ ٦ ص ٤١ .
(٢) الفخرى ص ١٧١ .

أشداء أقوياء ، ثم هم بمنأى عن بغداد عاصمة الخلافة ، ولذلك تردد الخليفة فى أن يرسل له جيشا لمحاربته خوفا على الجيش فى هـذه البقاع البعيدة ، ولأنه ظن أن جيشه لو هزم لكان فى ذلك إغراء لإدريس وحثاً له على مواصلة الهجوم على الدولة فى مصر وتجـاه الشام ، ويقال أن الرشيد لجـأ الى حيلة غير كريمة ، فبعث رجلا داهية اسـمه سليمان بن جرير تظـاهر بالخروج على العباسيين ، واللجوء لإدريس فاطمأن له إدريس وقرّبه وأخِـذَ بسـحر بيانه ، وبهـذا أتِيَ إدريس من مأمنـه ، فقد دس له الرجل السم فقتله ، غير أن القضـاء على إدريس لم يكن قضاء على الدولة الادريسية ، فان البربر أجمعوا أمرهم على أن يظلوا على استقلالهم ، وكان إدريس قد ترك أَمَةً حاملا ، فانتظروا وضعها فلمـا وضعت ولداً ذكراً أسموه إدريس ، ودانوا له بالطـاعة ، كمـا دانوا من قبل لأبيه ، وكانت الدولة الإدريسية أول دولة تنشق من العـالم الذى كان يدين للعباسيين بالولاء ، ولم يجـد الرشـيد بدًّا من أن يُقْطِع ابراهيم بن الأغلب منطقة تونس ليقف فى وجه الأدارسة إذا حاولوا الزحف على مصر والشام ، وقد تكونت فيما بعد دولة الأغالبة على أثر هـذا الإقطاع (١) .

محمد الديباج :

هو محمد بن جعفر الصـادق ، وعلى الرغم من تسامح المأمون مع العلويين وحسن تقديره لهم ، فقـد خرج محمد الديباج ودعا لنفسـه بمكة فى عهـد المأمون ، فاستجاب له أهل مكة وبايعوه بالخلافة وسموه أمير المؤمنين ، وكان بعض أهله قد حسن له ذلك . وكان محمد بن جعفر شيخاً عالما يُقرأ عليه العلم وقد روى عن أبيه علماً جماً ، وكان الغالب على أمره ابنه وواحد من بنى عمه لا تحمد سيرتهما ، وأرسـل المأمون إليهم عسكراً فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه (٢) .

---

(١) انظر مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٨ وأبا الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ٢ : ١٣ .

(٢) الفخرى ص ١٩٥ .

وفى عهد المأمون كذلك خرج إبراهيم بن موسى بن جعفر باليمن وكان كما يقول الأستاذ الخضرى (١) جزاراً لكثرة من قتل باليمن من الناس ، وفى موسم الحج أرسل بعثا ، فأخذ هذا البعث يسطو على الحجـاج ، وسرق كسوة الكعبة المعظمة ، وسارت جيوش الخلافة فقضت على هذه الثورة واستردت الكسوة والأموال المنهوبة .

(ب) الخوارج

نشط الخوارج فى العصر العباسى الأول بعد أن ضعضعتهم قـوة الأمويين وشدة بأسـهم . والخوارج كما هو معروف عنهم لا يأبهـون بالموت ولا يرعبهم سيل الدماء ، وجماعة كهؤلاء يرهقون أعداءهم ويقلقون من يتصدى لهم ، وقد هبت حركاتهم من حين الى آخر طوال العصر الذى نتحدث عنه .

ففى عهد أبى جعفر المنصور كانت بلاد شمالى إفريقية مسرحاً لحركات الخوارج ، وقد عانى عمر بن حفص والى هذه البلاد هو ورجاله عنتاً كبيراً كما عانى السكان ألواناً من اعتداءات الخوارج وتنكيلهم ، وقد استطاع أبو حاتم الخارجى أن يحاصر القيروان حتى اشتدت الحال على أهلها فلم يبق فى بيت أهلها دينار ، ولا عند أهلها شيء من طعام ، ودام الحصار ثمانية أشهر ، وكان الجنود يخرجون فيقاتلون الخوارج طرفى النهار حتى جَهَدَهم الجوع ، وأكلوا دوابهم وكلابهم ، وقتل عمر بن حفص فى أحد معاركه مع الخوارج ، فلما عرف المنصور ذلك أرسل يزيد حاتم فى ستين ألف فارس ، فالتقى بالخوارج وبمن معهم من البربر فهزمهم هزيمة شاملة ، وشتت جموعهم ، وقتل منهم نحواً من ثلاثين ألفاً ، وكان جنـد الخليفة يَقتلون الخوارج وهم يصيحون : يالثارات عمر بن حفص (٢) !

(١) محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .
(٢) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٢١ ، ٢٢٣ .

وفى عهد المهدى ثار عبد السلام بن هاشم اليشكرى بالجزيرة ، واشتدت معركته ، وكثر أتباعه ، وهزم عسكر المهدى ، وقتل قائد العسكر فأعدَّ المهدى جيشاً كبيراً بقيادة شبيب بن واج ، ومنح كل فارس فى هذا الجيش ألف درهم معونة ، وقد استطاع هذا الجيش أن يتغلب على الثائر ويقتله (١) .

ثم ثار بالموصل خارجى اسمه ياسين من بنى تميم ، فخرج إليه عسكر الموصل فهزمهم ، وتغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة ، فوجه اليه المهدى أبا هريرة محمد بن فروخ وهرثمة بن أعين فحارباه ، فصبر لهما حتى قتل مع عدة من أصحابه وانهزم الباقون (٢) .

وفى عهد الرشيد هبت للخوارج عاصفة قوية كان يقودها رجل ذو بأس شديد ، أعاد للخوارج عهدهم الزاهر فى أيام بنى أمية ، ذلك هو الوليد بن طريف الذى يقول عن نفسه :

أنا الوليد بن طريف الشارى   قَسْوَرَةٌ لا يُصْطَلَى بنارى

وقد ثار الوليد فى الجزيرة سنة ١٧٨ هـ ، واشتدت بها شوكته ، وكثر أتباعه ، وهزم عدة من جيوش الرشيد ، فاتجهت للقضاء عليه عناية الخليفة ، فاختار بطلا من رجاله هو « يزيد بن مزيد » وهو ابن أخى معن بن زائدة ؛ والوليد بن طريف ويزيد بن مزيد كلاهما من وائل ، وكلاهما فى الحرب ليث غاب ، وتوانَى يزيد محاربة ابن عمه طريف ، فقال أحد الشعراء :

وائل بعضهم يقتل بعضا   لا يَفُلُّ الحديدَ إلا الحديد

وقد جعل يزيد يخاتل الوليد ويمكر به دون أن يقضى عليه ، ودون أن يظهر له عنف القادة وقسوتهم ، ولكن مسلم بن الوليد يلجأ إلى حسن التعليل فيصف ذلك بقوله :

---

(١) ابن الاثير جـ ٦ ص ١٩ .
(٢) ابن الاثير جـ ٦ ص ٢٦ .

يَفْتَرُّ عند اشتداد الحرب ، مبتسم
إذا تغيَّر وجـه الفـارس البطل

مُوفٍ على مُهَجٍ ، فى يوم ذى رَهَجٍ
كأنه أجَـلٌ يسـعى إلى أمـلِ

ينـال بالرفق مـا يعيا الرجـال بـه
فالموت مسـتعجلا يأتى عـلى مهـل

ولكن الرشيد غضب لهذا التوانى من يزيد وكتب اليه « لو وجهت أحد الخدم لقام بأحسن مما تقوم به ، ولكنك مداهن متعصب ، وأقسم بالله لو أخرت مناجزته لأوجهن إليك من يحمل رأسك » فاستعدَّ يزيد للّقاء الفاصل ، والتقى الجيشان ، وفى وسط المعمعة أحسّ يزيد بعطش قاتل ، ولكنه رمى بخاتمه فى فيه وجعل يلوكه ويقول : اللهم إنها شدة شديدة فاسترها • وكان له النصر • ويقال أن أسد بن يزيد كان شديد الشبه بأبيه لا يفصل بينهما إلا ضربة فى وجه يزيد فكان أسد يتمنى مثلها ، وقد تحققت أمنيته فى تلك المعركة فأصابته ضربة كأنما خُطَّتْ عـلى ضربة أبيه • وخر الوليد قتيلا فى هـذه المعركة ، فرثته أخته ليلى بقصيدة مؤثرة تقول فيها :

أيا شجر الخابور مالك مورقـاً
كأنك لـم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحبُّ الزاد إلا من التقى
ولا المالَ إلا من قنا وسـيوف

حليفُ الندى ماعاش يرضى به الندى
فإن مات لا يرضى الندى بحليف

فقدناك فقدان الشـباب وليتنا
فدينـاك مـن فتياننا بـألوف

ومازال حتى أرهق الموتُ نفسَه
شجاً لعـدو أو نجـاً لضـعيف

ألا يـا لقـوم للحمـام وللبلى
وللأرض همت بعـده برجـوف

وللبدر من بين الكواكب إذ هوى
وللشمس لمـا أزمعت لكسـوف

وللبيث كـل الليث إذ يحملونـه
إلى حفـرة ملحودة وسـقوف

عليه سـلام اللـه وقفـاً فإننى
أرى الموت وقّاعاً بكـل شريف (١)

(١) ابن الاثير ٦ : ٤٧ — ٤٨ بتصرف والاغانى ١١ : ٨ — ٩ •

(ج) الزنادقة

كان يطلق لفظ زنديق على من اعتنق مذهب المانوية أو الثنوية (أى عبدة النور والظلمة) ثم اتسع معنى هذا اللفظ حتى أطلق على كل ملحد أو مبتدع ، ثم تطور مرة أخرى فأصبح يطلق على من كان مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة ، وأطلق أحياناً على من يحيا حياة المجون من الشعراء والكتاب وكان التطرف والاستهتار سِمَةً هؤلاء حتى قلدهم فيها من ليس على مذهبهم ، كأبى جعفر بن زياد الذى قيلت فيه الأبيات التالية :

يا ابن زياد يا أبا جعفر   أظهرتَ دينا غير ما تخفى
مزندق الظاهر باللفظ فى   باطن إسلام فتى عَفٌ
لستَ بزنديق ولكنما   أردت أن توسم بالظرف

أما الزندقة التى شغلت العباسيين وتفشت بين رعاياهم ، فقد وصفها الخليفة المهدى لابنه الهادى بقوله : يا بنىّ ، إذا صار الأمر إليك ، فتجرد لهذه العصابة ، [عصابة مانى] ، فإنها تدعو الناس الى ظاهر حَسَنٍ كاجتناب الفواحش ، والزهد فى الدنيا ، والعمل للآخرة ، ثم تخرج من هذا الى تحريم اللحوم ، ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تحرجاً ، ثم تخرج الى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطريق بحجة إنقاذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد السيف ، وتقرب بذلك الى الله ، فإنى رأيت جدى العباس رضى الله عنه فى المنام قلدنى سيفين لقتل أصحاب الاثنين (١)

وقد ظهرت الزندقة قبل أن يظهر الإسلام ، فالزندقة ليست خروجاً على الإسلام خاصة ، وإنما هى خروج على جميع الأديان ، وعلى كل القيم والمعايير الأخلاقية السايمة .

---

(١) الطبرى ١٠ : ٤٢ وابن الاثير ٦ : ٣٥ .

وأشهر فرق الزندقة تنسب الى مزدك ، الذى ظهر فى أيام قباذ بن فيروز ، (قباذ هذا هو أبو كسرى أنوشروان) ، وقد دعا مزدك الناسَ إلى الزندقة ، وإباحة الحُرَم ، وألا يَمنَع أحد منهم أخاه ما يريد من ذلك (١) .

وظهر من الزنادقة فى العهد الأموى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد ، والجعد بن أدهم مؤدب مروان بن محمد ، ثم ظهر حماد عجرد ، وهو كما يقول أبو الفرج الأصفهانى (٢) « من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، إلا أنه لم يشتهر فى أيام بنى أمية شهرته فى أيام بنى العباس ، إذ أصبح خلالها خليعاً ماجناً متَّهَماً فى دينه ، مرميا بالزندقة » وفى خبر آخر يقول : كان بالكوفة ثلاثة نفريقال لهم حمَّادون : حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد الزبرقان يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يُرْمَوْن بالزندقة جميعاً ، وأشهرهم بها حماد عجرد (٣) .

وكان أبو نواس يُرمى بالزندقة أيضاً ولكنه كان بيرأ من الزندقة ، ويقول إن السبب فى أنه رُمِىَ بها أنه قال مرة لحماد الراوية :

ادع غيرى إلى عبادة الاثنيـ ن فإنى بواحـد مشغولُ

ولكن حماداً أذاع هذا البيت ونسبه إلى بشار بعد أن جعله :

ادع غيرى إلى عبادة الاثنيـ ن فإنى عن واحد مشغولُ

وحاول أبو نواس أن يظهر براءته ولكنه لم يتمكن ، فأُلقِىَ بـه فى حبس الزنادقة ، وعن ذلك الحبس يقول أبو نواس : كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه فى شعره ، حتى حبستُ معه فى

---

(١) الاغانى ٨ : ٦١ .
(٢) الاغانى ١٣ : ٧٠ .
(٣) المرجع نفسه .

حبس الزنادقة ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين ، يقرءون به فى صلواتهم (١) .

ويروى الجهشيارى (٢) أن سليمان بن أبى جعفر قال عن أبى نواس فى حضرة الأمين : إنه ثنوى . فسأل الخليفة : أيشهد عليه أحد بهذا فاستشهد سليمان بجماعة ذكروا أن أبا نواس وضع قدحا فى يوم مطير فسقط فيه مطر كثير ، ثم شربه أبو نواس وقال : يزعمون أن مع كل قطرة ملكاً ، فكم ترانى شربت من الملائكة ؟ فحكم عليه الأمين بالحبس مع الزنادقة ، فقال فى سجنه أبياتاً منها :

لا العذر يقبل لى فتقبل توبتى فيهم ولا يرضون حلف يمينى
أما الأمين فلست أرجو دفعه عنى ، فمن لى اليوم بالمأمون

فبلغت أبياته المأمون ، فقال : والله لئن لحقته لأغنينه غنى لا يؤمله . فمات قبل دخول المأمون مدينة السلام .

ويروى الجهشيارى (٣) أن السبب الحقيقى فى غضب الأمين على أبى نواس قوله :

ولو لم أنل فضلا لكانت صيانتى
فمى عن جميع الناس حسبى من الفخر
فلا يطمعن فى ذاك منى طامع
ولا صاحب التاج المحجب فى القصر

وكان الزنادقة يدينون بما اعتنقوه ، فأفكارهم عندهم عقيدة ودين ، ومن أجل هذا كانوا يعترفون بها إذا سئلوا عنها ، وإن كان فى ذلك

(١) الاغانى ١٣ : ٧١ .
(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٤٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٤١ .

الاعتراف حتفهم ، ولقد قدم للمهدى يوماً زنديق فسأله المهدى فاعترف ، فاستتابه فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه (١) .

ويقول الجهشيارى (٢) : إن ممن يعتقد الزندقة قوما يرون أن جحد ما يدينون به محظور ، وأن التقيه غير جائزة ، وقد اتهم يزيد بن الفيض كاتب المنصور بالزندقة فى عهد المهدى فلما سئل أقر بالزندقة فحبس ، وهرب من الحبس فلم يقدر عليه (٣) .

وكان المهدى أكثر الخلفاء العباسيين إيقاعا بالزنادقة وتعقباً لهم ، عين موظفاً خاصاً لهذا الغرض أسماه « صاحب الزنادقة » وممن شغل هذا المنصب عمر الكلوذانى ثم محمد بن عيسى بن حمدويه الذى قتل من الزنادقة خلقاً كثيراً كما يقول ابن الأثير (٤) .

وقد أوصى المهدى ابنه الهادى أن يتعقب هذه الطائفة ، كما سبق ، وقد استجاب الهادى لوصية أبيه ، فكان شديداً عليهم ، كثير الطلب لهم ، لكن عهده كان قصيراً ، يروى أنه قال : لأقتلن هذه الفرقة ، وأمر أن يهيأ له ألف جذع ، فمات بعد هذا القول بشهرين (٥) .

وكثيرا ما اتهم أناس بالزندقة للتنكيل بهم دون أن يكونوا زنادقة ، أى أن الرمى بالزندقة اتخذ وسيلة للإيقاع بالأبرياء فى كثير من الأحايين .

الخرمية :

وحول الزندقة تجمع أحياناً جماعات من المارقين ، وكونوا لأنفسهم مذهباً تعصبوا له ودافعوا عنه بقوة السلاح ، والخرمية أهم من يذكر فى هذا الصدد . وفيما يلى كلمة عنهم وعن زعيمهم بابك الخرمى (٢٢٢هـ) .

---

(١) الطبرى ١٢ : ٤٢ .
(٢) الوزراء والكتاب ص ١٥٣ .
(٣) المرجع السابق ص ١١٦ .
(٤) الكامل فى التاريخ ٦ : ٦٢ .
(٥) الاثير ٦ : ٣٥ .

تسمى هذه الطائفة « الخرمية » نسبة الى مدينـة بفارس اسمهـا (خرّمة) وقد تسمى « الحرّمية » بالحاء المهملة لأنهـا تحرّم القتل والغصب والحـروب والمثْلة (التنكيل والتعذيب) ، وهـذه الطائفة وُجِدت قبل بابك بزمن طويل فهى امتداد لأفكار مزدك الذى تحدّثنا عنه ، وكانت تقول بالتناسخ ، وتغرى باللذات والانعكاف على الشـهوات والاختلاط والمشاركة فى الحرَم والأهل ، ولكنها — كما سبق — تحرم القتل والحروب والمثلة ، وفى عهد بابك أحلّ هذا ما حرمته الحرمية ، فأضاف الى القول بالتناسخ والإغراء باللذات ... القتل والغصب والمثلة ، ولذلك غلبت النسبة لهذه الطائفة بالخاء المعجمة لا بالحاء المهملة إذ لم يعد للتحريم مجـــال .

وقد انتهز بابك المشكلات التى سبقت عهد المأمون وعاصرت سنيه الأولى فظهر سنة ٢٠١هـ فى أذربيجان وقوى أمره وعز جانبه حتى أوشك أن يعزل المقاطعات الفارسية عن العرب (١) ، وقد أرسل له المأمون عدداً من أكبر قواده . ولكنهم منوا بالهـزائم المتعددة ، وأصبحت همـذان وأصبهان تابعة له ، وتعاون بابك مع امبراطور الروم — على ما سيأتى — لإضعاف قوة المسلمين ، ومـع أن المأمون أحرز فى أواخر أيامـه بعض الانتصارات على بابك ، الا أن بابك لم تُدَمَّر قوته الا فى عهد المعتصم ، وقد أوصى المأمون ولىّ عهده الجِدّ فى حرب بابك ، فاستعد المعتصم استعداداً كبيراً للقضاء على هذا الثائر العنيد ، وكان الأفشين آنذاك قائد جيوش المعتصم ، فاستطاع أن يُنْزِل ببابك الهزيمة الأخيرة سنة ٢٢١هـ ؛ وأن يقبض على بابك وأخيه عبد الله وبعض آل بيته ، ويدخل بهم سامرّا وهم أسرى مكبّلون ، وقُتِلَ بابك وصُلِبَ بسامرا ، وقتل عبد الله وصلب ببغداد ، وكان يوم الانتصار على بابك من أزهى أيام النصر التى شهدها المســلمون .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ٣٥ .

عواصم الخلافة العباسية

فى هذا العصر

هناك عاصمتان رئيسيتان للعصر العباسى الأول هما : بغداد وسامرا، وهناك بجانبهما عواصم اتخذها العباسيون مراكز لسلطانهم قبل إنشاء بغداد ، وسنمر بهذه مروراً سريعاً لنقف وقفة أطول مع العواصم الرئيسية :

الكوفة :

كانت الكوفة هى العاصمة الأولى للخلافة العباسية ، فقد سبق القول أن خلافتهم أعلنت فيها ، ولكن العباسيين كانوا يعرفون أن الكوفة وسوادها شيعة علىّ وولده (١) . وأنه ليس من الخير للعباسيين أن يتخذوا عاصمتهم بين قوم لا يدينون لهم بالولاء ، ولا يكنون لهم المحبة والإخلاص ، ولذلك سرعان ما تركوا الكوفة الى الحيرة .

الحيرة :

لم تكن الحيرة مكاناً يمكن أن يستقر به العباسيون ، ولم ينتقلوا إليها إلا بدافع الرغبة فى سرعة مغادرة الكوفة ، فلم تكن الحيرة فى الحقيقة إلا مكاناً مؤقتاً نزلوا به ليفكروا فى اختيار عاصمة دائمة بحيث تكون مكاناً أكثر صلاحية وأحسن مقاماً . وفى الحيرة استقر رأيهم على أن يتخذوا الأنبار عاصمة لملكهم .

الأنبار (الهاشمية) :

تقع الأنبار على بعد عشرة فراسخ من المكان الذى أنشئت فيه بغداد

---

(١) راجع خطاب محمد بن على بن عبد الله للدعاته حين أراد توجيههم الى خراسان وقد سبق ايراده ص ٣١ .

فيما بعد ، وقد أسسها أحد ملوك الفرس ، فجددها السفاح وأسماها الهاشمية وانتقل إليها ونقل إليها دواوينه ، وظل بها حتى مات .

وفى الهاشمية ثار الراوندية على المنصور ، وكان ذلك فى اليوم الذى يطلق عليه « يوم الهاشمية » وقد سبق الحديث عنه عند الكلام على الراوندية . وبسبب قسوة هذا اليوم أدرك المنصور أن بقاءه فى مدينة كهذه غير مأمون العاقبة ، وتشاءم منها إذ كان على وشك أن يقتل فيها ، لذلك قرر أن يشيد مدينة جديدة تحقق له الحماية ، وتصلح أن تكون عاصمة هذا الملك الكبير . ونشأت بذلك فكرة مدينة بغداد عروس الشرق .

بغداد :

نشأت فى ذهن المنصور ورجاله صورة عن مكان ممتاز تقوم فوقه العاصمة الجديدة ، مكان طيب الهواء ، حسن الجو ، تحصنه الطبيعة ضد غارات المعتدين ، يسهل الاتصال بينه وبين أكثر بقاع الدولة الاسلامية ، وقد تحقق فى بغداد كل ما يطلبه المنصور أو جله ، فهى على نهر دجلة ، وعلى صفحته تأتيها الميرة والطرائف من الهند والسند والصين والبصرة والأهواز وواسط والموصل وديار بكر وربيعة ، ثم هى أقرب نقطة بين دجلة والفرات ، فتسهل الصلة بينها وبين البلاد الواقعة أيضا على الفرات والقريبة منه وهذا المكان بين أنهار ، فلا يستطيع أن يصل إليه العدو إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسور وأزيلت القناطر تعذر على العدو أن يصل إليه ، والمكان وسط بين بلاد العرب والعجم (١) .

وقد تحقق المنصور بنفسه من توافر هذه المزايا فى المكان الذى تقرر أن تقوم فيه عاصمة ملكه ، وشرع فى إعداد العدة ، ثم فى التنفيذ ، يقول

---

(١) انظر لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت .



الخطيب البغدادى (١) « إن المنصور لما عـزم على بناء بغـداد أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبنـاء ، والعلم بالذرع والمساحة ، وقِسْمة الأرضين ، فمثّل لهم صفتها التى فى نفسه ،وطلب منهم أن يتبعوا ذلك فى بناء المدينة » ويكمل الطبرى ذلك فيقول (٢) : إن المنصور لمـا عزم على بناء بغداد أحب أنْ ينظر إليها عياناً ، فأمر أن تخط بالرماد ، ثم دخل من وضع كل باب ، ومر فى طرقات المدينة ورحابها ، وهى مخطوطة بالرماد ، ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حب القطن ويُصَبّ عليه النفط . وتوقد فيه النار ، فنظر إليه والنار تشتعل . وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة . ولنعد الى الخطيب البغدادى (٣) الذى يقول :

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١ ص ٦٦ — ٦٧ .
(٢) تاريخ الامم والملوك جـ ٩ ص ٢٤١ .
(٣) تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٥٧ .

« إن المنصور كتب إلى كل بلدة يأمر بإرسال من فيه ممن يفهم شيئاً فى أمر البناء ، فتكامل له من الفعلة وأهل المهن والصناعات ألوف كثيرة » وعند ذلك أمر المنصور بحفر الأساس على الرسم • وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ ، ووضع المنصور بيده أول آجره فى بنائها وقال : باسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال : ابنوا على بركة الله (١) •

وكانت المدينة مدوّرة ومن أجل ذلك سميت « المدينة المدورة » وفى وسط الدائرة يقع قصر الخليفة المسمى « قصر الذهب » وجامع المنصور • ولم يكن حول هذين بناء إلا داراً بناها للحرس وأخرى بناها للشرطة ، وجعل حول ذلك منازل أولاده ، ثم قصور الأمراء ، وكبار رجال الدولة ، فدواوين الحكومة ، ثم دور الأهالى تتخللها الأسواق ، وكان هدف المنصور من اختيار هذا الرسم ألا يكون أحد أقرب الى داره مــن الآخــرين فى درجته ، وأن يكون الخليفة فى مكان حصين يحيط به حرسه وأصفياؤه فيأمن بذلك السوء ، وكان للمدينة أربعة شوراع رئيسية تمتد من وسط الدائرة الى الأسوار ، ويتفرع من هذه الشوارع شوارع أخرى صغيرة تصل إليهــا •

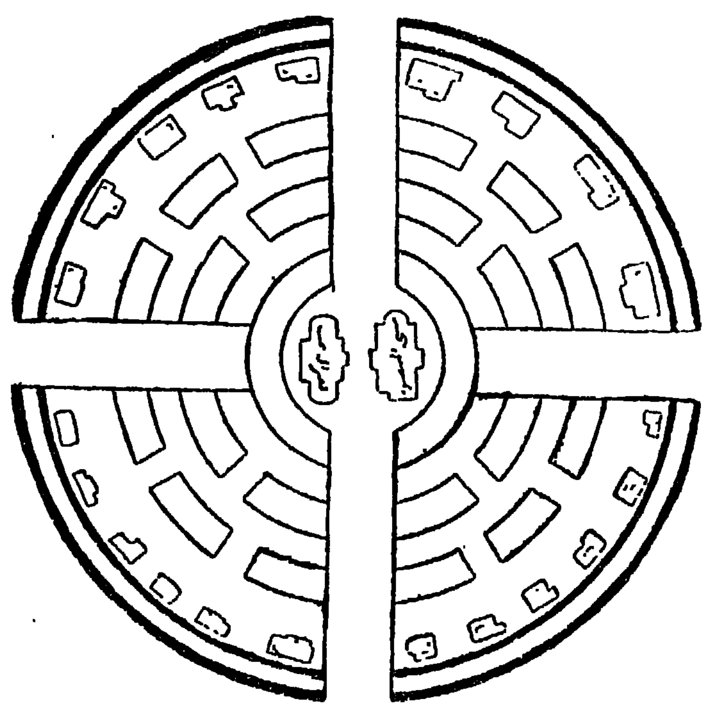
وأقيم للمدينة فى أول الأمر سوران : قطر دائرة السور الداخلى مائتا ذراع وألف ذراع وارتفاعه خمسة وثلاثون ذراعاً وعرضه من أسفله عشرون ذراعاً ، أما السور الخارجى فعرضه من أسفله خمسون ذراعاً ، ومــن أعلاه عشرون ذراعاً ، وارتفاعه ثلاثون ذراعاً (٢) • وعرض مــا بين السورين مائة وستون ذراعا ، وفى كل ســور أربعة أبواب ، تقابل الشوارع الأربعة الرئيسية ويتجه كل باب منها الى جهة باسمها ، وهى باب الكــوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشــام ، على

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٣٨ — ٣١٠ •
(٢) ابن الاثير ٦ : ٢٠٨ •

كل باب قبة ذاهبة فى السماء ، وعلى رأس كل قبة تمثال ، وبين كل قبتين ثمان وعشرون برجاً ، ثم إن المنصور أقام سورا ثانيا داخلياً على النسق السالف زيادة فى الأحكام[١] .

عدد الأيام



رسم تخطيطي لمدينة بغداد عند إنشائها

وكان العمل فى بناء بغداد قد توقف قليلا فى بادىء الأمر ، عندما ظهرت ثورة العلويين فى المدينة ثم فى البصرة ، فلما تمكن المنصور من قمع هاتين الثورتين استأنف العمل ، وقد تم بناء بغداد سنة ١٤٦هـ ، فانتقل لها الخليفة ونقل لها جنده وخزائنه ودواوينه ، وظل العمل يسير فى بناء الأسوار وإعداد الخندق حتى تم ذلك سنة ١٤٩ هـ[٢] .

وبلغت تكاليف نفقتها ٨٣٣و٠٠٠ر٤ درهما[٣] واشتغل فيها عدد عظيم

(١) طه الراوى ، بغداد مدينة السلام ١١ — ١٢ .
(٢) الطبرى ١ : ٢٤١ .
(٣) ابن الاثير ٥ : ٢١٣ .

من الفعلة والمهندسين والفضلاء ، ومن أبرز من عمل فيها الحجاج بن أرطاة الذى أسهم فى تخطيط المدينة والإمام أبو حنيفة وكان يقوم بعدّ الآجر واللبن وابتكر للعد طريقة حديثة هى أن يعدّه بالقصب اختصاراً(١) •

ويروى ابن طباطبا (٢) أنه لما عظمت النفقة فى بناء بغداد أشار أبو أيوب الموريانى بهدم إيوان كسرى واستعمال أنقاضه ، فاستشار المنصور خالد بن برمك فى ذلك فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه آية الإسلام ، فإذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لا يَخْضَعُ أصحابه إلا أمرٌ سماوى ، ثم هو مُصَلَّى على بن أبى طالب عليه السلام ، والمؤونة فى نقضه أكثر من نفعه • فقال له المنصور : أبيت يا خالد إلا ميلا إلى العجمية ، ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدمت منه ثُلمة ، فبلغت النفقة على هدمها أكثر مما حَصَّل منها • فأمسك المنصور عن هدمه وقال لخالد : قد صرنا الى رأيك وتركنا هدم الإيوان • فقال خالد : يا أمير المؤمنين ، أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك • فأعرض المنصور عنه وأمسك عن هدمه •

ولما تمت عمارة بغداد حفرت قناة للملاحة تأخذ ماءها من الفرات وتشق العراق ، فوصلت بغداد بالفرات ، ومن ثم أصبحت العاصمة الجديدة على صلة نهرية بآسيا الصغرى وسورية •

ولم يمض على إنشاء بغداد فترة طويلة حتى أصبحت عامرة زاخرة بالمدنية والعلم والفضل وتطلعت لها أنظار المسلمين ، وتسمعت لأخبارها آذان العالم ، واحتلت بغداد بسرعة مكان الصدارة فى السياسة والنشاط الاجتماعى والعلمى فى الشرق الأوسط كله ، واحتفظت طويلا بمكانتها هذه على الرغم مما أصابها من هزات ، وما حل بها من محن وخطوب (٣) •

---

(١) الفخرى ١٣٩ — ١٤٠ ، أورد الخطيب البغدادى رقما غير صحيح لتكاليف البناء ولكن الناشر صححه (أنظر تاريخ بغداد ١ : ٦٩) •

(٢) الفخرى ص ١٣٤ — ١٣٥ •

(٣) Richard Coke : The city of pease p. 33.

وكان مولد بغداد فى ساعة سعيدة تدعو للتفاؤل وتبشر بالخير ، فقدر لها — فوق كونها عاصمة الامبراطورية الاسلامية الضخمة ، وأعظم مركز تجارى فى مطلع العصور الوسطى — أن تصبح محط أنظار العالم كله فى الثقافة والآداب ، ومقصد العباقرة والموهوبين الذين أخذوا يفدون لها من بقاع العالم الاسلامى الفسيح (١) .

الكرخ :

يعتبر الكرخ من ملحقات بغداد ، فقد حدث أن زار رسول ملك الروم الخليفة أبا جعفر المنصور ، فأمر هذا حاجبه الربيع بن يونس فطاف به المدينة ، فلما عاد قال له : كيف رأيت مدينتنا ؟ قال رأيت بناء حسناً إلا أنى رأيت أعداءك معك بالمدينة وهم السوقة ، فالجواسيس يوافون من جميع الأطراف باسم التجارة ، والتجار هم بُرُدُ الآفاق ، فيتجسسون الأخبار ويعرفون ما يريدون ثم ينصرفون من غير أن يعلم بهم أحد ، فلما انصرف الرسول أمر المنصور بإخراج الأسواق من بغداد وبنى لها مدينة الكرخ (٢) .

ويقول الخطيب البغدادى عن بناء الكرخ (٣) : إن المنصور وضع أساس الكرخ فى الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى ، ونقل إليها أسواق بغداد ، وأفرد لكل حرفة سوقا خاصة ، ومن هذه الأسواق سوق العطارين وسوق الحدادين ، وسوق النجارين ، وسوق البزازين ، وسوق الرياحين (لبيع الأزهار) وسوق القصابين ، وقد قيل إن المنصور أمر بجعل هذه السوق فى آخر الأسواق قائلا : إنهم سفهاء وفى أيديهم الحديد القاطع . ثم أمر المنصور أن يُبنى لهم مسجد بالكرخ يجتمعون فيه يوم الجمعة حتى لا يدخلوا المدينة (٤) .

---

(١) Ibid pp. 48-49.

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٢١٣ ، ومعجم البلدان لياقوت جـ ٧ ص ٢٣٣ .

(٣) تاريخ بغداد جـ ١ ص ٨٠ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٣٤ .

الرصـــافة :

تقع الرُّصافة فى الجانب الشرقى من بغداد ، ويروى ابن طباطبا قصة بنائها فيقول : كان الجند قد شغبوا على المنصور ، فقال المنصور لقثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس : مـا ترى التياث الجند ؟ إنى خائف أن تجتمع كلمتهم . فقال له : يا أمير المؤمنين ، الرأىُ أن تعبِّر ابنك الى الجانب الشرقى ، وتُعَبِّر معـه قطعة من العسكر ، وتبنى له مدينة ، فيصير هو فى مدينةٍ وعسكرٍ بالجانب الشرقى ، وأنت بمدينة وعسـكر بالجانب الغربى ، فان رابكَ حدثٌ من أحد الجانبين استعنت عليـه بالجانب الآخر . فقبل قوله وبنى الرُّصافة (١) .

والتحق الناس بالرُّصافة وعمروها ، فصارت مقدار مدينة المنصور ، وعمل بهـا المهدى جامعا أكبر من جامع المنصور وأحسن ، وكان الفراغ من بنائه سنة ١٥٩هـ وهى السنة الثانية من خلافة المهـدى ، وفى الرصافة يقول على بن الجهم .

عيـون المهـا بـين الرصـافة والجسر
جلَبْنَ الهوى من حيث أدرى ولا أدرى (٢)

وصارت الرصافة المكـان المختار لدفن الخلفـاء فبنيت التُّرَب الجليلة . ونقلت لهـا الفرش العظيمة ، وكانت فى أيام بنى العباس حَرَما إذا لجـأ إليهـا خائف أمِنْ (٣) .

سـامرّا

يقـال إن اسمها مأخوذ من « سُرّ من رأى » وتقع على شرق نهر دجلة على بعد ثلاثين فرسخا (حوالى مائة كيلو متر) شمال بغداد ، وهى

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٥٠ — ١٥١ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٥٤ .
(٣) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٥١ .

مدينة قديمة جددها العباسيون وبخاصة هارون الرشيد الذى حفر نهرا عندها سماه الطاقول ، ثم بنى بها المعتصم قصرا وأهداه لأشناش .

وحدث أن بغداد ضاقت بالترك الذين استكثر منهم المعتصم ، فقد بلغ تعدادهم حوالى سبعين ألفـــا ، ومدوا أيديهم وأذاهم الى حرم الناس .وسعوا فى بغداد بالفساد ، وشكا الناس للخليفة ، وهدده الشيوخ بسهام السحر ، (بالدعاء عليه ليلا) فوطد العزم على الخروج بجنده من بغداد ، فاختار سامرا وبنى بها قصرا فخما له ، ومسجدا عظيما ، وبنى عساكره دورا حول قصره ، وانتقل المعتصم وقواده وجنده الى سامرا ، وظل بها المعتصم حتى مات ، وأقام بها الواثق حتى مات أيضاً ، وتلاه المتوكل فأقام بها وبنى أبنية كثيرة فخمة ، كما بنى مسجداً أعظم عليه النفقة ، وجعل له منارة عالية لتعلو أصوات المؤذنين فيها ، وحتى ينظر إليها من بعد ، وقد جمع الناس فى هذا المسجد وتركوا المسجد الأول ، وشق من دجلة قناتين تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامرا .

ومن أبنية سامرا الجليلة قصر المتوكل المعروف بالعروس ، وقـــد أنفق عليه المتوكل ثلاثين ألف ألف درهم ، والقصر المختار وقـــد بلغت تكاليفه خمسة آلاف ألف درهم ، والقصر الوحيد وتكاليفه ألف ألف درهم .

ولم تزل سامرا كل يوم فى صلاح وزيادة وعمارة منذ أيام المعتصم حتى آخر أيام المنتصر بن المتوكل ، فلما ولى المستعين وقويت شـــوكة الأتراك واستبدوا بالملك ، والتولية والعزل ، وفسدت دولة بنى العباس بدأت أحوال سامرا فى النقصان ، وبخاصة بسبب العصبية التى كـــانت بين الأتراك ، ولما جاء المعتضد انتقل من سامرا إلى بغداد فأذن ذلك بخراب سامرا ، وأسرعت للفناء ، حتى أصبحت تستوحش الناظر إليها بعد أن لم يكن فى الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس

ولا أوسع ملكاً فسبحان من لا يزول ولا يحول (١) .

ومن أهم المعالم التى لا تزال موجودة بسامرا موضع المشهد الذى تزعم الشيعة أن به سرداب القائم المهدى ، وقد زرت أنا هذا المكان سنة ١٩٥٠ ، فنزلت درجاً ضيقاً مظلماً حتى انتهيت الى حجرة قاتمة يجلس بها بعض الشيوخ أمام فوهة مغطاة ، وانطلق شيخ يشرح غيبة المهدى فى هذا السرداب وأنه سيخرج منه . ولكن مرافقى — وكان من الرسميين المعروفين بالعراق — نبه الشيخ الى أنى موفد من قبل جامعة القاهرة لزيارة العراق ، فتأسف الشيخ لما بدر منه من شرح أعده للعامة ، وسكت عن الكلام عن الإمام والغيبة والعودة ، وانتقلنا الى حديث آخر . ياله من تضليل للعامة يسأل عنه الخاصة أمام الله .

وقد أورد كارل بروكلمان وصفاً دقيقاً لسامرا ، وعنى بوجه خاص بفن العمارة فيها ، ونحن نقتبس منه بعض دراساته عنها :

أنشأ المعتصم قناتين من نهر دجلة ، خلعتا على المدينة الجديدة — بالإضافة الى النهر نفسه — منعة الحصن البحرى ، وقد اعتمد المعماريون المسلمون فى أبنية سامرا على نماذج فهلوية ، فقصر الخليفة المتوكل كان على طراز قصور المدائن الفهلوية من حيث التصميم ، ومئذنة الجامع الكبير كانت على طراز الأبراج البابلية ذات السلالم الخارجية الملتوية (٢) .

ونرى أنه من الممكن أن نوافق على أن المعماريين المسلمين انتفعوا بالجهود المعمارية التى كانت قبل الإسلام ، ولكن الذى لا شك فيه أن العمارة فى الإسلام كانت بها ابتكارات جعلت لها طابعا إسلاميا خاصاً .

---

(١) هذه المادة خلاصة ما ذكره ياقوت عن سامرا (انظر معجم البلدان جـ ٥ ص ١٢ — ١٩) وانظر كذلك الفخرى لابن طباطبا ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ٤٩ — ٥٠ .

النهضة الثقافية (*)

مقدمـــة :

صـــور Professor Nicholson النشاط العلمى فى العالم الإسلامى تصويراً دقيقاً يحسن أن نقتبس منه السطور التالية ، لتكون مطلع حديثنا عن النهضة الثقافية فى هذا العصر ، قال : كان جلة الباحثين وطلاب العلم من المسلمين يرحلون فى حماس ظاهر وسط القارات الثلاثة (وهى عالم ذلك العصر) ثم يعودون الى بلادهم ، كما يعود النحل محملا بالعسل الشهى ، فيجلس هؤلاء الباحثون ليرووا شغف الجماهير التى كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم ، فينالوا من علومهم ومعارفهم زادا وفيراً ، وخيراً عميما ، كما كان هؤلاء الباحثون يعكفون أحياناً على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ، ثم يخرجون للناس كتبا هى بدوائر المعارف أشبه ، مع نظام وبلاغة عذبة ، وهذه الكتب هى المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحتمله كلمة العلوم من معنى ، وهى مرجع العلماء والباحثين ، ومنها يستمدون فنونا من الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون (١) .

ومن الطبيعى أن يكون العصر العباسى الأول أنسب العصور ملاءمة للنهضة الثقافية ، فمدنية الإسلام بدأت فيه تستقر بعد هدوء حركة التوسع والفتوح التى كانت طابع العصر الأموى ، والثقافة تنتشر فى الأمة إذا هدأت ، واستقرت أمورها ، وانتظم ميزانها الاقتصادى ، وجل هذا قد توافر للأمة الإسلامية بعد قيام الدولة العباسية ، وتمكن السفاح

(*) للمؤلف كتابان جديران بالذكر هنا ، هما .
١ — تاريخ التربية الاسلامية .
٢ — الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره (مترجم عن الانجليزية) .
ففى هذين الكتابين حديث واسع عن النهضة الثقافية وجهد المسلمين لخدمتها ، فليرجع اليهما من أراد مزيداً من الدراسة والبحث .

(١) A Literary History of the Arabs p. 281.

والمنصور من تثبيت الدولة ، والضرب على أيدى أعدائها ، وما إن تمَّ النصر الحربى حتى أفسح رجل الحرب الطريق لرجال الإدارة والمال والقانون والآداب ، فظهر فى ذلك العصر نخبة من الشعراء والفلاسفة والمؤرخين والرياضيين ورجال الدين ، وقادة الفكر الذين أكسبوا اللغة العربية أغنى وأبرز تراث أدبى حظيت به (١) .

وكانت النهضة العلمية فى ذلك العصر تتمثل فى ثلاثة جوانب :

(١) حركة التصنيف .

(٢) تنظيم العلوم الإسلامية .

(٣) الترجمة من اللغات الأجنبية .

وهاك حديثاً قصيراً عن كل جانب من هذه الجوانب :

١ — حركة التصنيف :

مرت حركة كتابة الكتب بمراحل ثلاثة ينبغى أن يمتاز كل منها عن الآخرين .

المرحلة الأولى وهى أدناها وأيسرها ، عبارة عن تقييد الفكرة أو الحديث أو نحو ذلك فى صحيفة مستقلة أو مع غيرها .

والمرحلة الثانية وهى أوسطها شرفا عبارة عن تدوين الأفكار المتشابهة أو أحاديث الرسول فى ديوان واحد ، فهنا أحكام فقهية جمعت فى ديوان ، أو مجموعة من الأحاديث ، أو أخبار تاريخية وهكذا .

أما المرحلة الثالثة وهى أشرفها فهى مرحلة التصنيف وهى أدق من التدوين ، لأنها ترتيب ما دون وتنظيمه ووضعه تحت فصول محددة

---

(١) Richard Coke. the sity of peace p. 34.

وأبواب مميزة .. قال الزبيدى (١) : « وصنفه تصنيفا جعله أصنافاً : وميز بعضها عن بعض ، قال الزمخشرى ومنه تصنيف الكتب (٢) . وهذه المرحلة وصل لها المسلمون فى العصر العباسى الأول ، وكان الأئمة قبل ذلك يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف غير مرتبة ، حتى سنة ١٤٣هـ إذ شرع العلماء المسلمون فى تصـنيف الحديث والفقه والتفسير وكتب العربيـة والتاريخ وأيام الناس ، ومن أشهر المصنفين فى هذا العصر مالك الذى ألف الموطأ ، وابن إسحاق الذى كتب السيرة ، وأبو حنيفة الذى صنف الفقه والرأى (٣) . ويرجع الى أبى جعفر المنصور الفضل فى توجيـه العلماء هذا الاتجاه ، وقد كان المنصـور كما يقول السيوطى (٤) كـامل العقل ، جيد المشاركة فى العلم والأدب ، فقيها تلقى العلم عن أبيه وعن عطاء بن ياسر ، ويروى أنه قابل الإمام مالكا فى موسم الحج ، وفاتحه فى مسائل كثيرة من العلم ، ثم قال له :

يا أبا عبد الله لم يبق فى الناس أفقه منى ومنك ، وإنى قد شغلتنى الخلافة ، فاجمع هذا العلم ودونه ، ووطئه للناس توطئه ، وتجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر ورخص عبد الله بن العباس ، وشواذ عبد الله بن مسعود ، وأقصد الى أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم .

فاعتذر مالك ، فلم يقبـل المنصـور منه ، فوضع مالك « كتـاب الموطـأ » وأثر عن مالك قوله : والله لقـد علمنى المنصور التصنيف (٥) .

ويقول حاجى خليفة (٦) « واختلف فى أول من صنف فقيل الإمـام

---

(١) تاريخ العروس ٦ : ١٦٨ .
(٢) انظر تصدير الاستاذ يوسف العش لكتاب « تقييد العلم » للخطيب البغدادى ص ٨ .
(٣) الذهبى . دول الاسلام حوادث سـنة ١٤٣ ، والسيوطى . تاريخ الخلفاء ١٠١ — ١٠٢ .
(٤) تاريخ الخلفاء ص ١٠١ .
(٥) أحمد زكى صفوت : العلوم والمعارف فى العصر العباسى ٣ — ٤ .
(٦) كشف الظنون ١ . ٢٦ .

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى (١٥٥هـ) وقيل أبو النصر سعيد بن عروبة (١٥٥هـ) وقيل ربيع بن مسعود بن صبيح (١٦٠ هـ) ومن مشاهير من عملوا بالتصنيف فى هـذا العصر معمر بن راشد (١٧٩هـ) وسفيان الثورى (١٦١هـ) ومالك بن أنس (١٧٩هـ) وعبد الله بن مبارك (١٨١هـ) (١) .

وسواء أكان هذا أول من صنف أو ذاك فإن المتفق عليه أن هذا العصر هو عصر التصنيف ، وأن النضج العلمى الذى ينشأ عن طبيعة التطور ، بالإضافة الى الاتصال بالنتاج الأجنبى الذى كان قد وصل الى درجة كبيرة من دقة التأليف والتنظيم قد كانا من أهم الأسباب التى نقلت النتاج فى البلاد الإسلامية من التدوين الى التصنيف ، ولسنا فى حاجة الى القول بأن حركة التصنيف لم تتوقف بعد ذلك، بل سارت قدماً وأخذت طريقها نحو مزيد من الدقة وحسن الترتيب .

٢ — تنظيم العلوم الإسلامية

العلوم الإسلامية هى هذه الطائفة من العلوم التى نبعت من طبيعة الحياة الإسلامية ، وهى التى تتعلق بالدين ولغة القرآن ، ويطلق عليهـا بعض المصنفين « **العلوم النقلية** » ، إذ أن الباحث فيها ليس له إلا أن يَنْقل ويروى ، فالمفسر والمحـدث ليس لهما إلا أن يرويا ما تلقيـاه عن طائفة عن أخرى مرفوعة الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليس للغوى إلا أن ينقل اللغة من العرب الخلص ، أو عمن سمع منهم مباشرة أو بواسطة .

ولكن تسمية هـذه العلوم بالعلوم النقلية فى هـذا العصر العبـاسى لم تعـد تسمية دقيقة ، ذلك لأن علمـاء هـذا العصر استباحوا لأنفسهم أن يعتمدوا على العقل والمنطق فى التدليل على ما يذهبون إليه ، فأصبح المحدث يحكم على هذا الحديث أو ذاك بأنه موضوع لأنه يخالف العقل

---

(١) انظر ايضا الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد : ١٠ : ٤٠٠ و ١٤ : ١١٥ .

والفكر الاسلامى ، وأصبح يفتى فى مسألة فقهية لم يَرِدْ فيها نص صريح باجتهاده وتفكيره ، وإن خالف فى ذلك من سبقوه من المجتهدين ، وأصبح أحيانا يؤول النص للتوفيق بين طوائف النصوص التى يظهر فيها شىء من الاختلاف ، وأحيانا يحكم بغير ما سجله النص اعتماداً على أن النص روعيت فيه حالة خاصة . ومن أجل ذلك آثرتُ أن أطلق على هذه العلوم « العلوم الإسلامية » ومما يؤيد اتجاهى أن علم الكلام معدود ضمن هذه العلوم ، والمتكلمون — كما يقول الأستاذ أحمد أمين (١) — أظهر عنصر عقلى فى الحركة العلمية . وهم لا يميلون كثيراً الى المنقول ، ولا يثقون بكل ما فيه ، ثقةَ المحدثين وغيرهم به ، وكانت لهم مذاهب مقررة فى العدل والتوحيد وصفات الله وأفعال العباد ونحو ذلك ، تثبتتْ لهم ببحثهم .

والعلوم الإسلامية تدين للعصر العباسى الأول بما وصلت إليه من دقة وتنظيم ، وهاك الحديث عن بعضها ، وعما نالته من تطور فى هذه الفترة من التاريخ :

التفسير ومولده وفصله عن الحديث :

يمكن القول إن هذا العصر شهد ميلاد علم تفسير القرآن ، وفَصْلَه عن علم الحديث . . . أما ميلاد علم تفسير القرآن ، فلأن ما سبق هذا العهد لم يكن تفسيراً للكتاب المنزل كله ، ولا لبعضه مرتباً وإنما كان تفسيراً لبعض آيات من هنا ومن هناك ، تعنّ لغرض معين ، أو يختلف الناس فى معناها ، أما فى العصر الذى نتحدث عنه ، فقد تطور التفسير تطورا عظيما ، وأصبح متسلسلا شاملا ، يحكى ذلك ابن النديم بقوله : « إن عمر بن بكير كان منقطعاً إلى الحسن بن سهل ، فكتب الى الفرّاء : إن الأمير الحسن بن سهل ربما سألنى عن الشىء بعد الشىء من القرآن ، فلا يحضرنى فيه جواب ، فإن رأيتَ أن تجمع لى أصولا ، أو تجعل فى ذلك كتاباً أرْجعُ إليه ، فعلتَ . فقال الفرّاء لأصحابه : اجتمعوا حتى

---

(١) ضحى الاسلام جـ ٢ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

أملى عليكم كتاباً فى القرآن ، وجعل لهم يوماً ، فلما حضروا ، خرج إليهم وكان بالمسجد رجل يؤذن ، وهو من حفاظ القرآن ، فالتفت إليه الفراء وقال له : اقرأ بفاتحة الكتاب ، فقرأ ، ففسرها الفراء ، ثم استوفى الكتاب كله : يقرأ الرجل ويفسر الفراء ، قال أبو العباس : لم يفعل أحد قبله مثله : ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه » (١) وكان هذا أول تفسير للقرآن كله مرتباً على حسب ترتيب الآيات ، وكان فاتحة لمن جاء بعد ذلك ، ليسلكوا هذا الطريق ، حتى جاء الطبرى الذى حشد فى تفسيره كل المزايا التى سبقه بها أسلافه .

أما فصل التفسير عن الحديث فقد ظهر فى هذه الفترة أيضا ، فقد كان المسلمون قبل ذلك يفسرون آيات القرآن بأحاديث الرسول أو بأقوال التابعين ، فلما كان العصر العباسى الزاهر ، استقل تفسير القرآن ، وأصبح كثير من المفسرين يلجئون فى تفسير القرآن الى اجتهادهم هم مستعينين أحياناً بحديث للرسول ، أو بقول تابعى ، أو شعر عربى ، والمهم أن صلب التفسير أصبح كلام المفسر لا روايات أو أخباراً ينقلها دون أن تبرز شخصيته فيما يدون . وقد مال المعتزلة بوجه خاص الى استعمال العقل فى التفسير (٢) كما فعل الجاحظ فى قوله تعالى « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين » (٣) إذ قال فى تفسير ذلك : إن الناس لم يروا شيطانا قط على صورة من الصور ، ولكن لما كان الله قد جعل فى طباع جميع الأمم استقباح صور الشياطين واستسماجها وكراهيتها ، وأجرى على ألسنة الناس جميعهم ضرب المثل فى ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير والتقريع الى ما قد جعله الله فى طباع

---

(١) الفهرست ص ٦٦ طبعة أوربا .

(٢) اقرأ فى هذا الموضوع « المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ، لجولدزيهر ، ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر .

(٣) سورة الصافات الايتان ٦٤ و ٦٥ .

الأولين وعند جميع الأمم (١) ... وهذا التشبيه أوضح من قول من زعم من المفسرين أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن .

وإذا كان المعتزلة قد اتجهوا بالتفسير هذا الاتجاه فان علماء الفقه قد اهتموا فى تفسيرهم للقرآن باستنباط الأحكام منه ، واهتم اللغويون بغريب القرآن ، واستنبط النحويون من القرآن قواعد النحو ، وأخذ المؤرخون من القرآن الكريم أخبارا توضح السيرة النبوية بوجه خاص وسير الأنبياء السابقين والشعوب بوجه عام ، ووجد دارسو الحضارة الإسلامية فى القرآن الكريم أهم عناصر الفكر الاسلامى فى السياسة ، والاقتصاد ، والحياة الاجتماعية ، وغيرها ، وهكذا.. فكان القرآن قاسما مشتركا ، تلجأ اليه الطوائف الثقافية المتعددة لتجد فيه زادا يغذى النفس غذاء روحيا ، ومئونة تمد العلوم المختلفة بالخير الوفير .

الفقه ومذاهبه :

من مفاخر هذا العصر أنه عاش فيه أئمة الفقه الأربعة وهم أبو حنيفة (١٥٠ هـ) ومالك (١٧٩ هـ) والشافعى (٢٠٤ هـ) وأحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) . وهؤلاء الأئمة هم بلا منازع أكبر أئمة الفقه فى العالم الإسلامى ، ومذاهبهم هى أشهر وأوسع المذاهب انتشارا حتى العهد الحاضر .

مدرسة الرأى ومدرسة الحديث :

وهناك طريقتان فى التشريع تستحقان بعض العناية ، وهما طريقة أهل الرأى وطريقة أهل الحديث ، فالطريقة الأولى تعتمد على استنباط حكم ما من النصوص المأثورة إذا لم يرد لهذا الحكم نص صريح ، وسمى هؤلاء بأهل الرأى لإتقانهم معرفة الحلال والحرام وقدرتهم على استخراج المعانى من النصوص لبناء الأحكام ، ودقة نظرهم فى النصوص ، وكثرة

---

(١) كتاب الحيوان جـ ٤ ص ٣٩ — ٤٠ ، وانظر كذلك الكامل المبرد جـ ٢ ص ٢٩ .

(٢) انظر تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٤١ .

تفريعهم عليها • وأما طريقة أهل الحديث فهى التمسك بالحديث والعمل بالنص وحده ، فهم يريدون أن يرجعوا الفقه كله الى الرسول ويرفضون الأخذ بالرأى (١) •

وقد اتجه زعماء مدرسة العراق الى الأخذ بالرأى لقلة الأحاديث المعتمدة عندهم ، ولخوفهم أن يكون الحديث موضوعاً ، مما جعلهم يتهيبون الحديث ، ويستسهلون الرأى الذى يعتمد على الفكر والمنطق ، وعلى نصوص القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه •

أما أهل المدينة موطن الرسول فقد كثرت عندهم الأحاديث لكثرة من يحفظها هناك ، فأغنتهم الأحاديث عن استعمال الرأى والقياس ، وكانوا يرون فى الاعتماد على هذه الأحاديث منجاة لهم من الزلل ، ومن أجل هذا كان الواحد منهم يحيل السائل الى سواه من العلماء لعله يجد عند هذا أو ذاك حديثاً يفتى به ، وبينما كان أهل المدينة يتحرزون هكذا من استعمال الرأى كان أهل العراق لا يكتفون بالاجتهاد فى المسائل التى يَسْتَفْتَوْن فيها ، بل كانوا يفترضون الفروض ليبحثوا ويجتهدوا ، كافتراضهم أن يطلق رجل امرأته نصف تطليقه ، أو يحلف بالطلاق أن زوجته أجمل من القمر ، وهكذا مما يدل على سعة الهوة بين المدرستين • غير أن هذه الهوة لم تستمر طويلا ، إذ أن الرحلات لتلقى العلم قاربت بين وجهتى النظر • فأخذ المدنيون معهم الحديث الى العراق ، كما أخذ العراقيون معهم فتاواهم وآراءهم الى المدينة ، ثم رحل عدد من كبار الأئمة كمحمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة ، الذى رحل الى المدينة وقرأ موطأ مالك ، وكالشافعى الذى رحل الى العراق والى المدينة فنال من هذه ، ومن تلك •

---

(١) على حسن عبد القادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ٢٠٥ — ٢٠٦ •

ليعوضها مـا فقدته ، وبهـذا يصير أنانيا مُبغِضا غيره ، كمـا تؤدى به هـذه الظروف فى الغالب الى أن يكون عصبيا ثوريا ، ثم إن حرمان الطفل مَن يحميه ويقيه ، يجعله يحس بأنه مهدَّد ، عرْضةٌ لعدوان الآخرين ، ومن هنـا ينظر للعالم نظرة عدائية وتشب فيه هذه الخصلة فيتصدى للناس ويعاديهم » :

الربيع بن يونس وابنه الفضل فى ضوء الدراسات النفسية :

تلك خلاصة الفكرة التى أوضحها Hadfeild وهى — مع ما سبقها — تضع أيدينا على العلة فى نفس الربيع بن يونس ، هذه العلة التى وَرِثها عنه ابنـه الفضل ، وهاك عن هذا بعض البيان :

لقد كانت طفولة الربيع بائسة حقاً . طفولة تعسة شقية ، فهو كما يقول الأصفهانى [١] نقـلا عن آل أبى فروة : « لقيط ، وُجِد منبوذاً ، فكفله يونس بن أبى فروة » أمـا الجهشيارى فيروى رواية أخرى فى ذلك الموضوع وهى : كان يونس بن أبى فروة شارياً شاطراً بالمدينة [٢] . فعلِق أمةً لقوم بهـا ، فوقع عليهـا ، فجاءت بالربيع واستعْبِد الربيع ، ولم يكن ليونس من الأقرباء من يبتـاع الربيع ، فابتاعه زياد بن عبد الله الحارثى خال أبى العباس السفاح [٣] .

ويتحدث الربيع عن نفسـه فيقول : كنت فى خمسين وصيفا أهدوا للمنصور ، فغرُقناق خدمته ، فصرت الى ياسر صاحب وضوئه أعاونه فى عمله [٤] .

---

(١) الاغانى ١٧ : ١٢١ .
(٢) شاريا : نسبة الى الشراة وهم الخوارج : وشاطرا : نسـبه الى الشطار وهم جمـاعة كانوا يقومون بأعمال السلب السريع .
(٣) الوزراء والكتاب ص ١٢٥ .
(٤) الأغـانى ٦ : ٨٢ .

أبو جعفر الرؤاسى (١) والكسائى (١٨٢ أو ١٨٣ أو ١٨٦ ﻫ كما ذكره ابن خلكان جـ١ : ص ٣٣١ أو١٨٩ ﻫ كما ذكره غيره) والفراء (٢٠٨ ﻫ) ، ولا نزاع أن من يطلع على هذه الأســماء يدرك أننا حتى الآن نعتمد فى الدراسات النحوية على النتاج والأفكار التى ظهرت فى هذا العصر الزاهر .

وكانت مدرســة البصرة تختلف اختلافاً بيّناً عن مدرسة الكوفة ، فالأولى كانت تُعنَى بوضع قواعد أساسية للغة العربية تبعاً لأغلب ما ورد عن العرب ، فإذا ظهر ما يخالف هذا الغالب عدّوه شاذّاً ، فإذا ثبتت صحته قالوا يحفظ ولا يقاس عليه ، وربما ضعّفوا قائله أو خطّئوه ، وقد ترجم ابن خلكان لعيسى بن عمر الثقفى أحد زعماء هذه المدرسة وأول من ألف فى النحو بعد أبى الأسود الدؤلى (٦٧ ﻫ) وتتضح من هذه الترجمة قيمة النتاج العلمى الذى وضع فى هذا العصر ، كما تتضح منها الأسس التى قامت عليها مدرسة البصرة ، قال ابن خلكان (٢) ولعيسى بن عمر كتاب فى النحو سماه الجامع ، يقال إن سيبويه أخذه وبَسَطَه وحشّى عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل البحث والتحشية نُسِبَ إلى سيبويه ، وهو كتاب سيبويه المشهور ، والذى يـدل على صحة هذا القـول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر ولازم الخليل بن أحمد ، سأله الخليل عن مصنفات عيسى ، فقال سيبويه : صنف نيفاً وسبعين مصنفاً فى النحو ، وأن بعض أهل اليسار جمعها ، وأتت عنده عليها آفة ، فذهبت ولم يبق منها فى الوجود سوى كتابين أحدهما اسمه الإكمال ، وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر الجامع وهو هذا الكتاب الذى أشتغل فيه ، وأسألك عن غوامضه ، فأطرق الخليل ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى وأنشد :

---

(١) لم أجد تاريخ وفاته فى بغيــة الوعاة ولا غيره من المراجع التى تمكنت من الحصول عليهـا ، وهو على كل حال أستاذ الكسائى (١٨٢ﻫ) والفراء (٢٠٨) .

(٢) وفيات الاعيان ١ : ٣٩٣ — ٣٩٤ .

ذهب النحــو جميعاً كلــه　　غير ما أحدث عيسى بن عمرْ
ذاك إكمال وهــذا جامــع　　وهما للنــاس شمس وقمر

ويقال إن أبا الأسود الدؤلى لم يضع فى النحو إلا باب الفــاعل والمفعول فقط وأن عيسى بن عمر وضع كتابا على الأكثر (أى تبعاً لغالبية ما ورد عن العرب) وبوّبه وهذبه ، وسمى ما شذّ عن الأكثر لغات ، وكان يطعن على العرب ، ويخطّئ المشاهير منهم مثل النابغة وغيره .

وقد بدأت مدرسة الكوفة متأخرة عن مدرسة البصرة ، بل إنهــا تفرّعت عنها ، ومنشئها أبــو جعفر الرؤاسى ، وقد احتضنها الخلفــاء العباسيون وقربوا زعماءها ، وكان التنافس على أشده فى عهد الرشيد بين سيبويه والكسائى اللذين انتهت إليهمــا رياسة المدرستين فى ذلك الحين ، ويذكر ابن خلكان قصة المناظرة التى حدثت فى مجلس الرشيد بين سيبويه والكسائى والتى زعم الكسائى فيها أن العرب تقول : كنت أظن الزنبور أشدّ لسعاً من النحلة فإذا هو إياها ، فقال سيبويه : بل الصحيح فإذا هو هى ، فتشاجرا طويلا ، واتفقا عــلى مراجعة عربى خــالص ، فاستدعى الأمينُ عربياً وسأله ، فقال كما قال سيبويه . فقال له : نريد أن تقول كما قال الكسائى ووعده بجائزة ، فقال العربى : إن لسانى لا يطاوعنى ، فقرروا أن شخصاً يقول : رأى سيبويه كذا ورأى الكسائى كذا فالصواب مع مَنْ فيهما ؟ فيقول العربى : مع الكسائى . فقــال العربى : هذا يمكن . وعُقِدَ المجلس وسئل العربى فأجاب : مع الكسائى وهو كلام العرب ، فعلم سيبويه أنهم تمالئوا عليه ، وتعصبوا للكسائى فخرج من بغداد (١) .

وكانت الأسس التى راعتها مدرسة الكوفة أيسر كثيراً من تلك التى تمسكت بها مدرسة البصرة ، فقد كان الكوفيون يقبلون كلّ ما نطق بــه

---

(١) وفيات الاعيان ١ : ٣٨٥ — ٣٨٦ .

عربى ، ويتخذونه على أنه اتجاه عربى تجوز محاكاته ويرتبون عليه القواعد ، روى لهم قول الشاعر :

* ياليت عدة حولٍ كلّه رجب *

فأجازوا لذلك أن تؤكّد النكرة بالمعرفة إذا كانت النكرة مؤقتة ، وقاسوا على ذلك جواز قولك ، صمت شهراً كلّه وتهجدت ليلة كلّها ، أما البصريون فطعنوا أولا فى نسبة الشطر الى عربى أصيل ، وثانياً قالوا : إذا صحّت نسبة هذا الشطر الى عربى فهو شاذ لا يقاس عليه (١) ، وهكذا نشأت مسائل خلافية بين البصريين والكوفيين ، جمع ابن الانبارى كثيراً منها فى كتابه « الإنصاف فى مسائل الخلاف » .

هذا وقد كانت الكوفة والبصرة مثلا واضحاً للعصبية البلدية التى حلّت محلّ العصبية القبلية التى كان يدين بها العرب من قبل .

التاريخ ومولده :

كما كان الحديث أباً لعلم التفسير كذلك كان أباً لعلم السيرة ، فقد كان الصحابة والتابعون يروون الأحاديث عن مولد الرسول ، ورضاعته ونشأته ، وشبابه ، وبعثته ، وما عاناه فى مكة ، وكيف استقبل فى المدينة ، وكذلك كانوا يروون الأحاديث المتعلقة بغزواته ، وباستعداده لنشر الإسلام فى خارج جزيرة العرب ، ولما صنّفت الأحاديث وضعت الأحاديث المتعلقة بسيرة الرسول وغزواته تحت عنوان خاص هو « باب المغازى والسير » ولا يزال هذا الباب موجوداً فى أشهر كتب الحديث كالبخارى ومسلم مع بعض الاختلاف فى التسمية . وكان هناك من الصحابة والتابعين من يهتم اهتماما خاصا بهذا النوع من الحديث ، ومن هنا نبتت فكرة استقلال علم السيرة عن الحديث . فلما جاء عصر التدوين فى العصر العباسى الأول ،

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٩٥ — ٢٩٧ .

كانت هذه الفكرة قد قويت ووجدت من ينفذها تنفيذاً علمياً دقيقاً ، وهو محمد بن إسحق (١٥٢ هـ تقريبا) وكتابه فى السيرة أقدم كتاب نعرفه فى هذا الموضوع ، وقد وصلنا هذا الكتاب بعد أن اختصره ابن هشام (٢١٨ هـ) فى كتابه المعروف بسيرة ابن هشام .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعد العدة لنشر الإسلام فى خارج جزيرة العرب عن طريق الكتب والبعوث ، ولكن السياسة السلمية لنشر الإسلام لم تنجح ، واعتدى على بعض المبعوثين بالايذاء والقتل فأعد الرسول العدة للثأر ، ولتقويض القوى الغاشمة التى تقف حائلا بين الدعوة وبين الشعوب المغلوبة على أمرها على حدود جزيرة العرب ، وكان كتاب السيرة قد كتبوا ذلك ضمن ما كتبوه عن سيرة الرسول (١) ولكن روح الرسول صلى الله عليه وسلم صعدت للرفيق الأعلى قبل أن يتم هذا ، فأتمه بعده أبو بكر وعمر ، ومن هنا اتجه كتاب السيرة الى وصل سيرة الرسول بسيرة من جاء بعده من الخلفاء لأنهم قاموا بإكمال ما بدأه ، وأصبح يطلق على هذا النتاج الجديد كلمة « التاريخ » . ومن أشهر من صنفوا فيه فى عصرنا هذا العلامة محمد بن عمر الواقدى (٢٠٧ هـ تقريبا) فقد ألف كتاب التاريخ الكبير الذى اعتمد عليه الطبرى كثيراً حتى حوادث سنة (١٧٩ هـ) أما الكتاب نفسه فلم يصح وروده لنا ، وللواقدى كتاب آخر يعرف بالمغازى وهو بين أيدينا ، وليس هذا هو كل ما وصل لنا من علم الواقدى ، فإن علمه قد جاءنا عن طريق شخص آخر من مؤرخى هذا العصر أيضا وهو كاتبه محمد بن سعد (٢٣٠ هـ) الذى كانت شهرته « كاتب الواقدى » وقد خلف لنا محمد بن سعد كتابه القيم « الطبقات الكبرى » وهو فى ثمانية أجزاء يتحدث فى الجزء الأول والثانى عن سيرة الرسول وفى الأجزاء الستة الباقية عن أخبار الصحابة والتابعين ، ومحمد بن سعد هذا هو أحد شيوخ العلامة البلاذرى (٢٧٩ هـ) .

---

(١) أنظر بعث الرسول لاسامة بن زيد ليثار لوالده فى ابن هشام حـ ٣ ص ٣٦٥ .

٣ — الترجمة من اللغات الأجنبية

كانت النهضة الفكرية عند المسلمين فى هذا العصر (٧٥٠ — ٨٤٨م) تعتمد اعتمادا ملحوظا على نشاط واسع فى الترجمة من السنسكريتية واليونانية ، ففى سنة ٧٦٢ م وضع المنصور حجر الأساس لعاصمته الجديدة (بغداد) وجمع حوله فيها صفوة العلماء من مختلف النواحى ، وشجع على ترجمة كتب العلوم والاداب من اللغات الأخرى الى اللغة العربية ، فاستجاب كثير من الباحثين لهذه الرغبة ، ودفعهم التشجيع الأدبى للإجادة والإكثار ، ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن المقفع (٧٥٧ م) الذى كان مجوسيا ودخل الإسلام ، وأشهر ما ترجمه كتاب (كليلة ودمنة) ، وقد وُضِعَ الأصل بالسنسكريتية ، ثم تُرجِمَ الى الفارسية ، ومنها ترجمه ابن المقفع الى العَرَبية ، وكان المقصود من هذا الكتاب تعلم الآداب بواسطة أقاصيص على ألسنة الحيوانات ، وقد فُقِدَ الأصل السنسكريتى لهذا الكتاب ، كما فُقدت ترجمته الفارسية ، ولم يبق منه إلا أجزاء لاتزال موجودة فى البانشاتانترا (The panchatantra) والمها بهاراتا (The Maha Bharta) وقد حفظته اللغة العربية للفكر الانسانى ، ومنها ترجم هذا الكتاب الى جميع اللغات الأوربية تقريبا والى كثير من اللغات الأخرى .

وهناك رحّالة هندى شديد الشغف بالعلم أدخل الى بغداد كتابا هاما فى علم الفلك اسمه سندهانتا (Sindhanta) ، وساعد فى ترجمته الى اللغة العربية ، وكذلك فعل هذا الرحالة بالنسبة لكتاب آخر فى الرياضيات .

ومن مشاهير المترجمين الطبيب النسطورى جورجيس بن بختيشوع (٧٧١ م) وكان المنصور قد استدعاه من جند يسابور ليكون طبيبه الخاص ، ثم اشتغل بالترجمة ، ومن المترجمين أيضا بختيشوع بن جورجيس (٨٠١ م) وجبريل تلميذ بختيشوع (٨٠٩ م) ، والحجاج ابن يوسف بن مطر (الذى ذاع اسمه بين سنتى ٧٨٦ — ٨٦٣ م) وهو

أول مترجم لكتاب العناصر لإقليدس ، كما أنه من أوائل من ترجموا المجسطى (وكان يحيى بن خالد البرمكى أول من ترجم بعضا من إلياذة هوميروس) وأبو يحيى بن البطريق (المتوفى بين ٧٩٦ ، ٨٠٦) الذى ترجم أكثر كتب أبقراط (٤٣٦ ق م) ، وجالينوس (٢٠٠ م) ، كما قام بترجمة أخرى لكتاب المجسطى لبطليموس والعناصر لإقليدس ، وعلى كل حال فلم يكن بين هذه التراجم التى ظهرت فى هذا الوقت المبكر ترجمة شاملة شافية .

وفى سنة ٨٣٢ م شيد الخليفة المأمون (١) فى بغداد أول مجمع علمى (Academy) ومعه مرصد ومكتبة جامعة وهيئة للترجمة ، ويقول حِتّى (٢) : إن هذا المعهد برهن على أنه أهم مجمع علمى شُيِّد منذ عهد جامعة الاسكندرية التى شُيدت فى النصف الأول من القرن الثالث ق م ، وفى هذا المعهد تُرْجِمَت أمهاتُ الكتب من اللغات المختلفة الى اللغة العربية ، وعين يحيى بن ماسويه (عاش بين سنتى ٧٧٧ ، ٨٥٧ م) لرئاسة هذا المعهد ، وهو طبيب نسطورى وتلميذ لبختيشوع ، يعرف عنه أنه ترجم للرشيد عدداً من المخطوطات الطبية وظل هذا المعهد يواصل نشاطه فى خدمة الترجمة حتى بعد انتهاء العصر العباسى الأول . ويرى بعض الباحثين أن صفوة ما قام به هذا المعهد من جهود علمية تَمَّ إبَّان كانت الرئاسة مسندة الى حنين ابن إسحاق (٨٧٣ م) تلميذ يحيى بن ماسويه وحواريه ، وقد كان حنين ابن إسحاق فى بادىء الأمر تابعا لابن ماسويه الطبيب ، يساعده فى اعداد بعض الأدوية ، ثم كلَّفه أولاد مُوسى بن شاكر بأن يطوف بالبلاد التى تتكلم اليونانية ليجمع منها المخطوطات ذات القيمة العلمية الكبيرة لترجمتها ، ثم أسند له الإشراف على دار الحكمة وعلى هيئة الترجمة فيها ، وأخيراً عين طبيباً للخليفة المتوكل .

---

(١) من المرجح أن بيت الحكمة أسسه هارون الرشيد وان كان قد ازدهر فى عهد المأمون (انظر تاريخ التربية الاسلامية للمؤلف ص ١٥٩ وما بعدها) .

(٢) History of the Arabs p. 305.

وقد استطاع حنين بمساعدة المترجمين فى بيت الحكمة أن ينقل إلى اللغة العربية كتب إقليدس (حوالى ٣٠٠ ق م) وبعضا من كتب جالينوس وأبقراط وأرشميدس وأبولونوس ، وترجم لأفلاطون كتاب الجمهورية وكتاب السياسة وكتاب القوانين ، وترجم المقولات والطبيعيات والخلقيات وهى بعض مؤلفات أرسطو ، وشرح ثامسطيوس (Themistius) على الكتاب الثلاثين فيما وراء الطبيعة ، والعهد القديم وكتابا فى الطب ينسب الى بولس الأجينى ، ونقل إسحاق بن حنين الى اللغة العربية كتبا كثيرة منسوبة الى أفلاطون وأرسطو وفورفوريوس والإسكندر الأفروديسى وغيرهم .

ومن بين صفوة المترجمين الذين كانوا يعملون فى بيت الحكمة حبيش ابن أخت حنين وعيسى بن يحيى وموسى بن خالد (١) .

وبالإضافة الى الكتب السابقة هناك مجموعات من الكتب فى الدراسات المختلفة استوردت الى بيت الحكمة حيث تمت ترجمتها أيضاً ، وتعتبر مجموعات الكتب الفارسية والهندية أقدم ما وجهت اليه عناية المشرفين على بيت الحكمة ، وسبب ذلك أن يحيى بن خالد كان فى عهد الرشيد يشرف على شئون الدولة بوجه عام ، وعلى النهضة الثقافية بوجه خاص ، ويحيى فارسى الأصل والثقافة ، فاهتم بأن ينقل الى اللغة العربية ألواناً من ثقافة الفرس فجلب الى بيت الحكمة مجموعة من الكتب الفارسية ، وعين لترجمتها أشخاصاً لهم سيطرة على اللغة الفارسية ومعرفة باللغة العربية من أمثال أبى سهل الفضل بن نوبخت ، وعلان الشعوبى ، ويقول ابن النديم (٢) عن ابن نوبخت : له نقول من الفارسى الى العربى ، ومعوله فى علمه على كتب الفرس ، وكان للفرس صلة بالهنود ، ومعرفة بالثقافة الهندية ومدى رقيها . ومن أجل هذا نجد يحيى بن خالد

---

(١) هذه الفقرات مقتبسة (من كتاب الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره) الذى ترجمه المؤلف من الانجليزية ص ٤١ — ٤٥ .

(٢) الفهرست ص ٢٧٤ .

يرسل فى طلب أشهر الكتب الهندية ومجموعة من علماء الهنود الممتازين ، ويعين من يترجم هـذه الكتب ويترجم أفكار هؤلاء العلماء الى اللغـة العربية ، وبهذا نقلت فنون من الثروة العلمية ، من الهندية إلى العربية .

ثم جاءت الثروة الضخمة فى أخريات عهد الرشيد ، وخلال عهـد المأمون عن طريق التراث اليونانى . وقد حفلت المراجع العربية بالحديث عن ذلك :

ذكر ابن أبى أصيبعة (١) أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة ، مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ، حين ملكها المسلمون ، ووضعه أميناً على الترجمة .

فهذه مجموعة من الكتب اليونانية جُلبت من أنقرة وعمورية الى بيت الحكمة ، وهناك مجموعة أخرى جلبت من قبرص ، يحدثنا عنها ابن نباته المصرى فيقول (٢) : إن المأمون جعل سهل بن هارون كاتباً على خزانة الحكمة ، وهى كتب الفلاسفة التى نقلت للمـأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لمـا هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليها أحـد ، فجمع صاحبُ هذه الجزيرة بطانته ، وذوى الرأى عنده ، واستشارهم فى حمل الخزانة الى المأمون ، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة ، إلا مطراناً واحداً فإنه قال : الرأى أن تعجل بإنفاذها إليه ، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها . فأرسلها واغتبط بها المأمون .

وهناك مجموعة ثالثة جاءت من القسطنطينية الى خزانة الحكمـة ويحدثنا عنها ابن النديم (٣) فيقول : إن المأمون كانت بينه وبين ملك

---

(١) عيون الانباء ١ : ١٧٥ .
(٢) سرح العيون ص ٦٦ .
(٣) الفهرست صـ ٢٤٣ .

الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر ، وابن البطريق ، وسَلْم صاحب بيت الحكمة ، وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه كان ضمن من أُرسلوا الى بلاد الروم ، وأحضر المأمون أيضا حنين بن اسحاق ، وكان فتىّ السن ، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى اللسان العربى ، واصلاح ما ينقله غيره فامتثل لأمره ٠

جهود المسلمين فى خدمة الثقافة العالمية :

تلك بعض مجموعات الكتب اليونانية التى وردت الى بيت الحكمة ، وقد عيّن لها مشاهير العلماء لترجمتها وكان المترجمون ممن لهم خبرة علمية بالموضوع الذى يترجمون منه ، بالاضافة الى سيطرتهم على اللغتين اليونانية والعربية ، ومن أشهر الذين اشتغلوا بترجمة هذه الكتب يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق وابنه إسحاق ، وحمد بن موسى الخوارزمى ، وسعيد بن هارون ، وعمر الفرّخان وغيرهم ٠

ولم يكن الخلفاء وحدهم هم الذين عنوا بتزويد اللغة العربية بهذا الزاد العقلى الرفيع ، بل إن من أفراد الشعب من أولى الترجمة عناية كبيرة ، وبذل من أجلها مالا كثيراً ، وقد اشتهر من هؤلاء بنو شاكر وهم محمد وأحمد والحسن وقد كان لهم مترجمون لا يفتأون يعملون لهم ، ويلازمون العمل فى مكتباتهم ، ومن هؤلاء المترجمين حبيش بن الحسن وثابت ابن قرة (1) ٠

وكان الخلفاء والأغنياء يبذلون العطايا بسخاء للمترجمين ، مما دفع

---

(١) القفطى ص ٣٠ — ٣١ ، وابن أبى أصيبعة ج ١ ص ١٨٧ ٠

هؤلاء الى مزيد من الجهد ، فقد روى أن المأمون كان يعطى حنين بن إسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى اللغة العربية مِثْلا بمِثْل[١] ٠

ويجدر بنا قبل أن ندع حديث الترجمة أن نوضح حقيقتين هامتين :

أولا — أن المسلمين لم يكونوا مترجمين فقط ، وإنما كانوا مبتكرين ومُبْدِعين فى هذه المواد التى نقلوها من اللغات الأجنبية ، فقد فسروها وأضافوا إليها شروحاً وتعليقات عظيمة القيمة ، جليلة القدر ٠

ثانياً — لعب المسلمون بهذا دوراً كبيراً فى خدمة الثقافة العالمية ، فقد أنقذوا هذه العلوم من فناء محقق ، إذْ تسلموا هذه الكتب فى عصور الظلام ، فبعثوا فيها الحياة ، وعن طريق معاهدهم وجامعاتهم وأبحاثهم وصلت هذه الدراسات الى أوربا ، فتُرْجِمت مجموعات كبيرة من اللغة العربية الى اللاتينية ، وقد كان ذلك أساسا لثقافة أوربا الحديثة ، ومن أهم الأسباب التى أدت الى النهضة الأوربية[٢] ٠

ولنسق ما قاله بعض المستشرقين اعترافاً بذلك :

يقول Bulus فى كتابه «The Influence of Islam» [٣] :
إن المسلمين أخذوا كثيراً من علوم البيزنطيين ، والأقباط ، والهنود ، والفرس ، ولكن من الحق أن نؤكد أن المسلمين حين ترجموا هذه العلوم الى لغتهم زادوا عليها وحوّروا فيها ، وصبغوها صبغة جديدة ، حتى أصبحت علومهم هم ، وسارع العرب حين تيسرت لهم هذه المواد

---

(١) ابن ابى اصيبعة جـ ١ ص ١٨٧ ٠

(٢) اقرأ تفاصيل ذلك فى كتاب الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره ص ٧٩، ٨٥ ، ١٠٨ ، ١٣٨ ، ١٧١ الذى ترجمه المؤلف عن الانجليزية .

(٣) See Chapter XI.

الى ترجمتهـا دون إضاعة وقت ، فترجموا الى لغتهم من الهندية مـا يعرف الآن بالأرقام العربية ، كمـا ترجموا الحساب بمـا فى ذلك الكسور العشرية ، أمـا الجبر فاذا لم نقل إنه من اختراعهم فمن الواجب أن نعترف بجهدهم فى ترقيتـه والتطور به ، ونحن (يقصـد الأوربيين) مدينون للعرب بمـا وصلنا له فى هـذه العلوم الرياضية من نتـائج ، أمـا طلاب مدارسنا فقـد كانوا — فى دراستهم لمـادة الجبر — يعتمدون اعتمـادا جوهريا على كتاب عربى ترجم الى اللاتينية ، وألّف هذا الكتاب فى عهد المأمون عقب التجارب التى قام بهـا محمد بن موسى ، ولم يكن العرب مترجمين أو مهذبين لهـذه العلوم فحسب ، بل إنهم اخترعوا كثيرا وبخاصة فى الفلك ، فاخترعوا الاسطرلاب لقيـاس الارتفاع واستطاعوا أن يتعرفوا وقت ظهور النجوم ذوات الأذناب ، وساعة كسـوف الشمس وخسـوف القمر ، وفى الطب استطاع المسلمون أن يكشـفوا مرض الجدرى الذى لم يعرفه اليونان ، وقد ظهرت براعتهم الفائقة فى كشف صنوف الأدوية وكانوا يعرفون علم الكيمياء معرفة تدعو للاجلال والتقدير ، ونجحـوا بهـذا فى تعرف صـفات أحماض المعادن وغيرها من المعلومات الكيماوية الجوهرية التى نقلت عنهم الى أوربا •

ويقول غوستاف لوبون [1] : وقد وجد العرب فى بلاد فارس وسورية حينمـا استولوا عليهـا ، خزائن من العلوم اليونانية ، وكان بعض هـذه العلوم قد نقل للغـة السريانية ، فأمروا بنقل مـا فى اللغة السريانية الى اللغة العربية ، ثم أمروا بأن ينقل للغـة العربية مـا لم يكن قد نقل من قبل الى اللغـة السريانية • فأخذت بذلك دراسات العلوم والآداب تسير قُدُماً نحو الرقى ، ولم يكتف العرب بمـا نُقِلَ الى لغتهم ، فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغـة اليونانية ليستقوا منهـا علوم اليونان • وقد كانت معـارف اليونان واللاتين القديمة أساسا لثقـافة متعلمى العرب ، ولكن العرب المفطورين على قوة الابداع لم يكتفوا بحـال الطلب ، ولم

---

(١) حضارة العرب ص ٢٦٠ من الترجمة العربية •

يلبثوا أن تحرروا بمـا عرف عنهم من النشـاط ، حتى عاد الإغريق وهم ليسوا أساتذة العرب •

ويقول Philip Hitti (١) إن العهـد العباسى الأول ليزهو باليقظـة الفكرية التى تمت فيـه ، وقد كانت هـذه اليقظة ذات أثر بعيـد فى الحركات الفكرية والثقافية فى العالم ، وكانت تعتمد الى حد بعيـد على الثقافات الأجنبية ، وبخاصة الفارسية والهندية واليونانية وكان المسلم العربى حاذقاً ، ذكياً ، مشغوفا بالاطلاع ، راغباً فى الاستفادة والتزود من هذا الزاد الفكرى الرفيع ، ومن أجل هذا كانت استفادته شاملة ، وانتفاعه واضحاً ، وسرعان مـا سيطر على ثقافة هؤلاء الأقوام ، وأصبح يضـع يده على أهم مؤلفـات أرسطو الفلسفية ، وأحسن شروح الأفلاطونية الحديثة وأكثر مـا كتبه جالينوس فى الطب ، بالإضـافة الى النتـاج الفارسى والهندى • وينبغى الا نبالغ فى فضـل اليونان على المسلمين ، إذ أن الثقـافة اليونانية استمدت قبلا عناصرهـا ومقوماتهـا من معارف مصر القديمـة ، وبابل وفينيقية ، ثم عـادت هـذه المعارف الى العالم الاسلامى ، وهى فى ثوب يونانى ، وعن طريق أسبانيا وصقلية عبرت هذه العلوم الى أوربا مرة أخرى هدية من الشرق الاسلامى إبان العصـور الوسـطى (٢) •

ويقـول Hearanshow (٣) موضحا فضـل العرب على أوربا : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتـال المسلمين ، فاذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة ، لقد بهت الأوربيون أشباه الهمج عندما رأوا حضـارة المسلمين التى رجحت حضارتهم رجحانا لا تصح معـه المقارنة بينهما •

---

(١) History of the Arabs pp. 306-307.

(٢) للتعرف على عناصر الثقافة الاوربية المستمدة من الثقافات العربية يرجـع الى : The Legacy of Islam

(٣) What is History p. 62.

العلاقات الخارجية

توافرت للخلافة الاسلامية فى هـذا العصر عناصر السـيادة والقوة والسلطان ، وكانت كمـا يقول Richard Coke (١) مهيبة الجانب فى الداخل والخارج ، وكانت الدول الأجنبية تخافها وتخطب ودها ، كما عد بعض خلفائها كالرشيد • سيد عصره ، وواحد زمانه ، ومع هذا فقد حدث نوع من الانكماش فى بعض النواحى ، وسنلم فيمـا يلى بأبرز الحركات الخارجية لهـذا العصر :

الأندلس :

ولعل أهم حدث يتصـل بالسياسة الخارجية لهـذا العصر ، هو انفصـال الأندلس عن العالم الاسلامى الذى خضـع لسلطان العباسيين ، وقد كانت بلاد الأندلس غارقة فى بحر من الخلافات القبلية عندمـا أعلن بنو العباس بدء دولتهم سـنة ١٣٢هـ وقابل العباسيون مشكلات جمـة عقب قيـام دولتهم ، فصرفهم ذلك عن إخضـاع الأندلس لسلطانهم ، وظلت الأندلس تعـانى الاضطراب الداخلى بين المضرية واليمنية حتى اسـتطاع عبد الرحمن بن معـاوية بن هشـام بن عبد الملك المعروف بعبد الرحمن الداخل أن يدخل الأندلس سنة ١٣٨هـ وأن يعيد بهـا ملك بنى أميـة •

وقد حـاول أبو جعفر المنصور أن يسـتميل عبد الرحمن الداخل ويضـمه اليه ولكنـه لم يفلح ، ففكر أن يخضعه لسـلطانه بالقـوة ، ولكنه عجز لبعد الشـقة ولانشغال جيوش الخلافة بالمشكلات الداخلية ، فلم يبق إلا أن يستعين عليه بصـلات ود أقامهـا مع ملوك الفرنجة ، وعلى هـذا قامت علاقات طيبة بين خلفاء هـذا العصر ومعاصريهم من ملوك

---

(١) Baghdad : The City of peace p. 92.

الفرنجة ؛ بين المنصــور وبيبين (Pepin) ، وبين المهـدى وشارل مارتل (Charles Martel) ، وبين الرشيد وشارلمان (Charlemagne) ، وكثيراً مـا تبودلت الهدايا والسفراء بين هؤلاء ، وكان بين هدايا الخلفاء الى ملوك الفرنجة كثير من التحف الشرقية الرائعة ، وفيل ، وساعة مائية دقاقة ، حسبها الفرنجة آلة سحرية أول مـا رأوها .

وكان الدافع لهـذه العلاقة فى هذه الفترة سياساً كمـا ذكرنا ، إنه يدل على تغلب الروح السياسية عـلى الروح الدينية عند المسـلمين والمسيحيين جميعاً ، فقد كان خليفة بغداد يكيد بهـذه الصداقة الى أمير الأندلس المسـلم ، ويهدّده بملك الفرنجة ، كمـا كان ملك الفرنجة يقوم بنفس الدور تجـاه إمبراطور الدولة البيزنطية المسيحى .

وقد تتبعنـا تاريخ الأندلس منـذ دخول الاسلام لهـا حتى زوال ملك المسلمين منهـا فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

الأدارسة والأغالبة والطاهرية والزيادية :

وقد سبق أن تحدثنا فى هـذا الكتاب عن قيـام دولتى الأدارسة والأغالبة بشمالى إفريقية فى خلال العصر العباسى الأول ، وذكرنا ظروف نشـأة كل منهما ، وفى الجزء الرابع من هـذه الموسوعة حديث عن المغرب وتونس منذ استقلالهما عن الخلافة العباسية حتى العهد الحاضر ، كمـا تحدثنا من قبل عن قيام الدولة الزيادية والطاهرية فى عهد المأمون ، وفى الجزأين السابع والثامن من هذه الموسوعة ورد حديث مفصل عنهمـا فليطالعه من يشـاء .

بين المسلمين والبيزنطيين :

أمـا الحدود بين المسلمين والبيزنطيين فقـد كانت ميدانا لنشـاط حربى محدود ، ولكنه يكـاد يكون متصـلا ، ومن الملاحظ أن ذلك النشاط لم يكن على نمط نشـاط المسلمين فى العهـد الأمـوى ، إذ كان هدف

الأمويين الزحف والتوسع ، واحتلال القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ليتم بذلك احتلال بلاد الروم كما تم من قبل احتلال الفرس ، أما العباسيون فقد غيروا هذه السياسة ، وجعلوا نشاطهم الحربى عبارة عن غارات الغرض منها إظهار القوة ، وتخويف العدو ، والرد على ما قد يقوم به من نشاط مماثل ، وقبل أن نسير فى وصف هذه الإغارات يجدر بنا أن نسأل : لماذا لم يَسِرْ العباسيون على سياسة الأمويين فى الزحف والتوسع ؟ وما الذى أقعدهم دون العمل على إسقاط القسطنطينية ؟

يقول الدكتور حسن إبراهيم (١) : إن ذلك يرجع الى سببين هامين :

أولهما : مناوأة أهالى بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين • (وأى حركة للزحف تجاه القسطنطينية كان لابد أن تتخذ بلاد الشام قاعدة لها ، فاذا لم تكن هذه القاعدة مأمونة الجانب مؤيدة للجيوش المعسكرة فيها والمتحركة منها ، فان النصر يكون صعبا) (٢) •

ثانيهما : عدم اهتمام العباسيين بانشاء أسطول قوى فى البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل ، وفتح القسطنطينية لا يمكن أن يتم بدون أسطول •

ويمكن أن تضاف لهذين السببين أسباب أخرى لا تقل خطراً عنهما ، فالإمبراطورية الاسلامية كانت قد اتسعت اتساعا عظيما يستلزم جهدا كبيرا للسيطرة عليها ، وتأمين حدودها ، ثم إن العباسيين رأوا أنهم فقدوا الأندلس ، وأن بلاد شمالى افريقية تثير التمرد عليهم من حين الى آخر ، فأدركوا أن من الخير لهم أن يتجهوا الى السيطرة على ما

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى ٢ : ١٨٥ •
(٢) الذى بين القوسين زيادة للايضاح اضيفت لما ذكره الدكتور حسن ابراهيم •

فى أيديهم ، والمحافظة على إمبراطوريتهم ، بدل أن يوجهوا قوتهم الى التوسع فتضعف شوكتهم فى الداخل ، ويعرضهم ذلك الى فقدان أجزاء أخرى من الامبراطورية . هذا الى كثرة الحركات الداخلية التى شغلت العباسيين فى عصرهم الزاهر الذى كان يمكن أن يكون عصر فتوح .

الصوائف والشواتى :

واكتفى العباسيون إذاً بالإغارات ليوهموا الأعداء أنهم أقوياء ، وأنهم دائما على أهبة الزحف عليهم والإيقاع بهم ، وقد اتخذت هذه الاغارات شكلا منتظما ، وكانت تسمى الصوائف والشواتى ، ويحدثنا قدامة بن جعفر عنها حديثا مفصلا فيقول (١) : ومما يعرفه أهل الخبرة من الثغوريين ، (سكان إقليم الثغور وهى المناطق الحربية المواجهة لبلاد الروم) أن تقع الغزاة التى تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار (مايو) ، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم ، وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون ثلاثين يوما وهى بقية أيار وعشرة من حزيران (يونيو) فانهم يجدون الكلأ فى بلد الروم ممكناً ، وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا ، ثم يقفلون فيقيمون الى خمسة وعشرين يوما ، هى بقية حزيران وخمسة من تموز (يوليو) حتى يقوى ويسمن الظهر ، ثم يجتمع الناس لغزو الصائفة ، ثم يغزون لعشرة تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوما ، فأما الشواتى فانهم جميعا يقولون : إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل ، ولكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه مما يكفيه على ظهره (لعدم الكلا حينئذ فى بلاد الروم) وأن يكون ذلك آخر شباط (فبراير) فيقيم الغزاة الى أيام تمضى من آذار (مارس) .

ومن هذا يتضح أن جل نشاطهم الحربى كان فى الصيف ، وأنهم

---

(١) نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، مطبوعة مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة — انظر ص ٢٥٩ .

كانوا يتحرزون أن يقوموا باغارات فى الشتاء إذا لم تَدْعُ الضرورة لذلك ، أمـا الصوائف فمن الممكن أن نقول إنهـا كانت منتظمة ، وقد بـكر العباسيون بالقيام بهـا منـذ نشأة دولتهم ، حتى يوقعوا فى خلد عدوهم ، أن الأحداث الداخلية لم تضعف شوكتهم ، ولم تشغلهم عن الهجوم على الأعداء وأول صائفة قام بهـا العباسيون كانت سنة ١٣٣ هـ وقد قـام بهـا سعيد بن عبد الله (١) ؛ ثم انتظمت بعد ذلك ، فتجـد الطبرى وابن الأثير يقرِنان الحج بالناس بالقيـام بغزو الصائفة ، فيقولان : وحج بالناس فلان وغزا الصائفة فلان ، فاذا لم يقم العباسيون بغزو الصائفة فاننـا نجد ابن الأثير يذكر ذلك معللا له ، فهـو يقول فى حوادث سنة ١٣٧هـ : « ولم يكن للنـاس فى هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ » (٢) ويقول فى حوادث سنة ١٣٩ هـ « . . . . ولم يكن بعد ذلك صائفة فيمـا قيل إلا سنة ١٤٦هـ لاشتغال المنصور بابنى عبد الله ابن الحسن » وهكذا كانت الصائفة حلقة من برنامج العباسيين لا تتخلف لغير ضرورة قاسية ، ومن أهم الصوائف التى حدثت فى عهـد المنصور تلك الصائفة التى مرت الاشارة إليهـا والتى ذكرها ابن الأثير فى حوادث سنة ١٣٩ ، وكانت رداً على غارة شنهـا ملك الروم على ملطية سـنة ١٣٨ ، فهـدم أسوارها ودخلها عنوة ، وقد أعد المنصور رده على هذه الغـارة فى الصائفة التالية ، وجعل قيادتهـا لأخيه العباس بن محمد وعمـه صالح بن على ، وغزا مع صالح أختـاه أم عيسى ولبابة وكانتا نذرتا إن زال ملك بنى أميـة أن تجاهدا فى سبيل الله .

وقد بدأ صالح باصلاح مـا أفسده الروم فى السـور ، ثم دخل فى أرض الروم ، وثأر للمسلمين واستنقذ أسراهم .

وطالما كانت الجيوش الزاحفـة لغزو الصائفة تسـير بقيادة الخليفة

---

(١) ابن الاثير ٥ : ١٦٨ .
(٢) مر ذكره ص ١١١ عند الكلام عن محاولة الثأر لأبى مسلم (انظر ابن الاثير جـ ٥ ص ١٨٠) .

نفســه أو ولى عهده ، وممــا يجب أن يذكر أن الصوائف التى تمت فى عهــد هرون الرشيد كانت من أقسى الصوائف وطأة على البيزنطيين ، وأكثرهــا إذلالا لهم ، وطالما تولاهــا الرشيد بنفسه .

العواصم والثغور :

يقصــد بلفظ العواصم سلسلة الحصــون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية ، لأنهــا تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين ، ولأن المسلمين كانوا يعتصمون بهــا من العدو ، ثم هى للتمييز بينهــا وبين الحصــون الشمالية الخارجية الملاصقة للحدود البيزنطية وهى الحصون التى سميت باقليم الثغور ، لمواجهتها للثغرات أو المنافذ التى فى أرض العدو ، وكان إقليم الثغور ينقسم قسمين : أحدهمــا فى الشمال الشرقى ، ويسمى بالثغور الجزيرية (نســبة الى أرض الجزيرة شمال العراق) ومن حصونهــا الهــامة زبطرة وحصن منصور والحدث ، والقسم الثــانى بالثغور الشــامية فى الجنــوب الغربى حيث تقترب من ســاحل خليج الاسكندرونه ، ومن أهم حصون هذا القسم المصيصة وأذنة وطرسوس(١) .

وقصة إنشاء العواصم والثغور أن الرشيد لم يكتف بنظام الصوائف لإبراز قوته وحمــاية بلاده ، ولكنه اقتدى بالبيزنطيين الذين أقاموا على أطراف بلادهم المجــاورة لبلاد المسلمين خطا دفاعيا وضعوه تحت اشراف رجال حربيين لقبوا بحكــام الثغور ، ولمــا رأى الرشيد أن هــذا الخط الدفاعى يمكن أن يصبح قاعدة للهجوم ، أسس إقليمــا مشابها لإقليم الأطراف البيزنطى على حدود البــلاد الاسلامية الشمالية ، وسماه اقليم العواصم والثغور ، وكان هــذا الاقليم جزءا من أرض قنسرين والجزيرة ، ففصــله هارون الرشيد عنــه ، وعين ابنه المعتصم أميرا له ، وجعــل عاصــمته أنطاكية وامتــد الى حلب ومنبج وشــمل انطاكية ومنطقــة الســاحل(٢) .

---

(١) Le Starange : The land of the Eastern Caliphate p. 128.
والدكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ٧١ — ٧٢ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ١٦ و ٦ : ٢٣٧ .

عهد المهدى والرشيد والمعتصم :

ومع أن نظام الصوائف والشواتى كان يمثل العلاقات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين فى هذه الفترة ، فقد كانت ظروف خاصة تجد أحيانا ، فتجعل الصائفة أو الشاتية زحفاً عميقاً ومعركة حربية حامية ، أوسع مدى ، وأشد عنفاً من الهجوم الخاطف الذى كان طابع الصوائف والشواتى ، وقد لمع اسم هارون الرشيد فى هذه المعارك خلال خلافة أبيه وخلال خلافته هو ، كما لمع فيها اسم المعتصم ابنه ، وقد سجل التاريخ والشعر العربى بعضا من هذه المعارك التى نقدم أمثلة منها :

خليج القسطنطينية :

كانت الصائفة التى شنها المهدى على البيزنطيين سنة ١٦٥هـ قوية جارفة بسبب النشاط العدائى الذى قام به البيزنطيون على الحدود الاسلامية قبيل هذا الزحف ، وقد سير المهدى ابنه الرشيد على رأس هذه الصائفة فى حوالى مائه ألف مقاتل •وكان مع الرشيد القائد العظيم يزيد بن مزيد الشيبانى ، وقد كتب لجيش المسلمين النصر فى زحفه ، واستطاع الرشيد أن يصل بجيشه الى خليج القسطنطينية • فأوقع الرعب فى قلب إيرينى (Irene) أرملة ليو الرابع (Leu IV) وكانت وصية على ابنها ، فطلبت الصلح ، وتم الصلح على جزية قدرها سبعون ألف دينار كل عام ، وأن تقيم لجيش المسلمين الأدلاء والأسواق فى طريق عودتهم ، وقتل وجرح من الروم فى هذه الوقائع ٥٤٫٠٠٠ وكانت مدة الهدنة ثلاث سنوات •

وفى هذه الغزوة يقول مروان بن أبى حفصة مخاطباً الرشيد :

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً
إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٢٢ •

وما رُمْتَهـا حتى أتتك ملوكُهـا
بجزيتها ، والحرب تغلى قدورُهـا

وكان من أثر هـذه الانتصارات التى أحرزها المهدى أن هابه الملوك ، فأرسل إليهم رسـلا يدعوهم الى الطـاعة ، فدخل أكثرهم فى طاعته . ومنهم ملك طبرستان ، وملك السـند ، وملك فرغانة ، وملك سجستان ، وملك الترك ، وبعض ملوك المناطق بالهند والصين (١) .

هرقلة :

وتعرضت بعد ذلك الحيـاة الداخلية فى الدولة البيزنطية الى أحداث جسـام وتصارعت فيهـا قوى ثلاث : قوة الملكة وقوة ابنهـا الأمير الذى تخطى مرحلة الصبا الى مرحلة الرشد ، وقوة ثالثة يقودهـا بعض قواد الجيش الساخطين ، وانهزمت الملكة أولا ، واعتلى الأمير العرش ، باسم قسطنطين السادس ، ولكن المرأة عادت فقبضت على ابنهـا وسملت عينيه واستولت على الحكم ، وفى أثناء حكمها تمتْ معركة خليج القسطنطينية التى تحدثنا عنهـا آنفا ، والتى كانت بقيـادة هرون الرشيد ، وانتهت بهزيمة ساحقة للبيزنطيين وبصلح يدفعون بمقتضاه جزية كبيرة غير أن قوة الجيش ظلت فى طريقها الى أن نجحت ، وأعلن نقفور — الذى قاد حركة الانقلاب — نفسه إمبراطورا على الدولة البيزنطية سنة ١٨٧هـ .

وكان الجيش البيزنطى يعتقد أن الضعف الذى ظهرت به الامبراطورية البيزنطية أمام جيوش المسلمين ، راجع الى أن الدولة تحكمها امرأة ، ولذلك نجد نقفور يبعث الى هرون الرشيد الذى كان قد آلت له خلافة المسلمين بالرسالة التالية :

من نقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب .

أمـا بعد ، فان هذه المرأة وضعتك موضع الشـاه [الملك] . ووضعت نفسها موضع الرُّخ [الشـاه ، والرخ من أدوات الشطرنج] ، وينبغى أن

(١) اليعقوبى ٢ : ٤٧٩ .

تعلم أنى أنا الشـاه ، وأنت الرخ ، فأدّ الى مـا كانت المرأة تؤدى إليـك (١) .

فلمـا قرأ الخليفة هذه الرسالة استفزّه الغضب ، حتى لم يستطيع أحد من جلسائه أن ينظر اليه : ثم دعا بدواة ، وكتَبَ على ظهر الكتـاب :

من عبد الله هرون أمير المؤمنين ، الى نقفور كلب الروم :

أمـا بعد فقد فهمت كتابك ، والجواب مـا تراه لا ما تسـمعه ، والسلام على من اتّبع الهدى (٢) .

وشخص الرشيد من يومه الى أعدائه ومعـه جيش هائل ، وعجزت كل القوى البيزنطية أن توقف ذلك الجيش الزاحف حتى وصـل الى هِرَقْلَة ، وقد غنم فى طريقه وأفْنَى ، كمـا شاءت له رغبته ، وعسكر جيش المسلمين حول هرقلة ، وبدأ يقذف حصونها بحجـارة ملتهبة حتى سقطت ، وقد سجل الشاعر العربى هذه الصورة فى قوله :

هوت هرقلة لمـا أن رأت عجبـاً
جوائمـاً ترتمى بالنفط والنـار

كـأن نيراننـا فى قلب قلعتهم
مصبغات على أرسان قصار (٣)

وأدرك نقفور أن الملكة إيرينى لم تكن سـبب الهزائم التى حلت ببيزنطة ، وإنمـا سببها هو قوة المسـلمين الجارفة ، وإيمانهم بالهدف الذى يحاربون من أجله ، فسألَ الصلح على مالٍ يؤدىَ كمـا كانت إيرينى

(١) صبح الاعشى ١ : ١٩٢ .
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٣) الاغـانى ١٧ : ١٨ .

تفعل من قَبْل ، وقَبِلَ هرون الرشيد ذلك بعد أن أدَّبَه ، ولكن الرجل لم يستطع أن يبرّ بما وعد ، فما إن غادر الرشيد أرض الروم حتى نقض نقفور العهد ، ظانا أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة اليه ، وقد كان النكث شديد الوقع على قادة المسلمين ، حتى أن أحدا منهم لم يستطع نقله للرشيد ، فاحتيل بشاعر من جنده يكنى أبا محمد عبد الله ابن يوسف ، ويقال هو الحجاج بن يوسف التيمى ليقول فى ذلك شعرا وينشده الرشيد ، فقال :

نقض الذى أعطيته نقفور   فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه   غنم أتاك به الإله كبير

فعرف الرشيد بذلك خبر النكث ، وعاد من فوره ، وأثخن فى بلاد الروم ، وفتح هرقلة ، ولم يبرحها حتى أخذ الجزية من نقفور عنه وعن آله ورجاله ، وكان مقدارها ٧٠٫٠٠٠ دينار [١] .

عمورية :

هذه قصة هرقلة ، فلننتقل بعدها الى قصة تحاكيها مجدا وشرفا ، الى قصة عمورية .

كان الامبراطور ميخائيل الثانى معاصرا للمأمون ، وقد مُنِيَ كل منهما بثائر عنيد أشعل نار الفتنة فى الداخل ، وأثار القلاقل فى وجه سيده ، مُنِيَ المأمون ببابك الخرمى ، ومنى ميخائيل بتوماس الصقلبى ، وبابك هو زعيم الخرمية ورئيسها الأكبر ، وكانت هذه الطائفة إحدى طوائف الفرس التى تعيث فى الارض فسادا ، وتخيف السبيل ، وتبيح الحرمات ، وقد سبق الحديث عنها .

وأما توماس الصقلبى فرجل أرمنى الأصل ، قاد الثائرين على

---

(١) الطبرى ١٠ : ٩٩ ، الجهشيارى ٢٠٧ ابن خلدون ٣ : ٥٥٤ .

الامبراطور بسبب الفســاد الذى استشرى فى الدولة ، وسوء الأحوال الدينية والاجتماعية ، وقويت هاتان الثورتان ، واستفحل شأنهما ، إذ أيَّد المأمونُ ثورةَ توماس وأمده بالعون .وفعل ميخائيل وخلفهُ ثيوفيل مثلَ ذلك بالنســبة الى بابك الخرمى ، ولكن ميخائيل استطاع بعد كثير من الجهد أن يقضى على المتمرد عليه قبل أن يتمكن المأمون من الانتصــار على الثائر فى بلاده ، ومات المأمون بعد أن أضعف شوكة بابك ، وأوصى ولى عهده المعتصم أن يجدَّ ليقلم أظفاره ويقضى عليه •

وأعد المعتصم حملة كبيرة بقيــادة قائده التركى الأفشين ، وبعث بهــا لمحاربة هــذا الثائر ، ولمــا ضيق عليه الخناق ، وأحس بابك أن الدنيا ضاقت به ، ارسل الى الامبراطور ثيوفيل بن ميخائيل ، يخبره أن جيوش المسلمين اجتمعت عليه ، ويغريه بالخروج لغزو بلاد المسلمين ويمنّيه بأن الغزو سيكون سهلا ما دامت جيوش المسلمين مشغولة فى حربها معــه ، واستجاب ثيوفيل لنداء بابك ، وكان بذلك يخــدم غرضين ، فهــو يخفف الضغط عن حليفه ، ثم هو يثأر لأمتــه من المسلمين الذين طالما نكلوا به وبقومه ، ولكن المعتصم كان حازماً ، فاحتمل طغيــان البيزنطيين عــلى أرضه دون أن يخفف ضغطه على بابك ، وظل كذلك الى أن انتصر عليه • وشتت شمل جيشه ، ومثَّل به •

أمــا ثيوفيل فكــان قد اتخذ زبطرة مسقط رأس المعتصم هدفــاً لهجومه ، ويحدثنا ابن الأثير (١) أنه قتل من بهــا من الرجال وسبى الذريه والنســاء وأغار كذلك على أهلَ ملطية وغيرهــا من حصــون المسلمين ، ومثّل بمن صــار فى يده من المسلمين ، وسمل عيونهم ، وقطع أنوفهم وآذانهم ، وكان من بين من أسرِ من النســاء امرأة هاشمية كبر عليهــا الضيم والقســوة ، فصاحت : وامعتصاه ، ونقلَ بعض الحاضرين خبر هــذه الصيحة الى المعتصم وقد انتهى من بابك فأجاب : لبيك يا أمــاه •

---

(١) الكامل فى التاريخ ٦ : ١٩٢ •

وسأل المعتصمُ : أىُّ بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل : عمورية ، لم يعرض لهـا أحد منـذ كان الاسلام ، وهى عين النصرانية ، وأشرف عندهم من القسطنطينية ، وهى مسقط رأس ثيوفيل . فتجهز المعتصم جهازا لم يتجهزه خليفة قبله ، وسار بنفسـه ومعه خيرة قواده ورجاله سنة ٢٢٣هـ . ولم تستطيع عمورية أن تقف فى وجه هـذا الجيش الصلد الجبار ، فخرت صريعة ، وثأر المعتصم لمن نكّل بهم من المسلمين والمسلمات ، وأكل اللهب هـذه المدينة فلم يترك منها إلا حطاماً (١) .

وقد خلد أبو تمام قصة هذه الواقعة فى قصيدته التى يقول فيها :

السيف أصدق أنباء من الكتب
فى حدّه الحد بين الجدّ واللعبِ

يا يوم وقعْة عمورية انصرفت
عنكَ انى حفّلاً معسولة الحلب

أبقيتَ جدُّ بنى الاسلام فى صعد
والمشركين ودار الشرك فى وصب

أمٌ لهم ، لو رَجَوْا أن تفتدى جعلوا
فداءهـا كلّ أم بـرة وأب

من عهـد اسكندر أو قبل ذلك قد
شابت نواصى الليالى وهى لم تشب

. . . .

. . . .

لقـد تركت أمـير المؤمنين بهـا
للنـار يوما ذليل الصخر والخشب

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

غادرت فيهم بهيمَ الليل وهو ضحى
يَشُلُّه وسطها صبح من اللهب

إن كان بين ليالى الدهر من رحم
موصولة أو ذمام غير مقتضب

فبين أيامك اللاتى نُصِرتَ بها
وبين أيام بدرٍ أقربُ النسب (١)

---

(١) ديوان أبى تمام ، القصيدة كلها من ص ٧ — ١٢ .

مشاهير وزراء العصر

تقـــديم :

١ — قلق العباسيين يجعلهم يأخذون الناس بالشبهة :

أمدتنا الدراسة السابقة بمادة غزيرة عن العناء الذى منى به العباسيون قبيل إقامة دولتهم ، وبعد أن أقاموهـا ، وعن القلق الذى ظل يساور نفوسهم خليفة بعد خليفة ، من أجل المحافظة على كيان هذه الدولة ، التى كانت تتوالى عليها الهزات والمحن ، وتقوم فى وجه خلفائها المشكلات والمتاعب بين حين وحين ، ففى الشام يوجد للأمويين أنصار وأشياع ، حتى فكر عبد الرحمن الداخل فى إعادة هذه البلاد الى سلطان الأمويين (١) ، وكانت ثورات العلويين تنتشر فى كل مكان ، وفى كل عهد ، ينجح بعضها فيقتطع من جسم الدولة دولة تظل شوكة فى ظهر العباسيين ، ويخفق بعضها بعد أن يرهق الخلفاء ويقض مضاجعهم ، وبين هذا وذاك يهب الخوارج والزنادقة ، والعرب أحيانا ، والفرس أحيانا أخرى لتقويض بنيان الامبراطورية وتحطيم مثلها ، ويقف البيزنطيون بالمرصاد على حدود العباسيين كأنما يترقبون فرصة اضطراب داخلى ليزحفوا على الدولة ويكثروا فيها القتل والأسر والتنكيل . هذا وغيره مما مر ذكره جعل الخلفاء العباسيين يحسون أن دولتهم مهددة بالفناء والزوال ، وأنه ينبغى أن يقتلوا كل من حامت حوله شبهة ، أو من خيف منه المروق ، حتى ينجو المجموع ، وأصبحت المسألة دفاعا عن النفس وعن الدولة ، فقد أحس الخلفاء العباسيون أنهم سيكونون هم ودولتهم وقودا لكل انقلاب يتم ، أو مؤامرة تنتصر .

---

(١) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ٢ : ١٨٥ ، وانظر كذلك ابن الاثير ٩ : ٦٣ عند كلامه عن سبب انتقال الرشيد من بغداد الى الرقة .

٢ — الربيع بن يونس وابنه يدبران المؤامرات :

وقد قلنا من قبل إن القوة لم تكن دائماً هى الوسيلة التى يلجأ إليها الخلفاء العباسيون لمقابلة الانتفاضات والثورات ، بل كثيرا ما لجأ الخلفاء الى سلاح آخر هو سلاح المؤامرات والتدبير السرى عن طريق طعنة فى ظلام ، أو سم زخاف ، واقتبسنا من ابن طباطبا فى وصفه لهذا الاتجاه فى هذا العصر قوله : كانت الدولة العباسية دولة ذات خُدَع ودهاء وغدر ، وكان قسم التحيل والمخادعة أوفر من قسم القوة والشدة .

وطبيعى أن هذا السلاح لم يكن هناك ما يدعو لاستعماله مع الجماهير وعامة الناس ، وإنما كان خاصا للذين تُخشَى عاقبةُ مواجهتهم بالعداء وجهاً لوجه ، ويرتبط هذا السلاح ببعض مشاهير الوزراء الذين عقدنا هذا الفصل للحديث عنهم ، فبعض هؤلاء لم يكتفوا بمنصب الوزارة كما يجب أن يكون ، ولم يقبلوا أن يحتلوا الدرجة الثانية بعد الخلفاء ، بل أرادوا أن يكونوا فى طبقتهم ، أو أرادوا أحياناً أن يكون لهم السبق عليهم ، فأثاروا بذلك حقد الخلفاء ، ولم يكن فى وسع الخلفاء أن يعلنوا عليهم السخط ، فلجأوا الى سلاح الائتمار كما سبق القول .

وأصبح هذا السلاح كبير الأهمية عند الخلفاء ، فتخصص فيه أناس وبرعوا فى إحكامه ، ونالوا شهرة فى التاريخ كمدبِّرين للدسائس والمؤامرات ، وتقربوا للخلفاء بذلك ، وفى مقدمة من لعب هذا الدور فى قصور خلفاء هذا العصر الربيع بن يونس وابنه الفضل .

وسنقص فيما يلى خبر مَنْ لم نتحدث عنهم من قبل من وزراء هذا العصر ، وهم نخبة ذائعة الصيت ، سنقص خبر البرامكة الأعلام الأمجاد ، وخبر الفضل بن سهل الذى تعتبر خلافة المأمون منحة منه ، وخبر سواهم من مشاهير وزراء العصر الذين لعبوا دوراً بالغ الأهمية فى سياسة الدولة ، وسنرى كيف زلّ بعضهم ، أو كيف دبَّر صانعو الدسائس زلات لهم فكانت الضربة القاضية .

أبو أيوب المورياني

ينسب أبو أيوب المورياني إلى قرية تسمى « موريان » وهى من قرى الأهواز ، واسمه سليمان بن مخلد ، وكان خفيفاً ظريفا ، حسن التأتى لما يريد ، أخذ من كل علم طرفاً ، وكان يقول : ليس من شىء إلا وقد نظرت فيه إلا الفقه ، وقد نظرت فى الكيمياء والطب والنجوم والحساب والسحر (١) .

وقد عرفه أبو جعفر قبل قيام الدولة العباسية ، وكان ذلك فى مناسبة وقف فيها أبو أيوب موقف الحامى لأبى جعفر المنصور والمدافع عنه ، فلقد روى أن أبا أيوب كان يكتب لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة والى مروان بن محمد على البصرة ، وكان المنصور ينوب عن سليمان فى بعض الكور ، فاتهمه سليمان بأنه احتجز مالا لنفسه ، فأحضره وقال له : هات المال الذى اختنته . فقال : لا مال عندى ، فدعا له بالسياط ، فقال أبو أيوب : أيها الأمير ، لا تضربه ، فإن الخلافة إن بقيت فى بنى أمية فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف ، وإن صار الملك إلى بنى هاشم لم تكن بلاد الإسلام لك بلاداً ، فلم يقبل منه ، وأخذ يضرب أبا جعفر ، ولكن أباأيوب ألقى نفسه عليه ، ولم يزل يسأل الأمير حتى أمسك عن ضربه ، فكان أبو جعفر يتذكر هذا لأبى أيوب ويشكره عليه (٢) .

فلما قامت الدولة العباسية رأى أبو جعفر أن ينتفع بخبرة المورياني وأن يكافئه على إحسانه إليه ، فاستدعاه الى قصره وأسند له بعض الأعمال . وكانت كفاءة أبى أيوب ، وإقبال أبى جعفر عليه كفيلين أن

---

(١) الجهشيارى ص ٩٧ وابن خلكان ١ : ٢١٦ .

(٢) هذه القصة مضطربة فى المراجع التى بين أيدينا ، وهذا أيسر وادق ما استطعت أن أورده عنها . (انظر الجهشيارى ص ٩٨ وابن خلكان ١ . ٢١٦) .

يرقيا بالرجل ويضمنا له المجد العريض ، وهكذا ترقى أبو أيوب حتى وصل إلى قمة المجد فأسندت له وزارة المنصور ، وضمت اليه الدواوين مع الوزارة ، وغَلَبَ على المنصور غلبة شديدة ، وصرف أهله فى الأعمال ، حتى قالت العامة : إنه سحر أبا جعفر ، واتخذ دهناً يمسح به وجهه إذا أراد الدخول عليه ، وضرب العامة المثل بدهن أبى أيوب ، وبلغ من حب المنصور له أن أم سليمان الطلْحيَّة اتخذت لأبى جعفر مجلساً فى الصيف ، وجعلت فيه الرياحين والثلج وسائر الطيب ، فلما صار إليه أعجب ببَرْده وحسنه ، ولكنه قال لها : ما أُحِسُّ بهذا النعيم . قالت : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال إنه ليس معى أبو أيوب يحدثنى ويؤنسنى ، قالت : يا أمير المؤمنين ، إنما هيأته لسرورك فتبعث إليه فبعث اليه فحضر ، فقال له : يا أبا أيوب لم يطب لى هـذا الموضع ولذته دون أن تكـون معى ، فدعا له أبو أيوب وأقام معه (١) .

وبينما كان أبو أيوب ينزل من نفس المنصور هذه المنزلة بسبب سالفة إحسانه وعظم كفاءته ، كان هناك شخص آخر بادى الطموح يشغل منصباً كبير الخطر فى قصر المنصور ، ذلك هو الربيع بن يونس الذى كان له منصب الحجابة (٢) ، وكان الربيع جليلا نبيلا منفذاً للأمور ، فصيحاً ، كافياً ، حازماً ، عاقلا ، فطنا ، خبيرا بالحساب والأعمال ، حاذقاً بأمور الملك ، بصيراً بما يأتى ويذر (٣) .

وكان الربيع يتطلع الى منصب الوزارة ، ولكن كيف السبيل إليه وشاغله أبو أيوب الموريانى ، وهو من هو خبرةً ومقدرة وحسن صلة بالمنصور ؟ ولكن الربيع كان لا يعرف اليأس ولا يستكين للقنوط ، وكان إذا عزم على أمرٍ اتجه له بكل مواهبه ، وشق له كل السبل حتى يكْتَب

---

(١) الجهشيارى ٩٧ — ٩٨ .
(٢) ابن خلكان ١ : ١٨٥ .
(٣) الفخرى ص ١٥٤ .

له النصر ، ويصل إلى الهدف الذى يبتغيه ، وهو فى سبيل مآربه لا يرحم ولا يكترث بالمثل العليا والقيم الأخلاقية .

وهناك سبب هام مَهَّدَ الطريق للربيع ، وذلّل له الصعاب ، ذلك هو ثقته أن الملوك لا يدوم رضاهم ، وأن المنصور واحد من هؤلاء الملوك لا تؤمن غدرته ، وكان أبو أيوب الموريانى نفسه يدرك ذلك فى المنصور ، رُوِى أنه كان يجلس يوما ، يأمر وينهى وهو فى سلطانه وجلاله ، فأرسل له أبو جعفر يستدعيه ، فامتقع لونه وتغير ، ومضى اليه ثم رجع . قال له بعض أصحابه فى ذلك ، فقال سأضرب لكم مثلا : زعموا أن البازى قال للديك : ما فى الأرض حيوان أقل وفاء منك . قال الديك : وكيف ذلك ؟ قال : أخذك أهلك بيضة فحضنوك ، ثم خرجت على أيديهم ، وأطعموك فى أكفهم ، ونشأت بينهم حتى اذا كبرتَ صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا وصحت وصوتّ ، وأنا أخِذْتُ من الجبال كبيراً فعلّمونى وألفونى ثم يخلّى عنى ، فآخذ صيدى فى الهواء وأجىء به الى صاحبى . فقال له الديك : إنك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم المعدّة للشىّ ، مثل الذى رأيتُ من الديوك لكنتَ أكثر نفورا منى . وعلّق أبو أيوب على هذه القصة بقوله لأصحابه : وأنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ما ترون من تمكن حالى (١) .

وإذاً فليبدأ الربيع كفاحه السرى الصامت ضد أبى أيوب وليتخذ من الدسائس والسعايات سلاحه البتار ، وليَسْتعنْ لتحقيق أمله بأهل الوشاية والسعاية ، ووجد الربيع ضالّته فى أبان بن صدقة ، الذى كان يكتب لأبى أيوب ويشى به . حدث الجهشيارى قال :(٢) كان أبان يكتب لأبى أيوب وكان يشرف على أمره كله ، فحسده مَخْلَد ابن أخى أبى أيوب ، فرفع عليه سعاية الى أبى جعفر بمائة ألف دنيار ، فأمر المنصور

---

(١) ابن خلكان ١ : ٢١٦ .
(٢) الوزراء والكتاب ١١٦ .

بأخذه بها ، فأدخل أبان بيتا وطين عليه بابه ، ثم ندم مخلد على فعله ، ولامه عمه أبو أيوب لـمَّا وقف على ما كان منه ، فقال مخلد : أنا أؤدى عنه عشرة آلاف دينار ، وقال أبو أيوب : أنا أؤدى عنه كذا ، وقال مسعود أخو مخلد : أنا أؤدى عنه كذا ! فتوزعها المورانيون بينهم ، وأخرجوا أباناً من الحبس ، فخرج وفى نفسه ما فيها ، فكان يأتى أبا أيوب ، فيقيم عنده نهاره كله ، فاذا كان الليل انصرف ومعه غلمان أبى أيوب ، فاذا انصرفوا وعلم أنهم قد وصلوا الى منازلهم ، خرج حتى يأتى الربيع ، فيسعى بأبى أيوب ، ويكتب له أخباره وأمواله ، فيوصـِّل الربيع ذلك الى المنصور •

وتغير قلب المنصور على أبى أيوب شيئاً فشيئاً ، واخذ حبه له يضعف رويداً رويداً ، واستمر الربيع فى زحِـفه وسعيه ، حتى لا يدع لأبى جعفر فرصة للتحقيق أو طلب اليقين ، وظل الحال على ذلك الى أن كبا أبـــو أيوب كبوة ، وارتكب خطأً ماليا فاستغل الربيع ذلك أوسع استغلال ، وظل يغرى به المنصور حتى نال مناه ، فأوقع المنصور بوزيره وفتك به ، أما هذه الزلة التى اقترفها المورياني فاليك عنها البيان :

كان المنصور يحب المال وجمعه كما سبق الحديث عن ذلك ، وعرف أفرادُ حاشيته فيه هذا الميل ، فعاونوه عليه ، واتفق أن رخصت أسعار الطعام فى عهده رخصا واضحا ، فأشار أبو أيوب عليه أن يشترى طعام سواد الكوفة وسواد البصرة ، وأن يدَّخره ليباع عند ما ترتفع الأسعار ، طمعا فى الربح ، فأذن المنصور لوزيره فى ذلك ، وجرت الصفقة باسم أبى أيوب الذى كتب على نفسه كتابا بما أخذ من مال المنصور ثمناً للطعام الذى اشتراه ، ولكن المنصور لم يكن يعرف من التجارة الا جانبا واحدا هو جانب الربْح ، ولم يحالف التوفيق هذه الصفقة ، اذ تتابع الرخص ، فطالب المنصور وزيره بالمال ، وأرهقه بالمطالبة ، فتحمل منه الشىء بعد الشىء حتى ساءت حالته المالية دون أن يوفَ ما عليه •

وعنَّت للمورياني فرصة ليسدد للخليفة دَيْنَه ، وليستعيد ولو

مؤقتا مكانته ، وقصة ذلك أن المنصور كان يحب ابناً له يقال له « صالح » ويرق عليه ، وكان قد أقطع أولاده قطائع خلاه ، فكان يريد إقطاعا له ، فقال مرة لأبى أيوب : ماترى حال ابنى ؟ ليس له ضيعة ! فأجاب أبو أيوب • يا أمير المؤمنين بالأهواز مزارع عاطلة ، تحتاج الى ثلثمائة ألف درهم ، تَعْمُر بها ويقوم منها حاصل جيد ، فأطلق له المنصور ثلثمائة ألف درهم ، وأمره بعمارة اقطاع لابنه صالح ، فأخذ أبو أيوب المال ، فأدى منه صدرا من خساراته فى الطعام ، ولم يعمر الضيعة ، وصار فى كل سنة يحمل عشرين ألف درهم ويقول : هذا حاصل ضيعة صالح •

تلك كانت زلة أبى أيوب ، ولست أحاول الدفاع عنه ، ولكنى أسجل اعتقادى ، وهو أن المنصور أيضا ملوم ، لأنه قَبِلَ أن يتاجر فى أقوات الناس ، ولأنه أراد أن يأخذ الربح ولا يتحمل الخسائر فأوقع وزيره فى الشطط •

وعلى أية حال فقد نقل « أبان » أنباء الضيعة الخيالية والتصرف فى الثلثمائة ألف درهم الى الربيع ، فرحب الربيع بهذه الأنباء ، التى أمل أن يكون فيها حتف الوزير ، وهرع الى المنصور فأعلمه ، فسأله المنصور : من أين عرفت هذا ؟ فأجاب : من « أبان بن صدقة » وأبان هو المصدر الخبير الذى لا يتطرق الى أخباره شك ، وحث الربيع الخليفة أن يخرج بنفسه لزيارة هذه البقاع ، وليرى كيف غره الموريانى وخدعه ، واستجاب المنصور لإلحاح الربيع ، وقال لأبى أيوب : إنى أحب أن أزور الأهواز ، وأن أرى ضيعة صالح ، وبدأ رجال الخليفة وعلى رأسهم الربيع يعدون العدة لهذا الشخوص •

وعرف أبو أيوب — بعد فوات الأوان — أن « أبانا » يأتى الربيع كل ليلة فيحدثه بكل شىء ، ويشى بالوزير عنده ، فقال له أبو أيوب : لِمَ تفعل هذا ؟ إن كان مخلد قد رفع عليك سعاية ، فقد خلصتك ، فلماذا تقتلنى ؟ •• فأسفر أبان عن عدائه وقال : إن مخلدا أراد قتلى • فقال له

أبو أيوب : فعلتها ؟ اخرج فلا تقربنى ، فقال أبان : آتى الربيع والله ، ثم لا أعود اليك ، وخرج حتى أتى الربيع ، وكاشف بالعداء أبا أيوب •

ودبر أبو أيوب أمره وأعمل فكره طلبا للنجاة والسلامة ، وكتب الى وكلائه بالأهواز أن يعجلوا بحيلتين :

أولا : أن يغمروا الضيعة بالماء حتى لا يستطيع الخليفة أن يتوغل فيهـــا •

ثانيا : أن يعمّروا حافة هـذه الضيعة بإقامة القرى والمنـازل ، وغرس النخل والأشجار ، وإنبات النبات ، حتى إذا حط الركبُ رحالـه بالقرب منها ، ظن الناظر اليها أنها عامرة مزدهرة •

ونفذ وكلاء أبى أيوب أوامره بكل دقـة وإخلاص ، وسـار ركب المنصور حتى اقترب من الضيعة ، فقال أبو أيوب : هذه هى الضيعة ، ولولا فيضان الماء لأمكنك أن تجول فيها ، فرأى المنصور الماء والخضرة ، فكاد الأمر يشتبه عليه ، لكن الربيع تدارك الأمر فأكد للخليفة أن هذا تمويه ، وحثه على البقاء الى أن ينحسر الماء ليرى الضيعة بنفسه مـن الداخل ، والا كانت رحلته هباء • فقرر المنصور أن يبقى حيث هو حتى تجف الأرض ليجول فيها بنفسه •

وفى أثناء اقامته بالأهواز ، وهى موطن أبى أيوب الموريانى عنّت فرصة أخرى للربيع ليثير سخط الخليفة على الوزير ، وحكاية ذلك أن المنصور اشتهى هناك سمكا طريا ، فقال له أبو أيوب يا أمير المؤمنين إنى أهوازى سمكى ، ولنا عجائز يحسن صنعة السمك ، فان رأيت أن تأذن لى فأهيئه لك ؟ فقبل أبو جعفر وأذن له فى اعداده ، فمضى لذلك ، وبعد فترة نهض أبو جعفر عن مجلسه ، ودعا الربيع ليصب عليه الماء ليغسل وجهه ، قال الربيع : فبينما أنا أصب عليه ، إذا رُسل أبى أيوب قد دخلوا بشىء كثير من السلال ، فيها ضروب من خبز البُرّ والرقاق وخبز الأرز ، وصنوف

السمك التى اتخذت ضروبا من الصنعة الحارة والباردة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد علم سليمان ما يريده أمير المؤمنين به ، فهل يأمن أمـــير المؤمنين أن يكون قد دسّ له فى هذا الطعام شـــيئا ؟ فجزع المنصور ، ودعا بطعام غيره فأكل منه (١) .

وهكذا نجح الربيع فى أن يَبْلُغ بالعلاقة بين المنصور ووزيره هذا الوضع ، فأصبح الخليفة يخشى ان يَسمّه الوزير ، ولانزاع أنه لا يمكن أن تستقيم علاقة بين الاثنين بعد هذا ، ثم وصلت العلاقة الى أبعد درجات السوء عندما جفت الأرض ، فوجد المنصور أنها عامرة الظاهر جدبة فى الداخل فلم يقل شيئا ، وعاد الى بغداد وقد أضمر أمراً .

وفى بغداد استدعى المنصور أبا أيوب وقال له : يا خُوزى (٢) ، أكنت آمناً أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك ، فيكون جزاؤك فى العاجل إراقة دمك ، واستباحة نعمتك ، وفى الآجل حلول دار الفاسقين ، ومأوى الظالمين الناكثين ؟ .. فقال : يا أمير المؤمنين ، إن للتهم فلتات ترجع بالندم ، ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل السياسة ، وشرف القرابة ، فأقِلْنى ، قال : لا يسعنى مع عظيم جرمك ، وجليل ذنبك ، إقالتك ، ولا العفو عنك ، وحبسه وحبس أخـــاه وبنى أخيه ، وطولبوا بالأمـــوال ، وعُذّبوا وضيق عليهم ، ثم أمر المنصور بأبى أيوب فقتل ، قال صالح بن سليمان : سمعت المنصور عقيب ذلك يتحدث أن ملكا من الملوك كان يساير وزيرا له فضربتْ دابةُ الوزير رِجْلَ الملك ، فغضب ، وأمر بقطع رجل الوزير ، فقطعت ، ثم ندم فأمر بمعالجته حتى جف موضع القطع ، ثم قال الملك لنفسه : هذا لا يحبنى أبدا وقد قطعت رجله ، فقتله ، ثم قال : وأهل هذا الوزير لا يحبوننى أبدا وقد قتلته فقتلهم جميعا .

---

(١) لقد أكل رجال الخليفة من هذا الطعام الشهى ، ولم يجدوا فيـــه شيئا يضر .

(٢) نسبة الى خوزستان ومنها ابو ايوب .

قال صالح بن سليمان فعلمت أنه سيفعل ذلك فى أهل الموريانى ففعله وقتلهم جميعا ، وما عدا ظنى .

وقد قال أبو حبيبات الشاعر الكوفى فى ذلك .

قد وجدنا الملوك تحسد من أع   طته طوعا أزمة التدبير
فإذا مارأوا له النهى والأمر   أتوه من بأسهم بنكير
شرب الكأس بعد «حفص» «سليما   ن» ، ودارت عليه كف المدير(١)
أسوأ العالمين حالا لديهم   من تسمى بكاتب أو وزير

... وبموت أبى أيوب خلا الجو للربيع بن يونس ، فجنا ثمار دسه وائتماره ، وأسند له منصب الوزارة ، فظل يشغله حتى وفاة المنصور (٢) .

---

(١) المراد بحفص هو حفص بن سليمان (أبو سلمة الخلال) والمراد بسليمان سليمان بن مخلد (أبو أيوب المورياني) .

(٢) وردت قصة هذه المؤامرة مبعثرة وغير مرتبة فى كثير من المراجع ؛ وما سقناه هنا خلاصة ما ورد فى هذه المراجع مع تقديم وتأخير وتصرف ، ويمكن الرجوع اليها فى الجهشيارى ٩٧ — ٩٨ ، ١٠٢ — ١٠٣ — ١١٥ — ١١٦ ، ١١٧ — ١١٩. ١٢٠ — ١٢٣ وفى الفخرى ١٥٢ — ١٥٣ وابن خلكان ١ : ٢١٥ — ٢١٦ .

أبو عبيد الله معاوية بن يسار

يقول ابن طباطبا (١) إن أبهة الوزارة ظهرت فى عهد المهدى بسبب كفاءة وزيره أبى عبيد الله معاوية بن يسار ، فانه رتب الدواوين ، وقرر القواعد ، وكان كاتب الدنيا ، وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة وكان يعمل كاتبا للمهدى ونائباً له قبل الخلافة ، ضمه المنصور اليه ، وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدى ، فكان غالباً على أمره ، لا يعصى المهدى له أمرا ، وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ، ويأمره بامتثال ما يشير به ، فلما مات المنصور ، وجلس المهدى على كرسى الخلافة فوض اليه تدبير المملكة ، وسلم اليه الدواوين وكان مقدما فى صناعته ، فاخترع أموراً : منها أنه نقل الخراج الى المقاسمة ، فقد كان السلطان يأخذ عن الأرض خراجا مقرراً ولا يقاسم ، فلما ولى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة ، وهو الذى قرَّر الخراج على النخل والشجر ، وصنَّف كتابا فى الخراج ، ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أول من صنف كتابا فى الخراج ، وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج .

ولنعد إلى الوراء قليلا لنرى ماذا حدث قبيل انتقال الخلافة للمهدى :

فى سنة ١٥٨هـ خرج المنصور حاجاً وأخذ معه وزيره الربيع بن يونس ، وفى الطريق الى مكة عرضت للمنصور علة أجهدته ، ولكنه قاوم ، وسار الركب يحث الخطا ، غير أن المنية فاجأته قبيل دخول مكة فى السادس من ذى الحجة فى نفس العام ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع ، فكتم موته ، ومنع النساءَ وغيرَهن من البكاء عليه ، فلما أصبح الصبح ، ألبس الربيعُ المنصورَ ملابسهَ ، وسنده ، وأجلسه خلف كِلة خفيفة ، يُرى شخصه منها ، ولا يفهَم أمره وحضر وجوهُ بنى هاشم فاتخذوا مجالسهم بحيث يرون الخليفة ، وتقدم الربيع اليه فكأنما يحادثه ، ثم

---

(١) الفخرى ١٥٧ — ١٥٨ .

عاد الربيع اليهم ينقل أمر الخليفة فى تجديد البيعة للمهدى ، ففعلوا ثم أخرجهم الربيع ، وبعد برهة خرج إليهم باكياً ناحباً معلنا موت أبى جعفر المنصور (١) .

هل كان هناك ما يدعو الى هذا ؟ ... ثم أليس للموت حرمة ؟ . وكيف جاز للربيع أن يسخّر جثمان المنصور هذا التسخير ؟ . لقد استخف المهدى واستخف مدبّر أمره أبو عبيد الله معاوية بن يسار بالربيع من أجل هذا التصرف ، وعلّق المهدى عليه بقوله : ما منعته هيبة أمير المؤمنين من هذا الفعل به ؟ (٢) والعجب أن الربيع قام بهذا العمل يرجو من ورائه الحظوة عند المهدى ورجاله ، ولكن المهدى ورجاله سخروا وكرهوا منه هذا التصرف البغيض ، وكان ذلك نقطة التحول فى العلاقات بين الربيع ومعاوية بن يسار .

عاد الربيع من مكة فخورا بمـا فعل ، مغتبطا بمـا قدّم للخليفة الجديد ، ولكن الأخبار كانت سبقته ، وتركت فى نفس المهـدى ووزيره أثراً سيئاً ، فلمـا وصل الربيع بغداد ، حضر ساعة وصوله الى باب أبى عبيد الله ، فقـال له ابنـه الفضل : يا أبى ، تترك أمير المؤمنين ، وتترك أهلك ، وتأتى أبا عبيد الله ؟ . فقـال الربيع : يا بنىّ هو صاحب الرجل والغالب على أمره ، فليس ينبغى لنـا أن نعامله كمـا كنا نعامله من قبل ، فلمـا وصل الى الباب وقف عليه وطال وقوفه الى أن جاءه الإذن ، فهمّ أن يدخل هو وابنـه ، ولكن الحاجب قال له : إنمـا استأذنت لك وحدك يا أبا الفضـل فقـال له الربيع : ارجع فأعلم أبا عبيـد الله أن الفضل معى ، ثم أقبل الربيع على الفضل فقـال : هذا من ذاك (٣) ثم خرج الآذن فأذن لهمـا جميعا ، فدخلا ، ولكن أبا عبيد الله لم يحفل باستقبالهما كمـا كانا يتوقعان ، وجعل يسأل الربيع عن سفره وسـيره وحاله ، والربيع

---

(١) ابن الاثير ٦ : ١٢ .
(٢) الفخرى ١٥١ .
(٣) أى أن هذا التصرف موحى به من أبى عبيد الله .

يتوقع أن يسأله عمـا كان منه من أمر المنصور وتجديده البيعـة للمهدى ، فأعرض أبو عبيد الله عن ذلك ، فذهب الربيع ليبتدئه بذكره ، فقال له أبو عبيد الله : قد بلغنـا نبؤكم فلا حاجة لإعادته ، فاغتـاظ الربيع ثم قـام فخرج ، وقصـد منزله منصرفا ، وفى الطريق أقبل على الفضل فقال له : يا بنى أنت أحمق ، فقـال الفضل : مـا حمقى ؟ قال : إنه يدور برأسك الآن أنه كان ينبغى ألا نجىء ، فاذا جئنا وحجبنا كان ينبغى ألا ننتظر ، فاذا دخلنـا فلم يأبه بنا ، كان علينا أن نرجع ولا نكلمه ، قال الفضل : نعم ، ذلك مـا يدور برأسى ، قال الربيع : ذلك هو الحمق بعينه ، ولم يكن الصواب غير مـا فعلته كله ، ولكن ، والله الذى لا إله إلا هو لأَخْلِقَنَّ جاهى ، ولأُنْفِقَنَّ مالى حتى أبلغ مكروه أبى عبيد الله (١) .

وهكذا يتضح الربيع على حقيقته ، لقـد أراد الزلفى الى المهـدى ووزيره عن طريق إظهـار الحرص على قيـام خلافة المهدى وتجديد البيعـة له ، ولكن مواهبه خانته فأسفَّ وكبا ، وفشـل فى الوصـول الى مأموله عن هـذا الطريق ، فليسلك الطريق الذى لا يفشـل فيه ، وهو طريق الدس والائتمـار ، وليؤكد القسم من أول يوم أن يبذل الجـاه والمـال ليبلغ مكروه الوزير ، ولنتخطَّ مؤقتاً بعد الأحداث الهـامة لنصـل الى حقيقة مروعة تدل على مدى الانحلال فى نفس الربيع ، تلك هى أن الربيع لم يتمكن من بلوغ أمنيته إلا بعد خمس سنوات أى ابتداء من سـنة ١٦٣ ، ومعنى ذلك أن هـذه السنوات الخمس لم تخفف من حدة نفسـه ومن سخطه البالغ على أبى عبيد الله ،مع أنهمـا كانا خلال هـذه السنوات الخمس يعملان فى بلاط واحد ، ولم تذكر لنـا كتب الأدب والتاريخ — فيمـا قرأت — أن خلافا قام بينهمـا فى أثناء هذه الفترة ، بل بالعكس كان هناك تعاون ومجاملة ، ولكن نفس الربيع الحالكة تحب التشفى وتكره أن ترى النعمة على مخلوق ، ولذلك زادتها هـذه المـدة كراهية فى ابن يسار ، وعزما على النيل منه .

---

(١) الجهشيارى ١٥٢ — ١٥٣ والفخرى ١٥٨ .

ولكن كيف الطريق للنيل من أبى عبيد الله ؟ لقد جهد الربيع ليجد منفذا فى أخلاقه ، ولكنه باء بالخيبة ، إذ تؤكد المراجع التى بين أيدينا أن ابن يسار كان الى الكمال أقرب ، فلم يجد الربيع بدًّا من أن يلجأ الى أعداء أبى عبيد الله لعله يجد عندهم العون والنصح ، فيما يهدم الرجل ويقوض مكانه وسعادته ، فاستدعى داهية من أعداء الوزير اسمه القشيرى ، وخلا به وسأله : تعلم ما فعل بك أبو عبيد الله وما فعل بى ، فهل عندك فى أمره حيلة ؟ . . . قال الرجل — والفضل ما شهدت به الأعداء — : أبو عبيد الله ليس بجاهل فى صناعته ، وإنه لأحذق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، لأنه اعف الناس ، حتى لو كانت بنات المهدى فى حجره لكان لهن موضعا ، وليس بمتهم بانحراف عن هذه الدولة ، لأنه ليس يؤتى من ذلك ، وليس بمتهم فى دينه ، لأن عقده وثيق ، ولكن هذا كله يجتمع لك فى ابنه ، لأنه ردىء الطريقة مذموم السيرة ، يرمى بالزندقة ، والقول يسرع اليه ، فانفرجت أسارير الربيع ، وقبل الرجل بين عينيه ، ولاح له وجه الحيلة فى الوزير (١) .

وكان المهدى كما قلنا من قبل شديدا على الزنادقة يعنى بالبحث عنهم ، ويهتم بالفتك بهم ، فدس عليه الربيع من أخبره بزندقة ابن الوزير ، وأكد له ذلك ، فسأل المهدى الوزير عن ابنه ، فأجاب بأنه حفظه القرآن ، وعلمه أمور الدين ، ولكن الربيع يواصل دسه وتحديه بأن الابن زنديق ، وأنه يشجع سواه من الشبان على الزندقة ، وأن هؤلاء يحتمون به وبجاه أبيه ، فجد المهدى فى طلبه حتى جىء به . فسأله المهدى عن شىء من القرآن فلم يعرف ، فقال لأبيه : ألم تخبرنى أن ابنك يحفظ القرآن ؟ . . . قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكنه فارقنى منذ مدة فنسيه ، فقال له الخليفة : قم فتقرب الى الله بدمه . فقام أبو عبيد الله ولكنه ارتعد وتعثر ، فقال العباس بن محمد عم المهدى :

---

(١) الجهشيارى ١٥٣ والفخرى ١٥٩ .

يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تعفى الشيخ من قتل ولده ، ويتولى ذلك غيرُه ، فأمر المهـدى بعض من كان حاضراً بقتله فضربت عنقه (١)

تلك كانت المؤامرة الأولى التى دبّرهـا الربيع ضـد أبى عبيد الله ، وقد كانت ضربة قاسية على الرجل الكهل ، أورثته الذلة والانكسار ، ولكن هـذه المؤامرة لم تصـل بالربيع الى مـا أراد ، لأن أبا عبيد الله ظل يعمل للمهـدى كما كان ، ولم تنقص مكانته قليلا ولا كثيرا ، ومن أجل هـذا تتفتق عبقرية الربيع عن مؤامرة أخرى يضرب بهـا الرجل نفسه ، ويوقع بهـا بين الوزير والخليفة .

قال الجهشيارى (٢) : ولما قَتَلَ المهدى عبدَ الله بن أبى عبيد الله ، قـال الربيع لبعض خدم المهـدى : لك علىّ ثلاثة آلاف دينار ، إن فعلت شيئا لايضرك ، قال له : ومـا هو ؟ . قال : إذا دخل أبو عبيد الله على المهدى فصـار بحضرته ، قبضتَ على سيفه ، ومشيت الى جانبه ، فسينكر ذلك عليك أمير المؤمنين ، فتقول : يا أمير المؤمنين ، قتلت ابنـه بالأمس ، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ومعـه سيفه اليوم ، ففعل الخادم ذلك ، فكان هذا مما أوحش المهدى من أبى عبيد الله .

ويروى ابن طباطبا قصـة مماثلة لهـذه القصة ، هاك نصها (٣) : دخل أبو عبيد الله يوما على المهـدى ليعرض عليه كتبـا قد وردت من الأطراف فتقدم المهـدى بإخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع ، فلم يعرض أبو عبيد الله شيئا من تلك الكتب ، انتظارا لخروج الربيع ، فقال المهدى : يا ربيع اخرج ، فتنحى الربيع قليلا ، فقال المهدى: ألم آمرك بالخروج ؟ . قال : يا أمير المؤمنين ، كيف أخرج وأنت وحدك ، وليس معك سلاح ، وعندك رجل من أهل الشـام يدعى معـاوية ، وقد قتلت

---

(١) المرجعان السابقان .
(٢) الوزراء والكتاب ١٥٤ .
(٣) الفخرى ١٥٩ — ١٦٠ .

بالأمس ولده ، وأوغرت صدره فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ . . فثبت هذا المعنى فى نفس المهدى ، إلا أنه قال : يا ربيع ، إنى أثق بأبى عبيد الله فى كل حال . ولكن الواقع أن المهدى داخله الشك والحذر ، فلم يأمر الربيع بالخروج ، وإنما قال لأبى عبيد الله : اعرض ما تريد فليس دون الربيع سر (١) .

قال الجهشيارى (٢) : ثم صرف المهدى أبا عبيد الله عن وزارته سنة ١٦٣هـ ، واقتصر به على ديوان الرسائل ، ثم عزله عن ديوان الرسائل سنة ١٦٧هـ وقلده الربيع بن يونس . وقال ابن طباطبا (٣) : إن المهدى قال للربيع : إنى أستحى من أبى عبيد الله بسبب قتل ولده ، فأحجبه عنى ، فحجب عنه وانقطع بداره ، واضمحل أمره ، ويضيف ابن طباطبا أنه تهيأ للربيع بذلك ما أراده من إزالة نعمة ابن يسار .

وانطوت بالدس والائتمار صفحة وزير من خيرة الوزراء وأكثرهم كفاءة وأنصعهم تاريخا .

البرامكة

مات الربيع بن يونس أو قتله الهادى ، ولكن مؤامراته ودسائسه لم تتوقف بموته ، لأن الفضل ابنه كان قد حذق هذا الفن ، واستطاع أن يبرهن على أن الولد سر أبيه ، وكان الفضل قد شب فى قصر المنصور ، وانحدر منه الى قصر المهدى ، ورأى أباه يشى ويدبر المؤامرات ، فنهج نهجه ، وسار سيرته ، ومن يشابه أباه فما ظلم ، ولكن الفضل امتاز عن أبيه بشىء ، هو أن الأحداث التى قام بها كانت بعيدة المدى ، قوية الصدى ، قاسية النتائج ، فاذا كان أبوه قد تآمر ضد أبى أيوب الموريانى ،

---

(١) انظر القصة أيضا فى الاغانى ٢١ : ٨٠ .
(٢) الوزراء والكتاب ١٥٦ .
(٣) الفخرى ١٦٠ .

وأبى عبيد الله معــاوية بن يسار ، فانها على كل حال كانت مؤمرات ضد أفراد ، ولم تتسع شهرتهــا ، أمــا مؤامرات الفضل فقد كانت ضــد البرامكة ، وأثارت الخلاف بين الأمين والمأمون ، ذلك الخلاف الذى ذهب ضحيته آلافُ الناس وفيهم الأمين نفســه ، ومثلُ هــذه المؤامرات ، فضــلا عن أنها فتكت بالكثيرين ، اتخذت شهرة واســعة ، حتى ليوشك الانسان أن يدعى أن غالبية المثقفين فى بقــاع الارض يعرفون عنهــا كثيرا أو قليلا ، وبخاصة أولئك الذين لهم صلة بالدراسات الاسلامية .

ونكبة البرامكة موضوع مطروق لجمهرة الكتاب والمؤرخين ، وقد كتبوا فيه كثيرا جدا ، والتمِست العلل والأسباب التى حدتْ بالرشيد الى أن يوقع بهم ، ولذلك أبادر قبل سرد آراء الآخرين فأسائل نفسى : هل من الممكن أن نضيف جديدا الى مــا قيل عن هــذا الموضوع ؟ . . وأجيب بشىء من الثقــة والأمل ، أن هــذا ممكن ، وأن طبيعة الدراسة التى نقوم بعرضها فى هــذا الكتاب توحى لنا بهذا الجديد :

فأولا — جهد المؤرخون والكتاب فى تعرف الأسباب التى دعت الرشيد أن ينكل بالبرامكة ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، وأنا أقول إن هــذا الاختلاف ، وذلك التلمس للعلل ، يجعلنى أعتقد أن البرامكة كانوا أبرياء ، وهــذه البراءة أوقعت المؤرخين فى حيرة ، لأنهم لم يتصوروا أن قســوة كهــذه تنزل بقوم أبرياء بين عشــية وضحاها ، فراحوا هنــا وهنــاك ينقبّون ، ويتسقّطون الأخبار ، ويتلمسون الدوافع ، ولو كشف عنهم لعلموا أن الرشيد نفســه لم يكن يعرف لمــا ارتكب سببا جوهريا ، ومما يؤيد هــذا الاتجاه مــا أورده خلكان (١) : أنه لمــا مات يحيى بن خالد وُجد فى جيبه رقعــة كتب فيهــا بخطه : قد تقــدم الخصم (يقصــد نفســه) والمدّعَى عليه (بقصد الرشيد) فى الأثر ، والقاضى هو الحــكم العدل الذى لا يجور ولا يحتــاج الى بيّنة . فحملت هذه الرقعة الى الرشيد فلمــا قرأها لم يزل يبكى يومه كله ، وبقى أياما يتبين الأسى فى

---

(١) وفيات الاعيان ٣ : ٣٢٥ .

وجهه ، إذ كان يدرك أنه معتد فيمـا أوقع بالبرامكة من تنكيل ، دون داع أو سبب ، ولكن العهد كان يَبْرُز فيه الأخذ بالشـبهة كما سبق القول .

وثانياً — أحب أن أبرز حقيقة مهمة هى أن الذى يستعرض أحداث هـذا العصر ، يدرك أن البرامكة إذا قيسوا بسواهم من أعلام هذه الفترة كانوا بلا شك أعظم حظا وأوفر نصـيبا فى نعيم الحياة ، وإلا فقـل لى بربك : مَنْ مِن وزراء هـذا العهد وكبار رجاله غفل عنـه الزمن مدة كهذه ، وامتد له الجـاه دون تعثر طيلة أكثر من نصف قرن من الزمن ؟ . لقـد ظهر البرامكة مع ظهور الدولة ، وبدأ نجمهم يتألق منـذ سنيهـا الأولى ، ونالوا من بسطة الحياة ونعيم العيش مـا لم ينله سواهم حتى سنة ١٨٧هـ حين أوقع بهم الرشيد ، ماذا نرى اذا قسـنا هؤلاء بأبى سلمة الخلال ، الذى قتل فى نفس العام الذى بدأ فيه النصر ، وبأبى مسلم الخراسانى ، الذى نكب ودم كفاحه من أجل الدولة لا يزال يقطر من سيفه ، وبالفضل بن سهل الذى غُدر به دون أن يجنى أية ثمرة لجهاده الطـويل ؟ . . . ثم إذا قسنا البرامكة بأبى أيوب الموريانى وبمعاوية ابن يسـار ؟

لا نزاع بعد هـذا أن السؤال لا ينبغى أن يكون : لمـا أوقع الرشيد بالبرامكة ؟ بل يجب أن يكون : كيف أفلت البرامكة من السفاح ؟ ونجـوا من سيف المنصور ؟ و لِمَ لَمْ يتُرْمَ أحد منهم بالزندقة فى عهد المهدى ؟ . ولمـاذا غفل عنهم الرشيد سـبعة عشر عاما وهو السريع التغير الحـاد المزاج ؟ . .

وثالثاً — لم يقتل الرشيد من البرامكة إلا جعفر بن يحيى ، وسجن الآخرين ، وهـذا فى تاريخ تلك الحقبة أيسر أنواع التنكيل ، فعهدنا بالإيقـاع أن يقتل مع الرجل أهله وذووه كمـا حدث لأسرة الموريانى .

وإذاً فلماذا برزت نكبة البرامكة وفاقت فى الشـهرة سواهـا من النكبات والمؤامرات ؟ . . أرى أن الجواب هو أن شهرة الرشيد التى

سارت بهـا الركبان ، أخذت معهـا شهرة هـذه النكبة ، ولولا مـا أتيح للرشيد من شهرة عالمية لم تُتَـحْ لسواه ، وصيت ذائع لم يتوافر لغيره، لظلت نكبة البرامكة حدثاً عادياً محدود الانتشار .

***

وقد نال البرامكة من المؤرخين كامل العنـاية والاهتمام ، وقد صورهم ابن طباطبا تصويرا بلغ الغـاية أو تجاوزها فهو يطلق عليهم « الدولة البرمكية » ، ويبتدىء حديثه عنهم بكلمة قصـيرة رائعة ، هاك نصها : اعلم أن هـذه الدولة كانت غرّة فى جبين الدهر ، وتاجا على مفرق العصر ، ضُربت بمكارمها الأمثـال ، وبَذَلَتْ لهـا الدنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر إسعادها ، فكـان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرةً ، والبحار زاخرةً ، والسيول دافعةً ، والغيوث ماطرة ، أسواقُ الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية ، والدنيا فى أيامهم عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة ، هم ملجأ اللهيف ، ومعتصَم الطريد (١) .

وينسَب البرامكة الى جدهم برمك ، وكان برمك هـذا كاهن بيت النـار بمدينة بلخ ، فكان يقوم بالإشراف على هـذا البيت ، كمـا كان قصى وأولاده من بعده يقومون بسدانة الكعبة فى الجاهلية (٢) ، والبرامكة بهـذا ينتمون الى أصـل فارسى عريق ، إذ كان جدهم يقوم بأجل عمل فى دولة الفرس قبل الاسلام .

وخالد بن برمك أول برمكى اتصل بالعباسيين ، وكان فى عسـكر قَحْطَبة بن شبيب الذى سـبق الحديث عنـه ، وكان يتقلد خراج كل مـا افتتحه قحطبة من الكور ، وتقلد الغنائمَ وقسمها بين الجنـد ، فكان يقال : ما من أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه يد ومنّةٌ ، لأنه

---

(١) الفخرى ١٧٢ .

(٢) دكتور حسن ابراهيم ٢ : ٤٩ .

قسط الخراج ، فأحسن فيه الى أهله ، وكان خالد مع قحطبة على سطح من سطوح منازل القرية التى بها عسكرهم ، فرأى خالد الوحش تُقْبِل نحو هذه القرية ، فقال لقحطبة : أيها الأمير قد أُتِينا فمُرْ من ينادى بالسلاح ، فعجب قحطبة منه وسأل : كيف عرفت ذلك ؟ فقال خالد : لا تتشاغل بكلامى ، ومُرْ بالنداء ، ففعل ، وما هى إلا فترة قصيرة حتى ظهر جيش أموى يقوده البطل « ابن ضُبَاره » وانتهت المعركة بهزيمة الأمويين وقتل قائدهم ، وسُئِل خالد : كيف عرفت خبر مقدم جيش الأمويين ٠ ٠ ؟ فأجاب : رأيت الوحش ينفر نحونا فعلمت أن شيئا عظيما أخافه وأذعره ٠ ولما قُتل ابن ضُبَارة أخطأ قحطبة فأرسل رأسا غير رأسه الى أبى مسلم ، ثم عُرِف رأس ابن ضبارة ، فأراد قحطبة أن يوجه به ، فمنعه خالد بن برمك وقال : إن فعلت ذلك أبطلت الأول والثانى (١) ٠

ولما عقدت البيعة لأبى العباس ، وحضر خالد بن برمك لمبايعته ، سأله أبو العباس السفاح : من الرجل ؟ فقال : مولاك خالد بن برمك ، وقص عليه قصته ، وقال : أنا كما قال الكميت بن زيد :

وما لى إلا آلَ أحمدَ شيعةٌ
وما لى إلا مذهبَ الحق مذهبُ

فأعجب أبو العباس بفصاحته وذكائه ، وأقره على ما كان يتقلد من الغنائم ، وجعل اليه بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند ، وكثر فيه حامده وحسن أثره ، وكان سبيل ما يُثبت فى الدواوين أن يُثبت فى صحف ، فكان خالد أول من جعله فى دفاتر (٢) ٠

---

(١) الجهشيارى ٨٧ — ٨٨ بتصرف فقد أورد مسألة الرأس قبل الحديث عن المعركة ٠

(٢) الجهشيارى ص ٨٩ ٠

ولما قُتل أبو سلمة الخلال أصبح خالد وزيرا للسفاح ، ويقال أنه تشاءم من لقب الوزارة فلم يقبله ، وإن أخذ يقوم بأعمال الوزير ، ولم يزل على وزارة السفاح حتى توفى هذا ، وتولى أخوه المنصور ، فأقر خالدا على وزارته ، فبقى سنة وشهورا ، وكان أبو أيوب الموريانى قد غلب على المنصور ، فاحتال على خالد بأن ذُكر للمنصور تغلُّبَ الأكراد على فارس ، وأنه لا يكفيه أمرَها سوى خالد فندبه إليها ، فلما بعد خالد عن الحضرة ، أصبح أبو أيوب وزيرا كما سبق (١) .

ويقول المسعودى (٢) : لم يبلغ مبلغَ خالد بن برمك أحدٌ من ولده فى جَوْدة رأيه ، وبأسه ، وجميع خلاله ، لا يحيى فى رأيه ، ولا الفضل ابن يحيى فى جوده ، ولا جعفر فى كتابته وفصاحته ، ولا محمد فى رأيه وهمته ، ولا موسى فى شجاعته .

قال الجاحظ : وحدثنى ثمامة قال : كان أصحابنا يقولون : « لم يكن يُرى لجليس خالد دار إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمَةً ، أو أدى مهرَها إن كانت حرة ، ولا دابةٌ إلا وخالد حمله عليها » . وكان خالد أول من سَمَّى المستميحين الزُّوَّار ، وكانوا يُسَمَّوْن قبل ذلك السؤَّال ، فقال خالد : أنا أستقبح لهم هذا الاسم وفيهم الأحرار والأشراف (٣) .

أما عن يحيى بن خالد ، فقدكان محظوظا فى بلاط المنصور والمهدى ، وقد تربى الرشيد فى حجره ، ورضع ألبْان زوجته ، وأغدق عليه يحيى حبه وعطفه وحنانه ، ومن أجل هذا كان الرشيد يناديه أباه ، ولما شب الرشيد وضعه المهدى تحت كفالة يحيى ، فأحسن هذا تربيته ، ثم أقره الهادى على وضعه فى أثناء خلافته ، فكان يحيى للرشيد مربيًا

---

(١) ابن خلكان ١ . ١٠٦ .
(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٨٢ .
(٣) الوزراء والكتاب ص ١٥٠ والاغانى ٣ ، ٢٦ .

حفياً وأبا رحيمـا ، وقد استطاع أن يدفع عنه الهـادى حينما أراده هذا أن يخلع نفسـه ليولى ابنه مكانه ، وقد سجنـه الهادى لذلك كمـا سبق القـول (١) .

فلمـا تقلد هارون الخلافة ، دعا يحيى بنَ خالد فقـال له : يا أبت ، أنت أجلستنى هـذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم بمـا ترى ، واستعملْ من شئت ، واعزل من رأيت ، فانى غير ناظر معك فى شىء ، ودفع اليـه خاتمه (٢) ، فنهض يحيى بن خالد بأعبـاء الدولة أتم نهوض ، وسدَّ الثغور ، وتدارك الخَلَلَ ، وجبى الأموال ، وعمرَ الأطراف ، وأظهـر رونق الخلافة ، وتصدى لمهمات المملكة ، وكان كاتبا بليغا لبيبا سديدا ، صائب الآراء ، حسن التدبير ، ضابطا لمـا تحت يده ، قويا على الأمور ، جوادا يبـارى الريح كرما وجودا ، ممدَّحا بكل لسـان ، حليما عفيفا ، وقورا مهيبا ، وفيه يقولُ القائلُ :

لا ترانى مصافحاً كف يحيى   إننى إن فعلتُ ضيعتُ مالى

لو يمس البخيلُ راحةَ يحيى   لسخت نفسه ببذلِ النوال (٣)

وكان يحيى يحظى بعطف الخيزران وإقبالهـا عليه ، وتحبيب ابنهـا الرشيد فيه ، ومن أجل هـذا كان يحيى يعرض عليهـا أمور الدولة ، ويورد ويصدُر عن أمرهـا ، فلما ماتت الخيزران سنة ١٧٣هـ استقل يحيى بالأمر ، وأصبح يورد ويصدر عن رأيه (٤) .

ومن أعمـال يحيى أنه شق نهرا كان يسمى أبا الجنـة ، فازدهرت بسـببه أرض واسعة كانت جرداء ، وأمر باجراء القمح على أهل الحرمين ،

---

(١) ابن خلدون ٣ : ٢٢٣ .
(٢) الجهشيارى ١٧٧ ، وابن الاثير ٤ : ٣٦ .
(٣) الفخرى ١٧٣ — ١٧٤ .
(٤) الجهشيارى ١٧٧ وابن خلدون ٣ : ٢٢٢ .

وتقدم بحمله من مصر إليهم ، وأجــرى الأرزاق على أحفــاد المهاجرين والأنصار ،وعلى أهل الدين والآداب ، واتخذ كتاتيب لليتامى (١) .

وكان ليحيى بن خالد أبنــاء أربعة ، هم الفضــل وجعفر ومحمد وموسى ، وكلهم سادة نجب ، وعباقرة أمجــاد ، وسنذكر عن كل منهم كلمة قصــيرة :

الفضل بن يحيى :

كان الفضل من كرام الدنيــا وأجواد أهل عصره ، وكان قد أرضعته الخيزران أم الرشيد ، وأرضعت أمه زبيدةُ بنتُ منير الخليفة هرون الرشيدَ ، وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

كفى لك فخــراً أن أكرم حــرة
غذتك بثــدىٍ والخليفةَ واحــدِ

لقد زنت يحيى فى المشاهد كلهــا
كما زان يحيى خالداً فى المشاهدِ (٢)

وكان الرشيد يثق فيه ويبجله ، ومن أجل هــذا جعل محمدا ابنه فى حجره ، وأسكنه معــه فى قصره المعروف بالخلد ، وضم اليــه أعماله ودواوينــه (٣) .

وكان الرشيد فى أول الأمر يمنحــه خاتمه ، ثم رأى أن ينقــل الخاتم الى جعفر ، إذ كان الفضــل مترمتا لا يشرب النبيذ ، ولا يميل الى المرح ، فكان ذلك يبــاعد بينه وبين الرشيد ، فقال الرشيد ليحيى ، إنى احتشمت أن أكتب لأخى الفضل ليعطى الخــاتم لجعفر فاكفنيه ، فكتب يحيى الى

(١) الجهشيارى ١٧٧ .
(٢) ابن خلكان ١ : ٤٠٨ — ٤٠٩ والفخرى ١٧٧
(٣) الجهشيارى ص ١٩٣

الفضل يقول : قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك الى شمالك • فكتب اليه الفضل ، قد سمعت مقالة أمير المؤمنين فى أخى ، وأطعت • وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه (١) •

وكان الفضل لا يشرب النبيذ مع شيوعه وكثرة شاربيه فى ذلك الحين ، وأثر عنه قوله فى ذلك : لو علمت أن الماء ينقص مروءتى ما شربته أبداً (٢) •

وفى سنة ١٧٢هـ ظهر يحيى بن عبد الله ببلاد الديلم على ما سلف ذكره ، وقوى أمره ، فشق ذلك على الرشيد ، فأنهض اليه الفضل ، وقد استطاع الفضل بدهائه أن يستنزل يحيى من حصونه بعد أن أمنه ووعده وتوعده ، وقدم به على الرشيد فأكرمه الرشيد ، كما أبرّ الفضل وشكر فعله (٣) •

وفى سنة ١٧٦هـ قلده الرشيد المشرق كله من النهروان الى أقصى بلاد الترك فشخص الى عمله سنة ١٧٨هـ ، وودعه الرشيد والأشراف والوجوه وساروا معه ، فلما وصل الى خراسان ، أزال سيرة الجور ، وبنى المساجد والحياض والربط ، وأحرق دفاتر البقايا ، وزاد الجند ، ووصل الزوار والقواد والكتاب ، فاستقرت الأمور هناك واستقامت (٤) •

وبلغ كرم الفضل الغاية حتى مدحه أحد الشعراء بقوله :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى
ترك الناس كلهم شعراء

---

(١) ابن خلدون ١ : ٤٠٨ — ٤٠٩ •
(٢) الجهشيارى ١٩٤ •
(٣) الجهشيارى ١٩٠ •
(٤) ابن خلدون ١ : ٤٠٩ •

علّم المفحَمين أن ينطقوا الشعـ
ـر رصيناً ، والباخلين السخاءَ (١)

جعفر بن يحيى :

كان جعفر بن يحيى فصيحا لبيبا ، ذكيا فطنا كريما حليما ، وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر ، وجِدِّ أخيه الذي غلب عليه ، فنقل له الخاتم على ما مرّ ذكره ، فصار جعفر متمكنا عند الرشيد ، غالبا على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى ليقال إن الرشيد اتخذ ثوبا فضفاضا ، كان يدخله هو وجعفر جميعا بملابسهما ، وقلّده الرشيد بريد الآفاق ، ودور الضرب والطراز فى جميع الكور (٢) .

وقد وصف ابن مناذر الألفة بين الرشيد وجعفر بقوله :

قد تَقطَع الرحمُ القريب وتَكفُر النّـ
عمى ولا كتقارب القلبين

يُدنى الهوى هذا ويدنى ذا الهوى
فإذا هما نفْس ترى نفسين (٣)

والذى يتطلع الى الفضل بن يحيى وأخيه جعفر يجد أنهما تقاسما حياة الرشيد ومملكته ، ورُدّت لهما جميع الأمور فيها ، فبينما كان المشرق كله للفضل كما سبق ، كان المغرب من الأنبار الى افريقية الى جعفر ، وقد قلّده سنة ١٨٦ بالاضافة الى عمله مع الرشيد ، فأقام جعفر

---

(١) الجهشيارى ١٩٥ .
(٢) الجشيارى ٢٠٤ وابن خلكان ١٠٧ .
(٣) الاغانى ١٧ : ٢٦ .

مع الرشيد وأناب عنـــه من أدار هذه البقاع الشاسعة (١) • ثم كمـا كان محمد الأمين فى حجر الفضل كان عبد الله المأمون فى حجر جعفر ، وقد اهتم به جعفر كل الاهتمـام ؛ وأشار على الرشيد أن يبايع له بالعهد بعد محمد ، وقام بالأمر حتى عقده له وأخذ الأيمـان على بنى هاشم بذلك ، وكتب به الى العمـال (٢) •

وقد امتـاز جعفر بمكانة خاصة لأنه كان سلساً يعرف الجد واللهو ، فكان بذلك أقرب الى نفس الرشيد من أخيـه كما مر ، وقد وصل جعفر الى مكانة من الرشيد أقرب الى الخيـال منها الى الحقيقة ، وممـا يدل على ذلك قصته مع عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس وقد رواهـا الجهشيارى(٣) والأصفهانى(٤) وابن خلكان(٥) وابن طباطبا (٦) • وهاك موجزا لهـا :

قال ابراهيم بن المهـدى : جلس جعفر بن يحيى يوما للشرب ، وأحب الخلوة ، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم ، وجلس معهم ، فكنت فيهم ، وقد هيىء المجلس ولبسنا الثياب المصبّغة ، (وكانوا إذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر) •

ثم إن جعفر بن يحيى تقـدم الى الحاجب ألا يأذن لأحد سـوى رجل من الندماء كان قد تأخر اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسنا نشرب ، ودارت الكئوس وخفقت العيدان ، فجاء فى هذه الساعة عبد الملك بن صالح ابن على الهاشمى ، وكان شديد الوقار والدين والحشمة ، وكان الرشيد قد التمس منـه أن ينادمه ويشرب معـه ، وبذل له على ذلك أموالا جليلة

---

(١) الجهشيارى ١٩٠ •
(٢) المرجع السابق ٢١١
(٣) للوزراء والكتاب ٢١٢ — ٢١٤ •
(٤) الاغانى ٥ : ١١١ — ١١٢ •
(٥) وفيات الاعيان ١ : ١٠٦ •
(٦) الفخرى ١٨١ — ١٨٢ •

فلم يقبل ، فكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه ، فأدخله الحاجب ظانا أنه عبد الملك الذى أذن جعفر بادخاله ، فلما دخل عبد الملك ورآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ، وفطن الى أن القضية قد اشتبهت على الحاجب ، وأدرك عبد الملك الحرج الذى وقع فيه جعفر وأصحابه ، فدعا غلامه وناوله سواده وقلنسوته ، وأقبل على المجلس وسلم وقال : افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم فدنا منه خادم فألبسه حريرة ، وجاء فجلس ودعا بطعام فأكل ، ودعا بنبيذ فأتوه برطل فشرب ، وقال : ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ، ثم باسطنا ومازحنا ، ومازال حتى انبسط جعفر ابن يحيى وزال انقباضه وحياؤه ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : سل حاجتك فما تحيط مقدرتى بمكافأة ما كان منك ، فقال : إن فى قلب أمير المؤمنين سخط ، فتسأله الرضا عنى ، فقا لجعفر : قد رضى عنك أمير المؤمنين . قال وعلى ٤٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، قال جعفر : أنها لعندى حاضرة ، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين فانه أنبل لك وأحب إليك ، قال : وابراهيم ابنى أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة ، قال : قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته ، قال : وأحب أن يخفق لواء على رأسه ، قال قد ولاه مصر . وانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على ذلك ، فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ومحمد بن الحسن وابراهيم ابن عبد الملك وخرج ابراهيم وقد خلع عليه وزوج ، وحملت البدر الى منزل عبد الملك ، وخرج جعفر ، فأشار إلينا باتباعه الى منزله ، فلما صرنا اليه قال : تعلقت قلوبكم بأول الحديث من أمر عبد الملك فأحببتم علم آخره ، فانى لما دخلت على أمير المؤمنين ، ابتدأت القصة كما كانت من أولها الى آخرها بدون تغيير ، فجعل يقول : أحسن والله ، حتى إذا أتممت خبرة قال : ما صنعت به ؟ فأخبرته بما سأله ، فجعل يقول : أحسنت ! أحسنت ! .

ولما هاجت العصبية بالشام سنة ١٨٠ هـ قال الرشيد لجعفر :

إمـا أن تخرج إليهـا أو أخرج أنا فقال له جعفر : أنا أقيك بنفسى ، وشخص لها ، فسكّن الفتنة ، وأعاد الناس الى الأمن والطاعة (١) •

وقد زاد اتصـال جعفر بالرشيد ، وأصبح يدخل فى كل أمر من أموره ، فى الجد واللهـو على السواء ، وقد تخوف يحيى على جعفر من ذلك ، وقال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إنى أكره مداخل جعفر ، ولست آمن أن ترجع العاقبة عليه فى ذلك منك ، فلو أعفيته ، واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكـان أحبّ الىّ ، وآمن عليه عندى ، فطمأنه الرشيد ، وقال له : لا عليك يا أبت (٢) •

وقبل أن ندع يحيى وابنيه هـذين نسوق عنهم القصـة الطريفة التالية : قال أبو القاسم الزهرىّ : كنت أسير مع يحيى بن خالد وهو بين ابنيه الفضل وجعفر ، فاذا بأبى الينْبَغِىّ العباس بن طرخان واقف على الطريق فنادانى : يازهرى ، فاستشرفت له : فقال :

صـحبت البرامك عشرا وِلاً (٣)
وبيتى كـراء وخبـزى شرًا

فسمعه يحيى ، فالتفت الى الفضل وجعفر وقال : أسمعتما ؟ قال الزهرى : فلمـا كان من الغد جاءنى العباس فقلت له : ويحك ! مـا هذا الذى عرضت له نفسك بالأمس ؟ • • فقـال : اسكت ، مـا هو إلا أن انصرفت الى منزلى حتى جاءتنى من قبل الفضل بَدْرة ، ومن قبل جعفر بَدْرة ، ووهب لى كل واحد منهمـا دارا ، وأجرى لى ما يكفينى (٤) •

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٥٠ •
(٢) الجهشيارى ٢٢٤ — ٢٢٥ •
(٣) ولا : متوالية •
(٤) الجهشيارى ٢٠١ — ٢٠٢ •

محمد وموسى :

كان هذان من سادة رجال العصر وأمجـاده ، ولكنهما لم يصـلا الى مركز الفضل وجعفر ، وقد وصفهما ابراهيم الموصلى مع الفضل وجعفر بقوله : أمـا الفضل فيرضيك بفضله ، وأما جعفر فيرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وأما موسى فيفعل أكثر مما يجد (١) .

وفى الإخوة الأربعة يقول الشاعر :

أولاد يحيى بن خالد وهم أربعـة ، سـيد ومتبوع
الخير فيهم إذا سـألت دائم مفرّق فيهم ومجموع (٢)

وكان ليحيى ابن خامس يسمى ابراهيم : توفى وسنه تسـع عشرة سنة ، فلم يكن له دور فى ادارة الدولة ومناصبها ، ومما يتصل به أن يحيى أحضر يومـا المؤدبين والمشرفين الذين ضم اليهم ابنه هـذا وسألهم : مـا حال ابراهيم ؟ فقالوا : بلغ من الأدب كذا ، ونظر فى كذا ، واتخذنا له من الضياع كذا قال : مـا عن هذا سألت ، هل اتخذتم له فى أعنـاق الرجال مِنَناً ؟ فسكتوا ، فقال يحيى : لقد قصرتم ، هو الى هـذا أحوج ، وأمر بحمل ٥٠٠ر٠٠٠ درهم وتفريقها باسمه فى الناس (٣) .

***

هـذا هو يحيى وهؤلاء هم أولاده ، كواكب ذلك العهـد ، وسادة هـذا العصر غير منازعين ، وبينمـا كان هؤلاء يشغلون هـذه المكـانة السامية كان الفضل بن الربيع يدس عليهم . ويشى بهم ، ويؤلب الرشيد وأهله ضدهم ، وقد انتبـه لذلك ابن خلدون (٤) فقـال انه بسبب نبوغ

---

(١) الجهشيارى ١٩٨ .
(٢) المسعودى ٢ : ٢٨٢ .
(٣) الجهشيارى ١٨٠ .
(٤) المقدمة ص ١٢ .

البرامكة وبعد صيتهم ، كشفت لهم وجوه المنافسة والحقد ، ودبّت الى فراشهم الوثير عقارب السعاية ، وقد تولى كِبْر هذا الأمر الفضلُ ابن الربيع وأشياع الفضل بن الربيع ، الذين كانوا يختفون خلف الأسباب التى قيل إنها سبب النكبة فأخذوا يعظمون صغيرها ، ويبرزون خفيّها لدى وليّ الأمر ، واليك عن هذا بعض التفاصيل :

فى أوائل عهد الرشيد كان الأمر كله متروكا للبرامكة ، ولم يكن للفضل بن الربيع سلطان يذكر ، وكانت الخيزران — صاحبةُ الأمر والنهى فى الدولة — تعمل على إبعاده عن القصر ، خوفا منه ومن وشايته وسعايته ، ولما يئس الفضل من استرضاء الخيزران ، أراد أن يتقرب الى الرشيد عن طريق زبيدة ، فوثق بها صلته ، وأظهر لها الخضوع والامتثال ، ولكن زبيدة وزوجها الرشيد كانا قليلى النفوذ فى حياة الخيزران ، ومن ثَمّ لم ينل الفضل شيئًا يذكر من نباهة الذكر الى أن توفيت أم الخليفة سنة ١٧٣هـ • يقول ابن الاثير (١) فى ذلك « إنه لما ماتت الخيزران حمل الرشيد جنازتها ، ودفنها فى مقابر قريش ، ولما فرغ من دفنها أعطى الخاتم للفضل بن الربيع وأخذه من جعفر بن يحيى ، ويضيف : إن الرشيد قال لابن الربيع : وحق المهدى ، إنى كنت لأهم لك بالشيء من التولية وغيرها ، فتمنعنى أمى ، فأطيع أمرها ، فخذ الخاتم من جعفر •

وهكذا بدأ الفضل بن الربيع يزحف ، غير أن البرامكة كانوا أرسخ قدما ، وأقوى مركزا من أن يزحزحهم الفضل بيُسْر ، أو يتغلب عليهم بسهولة ، ومن ثمّ احتاج الى جهد كبير ووقت طويل حتى وصل الى بغيته ، وكان فى حيله وائتماره يتمثل اتجاهات أبيه ويترسم خطاه ، فكما كان الربيع يتخذ أبان بن صدقة كاتب أبى أيوب المورياني عينا له

---

(١) الكامل فى التاريخ ٦ : ٤٠ .

على أبى أيوب ، كذلك اتخذ الفضلُ إسماعيل بن صبيح كاتب البرامكة عينا له عندهم ، وكما كان الربيع يستعين بالقشيرى عدو معاوية بن يسار ، كذلك استعان الفضل بعلى بن عيسى بن ماهان عدو البرامكة ، وأوعز اليه أن يشى لدى الرشيد بموسى بن يحيى بن خالد ، ويتهمه أنه يكاتب أهل خراسان ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة فحبسه الرشيد ثم أطلقه(١) .

وهناك سلاح آخر استعان به الفضل بن الربيع ، ذلك هو زبيدة ، وكان الفضل يعرف شغف الرشيد بها ويدرك مكانتها لديه ، فعرّفها الفضلُ أن من حقها أن تأمر وتنهى فى القصر كما كانت الخيزران تفعل فى حياة زوجها ، وأنه لولا البرامكة الذين سلبوا صاحب السلطة نفوذه لكان لها ما أرادت ، ثم جدّت ظروف ولاية العهد ، ومال يحيى جعفر — كما سبق — الى العهد للمأمون ، وشدّدا الأيْمان فى الكعبة لى الأمين بالوفاء لأخيه ، فاتخذ الفضل من هذا فرصة ، ليغرى زبيدة بهؤلاء ، وليؤكد لها أن هوى البرامكة مع المأمون على الأمين .

وهناك جانب هام من جوانب هذه القضية ، يحدثنا عنه عبد الله ابن سليمان بن وهب فيقول : ان من أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم فى الفضل بن الربيع ، ومن أمثلة هذا التقصير ما روى أن الفضل بن الربيع دخل على يحيى وقد جلس لقضاء حوائج الناس ، فعرض عليه الفضل عشر رقاع ، فتعلل يحيى فى كل رقعة بعلة ولم يوقع فى شىء منها ، فاضطرب الفضل غيظا وخرج وهو يقول :

متى وعسى يثنى الزمانُ عِنانه

بتصريف حال والزمان عثور

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٥٨ .

فتقضى لبانــات وتشفى حسائف
وتحدث من بعد الأمور أمور (١)

وهكذا اندفع الفضــل بن الربيع يهيىء السوء ، فأخذ يستر المحاسن ويظهر القبائح ، كمــا يقول ابن خلكان (٢) ، وكان من نتيجة وشاية الفضل ابن الربيع أن بدت من الرشيد مظاهر فتور تجــاه البرامكة ، وفيمــا يلى صور لذلك الفتور :

فى سنة ١٧٩هـ صرف الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن حجابته ، وقلدها الفضل بن الربيع ، وكانت أهمية هــذا — بالاضافة الى الانحراف عن البرامكة — أن تمكن الفضل بن الربيع من الخليفة ، وأصبح بحكــم منصبه من المقربين اليه المتصلين به وبأهله ، فمكن هذا للفضل ولدسائسه ، وجعل الرشيد أقرب الى الاستجابة (٣) .

وفى نفس السنة عاد الفضل بن يحيى من خراسان ، فاستعمل عليها الرشيدُ منصورَ بن يزيد بن مزيد خال المهـدى . وأخذ الرشيد يصرف الفضل عن الأعمــال شيئا فشيئا ، ثم ظهر من الرشيد فى سنة ١٨٣هـ سخط على الفضل ، فشخص الفضل اليه بالرقّة ، ومعــه أمّه زبيـدة بنت منير ، فرضى عنــه ، وأقر الأمين معه لحضــانته ، ولم يردّ اليــه شيئا من أعمــــاله (٤) .

وكان يحيى بن خالد يدخلَ على الرشيد بغير إذن ، فدخل عليه يوما وعنده جبريل بن بختيشوع الطبيب ، فسلّم ، فرد الرشيد ردا ضعيفا ، ثم أقبل الرشيد على جبريلَ فقــال : أيدخلَ عليك منزلك أحدٌ بدون إذن ؟

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٤١٣ .
(٢) وفيات الاعيان جـ ١ ص ١٠٨ .
(٣) انظر الوزراء والكتاب ص ٢٣٣ .
(٤) الجهشيارى ٢٢٧ وابن الاثير ٦ : ٤٩ .

فقــال : لا • قال فمــا بالنا يـُدخل علينـــا بدون إذن ؟ • • فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، مــا ابتدأت ذلك الســاعة ، ولكن أمير المؤمنين خصنى به ، حتى أنى كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه ، وما علمت أن أمير المؤمنين كره مــا كان يحب ، وإذ قد علمت ، فانى سأكون فى الطبقة التى تجعلنى فيهــا ، فاستحيى هارون ، وقال ما أردت ما تكره (١) •

وحدّث بختيشوع الطبيب قال : دخلت يوما على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد بمدينة الســلام ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر وبينهم وبينــه عرْض دجلة ، قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول ، وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد ، فقــال : جزى الله يحيى بن خالد خيرا ، تصــدى للأمور وأراحنى من النكد ، ووفّر أوقاتى على اللذة • ثم دخلتُ عليه وقد شرع يتغيّر عليهم ، وكان الفضل بن الربيع بين يديه فنظر فرأى الخيول كمــا رآها تلك المرة ، فقال : استبد يحيى بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منهــا إلا اسمها ! قال : فعلمت أنه سينكبهم ، ثم نكبهم عقيب ذلك (٢) •

كان هذا الفتور وذلك الانحراف أول ثمرة يجنيهــا الفضل بن الربيع لوشايته وإفساده مــا بين الرشيد والبرامكة ، ولكن الفضل لم يكتف بذلك ، بل استمر يدس للبرامكة لدى الرشيد ، واستطاع أن يدق عــلى وتر حساس اهيج الرشيد وأثار حفيظته ، فأذاع أن البرامكة ملاحِدة وثنيون يحنّون الى دين أجدادهم ، وأنهــم يؤيدون العلويين سرًّا ، ويَودّون نقل الخلافة اليهم ، ثم قفز بوشايته الى القمة حين أسرّ للرشيد ولخاصته أن البرامكة يعملون للوصول الى الخلافة ، وأوعز الى مغنٍّ أن يغنى للرشيد بهذين البيتين :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعِد　　　وشفت أنفسنا مما نَجِدْ

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٥٨ .
(٢) الجهشيارى ٢٢٥ — ٢٦٢ والفخرى ١٨٤ .

واستبدّت مرةً واحـدةً إنما العاجز من لا يستبد (١)

ودس الفضل كذلك من رفع الى الرشيد مقطوعة شعرية بدون توقيع جاء فيهـا :

قل لأمين الله فى أرضـه	ومن اليـه الحلّ والعقدُ
هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً	مِثْلَك مـا بينكما حدّ
أمرك مردود الى أمـره	وأمـرُه ليس لـه ردّ
وقد بنى الدار التى ما بَنَى الـ	فرس لهـا مِثْلا ولا الهنـد
الدر والياقوت حصـباؤها	وتربهـا العنـبر والنـدّ
ونحن نخشى أنه وارث	مـلكك إن غيّبك اللحـد
ولا يبـاهى العبدُ أربابَه	إلا إذا مـا بطر العبـد

قال ابن خلكان : فلمـا وقف الرشيد عليها أضمر لجعفر السوء (٢) .

وأثمرت جهود الفضل بن الربيع ، ونجح دسه ، فوصل الى الغـاية التى أجهد نفسـه من أجلها ، وتمت نكبة البرامكة ، التى يرويهـا المؤرخون كمـا يلى :

كان الرشيد قد حجّ ومعـه جعفر بن يحيى ، فلمـا عادا من الحج ركبـا السفن من الحيرة الى الأنبار ، ثم صحبه جعفر الى قصر الخلافة بالأنبار وهناك ضمه الرشيد وقال له : لولا أنى أريد الجلوس الليلة مع النسـاء ما فارقتكَ ، فسار جعفر الى منزله وواصل الرشيد الرسلَ اليه بالألطاف الى وجه السحر ، وحينئذ استدعى الرشيد غلامه مسرورا (وقيل إنمـا استدعى غلامه ياسراً) وقال لقد انتخبتك لأمر لم أرض له محمدا ولا عبد الله ، فحقّق ظنى ، واحذر أن تراجعنى فتهلك . قالَ : يا أمير المؤمنين ، لو أمرتنى بقتل نفسى لفعلتُ ، قالَ : اذهب الى جعفر بن يحيى وجئنى برأسه الساعة . فوجم مسرور لا يحير جوابا ، فقال له : مالكَ ؟

(١) أحمد أمين : هرون الرشيد ص ٢٢١ .
(٢) وفيات الاعيان ١ : ١٠٨ .

ويلك !! قال : الأمر عظيم ، وودت أنى مت قبل وقتى هذا . فقال : امض لأمرى . فمضى حتى دخل على جعفر وأبو زكار يغنيه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى ... عليه الموت يطرق أو يغادى
وكل ذخيرة لابد يوماً ... وإن بقيت تصير الى نفاد
ولو فوديت من حدث الليالى ... فديتك بالطريف وبالتلاد

قال جعفر : يا مسرور ، سررتنى بقدومك وسؤتنى بدخولك من غير إذن .

فقال مسرور : الأمر أكبر من ذلك ، أجب أمير المؤمنين الى ما يريد بك ، فقد أمرنى أن آتيه برأسك .

فوقع جعفر على رجليه يقبلهما ، وقال : عاود أمير المؤمنين ، فان الشراب قد حمله على ذلك .

فقال مسرور : ما أظنه شرب اليوم .

قال جعفر : دعنى أدخل دارى وأوصى .

قال مسرور : لا سبيل الى الدخول ، ولكن أوص ما بدا لك .

قال جعفر : لى عليك حق ، ولا تقدر على مكافأتى إلا الساعة .

قال مسرور : تجدنى سميعا إلا فيما يخالف أمر أمير المؤمنين .

قال جعفر : خذنى معك ، وأعلمه أنك نفذت أمره ، فان ندم أخبرته ، وان أصر عدت فنفذت ما يريد .

قال مسرور : أما ذلك فنعم .

وسار به الى الرشيد ، ثم تركه بحيث يسمع ودخل الرشيد فأخبره بقتله ، فصاح الرشيد : وأين رأسه يا ابن اللخناء ؟ . فعاد مسرور الى جعفر فضرب عنقه وحمل الى الخليفة رأسه (١) .

---

(١) الجهشيارى ٢٣٤ والمسعودى ٢ : ٢٨٨ — ٢٨٩ وابن الاثير ٦ : ٥٨ وابن خلكان ١ : ١٠٩ والفخرى ١٨٦ .

ووجّه الرشيدُ مَنْ أحاط بيحيى وولده وجميع أسبابه ، وحوّل الفضل بن يحيى فحُبِسَ في بعض منـازل الرشيد ، وحبس يحيى في منزله وأُخِذَ مـا وجد لهم من مال وضياع وغير ذلك ، وأرسل الرشيد من ليلته الى سائر البلاد في قبض أموالهم ووكلائهم ، ورقيقهم وأسبابهم وكل مـا لهم ، فلمـا أصبح أرسل جيفة جعفر الى بغداد وأمر أن يُنصَب رأسه على جسر ، ويُقطع بدنه قطعتين تنصب كل قطعة على جسر (١) .

ولم يوجد ليحيى بن خالد إلا خمسة آلاف دينار ، وللفضل إلا أربعون ألف درهم ، ووجد لمحمد بن يحيى سبعمائة ألف درهم ، ولم يوجد لموسى شيء ولا لجعفر شيء (٢) .

* * *

تلك كانت نكبة البرامكة ، فمـا الأسباب التى يذكرها المؤرخون لهذه النكبـة ؟ أحب قبل أن أروى هـذه الأسباب أن أذكر أنهـا لو كـانت أسبابا واضحة ترتَّبَتْ عليهـا هذه الكارثة لأوردناها قبل إيراد الحادثة نفسها ، ولكن الواقع أن نكبة البرامكة تمت : ثم أخذ المؤرخون يتلمسون العلل والأسباب لهـا بعد حدوثهـا ، فاعل مـا نسير عليه هنا هو تصوير للواقع كمـا كان . أما هذه الأسباب فاليك عنها البيان :

مسألة العباسة : رُوى أن الرشيد كان شديد التعلق بجعفر ، ولم يكن له صبر عنه ، وكان الرشيد شديد المحبة لأخته العباسة ، وكانت من أعز النساء عليه ، ولا يقـدر على مفارقتها ، فكان إذا غاب أحدهما (جعفر أو العباسة) لا يتم له سرور ، فرأى أن يزَوِّج جعفرَ من العباسة ليحل لهمـا أن يجتمعا ، ولكنـه اشترط على جعفر أن يكون الزواج لهـذا الهدف فقـط ، وحرم عليه الاجتمـاع بالعباسة دون أن يكون هو ثالثهمـا ، فتزوجها على ذلك ، وظل الحال على ذلك مدة دون أن يرفع جعفر فيها عينه ، ودون أن يتبين وجهها ، ثم أرادت العباسة أن تلتقى بزوجهـا وتخلو به ، ولمّحت له بذلك ، فأعرض كـل الاعراض ، فلمـا أعيتهـا

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٥٨ .
(٢) الجهشيارى ٢٤١ .

الحيلة بعثت الى عتّابة أم جعفر ، وطلبت منهـا أن تقدمها الى ابنهـا جعفر كأنهـا جارية من جواريهـا ، فامتنعت عتابة ، لكن العباسة طمأنتها وأنذرتهـا وأغرتها حتى قبلت ، ووعدت ابنهـا بأنها ستقدم اليه جارية لا ككل الجوارى ، فتعجلها جعفر ، وأخذت تسوّف حتى تشوّق جعفر ، فقالت له بعد أن اتفقت مع العباسة : سـأقدمها لك الليلة ، فشرب جعفر بعض النبيـذ ، والتقى بالجارية الفاتنة ، وتم بين الزوج والزوجة اللقاء ، ثم قالت العباسة له : كيف رأيت خديعة بنـات الملوك ؟ . قال : وأى بنات الملوك أنت ؟ . قالت : أنا مولاتك العباسة ، فذعر ، وذهب الى أمه وقال لهـا : بعتنى والله رخيصا ، واشتملت العبـاسة منه على ولد ، وتمارضت حينما ظهر بهـا الحمل ، ثم استأذنت فى الذهاب للحج فذهبت ووضعت هناك ، وعادت بعد أن وكلت أمر طفلها الى غلام وحاضنة (١) .

حكاية يحيى بن عبد الله : سبق لنـا أن تحدثنا عن يحيى بن عبد الله ، وكيف استنزله الفضل وأغراه بالاستسلام بعد أن قوى أمره ببلاد الديلم ، وكتب الرشيد له أمانا ، واستقبله استقبالا حسنا ، ثم وُشِىَ بيحيى بن عبد الله فقبض عليه الرشيد وحبسه عند جعفر ، ولمـا خاف يحيى بن عبد الله أن يفتك الرشيد به اتصـل بجعفر وقال له ، اتق الله فى أمرى ، ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمدا صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما أحدثت حدثا ، ولا آويت محدثا ، فرقّ له جعفر ، وقال : اذهب حيث شئت فى بلاد الله . قال : فكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ ؟ فوجّه معـه من أبلغه مأمنه (٢) .

تلك هى الأسباب المحددة التى يذكرها المؤرخون وهى كمـا يبدو لى أسباب ساذجة يمكن نقدهـا أو نقضها ، ولكن الأسباب الحقيقية كانت

---

(١) المسعودى ٢ : ٨٨٦ — ٢٨٧ وابن الاثير ٦ : ١٧. وابن خلكان ١ : ١٠٧ والفخرى ١٨٥ .

(٢) الاغانى ١٧ : ٤٣ وابن الاثير ٦ : ٥٧ .

خفية ، إنهـا تلك اليد التى تعبث فى الظلام ، وهـذه الأفعى التى تنفث سمومها من وراء ستار ، إنهـا الفضل بن الربيع الذى اختلق هذه الأسباب أو كبّرها وصوّرهـا ذات خطر يمس العِرْض ويهدد التاج .

ففى حكاية العباسة نجد زبيـدة ــ وقد ملأهـا ابن الربيع حنقا على البرامكة ورغبـة فى التخلص منهم ــ تقص على الرشيد خبر اتصـال جعفر بزوجته ، دون أن تذكر له حيلة العباسة على جعفر فى ذلك ، وتضيف زبيـدة أن رائحة هـذه الفضيحة قد شاعت فى جوانب القصر فلم يبق فيه أحد إلا وقد علم بها (١) .

وفى حكاية يحيى بن عبد الله ، عرف الفضل بن الربيع قصـة إخلاء سبيله عن طريق العين التى كانت له فى قصر جعفر ، فنقل الخبر الى الرشيد مع التخويف من يحيى بن عبد الله ، والتحذير من أن يصـل الى بلاد الديلم فتتجمع حوله الجمـوع هناك مرة أخرى ، وقد حدث أن التقى الرشيد وجعفر على المائدة فى هـذا المساء ، فجعل الرشيد يلقّم جعفرا ويحادثه ، ثم سأله عن يحيى ، فأجاب : هو بحاله فى السجن ، فقال : بحيـاتى ؟ ففطن جعفر وقال : لا ، وحياتك وقص عليه أمره ، وقـال : علمت أنه لا مكروه عنده . فقـال الرشيد : نِعْمَ ما فعلت ، ما عدوتَ ما كان فى نفسى . فلمـا قام جعفر نظر الرشيد اليه وقال : قتلنى الله إن لم أقتلك (٢) .

ولعلّ من الخير أن نورد آراء بعض الباحثين القدامى والمحدثين حول الأسباب التى دعت الى نكبة البرامكة ، وقد كان لبعضهم دراسة ذات بال فيهـا ، لم تتقيّد بالأسباب السـاذجة التى سبق ايرادها ، ولنرو فى هـذا المجال آراء ابن خلدون وابن خلكان والخضرى .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٨٧ .
(٢) ابن الأثير ٦ : ١٨ ــ ٥٩ . أما نهاية يحيى فقد ذكرنا من قبل أن الرشيد أعاد القبض عليه وقتله .

يرى ابن خلدون (١) أن نكبة البرامكة كانت ناشئة عن استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم أموال الجبـاية ، حتى كان الرشيد يطلب القليل من المـال فلا يصل اليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور الدولة ، فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيـادة وحجابة وسيف وقلم . . . فعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجـاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقـُصِرَت عليهم الآمال .

ويروى ابن خلكان (٢) أن سعيد بن سالم سئل عن جنـاية البرامكة التى استوجبت غضب الرشيد فقـال : والله مـا كان منهم مـا يوجب بعض عمل الرشيد بهم ، لكن طالت أيامهم ، وكل طويل مملول ، والله لقد استطال الناس أيام عمر بن الخطاب ومـا رأوا مثلهـا عدلا وأمناً ، وسعة أموال وفتوح ، وقد رأى الرشيد مع ذلك أنس النعمـة بهم ، وكثرة حمد الناس لهم ، ورميهم بآمالهم دونه — والملوك تتنافس بأقل من هـذا — فتعنّت عليهم وتجنّى وطلب مساءتهم .

ويقول الأستاذ الخضرى (٣) :

« وأولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم فى تعرف أسباب إيقـاع الرشيد بهم ولم يكن هـذا العمل بِدْعا فى الدولة العباسية فان للمنصور والمهـدى سلفا فى ذلك فقـد أوقع المنصـور بوزيره أبى أيوب الموريانى ، قتله هو وأقاربه واستصفى أموالهم لخيـانة مالية اطلع عليهـا منهم ، وأوقع المهـدى بوزيره أبى عبيد الله معـاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهمـا مع نزاهة الأول وحسن سـيرته ،

---

(١) المقدمة ١١ — ١٢ .
(٢) وفيات الاعيان ١ : ١٠٨ .
(٣) محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ص ١٦١ — ١٦٢ .

ومع مــا كان للمهدى من الولوع بالثانى حتى كـتـب للجمهور أنه اتخذه أخاً فى الله • كل هذا قد سبق به الرشيد •

« ويرى المؤرخ أن هــذا هو طبيعة الملك الاستبدادى ، يحب المـلك فيه أن يكون ذا السلطان الذى لا يشارك ، والحول الذى لا يقــاوم ، واليد الطولى التى لا تضارعها يد ، وكبار الرجال الذين يعينونه ويقومون بتأييد سلطانه كثير منهم لا يقف عند حد فى مكانته ونفوذه ، فلا يزالون يرتفعون حتى تتنبه اليهم أفكــار الخلفاء بمــا يلقيه اليهم الحاسدون والواشون مـن تفوّق سلطانهم على سلطانه ، واشتداد وطأتهم وعلوّ أيديهم ، فتدخل الغيرة فى قلوب أولئك الخلفــاء ، والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال ، فلا تزال معايبهم تتجسم وهفواتهم الصــغيرة تعظم ، وحينئذ يرى هــذا السلطان المستبد ألا مناص من الايقــاع بمن كان سيفـه الذى لا ينبو فى الخطوب اشفاقا من هــذا السيف أن ينقلب عليــه فيقتنص منه مـلـكه الذى دونه كل شىء •

وليس هذا خاصا بالرشيد والبرامكة ، بل كلّ مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه إلا قليلا من الوزراء يعلمون طباع الملوك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد فى قلوب الناس وقلب السلطان ، وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر ، لأنهم يتغلبون على ما فى طبع الانسان من عدم الوقوف عند حــدّ فى العظمة والتكاثر فى الأموال ، فعلى الوزراء وأعوان المستبدين أن يلاحظوا ذلك وهذا ما يجعلنا نلاحظ أن وزراء المستبدين من الرؤســاء يصرّحون دائما بأن نشاطهم تنفيذ لرغبات وأوامر الرئيس ، حتى يحافظوا على رضــــاه •

وأعيد هنا مــا سبق أن أوردته من أنه ليس هناك مــا يدعو لالتماس الأســباب لنكبة البرامكة ، فليست هــذه النكبة بدعاً فى هــذا العصر ، وليست أشق وأقسى ممــا جرى فيه من نكبات ، فلقد كان عصرا طــابعه الأخذ بالشبهة لمــا أوردنا من أسباب واضحة •

وعلى كل حال فقد كتب للفضل النجاح فى سعايته ، وتمت نكبــة

البرامكة ، ولكن العجيب أن الايقاع بهم لم يشف غلة ابن الربيع ، بل ظل يحقد عليهم ويكره ذكرهم ، حدث أبو العتاهية قال : مازال الفضل بن الربيع من أميل الناس الى ، وكنت أدخل عليه فأنشده ، ويستحسن إنشادى ويطلب منى ان أعود اليه للسمر والانس ، وقد ذهبت اليه مرة فأقبل على يستنشدنى ، ويسألنى فأحدثه وهو راض مسرور حتى أنشدته :

ولىّ الشباب فما له من حيلة
وكسا ذؤابتىَ المشيبُ خمارا

أين البرامكة الذين عهدتهم
بالأمس أعظم أهلها أخطارا

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه ، ورأيت الكراهية فى وجهه ، وما رأيت منه خيرا بعد ذلك (١) .

ولما انقضى أمر البرامكة اختلطت الأمور ، وقصد الفضل بن الربيع لخدمة الرشيد فى حضرته ، وأضاع ما وراء ذلك ، فندم الرشيد على ما كان منه فى أمر البرامكة ، وتحسر على ما فرط منه نحوهم ، وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم الى حالهم وكان كثيرا ما يقول : حملونا على نصحائنا وكُفَاتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا الى ما أرادوا منا . لم يغنوا عنا شيئا ، وينشد :

أقلّوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم أو سدّوا المكان الذى سدوا

وذكر الفضل بن مروان : أن أمور البريد بعد البرامكة كانت مهملة ، وأن الرشيد توف وفى الديوان أربعة آلاف خريطة لم تفض (٢) .

وقد حرّم الرشيد على الشعراء أنْ يَرْثوا البرامكة ، وأمر بالمؤاخذة على ذلك (٣) ، ولعل الرشيد أحسّ بأنه لو ترك للشعراء العنان لأسرفوا

(١) الاغانى ٣ : ١٦٤ .
(٢) الجهشيارى ٢٥٨ ، ٢٦٥ وابن خلكان ١ : ١٠٨ .
(٣) الفخرى ١٧٤ .

فى رثائهم وذكر مآثرهم ، ممـا قد يهيج الشعور ضـد الخليفة ، ويُحيى ذكر هـذا الحادث الأليم ، ولكن الشعراء برهنوا على أن القوة لا سلطان لهـا على العواطف وخطرات القلوب ، وأنه اذا كان الرشـيد استطاع بتاجه وصولجانه أن يسجن ويقتل ، فمـا كان ليستطيع أن يسيطر على جنان الشاعر ولا أن يمسك منه قلمه ، أو يحطم ريشته ، ومن ثم انطلق الشعراء ينظمون فى البرامكة الرثاء الدامع الحزين ، ويصورون فى أدبهم الخالد مـا كان لبنى برمك من مآثر وأفضال ، وفيمـا يلى نماذج من هـذا الرثاء :

قال الرقاشى :

أخىَّ استرحنـا واستراحت ركابنـا
وأمسك من يُجدِى ومن كان يَجْتَدِى

فقـل للمطايا : قد أمنت من السُّرى
وقطعِ الفيـافى فَدْفَداً بعـد فدفد

وقل للمنـايا : قـد ظفرت بجعفر
ولن تظفـرى من بعـده بمسـوَّد

وقل للعطايا : بعد فضل تعطَّلى
وقـل للرزايا : كلَّ يوم تجدَّدى

وقـال أيضا :

هَدَا الخـالون من شجو فنامـوا
وعينى لا يداعبهـا منـام

ومـا سَهِرتْ لأنى مستهـام
إذا أرِقَ المحـب المستهام

ولـكنَّ الحـوادث أرَّقتـنى
فلى سـهر إذا هجـد النيـام

أصبتُ بسادة كانوا نجوماً
بهم نُسقى إذا انقطع الغمام

أما والله لولا خوف واشٍ
وعينٍ للخليفة لا تنام

لطفنا حول جزعك واستلمنا
كما للناس للحجر استلام

على المعروف والدنيا جميعاً
ودولة آل برمكٍ السلام

وقال دعبل الخزاعى كما فى رواية ابن خلكان أو المنذر بن المغيرة كما فى رواية البيهقى :

ولما رأيت السيف قد قدّ جعفرا
ونادى مناد للخليفة فى يحيى

بكيت على الدنيا وأيقنت أنه
قصارى الفتى يوما مفارقه الدنيا

أجعفر إن تهلك فرب عظيمة
كشفت ، ونعمى قد وصلت بها نعمى

فقل للذى أبدى ليحيى وجعفر
شماتته : أبشر لتأتيهمْ العقبى

لئن زال غصن الملك عن آل برمك
فما زال حتى أثمر الغصن واستعلى

وقال صالح بن طريف :

يا بنى برمك واهاً لكمْ ولأيامكم المقتَبَلَه

كانت الدنيا عروساً بكمُ فهى الآن ثكولٌ أرملة (١)

ويقول Richard Coke (٢) عن أسرة البرامكة وعن نكبتهم ما يلى :

« وبلغت الادارة والنظام ذروة النجاح فى عهد الخلفاء العباسيين الأول بفضل الخدمات التى قدمتها أسرة البرامكة العظيمة التى كان أفرادها موهوبين عباقرة ، وقد كان سلطان البرامكة يتلو أو يماثل سلطان الخليفة .

« وفى نوبة من نوبات غضب هارون الرشيد ، وبدون سبب واضح ، ألقَى بأفراد هذه الأسرة كلها فى أعماق السجون ، وصادر أملاكهم الواسعة ، ولم يكتف بقتل جعفر ، بل صلبه على الجسر ، وقد سببت هذه الداهية التى نزلت بالبرامكة إحساسا عميقا من الأسف ، انعكس على شعر أكثر الشعراء المعاصرين .

« وقد وصل جعفر الى قمة الشهرة والمجد ، ليس فقط لأنه أقوى شخصية بعد الخليفة ، بل أيضا لأنه كان كريما الى درجة الاسراف ، والأدبُ العربى يحوى أقاصيص لا نهاية لها عن سخائه وكرم ضيافته ، وجوده الذى كثيرا ما كان الى الاسراف أقرب ، وهناك أيضا حكايات تفوق الحصر عن ألفته لهارون وعلاقته به ، وكذلك عن ذكائه وسرعة بديهته فى تصريف الأمور .

ومن الناحية الاجتماعية والعقلية ، تركت نكبة البرامكة فراغا فى حياة بغداد لم يملأ قط فيما بعد » .

---

(١) الجهشيارى ٢٣٩ وابن خلكان ١ : ١١٠ والبيهقى : والمحاسن والمساوىء ص ١٢٢ .

(٢) The City of Peace pp, 68-73 abridged.

الفضل بن الربيع

وموقفه بين الأمين والمأمون

تعتبر المؤامرة التى دبرهـا الفضل بن الربيع هـذه المرة أفظع مؤامرات العصر العباسى الأول كله وأقساها ، فعهدنا بالمؤامرة تنتهى بالفتك بفرد واحد أو بأفراد قلائل ، ولكن الفضل فى هـذه المرة دفع آلاف الناس الى الموت ، وزجّ بهم فى حرب طويلة مدمرة ليصـل الى تحقيق أمله وإرضاء شهواته ، ولكن الحظ لم يحالفه هـذه المرة ، بل كُتِب لمسعاه الفشل ، وأصبح الأمين وقودا لهذه النار التى أشعلها وزيرُه ، وأجّج أوراها ناصحوه ومستشاروه .

ويرجع تاريخ هـذه المؤامرة الى حياة الرشيد ، فقـد سبق أن ذكرنا أنه لمـا ثار رافع بن ليث بخراسـان ، وعجزت جيوش الخـلافة هناك عن إخماد هذه الثورة ، اضطر الرشيد أن يغادر الرّقّة ومعه جيش كبير ليواجه بنفسـه ذلك الثائر ، ولكن الرشيد مرض فى الطريق فحط رحاله فى طوس ، ثم أرسل ابنه المأمون مع بعض الجند الى خراسان وبقى هو ومعـه وزيره الفضل بن الربيع وأكثر أمواله ومتـاعه ، وبقية جيشـه على أن تزول عنـه العلة فيلحق بالمأمون ، ولكن العلة زادت عليه ، وأحس شبح الموت يقترب منه ، فأحضر وزيرَه وقواده وكبـارَ رجاله ، وأوصى أمامهم للمأمون بجميع مـا فى عسكره ، من مال وأثاث ورقيق وكراع[1] ، وأوصى كذلك أن يسـير باقى الجيش من طوس الى خراسان ليساعد المأمون فيمـا هو بصدده من نضـال وكفاح ، وأخذ بذلك العهـود على الفضل واسماعيل بن صبيح وغيرهمـا من كبار رجاله الذين كانوا معه[2] .

---

(١) الكراع : الخيل وقيل اسم يجمع بين الخيل والسلاح .
(٢) انظر الجشيارى ص ٢٧٣ وابن الاثير ٦ ة ٧٣ .

هـذا هو جانب المأمون والرشيد من مشكلتنا ، وهناك جانب آخر كان يدبر أمرا مخالفـا ، ذلك الجانب هو الأمين والفضل بن الربيع ، أما الأمين فما إن عرف مرض أبيه حتى أرسل أحد أتباعه المخلصين وهو بكر بن المعتمر ، وجعل له فى كل يوم ألف دينار وأرسل معـه كتبا ظاهرة فيهـا السؤال عن الخليفة والدعاء له ، وتسلم هـذه الكتب إذا كان الخليفة حيا ، وكتبا باطنة الى الفضل واسماعيل بن صبيح تسـلم بعد وفـاة الخليفة ، وفيهـا أمر الى القوم بالقفول الى بغداد ، والاحتياط على ما فى العسكر بحيث لا يتسرب منـه شىء الى خراسان ، ووصل بكر بن المعتمر والرشيد لا يزال حيـا ، فسلم الكتب الظاهرة ، ولكن أخبار الكتب السرية وصلت الى الرشيد ، فطلبهـا من بكر فأنكر وجود شىء منهـا معه ، فأمر الرشيد بضربه ، وطلب من الفضل تقريره فان أقر وإلا ضرب عنقه ، وكان بكر يدرك أن الفضل يستجيب للغدر الذى يريده الأمين ، وأنه لن يكترث بأوامر الرشيد اذا مات الرشيد ، ومن ثم أرسل بكر الى الفضل من يقول له أن يسوف فى تنفيذ أوامر الرشيد معـه لأنه يحمل من الأمين سرا خطيرا فيه للفضل نفع وخير ، واستجاب الفضل كعـادته الى رغبة الأمين الذى قد يصبح خليفة بين عشية وضحاها ، فأرجأ ومـا طل فى تعذيب بكر وتقريره (١) .

هذا هو الدور الأول الذى لعبه الأمين ، ولا نزاع أنه قام به اطمئنانا الى استجابة الفضل ، أمـا الفضل فقد أوفى بمـا أراد الأمين وزاد ، فانه تظاهر بالقسـوة على بكر ، ولكن الواقع أنه خفف عنه مـا استطاع الى ذلك سبيلا ، ومـا إن صعدت روح الرشيد حتى استهان الفضل بالميت المسجى على سريره — كمـا فعل أبوه من قبل بالمنصور — وخلع من عنقه طاعته ، ونسى أو أهمل العهود والوعود التى أقسم على الوفاء بها

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٣ والجهشيارى ٢٧٣ — ٢٧٤ .

أمامه ، وسارع الى بكر بن المعتمر وهو فى سجنــه فقال للسجان : خلوا عن أبى خليدة ، فقال بكر : ليس هــذا وقتا تكنّينى فيه ، فدعا الفضل بخلَع فخلعهــا على بكر ، وقال له : أعظم الله أجرك فى أمير المؤمنين ، ثم أخذه معــه الى حيث وضع جثمان الرشيد فأطْلعَ بكرا عليه ، وكشف الفضل عن وجه الرشيد ليؤكد أنه مات ، ثم قال له : هات الكتب التى معك ، فأحضر بكر صندوقا صغيرا كان معــه ، قد نُقبت قوائمه وجعلت الكتب فيهــا ، وجُعل الجلد فوقهــا فشُقَّ الجلد وكسرت القوائم ، وسلَّم بكر الكتب الى أصحابها ، وكان بين الكتب كتابٌ الى الفضل يطلب اليه العودة بالمــال والجند والعتــاد ، وكتابٌ الى صالح بن الرشيد يأمره ألا ينفّذ رأيا أو يبرم أمرا الا برأى الفضــل ، وأقرَّ الأمين الخدم على مــا فى أيديهم من الأموال والخزائن والسـلاح ، وأمر ألا يُصرفَ عطــاء أو رزق للعسكر بدون رأى الفضل ، وأقر كل من كان اليه عمــل على عمله كصاحب الشرطة والحرس والحجابة ، فلمــا قرءوا الكتب أخذوا يتشاورون فى تنفيذ وصــية الرشيد فيلحقون بالمأمون أو تنفيذ أمر الأمين فيعودون الى بغداد ، ولكن الفضل وهو كبير الركب ومدبر أمره صــاح فيهم لا أدع ملكــا حاضرا لأمير لا أدرى مــا يكون عن أمره ، ولست أملك إلا طاعة امام العصر والخليفة الآن ، واستغل رغبةَ الجنــد فى العودة الى أهليهم ، فأمرهم بالعودة الى بغداد ، غير مكترث بمــا عاهد اللهعليه ولا موف بمــا وعد أن يقوم به (١) .

وكان من الممكن أن يعفو المأمون عن الفضــل ، وأن يغفر له هذه الزلة ، كمــا عفا عنه فيمــا بعد مع تراكم الذنوب عليــه ، وكثرة الجرائم التى ارتكبها ، ولكن الفضل — كمــا يقول ابن خلكان (٢) — خاف من المأمون إن انتهت الخلافة اليه أن ينتقم منــه لهذا التصرف ، فزين للأمين أن يخلع المأمون من ولاية العهد ، ويجعل ولاية عهده لابنه موسى .

---

(١) المرجعان السابقان .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ١١٢ .

والفضل هنا أنانى بعيد العمق فى الأنانية ، لقد أراد أن يضمن لنفسه النجاة ، ولو أدى ذلك الى الدمار والحرب والخراب وقتل الأبرياء وتيتم الأطفال ، فقسم العالم الاسلامى معسكرين وانطلقت السيوف والحراب بين الرجل وأهله ، وبين المسلم وأخيه المسلم ، وتساقط الجند فى الميدان ، وقتل القواد والرؤساء ، وتوقفت أعمال العمران ، ومست يد الدمار حضارة بغداد ، وتعرض سكانها الى أزمة عنيفة ، وكل هذا ليفدى الفضل نفسه ، ويضمن لشخصه السلامة .

ومسألة أخرى نأخذها على الفضل بن الربيع ، وهى تعجيله بإثارة هذه الفتنة ، فقد بدأ يشعل أوراها عقب وصوله بغداد عائدا من طوس ، ولا يكاد الانسان يجد سببا مقبولا لذلك التبكير بالشر إلا شغف الفضل بالشغب والمؤامرات وسفك الدماء ، أما ما أجمع عليه المؤرخون من أن الفضل خاف أن تقضى الخلافة للمأمون وهو حى فينكل به ، فلا أميل الى التسليم به لأن الأمين كان فى مقتبل العمر وشرخ الشباب ، وكانت صحته وقوته مضرب الأمثال حتى ليقال إنه صارع مرة أسدا بدون سلاح فصرعه (١) ، صحيح أن الأعمار بيد الله ، ولكن الظواهر لم تكن توحى بضرورة هذا التعجيل ، وقد كان المنصور يعتزم نقل ولاية العهد من عيسى بن موسى الى المهدى ، ولكنه لم يتقدم على هذا إلا بعد أحد عشر عاما من ولايته حينما استقرت له الأمور ، فلو أن الفضل أرجأ هذا التغيير بعض الوقت وسعى فى اصلاح ما بين الأخوين ، وحث الأمين أن يستجيب الى رغبة المأمون فى التقرب والتحبب ، لكان من المحتمل أن تتحسن الأحوال . وأن تصفو العلاقات ، ولكنه الفضل الذى ورث أباه فى الشغف بالدس والائتمار ، فسلك ذلك الطريق المعوج ، وزج بالعالم الاسلامى فى هذا الأتون فهاهو ذا التاريخ لا ينسى ، وإنما يجدد عليه ذكرى هذا الموقف المشين .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١١٦ .

ولم يكن الأمين فى أول الأمر يفكر فى عزل المأمون ولا يميل اليه . ولكن الفضل هو الذى فتح هـذا الباب ، ولم يزل يصغّر عنده أمـر المأمون ، ويزيّن له خلعـه ، وكان ممـا قاله له : مـا تنتظر بعبد الله والقاسم ؟ فإن البيعة كانت لك قبلهمـا ، وانمـا أدخلا فيهـا بعدك ، وأيد على بن عيسى بن ماهان الفضـل فيمـا ذهب إليه ، فوافقهمـا الأمين ، وعزم على تنفيذ ذلك ، وتحمس له ، حتى إنه قال يوما للفضل : يا فضل ، أحياة مع المأمون ؟ لابد من خلعه فاغتبط الفضل بهـذا وأخذ يغريه ويقول له : فمتى ذلك ؟ اذا انتظرت له حتى يغلب على خراسان وما فيهـا صعب عليك أن تنال ما تحب (١) .

وهكذا اتفق على ذلك الخليفة محمد الأمين ووزيره الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان الذى كان الأمين يلقبـه شيخ الدعوة ونائب هذه الدولة ، وعارض هؤلاء جماعة آخرون من السـادة والقادة ، ولكن كفتهم شالت أمام كفة الخليفة وأشياعه (٢) .

وبينما كانت بغداد تضطرب بهذه التيارات ، كان المأمون بخراسان يجِل العهـد الذى قطعه على نفسـه ، ويقف من أخيه الأمين موقف الوالى المخلص من الخليفة العظيم ، فهـو يواتر كتبه له ، ويحشدهـا بعبارات الاجلال والتعظيم ، ثم يواصل ارسال الهدايا العظيمة اليه من طُرف خراسان من المتـاع والآنية والمسك والدواب والسلاح (٣) .

غير أن موقف المأمون لم يغير من الأمر شيئا ، بل اندفع الفضل بن الربيع ينفذ ما تم الاتفاق عليه مع الأمين وعلى بن عيسى ، واتخذ لخلع المأمون خطوات متتالية مثـابرة أغرى بهـا الأمين فاستجاب الأمين لإغرائه :

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٥ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٤ والخضرى ٢ : ٢١٦ .

فكان أول ما فعله أن كتب بولاية العهد الى موسى بن الأمين على أن يكون تاليا للمأمون والقاسم ، وكتب الى جميع العمال بالدعاء له بعد الدعاء لهما (١) .

ثم استدعى القاسم من الجزيرة وعزله عما كان بيده ، فأدرك المأمون أن عزل القاسم ليس إلا تمهيدا لعزله هو أيضا (٢) .

ثم كتب الأمين الى عامل المأمون على الرى يأمره أن يرسل اليه ببغداد بعض طرف الرى ، وقد كان ذلك تجاهلا لوضع المأمون ، فمن حقه هو وحده أن يتصل بعماله تبعا لوصية الرشيد ، ولكن الأمين كما ذكرنا بدأ يهمل هذه الوصية ويتمرد عليها ، وقد استجاب عامل الرى للخليفة ، فأرسل اليه الطرف والهدايا ، ثم أحس بخطئه فكتم الأمر على المأمون ، وعن الفضل بن سهل ، مدبر دولة المأمون ، ولكن ذلك بلغ المأمون فعزل ذلك العامل وولى آخر مكانه (٣) .

ثم أشار اسماعيل بن صبيح على الأمين أن يكتب للمأمون يعرفه حاجته اليه ، ويبلغه شوقه الى قربه ، وإيثاره الاستعانة برأيه ومشورته ، ويسأله القدوم عليه ، فقبل الأمين هذا الرأى ، وأمر اسماعيل أن يكتب ففعل ولكن المأمون أدرك هذه الخدعة ، فلم يلتفت الى الأمين ولم يجبه (٤) .

وكتب المأمون للأمين يطلب منه أن يرسل له زوجته أم عيسى بنت الهادى وولديه منها ، وكان المأمون خلفهم ببغداد عند رحلته ، وأن يرسل له مائة ألف دينار كان الرشيد أوصى بها اليه من بيت المال ،

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٥ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٥ .
(٤) الجهشيارى ص ٢٩٢ وابن الاثير ٦ : ٧٦ .

فأجاب الأمين أنه صرف المـال فى أمور المسلمين فيمـا هو أولى من وصية الرشيد ، ورفض أن يرسل للمأمون زوجتـه وولديه قائلا إنه لا يرى تعريضهم لمشقة السفر ، وأنهم يجرون عنده مجرى حرمه وولده (١) .

ثم كتب الأمين الى المأمون يسأله التجافى له عن بعض كور خراسان ، وأن يطلق له إنفـاذ رجل يتقلد البريد من قبله ليكاتبه بأخباره ، وأن يرسل اليه كل عـام مما يتبقى عنده من المال بعد نفقـاته ، فاستشار المأمون أصحابه ، فأشـار بعضهم بالموافقة معللين ذلك بأنهم يطلبون السـلامة ويتحاشون الخلاف لسوء مـا يؤدى اليه من عواقب ، ولكن الفضـل ابن سهل وأخاه الحسن عارضا هـذا الرأى ، وقال الفضل ، انا ان أجبنا هـذه المرة فسيتجاوز هـذا الطلب الى غيره ، وسنكون بذلك قد تعجلنـا الوهن بمـا أعطيناه ، وقال الحسن : لا تهنوا لقلة فيكم ، فليس النصر بالقلة والكثرة ، وجراح الموت أيسر من جراح الضيم ، وقال المأمون : إن إيثار الدعة يؤدى الى فسـاد العاقبة فى الدنيـا والآخرة ، وكتب يمنع الأمين من ذلك ويدفعه عنه (٢) .

ثم وجه الأمين الى المأمون أربعـة أنفس وهم العباس بن موسى بن عيسى بن موسى ، وعيسى بن جعفر بن المنصـور ، وصالح صاحب المصلى ، ومحمد بن عيسى بن نهيك ، ومعهم كتـاب يطلب الأمين فيـه الى المأمون أن يقدم موسى بن الأمين على نفسـه فى ولاية العهد ، فلمـا قرأ المأمون الكتاب رفض أن يستجيب لهـذه الرغبة الجامحة ، وأخبر بذلك الرسل ، فقـال العباس بن موسى : لقد جرت العـادة بذلك أيهـا الأمير ، وهـذا جدى عيسى بن موسى قد خلع من قبل ، فصاح الفضل بن سهل : اسكت ، إن جدك كان أسيرا فى أيديهم ، وهـذا بين أخواله وشيعته . ثم قاموا ، فخلا الفضل بن سهل بالعباس بن موسى ، ووعده إمرة الموسم ومواضع

---

(١) الجهشيارى ص ٢٣٧ (تحقيق الشاوى) .
(٢) الجهشيارى ٢٨٩ — ٢٩٠ وابن الاثير ٦ : ٧٦ .

من مصر ، فأجاب سرا بيعـة المأمون ، ووعد أن يكتب للمأمون بأخبـار بغداد عند عودته ، ثم عاد مع أصحابه فأخبروا الأمين بأن المأمون يرفض تقـديم موسى عليه ، وأصبح العباس عيناً للمأمون فى بلاط الأمين (١) .

وتأكد المأمون أن الأمور تسـير من سيىء الى أسوأ ، وأنه لابد أن يتدخل السيف ليكون الحكم الفاصل فى هـذا النزاع ، فأقفل الحـدود بينه وبين العراق ، وأمر ألا يُسْمَح لأحد باجتياز هذه الحدود إلا باذن خاص وبعد تفتيش دقيق ، وبهـذا صارت أمور المأمون مستورة عـن الأمين ، ولكن أمور الأمين كانت تتسرب للمأمون بترتيب العباس بن موسى ، ثم شرع المأمون بعد ذلك يعدُّ نفســه ، ويهيىء جنده ، وتحبب الى الناس ، واتصل بالعلمـاء وبالفقهاء ، وبينمـا كان المأمون يفعل ذلك ، كان الأمين يملأ وقته باللهو والعبث واللذة والشراب ، وسارت الركبـان فى الآفاق بغدر محمد الأمين ، وبحسن سـيرة المأمون ، فاستوحش الناس من الأمين وانصرفوا عنــه ، وسكنوا الى المأمون ، ومالوا اليه (٢) .

وانتهز الفضل بن الربيع فرصة وقوف المأمون فى وجه الأمين وعدم استجابته لرغبة مـا من رغباته ، فألح على الامين فى خلع المأمون ، وتولية ابنــه موسى بدله ، فاستجاب الامين وخلع المأمون والقاسم وولى ابنــه موسى وسماه الناطق بالحق ، وكان ذلك فى صفر سنة ١٩٥هـ ، وكتب الفضل ابن الربيع عن الأمين بذلك ، بالنهى عن الدعاء للمأمون والقاسم على المنابر وأحضر أحد الحجبة وسأله التلطف فى أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد قد علقهما فى الكعبة بالبيعة لأولاده ، ففعل ذلك ، وسرقهما وسـار بهما اليه ، فدفعهما الى الأمين فمزقهما (٣) .

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٨٦ .
(٢) الجهشيارى ص ٢٩٢ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٩٢ وابن الاثير ٦ : ٧٧ .

وتأزمت الأمور ولم يبق حكما الا السـيف ، فأخذ كل من الطرفين يعـد العدة للصراع الحربى ، وكان الفضل بن سهل أحكم وأعلم بالأمور من ندّه الفضل بن الربيع ، فقد وجه المأمون والفضل بن سهل همهما الى الجند ، وعنيا بتزويد الجيش بأحسن زاد ، ومدّه بأقوى عتاد ، وكوّن ذو الرياستين جيشين عظيمين يقودهما بطلان من خيرة الأبطال ، هما طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، وسار الأول يقصد بغداد من الجنوب والثانى يقصدها من الشمال ، وبذل كل منهما جهده ليسيطر على جنده وليضمن لقوته النصر .

أمـا الفضل بن الربيع فقد وقع فى شرك أعده له الفضل بن سهل ، إذ أوعز الى رجال من خراسان أن يكتبوا لعلى بن عيسى بن ماهان والى خراسان إبان عهد الرشيد ، والذى أسـاء السيرة وطغى وبغى فعزله الرشيد لجوره وشكوى الناس منـه ، وفى هذه الكتب المصطنعة ذكَرَ قادة خراسان لعلى بن عيسى أنه إن قاد جيش الأمين فله منهم السمع والطاعة ، وان جاءهم غيره قاوموه ، فأطلع على بن عيسى الأمين على هذه الكتب ، ثم كان للفضل بن سهل عين عند الفضل بن الربيع ، فكتب ابن سهل الى ذلك العين أن يحسّن لابن الربيع إيفاد على بن عيسى ويعلل ذلك بأن عليا أعرف بمسالك البلاد وحصونهـا ، وله صلة ببعض رجالها . وبهـذه الحيل تحققت أمنية ابن سهل ، وعيّن على بن عيسى قائدا لجيش الأمين ، فأشاع ابن سهل بين أهل خراسان أن الطاغية فى طريقه إليهم ، وأنهم ان لم يجدّوا فى قتاله ، استأنف فيهم تنكيله وتعذيبه ، فهرع القوم ليدافعوا عن أنفسهم وحرَمهم (١) .

وحدثت أولَ معركة بين جيوش الأمين بقيـادة على بن عيسى بن ماهان — الذى استهان بجيوش طاهر(٢) — وبين طاهر بن الحسين ، ودارت

---

(١) انظر ابن الاثير : ٧٩ وابن خلدون ٣ : ٢٢٣ .
(٢) انظر المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٩٩ .

الدائرة على جيش الأمين ، وقتل على بن عيسى ، فكتب طاهر الى الفضل ابن سهل يقول : أطال الله بقاءك ، وكبت أعداءك ، وجعل من يشنؤك فداءك كتبت اليك ورأس على بن عيسى بين يدى ، وخاتمه فى اصبعى وعسكره تحت أمرى ، والحمد لله رب العالمين (١) فلما قرأ الفضل بن سهل هذا الكتاب ، وصح عنده الخبر دخل على المأمون فسلم عليه بالخلافة ، وأمر أن يخطب له ويخاطب بأمير المؤمنين (٢) .

وأحرزت جيوش المأمون انتصارات متلاحقة ، وأخذت تتقدم من فوز الى فوز ، ومن نصر الى نصر . ولكن عسكر الأمين اضطرب بعد وفاة على ابن عيسى وعم الشؤم بغداد ، وكون الأمين جيشا آخر بقيادة عبد الرحمن ابن جبلة لمواجهة طاهر ، ولكنه لاقى ذلك المصير نفسه ، ثم دعا الفضل ابن الربيع أسد بن يزيد بن مزيد ليقود الجند فاشتد أسد فيما التمسه من الأموال والعتاد والرجال والسلاح ، فأخذه الفضل الى الأمين ، وعرفه ذلك ، فغضب وأمر بحبسه (٣) .

وحدث أن ولى الأمين عبد الملك بن صالح الشام والجزيرة رجاء أن يمده بالجنود الأشداء ليستعين بهم الأمين فى حربه ضد أخيه ، وذهب عبد الملك الى الرقة ، فكاتب رؤساء أهل الشام وأهل القوة والبأس فجاءوا ، ولكن سوء الحظ كان حليف الأمين ، فان حادثة تافهة حدثت بين هؤلاء الجنود ، فاشتبكوا فى قتال عنيف كان من نتائجه تشتت هذا الجيش وعدم انتفاع الأمين به (٤) .

وثار الحسين بن على بن عيسى بن ماهان على الأمين فى بغداد وخلعه فى رجب سنة ١٩٦هـ وأخذ البيعة للمأمون ، وأيده فى ذلك العباس بن

---

(١) الجهشيارى ص ٢٩٣ .
(٢) ابن الاثير ٦ : ٨٥ .
(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٩ وما بعدها .
(٤) ابن الاثير ٦ : ٨٥ — ٨٦ .

موسى بن عيسى ، ولكن هـذا لم يتم ، إذ عـاد بعض الجند فانشقوا على الحسين ، وأطلقوا سراح الأمين ، وأجلسوه على كرسى الخلافة مرة أخرى (١) .

وكان داود بنعيسى بن موسى عاملا للأمين على مكة والمدينة ، فلما رأى نكث الأمين بالمأمون ، وعرف سرقة الكتابين من الكعبة ، جمع الناس بمكة وقال لهم : لقد علمتم مـا أخذ الرشيد علينا وعليكم من العهـد والميثاق عند بيت الله الحرام لا بنيه لنكون مع المظلوم منهمـا على ظالمه ، ومع المغدور به على الغادر ، وقد رأيتم كيف بدأ محمد يظلم ويغدر فنقض بيعة أخويه ، وبايع لابنه الطفل ، وأخذ الكتابين من الكعبـة فمزقهمـا ظلما ، ولهـذا فقد رأيت خلعه والبيعة للمأمون فأجابه الناس الى ذلك ، وكتب لابنـه سليمان بالمدينـة أن يعلن هـذا ففعل ، وكان ذلك فى رجب ١٩٦هـ (٢) .

ورأى الفضل بن الربيع تدبيره يفشـل ، ورأى دولة الأمين تضعف وتضمحل فظهر بمظهر غير كريم ، ذلك لأنه لم يقف بجوار خليفته يطعم معـه مرارة العيش فى هـذه الأيام الكدرة ، ويشرب معـه كأس المتاعب حتى الثمالة ، ولم يبرز ليتحمل بشاعة مسئولية ما قدمته يداه ، وإنمـا استتر فى رجب سنة ١٩٦هـ تاركا الأمين وحده فى هذه الليالى السود (٣) .

أمـا طاهر فقد واصل انتصاراته ليدخل بغداد على النحو المرسوم أي من جهـة الأهواز والبصرة ، وسـار هرثمة ليدخلها من جهة الموصل ، وكانت المقاومة التى لقيها هرثمة أقل من تلك التى قابلها طاهر الذى اتجهت أكثر الجهود لإيقـاف زحفه ، ولكنه استطاع الاستيلاء على فارس بعد أن أوقع بعاملها محمد بن يزيد ، ومن فارس أرسل عماله الى اليمـامة

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٦ .
(٢) المرجع السابق : ٦ ٧٧ — ٧٩ .
(٣) الجهشيارى ٣٠١ — ٣٠٢ .

والبحرين وعُمَـان ، واتجه هو الى واسط فهرب منها عاملها قائلا ، انه طاهر ولا عار فى الهرب منه ، وفى واسط تلقى البيعة للمأمون من أمير الكوفة العباس بن موسى الهـادى ومن أمير البصرة المنصور بن المهدى ، ثم سار إلى المدائن فاستولى عليهـا دون قتال ، وهكذا دقت جيوش طاهر أبواب بغداد ، ومرت بعاصمة المسلمين أحلك الليالى ، وكثر فيهـا الخراب والهدم والحرائق ، حتى درست منـازل ، واختفت أبنية شاهقة ، وانضم الى جيوش المأمون كثيرون من أهل بغداد ، ونشط الغوغاء والفسـاق يسلبون وينهبون ، وكثر القتل والغرق لأهل مدينة السلام ، وانتشر الجوع ، وعمت الآفات ، وقد وصف بعض شعراء بغداد فى هذه الفترة القاسية وصفا يغنى عن المزيد من الشرح فقال :

بكيت دمـاً على بغداد لمـا	فقدتُ غضارة العيش الأنيق
تبدلنـا همومـاً مـن سرور	ومن سـعة تبدلنـا بضيق
أصابتنـا من الحساد عين	فـأفنت أهلهـا بالمنجنيق
وقوم أحرقوا بالنار قسراً	ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادى : وا صباحاً	وباكية لفقـدان الشـقيق
وحوراء المدامع ذات دل	مضمـخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق الى انتهاب	ووالدهـا يفر الى الحريق
ومغترب بعيد الدار ملقى	بلا رأس بقارعة الطريق (١)

واشتد الأمر بأهل بغداد ، وتفرق كثير منهم عن الأمين ، وانضـم عدد من ساداتهم الى جيوش المأمون المحاصِرة ، وقدّموا لهـا العون والمساعدة . أمـا الأمين فقد جمع أولاده وأمه زبيدة ومن تبقى معـه من

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٩١ — ٩٢ .

الجوارى بمدينة المنصور (١) ، فتقدم طاهر فحصره وأخذ عليه الأبواب وضيق عليه ، ورفع أعلامه على سوارى بغداد ، ثم كاتب الأمين هرثمة ابن أعين • وطلب منه الأمان على أن يستسلم اليه ويسلم البردة والقضيب والخاتم ، فقبل هرثمة ، ولكن طاهرا كان للأمين بالمرصاد ، وأراد أن يحظى بشرف النصر ، وأن يحول بين الأمين وهرثمة ، ونزل الأمين الى دجلة حيث كانت حراقة هرثمة فى انتظاره فأحسن رجال هرثمة استقباله ، واندفعت الحراقة نحو معسكر هرثمة ، ولكن زوارق طاهر لحقت بالحراقة ، ورمى رجال طاهر الحراقة بالنشاب والآجر فأغرقوها وقبضوا على الأمين وذبحوه ، وأخذوا رأسه الى طاهر ، فأرسل بها الى المأمون (٢) •

وهكذا تلقى الأمين وتلقى أهل بغداد النتائج القاسية لهذه الحرب الضروس التى تسبَّب الفضل بن الربيع فى إشعالها ، أما الفضل فقد ظل فى مخبئه ، بعيدا عن هذه الكوارث التى أنزلها بالآخرين ، وبمنأى عن الملمات التى حلت بكل بيت من بيوت بغداد وبعشرات الآلاف من شبان المسلمين •

ويبدو من دراسة هذه الأحداث أن الفضل بن الربيع لم يكن يقوى على مواجهة الأحداث الكبار والثبوت أمامها ، وتدبير أمورها وإنما كان رجل دعة ونعيم •

والعجيب أنه ظل مختفيا حتى قتل الأمين ، ثم واصل استتاره حينما كان الخلاف ناشبا بين الحسن بن سهل عامل المأمون على العراق وبين العباسيين وأهل بغداد الذين ثاروا — كما سبق القول — لتولية المأمون عليا الرضا عهده ، ولأنه بلغهم ان الفضل بن سهل مسيطر على المأمون

---

(١) هى بغداد التى بناها المنصور وكانت فى عهد الامين تمثل جزءا من العاصمة التى اتسعت اتساعا كبيرا .

(٢) ابن الاثير ٦ : ٩٥ — ٩٦ باختصار .

وأن المأمون أشبه بسجين عنده . ولمـا انتصر العباسيون وأهل بغداد ، وخلعوا المأمون وبايعوا ابراهيم بن المهـدى بالخلافة ، لم يتحرج الفضل ابن الربيع من الظهور ، والاتصال بابراهيم بن المهـدى ، فرسمه ابراهيم بحجابته ، ولكن الأخبار وصلت بغداد بعد حين بأن المأمون فى طريقه اليها ، وأنه تخلص من الفضل بن سهل . . . فاختلّ أمر ابراهيم بن المهدى وفى هـذه الحال عاد الفضل بن الربيع الى الاستتار تاركا ابراهيم بن المهدى ليواجه الأحداث وحده كما خلّى من قبل محمدا الأمين (١) .

وظل الفضـل مختفيا الى أن قدم المأمون بغداد واستقر له الأمر ، فتوسل الفضل الى المأمون أن يغفر له جريمته الكبرى ، فغفر له ، واكتفى بأن أهمله ولم يستعمله ، فكانت مرتبته منحطة فى دار المأمون (٢) وظل كذلك الى أن مات سنة ٢٠٨هـ مخلفا هـذه الذكريات المرة التى تتجدد من حين الى حين ، والتى تدل عـلى أن الدس والائتمار عاقبتهما الفشل والخيبة .

الفضل بن سهل

من الممكن أن نقرر أن دولة المأمون منحة قدّمهـا له الفضل بن سهل ، وأنه لولا الفضل مـا كانت دولة المأمون . ولتغلّب هـذا على أمره ، وقد كان الفضل بن سهل — منـذ عهد الرشيد — يكتب للمأمون ويتولى أمره كله ، ومنذ ذلك الحين أخذ الفضل يرى ويدبر ليضمن للمأمون حقـه ، وليحميه من أن يطغى عليه سلطان أو يستبد به مستبد ، وأول لَبِنَة وضعهـا الفضل ليشـيّد عليهـا دولة المأمون كانت فى حيـاة الرشيد ، وقد سبقت الإشارة اليهـا ، فان خراسان لمـا انتفضت على الرشيد بقيـادة رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وعجزت جيوش الخلافة هناك عن ردهـا الى الطاعة ، رأى الرشيد أن يخرج لهـا بنفسـه فغادر

---

(١) انظر الجهشيارى ص ٣٠٢ .
(٢) الاغانى ٣ : ١٥٢ .

الرقة (وكان الرشيد قد انتقل اليها من بغداد (١) واستخلف عليها ابنه القاسم ، وفى طريقه الى خراسان مر ببغداد فاستخلف عليهـا ابنه محمد الأمين ، وأمر المأمون بالبقـاء معه ببغداد ، وهنـا بدت حنكة الفضل ، فقد قال للمأمون : لا تقبل ، وسله أن يشخصك معـه ، فانه عليل وغير مأمون إن يحدث إليه حادث أن يثب عليك أخـوك فيخلعك ، وأمه زبيدة وأخواله من بنى هاشم ، فسأل المأمون أباه أن يشخصه معـه ، وألح ، فأجابه بعدامتناع (٢) .

وقد بدأ المأمون بهـذا يفلت من استبداد الأمين وسطوته ، وسار المأمون مع الرشيد فى طريقهما الى خراسان ، غير أن العلـة استفحلت على الرشيد فى أثناء رحلته كمـا مر ، فحط رجاله فى طوس ، ثم أمر المأمون أن يأخذ بعض الجند ويواصل سيره الى خراسان ففعل ، وصحب معـه كاتبه ومدبر أمره الفضل بن سهل ، وأحس الرشيد بالمرض يزداد به فجدد العهد لأبنائه الثلاثة ، وأوصى بما معه من مال وعتاد لابنه المأمون ، كما أوصى أن يلحق بالمأمون ما تبقى بطوس من القواد والجنود ، ولم يطل به المقام فلفظ أنفاسه الأخيرة بطوس ودفن بها .

وتوالت بعد ذلك أيادى الفضل بن سهل على المأمون ، ولم يدخر وسعاً فى نصحه والاخلاص اليه :

عندما حنث قواد الرشيد وجنوده بالعهـد ورجعوا من طوس الى بغداد ، هم المأمون بأن يلحقهم ببعض جيشـه ليردهم ، ولكن الفضـل

---

(١) يعلل الرشيد انتقاله من بغداد الى الرقة بقـوله : والله انى لاطوى مدينة ماوضع بشرق ولا غرب مدينة ايمن ولا ايسر منها ، وانها لدار مملكة بنى العباس ، ما بقوا وحافظوا عليها ، ولا راى أحد من آبائى سوءا ولا نكبة فيها ، ولنعم الدار هى ، ولكنى أريد المنـاخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمـة الهـدى ، والحب لشجرة اللعنة بنى أمية ، مع ما فيهـا من المارقة ، والمتلصصة ، ومخيفى السبيل ، ولولا ذلك ما فارقت بغداد (ابن الاثير ٦ : ٦٣) .

(٢) الجهشيارى ص ٢٦٦ وابن الاثير ٦ : ٦٨ .

ابن سهل قال له : إن فعلت ذلك لم آمن أن يقبضوا عليك ويجعلوك هدية الى محمد (١) .

ورأى الفضل أن الهوة تتسع بين الأمين والمأمون ، فأخذ يُعِدّ المأمون للأمر العظيم ، ويمهد له الطريق الى الخلافة ، فحببه الى الناس ، وحبب اليه العدالة والانصاف ، وقال له : لقد قرأتَ القرآن ، وفهمتَ أمر الدين ، والرأيُ أن تجمع الفقهاء ، وتدعوهم الى الحق والعمل به ، وإحياء السنة وأن تقعد على اللبُود ، وتواصل النظر فى المظالم ، وتكرم القواد والرؤساء وأبناء الملوك . ففعل ذلك ، وحطّ عن خراسان ربع الخراج (٢) .

وبهذا أحبه أهل خراسان وأقبلوا عليه ، وكانوا يقولون : ابن أختنا ، وابن عم رسول الله ، ولما رأى رافع بن ليث سيرة المأمون انقاد له ، ودخل فى طاعته سنة ١٩٤ هـ فأعطاه الأمان ، وسار اليه رافع ، فأكرمه المأمون وخصّه به (٣) .

ولما اشتد الخلاف بين الأمين والمأمون من أجل ولاية العهد خاف المأمون عاقبة ذلك فرقّ وعزم على الاجابة الى خلع نفسه ، ومبايعة موسى بن الأمين ، فخلا به الفضل وشجعه على الامتناع وضمن له الخلافة ، وقال له هى فى عهدتى (٤) . وكان مما قاله الفضل للمأمون : إن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها أيام المنصور ، فخرج عليه المقنع وهو يدعى الربوبية ، وقيل كان يطلب بدم أبى مسلم فضعضع العسكر بخروجه بخراسان ، وخرج بعده يوسف البرم وهو كافر فتضعضعوا أيضا له ، ثم أخبرنى أيها الأمير ، كيف رأيت الناس ببغداد عندما ورد عليهم

(١) الجهشيارى : ٢١٧ وابن الاثير ٦ : ٧٤ .
(٢) الجهشيارى ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٧٩ .
(٤) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٨٩ .

خبر رافع ؟ قال ، رأيتهم اضطربوا اضطرابا شديدا ، قال : فكيف بك وأنت نازل بين أخوالك وبيعتك فى أعناقهم كيف يكون اضطراب أهل بغداد ؟ اصبر وأنا أضمن لك الخلافة • قال المأمون : قد فعلت ، وجعلت الأمر إليك (١) •

أسلمت هذه الخطوات المسألة الى الجولة العسكرية التى كان لها وحدها الفصل فى هذا الخلاف ، وسبق أن ذكرنا الجهود الكبيرة التى بذلها الفضل بن سهل لترجح كفة المأمون ، وكان من هذه الجهود حسن اختيار قادة جيشه ، وحسن إعداد الجيش بما يلزمه من مال وعتاد ، ثم كان منها تلك الحيلة التى جعلت قائد جيش الأمين شخصا كريها لا يمكن أن يتحقق على يده انتصار وهو على بن عيسى بن ماهان •

كل هذا كان جميلا من الفضل بن سهل ، وكان المأمون أول المعترفين بأياديه وحسن تدبيره ، وما إن ظهرت للمأمون علامات نصره ، وبدأت جيوش الأمين تتراجع ، وتنهزم ، حتى أغدق المأمون على الفضل ومنّاه وعظّم شأنه • يحكى ابن الأثير (٢) : أنه لما صح عند المأمون خبر قتل ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة قائدى الأمين ، أمر المأمون أن يُخْطَب له ويُخَاطَب بأمير المؤمنين ، ودعا الفضل بن سهل وعهد له على المشرق ، وجعل له عمالة قدرها ثلاثة ملايين من الدراهم ، وعقد له لواء على سنان ذى شعبتين ، ولقبه ذا الرياستين : رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج (٣) •

وجعل المأمون للفضل لقب الإمارة مع لقب الوزراة ، وهو أول وزير يجمع له اللقبان (٤) •

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٦ : ٤ •
(٢) الكامل فى التاريخ ٦ : ٨٥ •
(٣) انظر الجهشيارى ٣٠٥ — ٣٠٦ •
(٤) الجهشيارى ٣٠٦ •

وكتب له توقيعا طويلا يدل على مدى إجلاله ، واعترافه بفضله • وهاك نصه :

أغنيت يا فضل بن سهل بمعاونتك إياى على طاعة الله ، وإقامة سلطانى ، فرأيت أن أغنيك وأحببت أن أسبق الى الكتاب لك بخطى ، بما رأيته على نفسى ، وقد أقطعتك السيب بأرض العراق ، عطاء لك ولعقبك ، لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتى ، ولما قمت به من حق الله وحقى ، فلم تأخذك فى لومة لائم ، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره ، وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول فى كل شىء فيسمع منه ، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما أمرتك به ، من العمل لله ولنبيه ، والقيام بصلاح دولة أنت ولى بقيامها ، وجعلت ذلك كله بشهادة الله ، وجعلته لك كفيلا على عهدى ، وكتبت بخطى سنة ١٩٦هـ (١) •

وبلغ من إكرام المأمون له وتقريبه اليه أن عرض أن يزوجه إحدى بناته على الرغم من عادة استهجان تزويج بنات الخلفاء من غير ذوى قرباهم ، وقد جهد المأمون فى إقناع الفضل ، ولكن الفضل استكثر هذا التكريم على نفسه فشكر واعتذر (٢) •

وسارت الأمور على هذا النحو من الحب والتعاطف بين الاثنين ، حتى قتل الأمين وآلت الخلافة الى المأمون ، وهنا يبدأ الانحراف ، ولكنه كان فى هذه المرة من جانب الوزير الذى أخذه الغرور بعد ذلك ، وكأنما خطر له أن يجعل للمأمون الاسم ، ولنفسه القول والعمل ، وسلك طريقا وعرا ، وكان هو فاتحه ، وكان ضحيته •

وأول ما عنى به الفضل أن يمد سلطانه الى بغداد عاصمة الدولة فان خضوعها له معناه سيطرته على شئون الخلافة كلها ، ولكن كيف

---

(١) انظر الجهشيارى ص ٣٠٦ •
(٢) انظر الجهشيارى ص ٢٠٧ •

له أن يستبد ببغداد وفيهـا البطلان الفاتحان طاهر وهرثمة ، ومن أجل ذلك نجده يسـارع فيسعى بالايقـاع بطاهر لدى المأمون ، فانه مـا إن قتل طاهر الامين حتى دخل الفضل يقول للمأمون : مـا فعل بنا طاهر ؟ سلّ علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عقيرا (١) .

وواصل الفضل جهده لإخضاع بغداد له ، ولإبعاد القائدين العظيمين عن العراق ، فأوعز الى المأمون أن يولى الحسن بن سهل أخـا الفضل كور الجبال والعراق والحجاز واليمن ، فاستجاب المأمون وكتب الى طـاهر وهرثمة أن يسلما ما فى أيديهما الى الحسن (٢) .

ولم يكتف الفضل بحرمان طاهر وهرثمة من الاستمتاع بثمـار كفاحهما الطويل ، بل كتب إليهمـا ليشتبك كل منهمـا فى حرب جديدة ، فوجه طاهرا لمحـاربة نصر بن شـبث (٣) ووجه هرثمة لمحـاربة أبى السرايا واستمر يدس عليهمـا لدى المأمون . فقـال عن طاهر : إنه غير جاد فى محاربة نصر ، وقال عن هرثمة : إنه هو الذى أوعز لأبى السرايا فى التمرد . وكان أبو السرايا من أتبـاع هرثمة ثم خرج عليه مع بعض الجند لتأخر أجورهم كمـا سبق القول ، وعلى الرغم من هـذا الدس الذى قام به الفضل فان النصر كان حليف القائدين العظيمين فى هـذه المعـارك الجديدة ، فقـد قتل أبو السرايا واسـتأمن نصر واستسلم للمأمون . (٤) .

وأدرك هرثمة مـا يراد به ، وأدرك أن المأمون مغلوب على أمره ، وأن الأخبار تحرف عليه ، ولا تصـله صحيحة ، فقرر أن يسـير الى

---

(١) الجهشيارى ص ٣٠٤ .
(٢) ابن الأثير ٦ : ١٠١ .
(٣) هو نصر بن شبيب كما يذكره ابن خلدون (٣ : ٢٤١) .
(٤) انظر ابن الأثير — ٦ : ١٠١ وما بعدها وابن خلدون : العبر ٣ : ٢٤٢ ومـا بعدهـا .

المأمون ، فجاءته كتب الفضل فى الطريق بأن يرجع للشـــام ، فأبى وقال : لا أرجع حتى آتى أمـــير المؤمنين ، وقرر أن ينقل للمأمون مـــا يدبره الفضل بن سهل ومـــا يكتم عنـــه من الأخبـــار ، وألا يدع المأمون حتى يرده الى بغداد ليتوسط ملكه ، فعلم الفضل بذلك ، فقال للمأمون : إن هرثمة قد أثقل عليك البلاد والعبـــاد وجاء مشاقا مخالفـــا ، وأنه إن ترك كان مفســـدة لغيره ، فتغير قلب المأمون على هرثمة ، فلمـــا بلغ هـــذا مرو خشى أن يكتتم قدومه عن المأمون فأمر بالطبول فدقت لكى يسمعها الخليفة ، فسمعها وقال : مـــا هذا ؟ فقال الفضل : هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق ، فزاد حنق المأمون ، فلمـــا قدم أدخله المأمون وصرخ فيه : وضعت أبا السرايا ليثور علىّ ، ومالأت أعدائى ، فرغب هرثمة أن يتكلم فلم يقبل منه كلام ، وأمر به فضرب أنفه ، وسحب من بين يديه ، وسجن ، ثم دس الفضل اليه من قتله (١) .

وحسّن الفضل بن سهل للمأمون أن يجعل على بن موسى الرضا ولى عهـــد المسلمين والخليفة من بعـــده ، فاستجاب المأمون لذلك ، كمـــا أمر جنده بطرح الســـواد ولبس الشـــارة الخضراء ، وكتب بذلك الى الآفاق (٢) .

وقد فسّر نعيم بن حازم هـــذا التصرف من الفضل بن سهل بقوله : إنك إنمـــا تريد أن تزيل الملك عن بنى العباس الى ولد على ، ثم تحتال عليهم ، فتصيّر الملك كسرويا (٣) .

وكان لهـــذه الأعمال التى أتى بهـــا الفضل ، وبخاصة تحويل الخلافة من العباسيين الى العلويين ، صدى كبير فى العالم الاسلامى ، ولم يطق أهل بغداد صبرا على هـــذا العبث ، وخطر لكثير منهم أن يرحلوا الى

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١٠٧ . وابن خلدون ٣ : ٢٤٥ .
(٢) ابن الأثير ٦ : ١١١ .
(٣) الجهشيارى ص ٣١٣ .

مرو ليخبروا المأمون بالحالة السيئة التى وصلت اليها الدولة ، والتى كانت نتيجة السياسة الغاشمة التى سار عليها الفضل ، ولكن هؤلاء خافوا أن يلاقوا نفس المآل الذى لاقاه هرثمة وهو يسعى لمثل هذا الهدف ، فاجتمع أهل بغداد ، وخلعوا المأمون ، وبايعوا ابراهيم بن المهدى بالخلافة ، ولم يتخلف أحد من بنى هاشم عن مبايعته ، وبعد أن أخذ ابراهيم البيعة استطاع أن يسيطر على السواد والكوفة والمدائن وما حول ذلك (١) .

ولم ينقل الفضل الى المأمون شيئا من هذا . وإنما موه عليه وكذبه ، وكان لا يدخل على المأمون إلا من وثق الفضل فيه ، ومن ثم بقيت الأخبار بمنأى عن المأمون ، وكان « على الرضا » ممن يدخلون على المأمون ، فأخبره بما الناس فيه من فتنة وقتال منذ قتل الأمين ، وبما كان الفضل يستر عنه من أخبار ، وأخبره أن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون عنه : مسحور ، مجنون ، وأنهم قد بايعوا ابراهيم بن المهدى بالخلافة ، فقال له المأمون : لم يبايعوه بالخلافة ، وإنما صيروه أميرا يقوم بأمرهم ، فأعلمه أن الفضل قد كذبه فى هذا التبليغ ، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وابراهيم ، وقال للمأمون : إن الناس ينقمون عليك مكان الفضل والحسن منك ومكان بيعتك الى بولاية العهد ، فقال : ومن يعلم هذا غيرك ؟ فقال : يحيى بن معاذ ،وعبد العزيز بن عمران ، وغيرهما من وجوه العسكر ، فأمر بإدخالهم فدخلوا ، فسألهم عما أخبره به على الرضا ، فلم يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل ألا يعرض إليهم ، فضمن لهم ذلك كتابة ، فأخبروه بالبيعة لابراهيم بن المهدى ، وأن أهل بغداد قد سموه الخليفة السنى ، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان على بن موسى منه ، وأعلموه بما فيه الناس ، وبما موه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة إنما

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٢ ، وابن الأثير ٦ : ١٠١ ، وابن خلدون ٣ : ٢٤٨ .

جاء لينصحه ، فقتله الفضل ، وأضافوا للخليفة أنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة من يده ، وأعلموه أن طاهر بن الحسين قد أبلى فى طاعته مـا يعلمه ، فأخرج من الأمر كله ، وجُعل فى زاوية من الأرض بالرقة ، لا يستعان به فى شىء ، وأنه لو كان ببغداد لضبط الملك (١) .

فأدرك المأمون حقيقة الأمر ، وعرف الفخ الذى نصبه له الفضل ، وأنكر عليه تمويهه الأمر وكذبه عليه ، وتحركت شخصية المأمون القوية التى تكره أن تخضع ، وتأبى أن تقنع بالاسم وتدع للغير القول والفعل ، وعزم أمره على أن يحطم ذلك السجن الذى نسجه حوله الفضل وأعوانه ، وقرر أن يرحل الى بغداد ، ووجد من الحكمة أن يدارى أمره ، وألا يجاهر بالعداء حتى يفلت من هـذا الحصار ، وأن يدعى أنه ذاهب الى بغداد ليعيد سلطان الحسن بن سهل على المارقين ، وبدأ المأمون رحلته فى أوائل سنة ٢٠٢هـ تلك الرحلة التى لهـا شأن كبير فى التاريخ .

رحلة تاريخية :

سـار المأمون من مرو ، ومعـه حاشية كبيرة على رأسها الفضل ابن سهل ، ومعـه كذلك بعض الجنود ، وظل الركب يسـير حتى وصل سرخس فحط الركب رحاله ، وفيهـا دبر المأمون مَنْ فتك بالفضل بالحمام فى شعبان سنة ٢٠٢هـ ثم تظاهر المأمون بالحزن العظيم ، وطلب قاتليه حتى وجدهم فقتلهم فيـه ، وأرسل رءوسهم الى الحسن بن سهل مع تعزية رقيقة .

ثم استأنف الركب سـيره الى طوس فحط رحاله مرة أخـرى ، وفيهـا مات على الرضا فجأة ، آخر صفر سنة ٢٠٣ من عنب أكله ، ويقال إن المأمون دس له السم فيه ، والانسان يتردد فى قبول هـذا الاتهام ، ولكن الظروف المحيطة ربمـا دفعت المأمون الى ارتكاب مثل ذلك العمل ، وبخاصة أنه بعد موت على الرضا بادر فأرسل الى بنى العبـاس وأهل

(١) ابن الاثير ٦ : ١١٨ وابن خلدون ٣ : ٢٤٩ .

بغداد يعتذر مِنْ عهده لعلى الرضا ويخبرهم أنه قد مات ، ويدعوهم الى الرجوع لطاعته (١) .

واستأنف الركب سيره من طوس ، وكتب المأمون الى طاهر بن الحسين أن يوافيه من الرقة ، فسار اليه فى جيش عظيم ، وفى النهروان التقى المأمون وطاهر وأعيان أهل بيته والقواد ووجوه الناس الذين انفضوا من حول ابراهيم بن المهدى عندما عرفوا أن المأمون عائد الى بغداد ، وأن الفضل وعليا الرضا قد قُضِىَ عليهما ، وأما ابراهيم بن المهدى فانه لما رأى ذلك توارى واختفى ، وسار هذا الركب العظيم الى بغداد فدخلها فى صفر سنة ٢٠٤هـ وقد التف الناس جميعا حول المأمون ، وعادت الى الخلافة سطوتها ، ولم يبق من آثار الماضى سوى لبس الخضرة الذى خلعه المأمون بعد بضعة أيام من وصوله استجابة الى رجاء قواده وأهل بيته (٢) . وعاد الى الشارة السوداء .

المأمون وحرمة الدم :

قلنا فيما سبق إن ظروفا كثيرة دفعت خلفاء هذا العصر الى الأخذ بالشبهة ، والى تدبير المؤامرات للقضاء على من خيفَ منه المروق ، أو ظهرت منه بادرة عقوق ، وعلى هذا فتك المنصور بأبى مسلم الخراسانى

---

(١) كان على بن موسى من خيرة العلويين ، وأشرفهم ، وأنبلهم ، وأقلهم أطماعا ، وكان يقول : ينبغى لمن أخذ برسول الله أن يعطى به ، ولم يقل فيه أبو نواس شعرا قط ، فسأله بعض أصحابه : ما رأيت أوقح منك ، ما تركت خمرا ولا طردا ولا معنى الا قلت فيه شيئا . وهذا على بن موسى الرضا فى عصرك لم تقل فيه شيئا . فقال أبو نواس : والله ما تركت ذلك الا اعظاما له : وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله ، ونظم أبو نواس هذه المحادثة فى قوله :

قيل لى : أنت أحسن الناس طرا ... فى فنون من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديح ... يثمر الدر فى يدى مجتنيه
فلماذا تركت مدح ابن موسى ؟ ... والخصال التى تجمعن فيه ؟
قلت لا أستطيع مدح امام ... كان جبريل خادما لأبيه

(٢) ابن الاثير ٦ ، ١١٨ وما بعدها وابن خلدون ٣ : ٣٤٩ .

وبعبد الله بن على وابن المقفع وأبى أيوب المورياني ، وفتك الرشيد بالبرامكة • ويمكن أن يُعَدّ في هذا الباب أيضا تلك المؤامرة التي دبرها المأمون للقضاء على الفضل بن سهل ، وتلك التي راح ضحيتها على الرضا •

ولكن من الواضح أن المأمون كان لا يحب سفك الدماء وكان يكره الغدر ، ويميل الى العفو والتسامح ، وأنه إن كان قد لجأ الى التآمر للتخلص من بعض الأفراد ، فان ظروفا قاهرة كانت تدفعه ، ومشكلات عظيمة كانت تؤثر فيه ، فهو لم يرتكب هذا العمل ليشفى به غلة ، أو يرضى نفسا متعطشة للدم ، لا ، ولكن المأمون ارتكبه ليسكّن به فتنة ، ويهدىء ثورة فلم يكن القتل هنا للتشفى والانتقام ، وإنما كان للضرورة الملحة التي تحتمه ، ومن أجل هذا عفا عن الفضل بن الربيع والحسين بن الضحاك كما مرّ •

وظاهرة أخرى بدت في أعمال الفتك التي أوعز بها المأمون ، فان فتكه كان مقصوراً على من يخشى أذاه ، لا يتعداه الى أهله أو الى مصادرة أمواله •

وظاهرة ثالثة كانت تلازم المأمون في هذا الشأن كذلك ، وهى أنه كان يبدو وكأنْ لا يَدَ له فيما حدث ، ولا تدبير منه ، فهو لا يجاهر به بعد فعله ، ثم إنه كان يبذل أقصى الجهد ليخفف وقع المصاب على أهل ضحيته وذويه • فقد روى أنه بعد موت الفضل دخل على أمه فوجدها تبكي ، فقال لها : أنا ابنك مكانه يا أماه فدَعِي البكاء ، فقالت : إن ابناً ترك لى ابناً مثلك لجدير أن يُبْكَى عليه (١) •

---

(١) ذيل الامالى ص ٨٦ •

ولم يكتف المأمون بهـذا ، بل استوزر الحسن بن سهل بعد أخيه ، ومال اليه ، وتزوج ابنته بوران كما مر (١) •

وأما بالنسبة لعلى الرضا فإن المأمون زوج ابنته الأخرى من ابن على الرضا ، وظل يغدق على العلويين ويحسن اليهم وإلى شيعتهم وكان عهده بالنسبة لهم عهد يسر ورخاء ، وقد مر الحديث عن ذلك •

---

(١) الفخرى ١٩٧ •

دراسةٌ نَفْسِيَّةٌ

عن

مركز التآمر الذى مثّله الربيع وابنه

هناك رأى يقول بالتفسير المادى للتاريخ ، ورأى آخر يتجه فى تفسير التاريخ اتجاها روحيا ، وهنا سنرى تفسيرا آخر للتاريخ هو التفسير النفسى (١) ، فلنحاول فى هذا الفصل أن نقوم بدراسة نفسية ، لعلها تقودنا الى فهم أحداث هذا العصر ، وذلك بواسطة دراسة أعماق الربيع بن يونس وابنه الفضل ، لنستكشف الانفعالات التى كانت تضطرب فى نفسيهما ، ونشاهد العوامل التى دفعتهما الى تدبير هذه المؤامرات ، والقيام بهذا الدور القاسى المشين، وقد أتيح للرجلين نعمة سابغة فى قصور الخلافة ، وأسندت الى كل منهما أرقى المناصب فى الدولة ، فلماذا كانا يجدان اللذة فى السعاية بالشر ، ويحسان بالسعادة فى إشقاء الآخرين ؟

والذى يبدو لى أن مركب النقص Inferiority Complex أو الإحساس بالنقص Inferiority Feeling كان آفة هذين الرجلين ، وبسببهما حَنِقَا على نظرائهما ، ومشيا فى قصور الخلفاء بالسعاية والوشاية : •

ما هو مركب النقص ؟ وما هو الاحساس بالنقص ؟ وكيف يتكوّن هذا ويوجد ذاك ؟ وما نتائجهما ؟ وأثرهما فى علاقات الفرد بالآخرين ؟ •

من أجل هذا يتحتم أن نرجع الى علم النفس لنتلقى الاجابة عن هذه الأسئلة :

---

(١) اقرأ ما كتبناه عن « تفسير التاريخ » بمقدمة هذه الموسوعة بالجزء الاول منها .

رأى Adler في تكوين مركب النقص :

ونبدأ أولا بتبيـان الفرق بين مركب النقص والاحساس بالنقص ، فمركب النقص عقدة لاشعورية ، تبقى كامنة فى لا شعور الفرد وتظهر نتائجها فى تصرفاته ، دون قصد منـه أو إعداد شعورى ، ويميل كثير من أساطين علم النفس الى الاعتقاد بأن العقد اللاشعورية عموما تتكون فى طفولة الشخص ، وبخاصة فى السنين الخمسة الأولى من حياته ، والطفل فى حياته الأولى يقظ تماما ، فهو يسجل كل مـا يحيط به ، على الرغم من أنه يبدو صغيرا ساذجا ، وتتكون عنده فى هـذه الفترة العقد النفسـية ومركب النقص إذا وجد هناك مـا يدعو لها ، ويبرز Adler (١) الكلام عن الضعف الطبيعى الذى يبدأ به الطفل ، ذلك الضـعف الذى يتزايد إذا عومل الطفل معاملة سيئة ، أو صـادف بيئة يحس فيهـا أنه غير محظوظ أو غير سعيد ، أو كان به نقص عضوى Physical أو إحساس بنقص وإن لم يوجد النقص ذاته ، ومن الأمثلة التى يوردهـا Adler للمعاملة السيئة التى تضاعف عوامل الضعف الطبيعى فى الطفل ، الزجر والانتهار ، والتهكم ، والاستهزاء والقسوة •

ويستمر Adler (٢) فى كلامه فيقول : إن هـذه المضاعفات التى حدثت بالطفل ، وجعلته أكثر إحساساً بضـعفه ، وأنشـات مركب النقص فيه ، تدفعه الى طريق من ثلاثة :

١ — أن يصاب بصدمة عصبية تجعله يميل الى الإذعان والخضوع الى بيئته ، والاقتناع بتأخره عن أقرانه •

٢ — أن يعمل طيلة عمره ليعوض مـا به من نقص •

---

(١) Individual Psychology : Psycho - Analysis p. 200.

(٢) Ibid p. 201.

٣ — أن يتصارع مع البيئة التى يعيش فيهـا ، فيكون دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه ، ويَسْهُل عليـه أن يتراجع وينهزم اذا ضعف عن الهجوم •

ويظل الطفل بعد مـا يشبّ متأثرا تأثرا لا شعوريا بمـا سجله إبان السنوات المبكرة من حيـاته ، ومن أجل هـذا نجد الطفل الذى عومل معاملة سيئة فى طفولته يصـير عندما يكبر أبا مستبدا ، أو زوجا قاسيا طاغية ، لينفس عن الضغط الذى احتبسه فى نفسه أيام طفولته (١) •

هـذا عن مركب النقص ، أما الاحساس بالنقص فهو مظهر شعورى ، يشعر به كل شخص عادى فى مواقف كثيرة من حياته العـادية ، دون توقف على سنّ معينـة ، وهذا الشعور قد يزيد عن الحد العـادى ، فينقلب الى سمةٍ من سمات الشخصية المَرَضية ، فيشعر المتصف بهـذه السـمة دائماً أنه غير قادر على مجاراة غيره بالطرق المشروعة ، فيعمد الى الوسائل المستترة التى يستطيع عن طريقهـا أن ينال من منافسه •

ويقرر Adler (٢) أن الانسان يجهد نفسـه ليتفوق عـلى الآخرين ، وأن هـذه الرغبة فى التفوق تنمو مع نمو الشخص ، لأنهـا ضرورة ذاتية للحياة نفسها ، فهو دائما يكافح طلبا للغـاية ، لينقل نفسه من النقص الى الكمال ، ويستمر الانسـان فى هـذا النضال السلمى مـا لم تقف عقبة فى سبيل نجاح محاولته ، فاذا اعترضته صعوبات وعقبات من جهة الآخرين ، فان ذلك يؤدى به إلى الغضب الذى يتمخض عنـه سلوك عدائى •

والشخص الذى تكوّن فيـه مركب النقص فى طفولتـه أو أحس بالنقص فى أى فترة من فترات حياته ، وحاول أن يعوض هـذا النقص

---

(١) Ibid p. 207.
(٢) Ibid pp. 223-224.

عندمــا كبر فاعترضته عقبات من جهة الآخرين ، هــذا الشخص اذا كان ذكيا موهوبا ، متفوقا ظاهرا فى الناحية العقلية ، فان اصطدامه بمن يعوقه عن الوصول الى الكمــال يكون عنيفا قاسيا ، وربمــا لجأ الى طرق شتى من الانحراف ، ليعبر عمــا يخالج نفســه من نزعات مكبوتة كالحيل والكيد ، دون اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية (١) .

Hadfield والطفولة :

وهناك ناحية أخرى وثيقة الصــلة بموضوعنا الذى نتحدث عنــه شرحها بإفاضة Hadfeild (٢) وموجزها « أن الطلب الرئيسى الذى يحتاج اليــه الطفل هو الحمــاية والأمن ، وتلك حاجة من الحاجــات الطبيعية ، إذ أنه خلال طفولته عاجز طبعــا عن حماية نفســه وإمدادها بمــا يحفظ عليها الحياة ، ومن أجل هــذا كان محتاجا لمن يحميه ، ويقيه الخطر ، ويمــده بالطعام والشراب ويهيىء له العناصر اللازمة لحياته ، وحاجة الطفل ليست حيوية فقط ، ولكنهــا أيضا نفسية ، فهــو لا يحتاج الى الحماية والأمن فحسب ، ولكنه يحس بهذه الحاجة .

« والذى يحمى الطفل عــادة ويمده بحاجاته هو الأم ، لأنها تستجيب بطبعها الى هتافه الصامت وتكمل نقصه ، وتقوى ضعفه بإحاطته بجو من الحب ، فتقضى الأم بذلك حاجات الطفــل ، لا على أنهــا واجبات تؤديها ، وانمــا على أنها لذة تمارسها ، إذ يدفعها حبهــا له الى رعايته ، وتجد فى ذلك سعادة لهــا ونشوة ، هذا من جهة الأم ، وأمــا من جهة الطفل فان حاجته الى الحمــاية والطعام .. تصبح عنده وسيلة ينشد بها مــا هو أعظم عنده منها ، وهو حب أمه وشغفها به ، وهو يبكى لتسرع اليــه فيحس أنهــا تحبه ، ويترتب على ذلك أن يصبح حب الأم للطفل أهم

---

(١) انظر الدوافع النفسية للدكتور مصطفى فهمى ١٥٧ — ١٥٨ .

(٢) Psychology and Mental Health pp. 121 abridged.

مطالبه ، والمحور الهـام فى حياته ، وسيترتب على هـذا الحب أن تحميه الأم ، وتمده بمـا يحتاج إليه •

« وعندما يتأكد الطفل من حب أمه له ، ومـا يترتب على هذا الحب من حماية ووقاية ، تتربى فيه الثقة بالنفس ويستطيع — فى يقين من أنها ترعاه وتحميه — أن يواجه الحيـاة ، ويلقى بنفسه فى متاعبهـا دون تهيب • لأنه واثق من أنها ستنشله إذا أخفق أو كبا ، وهو بمواجهته للحياة هكذا يهيىء نفسـه للمستقبل ، ويلائم بين نفسـه وبين الحياة ، وتتكرر مواجهته للحياة على هذا الوضع ، فيعتاد ذلك ويحس بأنه تخلص رويدا رويدا من حاجته للحماية ويكون حريته واستقلاله • ويدخل معمعة الحيـاة ، ويمارس ألوانا من النشاط وصنوفا من المخاطر ، محتملا العبء والتبعة وحده دون اعتماد على شخص آخر •

« والطفل يعكس مـا يراه فى طفولته ، فاذا أحس بأنه محبوب ، تعلم هو أن يحب الآخرين ، وعلى هـذا فالطفل الذى حظى بحب أمه فى طفولته ، ينشأ اجتماعيا يحب الناس ، ويصير وفيا لأصدقائه ، قرينا موفقا فى زواجه •

« فاذا مـا حرم الطفل هـذا الحب ، كانت نظرته للحيـاة نظرة مغايرة ، وبدت تصرفاته غير عادية ، وغمرته حالة من الاضطراب النفسى ، ﻓﺘﻨﻘﺼﻪ الثقة ليواجه الحياة بوضوح ، وتشمله حساسية الخشـية والخوف • فيحس أنه غير قادر على تحمل المسئوليات ، ومواجهة الصعاب ، فلا يلقى بنفسـه فى المخاطر ، ولا يمارس أنواعا من التجارب والتدريب ، لأنه غير مطمئن الى من ينشله اذا تورط ، فيشب وهو طفل فى حـذره وخشيته • ويكون كبير الاستعداد ليصبح عصبيا حاد المزاج •

« وحرمان الطفل الحب يجعله لا يحب الآخرين ، فمـا دام لا ينـال حبا لا يستطيع أن يمنحه ، وإذا حرم حب الآخرين فانه يحب نفسـه

ليعوضها مـا فقدته ، وبهـذا يصير أنانيا مُبغِضا غيره ، كمـا تؤدى به هـذه الظروف فى الغالب الى أن يكون عصبيا ثوريا ، ثم إن حرمان الطفل مَن يحميه ويقيه ، يجعله يحس بأنه مهدَّد ، عُرْضة لعدوان الآخرين ، ومن هنـا ينظر للعالم نظرة عدائية وتشب فيه هذه الخصلة فيتصدى للناس ويعاديهم » :

الربيع بن يونس وابنه الفضل فى ضوء الدراسات النفسية :

تلك خلاصة الفكرة التى أوضحها Hadfcild وهى — مع ما سبقها — تضع أيدينا على العلة فى نفس الربيع بن يونس ، هذه العلة التى وَرِثها عنه ابنـه الفضل ، وهاك عن هذا بعض البيان :

لقد كانت طفولة الربيع بائسة حقاً . طفولة تعسة شقية ، فهو كما يقول الأصفهانى (١) نقـلا عن آل أبى فروة : « لقيط ، وُجِد منبوذاً ، فكفله يونس بن أبى فروة » أمـا الجهشيارى فيروى رواية أخرى فى ذلك الموضوع وهى : كان يونس بن أبى فروة شارياً شاطراً بالمدينة (٢) . فعلِق أمةً لقوم بهـا ، فوقع عليهـا ، فجاءت بالربيع واستعْبِد الربيع ، ولم يكن ليونس من الأقرباء من يبتـاع الربيع ، فابتاعه زياد بن عبد الله الحارثى خال أبى العباس السفاح (٣) .

ويتحدث الربيع عن نفسـه فيقول : كنت فى خمسين وصيفا أهدوا للمنصور ، ففرَّقنا فى خدمته ، فصرت الى ياسر صاحب وضوئه أعاونه فى عمله (٤) .

---

(١) الاغانى ١٧ : ١٢١ .

(٢) شاريا : نسبة الى الشراة وهم الخوارج : وشاطرا : نسـبه الى الشطار وهم جمـاعة كانوا يقومون بأعمال السلب السريع .

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٢٥ .

(٤) الأغـانى ٦ : ٨٢ .

تلك هى طفولة الربيع القاتمة : لقيط منبوذ ، أو عبد اشترى بالمال أو أحد خمسين وصيفا أهدوا للمنصور ، ثم يكون حظه أن يلتحق بمن يحمل الإبريق للخليفة ، وكل هذا يدلنا على أن الربيع عانى طفولة مرة ، وكان هدفا لكثير من الزجر والانتهار والتهكم والاستهزاء والقسوة ، وفى قصر زياد بن عبد الله الحارثى ، ثم فى قصر الخليفة ، رأى غيره من الأطفال السعداء الباسمين المحظوظين • ووازن بين ذلك وبين حرمانه وتعاسته وما يعانيه من إهمال وازدراء ، فتكون عنده مركب النقص •

هذا عن الربيع ، أما الفضل فقد كان مثقلا بالعبء الذى ورثه له أبوه ، لقد كان ابن لقيط ، وطالما عانى فى طفولته من جراء هذا العار •

والربيع بن يونس ذكى موهوب بلا مناضل ، ولذلك لم يقنع بالحالة المتواضعة التى نشأ فيها ، كما لم يرقه أن يبذل العمر كله مجدا ليعوض ما به من نقص ، وإنما أراد الطفرة ، وحاول أن يصل بسرعة الى هدفه وبغيته ، ولذلك لجأ الى الطريق الأخير الذى تحدث عنه Adler فتصارع مع البيئة التى عاش فيها ، وكان دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه عن الوصول الى غرضه ، وسار الفضل بن الربيع سيرة أبيه ، واتضحت فيه نظرية Adler سالفة الذكر لأنه عندما فشل لم يثبت أمام العاصفة ، وإنما تراجع واختفى •

وهكذا عانى الربيع وابنه الفضل طفولة تعسة كونت فيهما مركب النقص ، فاذا سرنا معهما الى عهد الرجولة ، وجدنا أنه لم يتوافر لهما فى هذا العهد راحة النفس ورضا الضمير ، على الرغم من أن الظروف قذفت بهما الى المجد ، ووضعتهما فى أسمى المناصب ، وعلى العكس قذفت بهما هذه المناصب الى العيش مع لدات وأتراب يفضلونهما فى كثير من الصفات التى كانت ذات خطر عظيم فى تلك الأيام ، لقد عاشا مع البرامكة ومع آل سهل ، ومع معن بن زائدة ، ومع معاوية بن يسار • ومع طاهر بن الحسين وغيرهم من السادة والقادة والنابهين • فظهر فى

الربيع وابنـــه الإحساس بالنقص بالقيـــاس الى هؤلاء الأتراب ، ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، إذ لم يَغْفُل أتراب الربيع وابنه عن انحطاط هذين وانحدارهما عن النظراء واللدات ، فكثيرا ما نكأ هؤلاء جراح الربيع والفضل ، وكثيرا مـــا قذفوهمـــا بالحقيقة المرة ؛ قال الربيع يوما لرجل كرّر الترحم على أبيـــه فى حضرة المنصور : كم تكرر ذكر أبيك وتترحم عليه ؟ . فقـــال له الرجل : إنك معذور فى نقدك ، لأنك لم تذق حلاوة الآباء . وتنـــازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى فى حضرة الرشيد ، فقـــال جعفر للفضل : يالقيط ، فاضطرب الفضل ، وقال اشهد يا أمير المؤمنين ، فقـــال جعفر للرشيد : تراه عند من يقيمك هـــذا الجـــاهل شاهداً يا أمير المؤمنين ، وأنت حاكم الحكـــام (١) . فهو فى هـــذه القصة طعنه فى نسبه وطعنه فى علمه ومعرفته بمخاطبة الملوك .

وأراد الربيع وابنـــه أن يكتمل لهمـــا المجد ، ولكن هيهات أن يتم هـــذا وفى القصر معاوية بن يســـار ، والبرامكة ، وغيرهم من الأمجاد المغاوير ، ويقول ابن خلكان (٢) : إنه لمـــا آل الأمر للرشيد ، واستوزر البرامكة ، كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن له من المقدرة مـــا يدرك به اللحاق بهم ، فكان فى نفســـه إحن وشحناء ، فسعى بهم ، وأوغر قلب الرشيد عليهم .

لقد تكوّن مركب النقص فى الربيع وابنـــه منذ طفولتهمـــا التعسة ، فلمـــا شبّا وقذف بهمـــا حظهما وذكاؤهما الى الأمام صُدِما بالبيئة الجديدة التى كوّنت فيهمـــا الاحساس بالنقص ، ولم يكن لهمـــا من المقدرة مـــا يشجعهما على مواجهة هـــذه الظروف وجها لوجه ، ثم كانت لهمـــا موهبة ظاهرة فى الناحية العقلية ، ومن أجل هـــذا ظهر الانحراف فى

---

(١) الجهشيارى ٢١٦ . وابن خلكان ١ : ٤١٢ .
(٢) وفيات الاعيان ١ : ٤١٢ .

التعبير عمـا بنفسيهما من نزعات مكبوتة ، فلجأ الى التحايل والكيد ، والدس ، دون أى اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية .

ومسألة أخرى نستقيها من كلام Hadfield سالف الذكر ، فلقد سبق القول إن الربيع كان لقيطاً ، أو أنه كان ثمرة لا لتقاء غير شرعى بين يونس ابن أبى فروة الشاطر الشارى وبين أمَة لقوم بالمدينة .. واشتراه زياد ابن عبد الله ، وسواء أكان هـذا أو ذاك فقد حُرِم الربيع أمه أو حُرِم حب أمه ، وهذا الحرمان — كما سبق القول — جعل الربيع حذرا ، لا يواجه العالم بصراحة ، وإنما يواجهه بغموض والتواء ، كما جعله أنانيا ، مبغضاً لغيره ، عصبياً ثورياً ، يحس بأنه هدف لهجوم الآخرين ، فبـادر بالهجوم عليهم ، وتعمقت فى نفسه نظرة عدائية بالنسبة للعـالم ، وقد توافرت كل هـذه الاتجاهات فى الربيع ، كمـا ورثهـا ابنه الفضل .

دراسة مقارنة بين آل الربيع وأتراب آل الربيع

بقى علينـا بعد هذا أن نقوم بدراسة مقارنة ، تبين لنـا مركز الربيع والفضل بين اللدات والأتراب فى هـذه البيئة الجديدة ، والذى أبادر فأسجله أن الدراسة التى قمت بهـا لأفذاذ الرجال فى هـذا العصر بينت لى بوضوح ، أن لدات الربيع والفضـل ونظراءهما كانوا يفضلونهما فى الصفات التى تسود بالقصور ، والتى كان يتغنى بها الشعراء ويمجدون ذويها : فى المحتد ، والكرم ، والبلاغة ، وقيادة الجيوش ، وسياسة الدولة ، وغيرها من الصفات التى تلزم ليتحلى بها من يتصدى لشغل هذه المناصب الرفيعة ، وإدارة هذه الدولة الفسيحة . ولنأخذ فى هـذه الدراسة التى كونت الاحساس بالنقص فى نفسى الربيع والفضل .

المحتـــد

كان المحتد وطيب الأرومة من أهم دواعى الفخر والتباهى فى تلك الأيام ، وكان الناس فى ذلك العصر — كشأنهم فى أغلب العصور التاريخية —

يتفاخرون بالأجداد ويهتمون بعزة المنبت ، وكان أقسى ما يَرمى به شاعرٌ شاعرا أو قبيلةٌ أن يصفهـا بأن أصلها غير عريق ، وأن منبتها غير طيب ، والذى يطالع مثلا نقائص جرير والفرزدق يرى أن كلا الشاعرين تحدث عن حسبه ونسبه فى أكثر قصائده . وفيما يلى مقتطفات قصيرة من أقوال الشعراء تدل على الاعتداد البالغ بالنسب والأرومة . قال الأعشى :

فَجَرَوْا على ماعَوَّدوا ولكلِّ عيدان عصارة (١)

وقال الأعجم :

قالوا : الأشاقر تهجوكم ، فقلت لهم :
ما كنت أحسَبهم كانوا ولا خُلقوا

وهم من الحسب الزاكى بمنزلة
كطُحلُب الماء لا أصلٌ ولا ورقُ

ويقول الفرزدق يهجو جريرا :

كم مـن أب لى يـا جرير كـأنه
قمـر المجرَّة أو سراج نهـار

ورث المكـارم كابرا عن كابر
ضخم الدسيعة يوم كل فخـار (٢)

ويقول جرير للفرزدق :

خـالى الذى اغتسر الهذيل وخيله
فى ضـيق معترك وضـيق مجـال

(١) حماسة ابى تمام ص ٣٥١ .
(٢) النقائض ٣٣٠ .

جئتنى بخالك يــا فرزدق واعلمن
أن ليس خالك بالغــاً أخوالى (١)

وقال البعيث ووهو حداش بن بشر يهجو جريرا :

وكل تراث المجــد أورثنى أبى
إذا ذكر الغالى من الحسب الجزْل

أغرُّ يبــارى الريح فى كل شــتوة
إذا اغبرَّ أقدام الرجال من المحــل

وإن لنــا جداً كريمــاً ونجــوة
تتم نواصيها الى كاهل عَبْل (٢)

وعمى الذى اختــارت معدٌّ فحكّموا
فألقوا بأرسان الى حكم عدل (٣)

فإذا مــا انتهينا من تقرير أهمية المحتد والأرومة ، فمــاذا تذكر لنا المراجع عن محتد الربيع وابنــه وعن محتد نظرائهمــا من كبــار الرجال فى بلاط العباسيين ؟ • •

لقد مر الحديثُ عن نسب الربيع وأرُومته ، ولكنــا لا ندعه قبلَ أن نضيف الى مــا سبق رواية هامة يوردهــا ابن طباطبا ، قال (٤) « • • • وبلغنى أن علاء الدين بن الجوينى صاحب الديوان كان ينتسب الى الفضلَ ابن الربيع ، فان كان قد انتحل هــذا النسب ففضيحة ظاهرة ، وإن كان حقاً فقد كان العقلَ الصحيح يقتضى ســتره ، فانه نسبٌ لا يوجد أرذلُ

---

(١) المرجع السابق ٣٢٤ .
(٢) نجوة : مرتفع : من الارض لا يناله السيل : كاهل : شرف وعبل : ضــخم .
(٣) النقائض ١٣٧ — ١٣٩ .
(٤) الفخرى ١٥٣ — ١٥٤ .

منــه ، فإن جده أبا فروة كان ساقطاً ، وكان عبداً للحــارث حفار القبور بالمدينة ، والحارث مولى عثمان بن عفان ، فأبو فروة عبدُ عبدِ عثمان ، وفي ذلك يقول الشاعر :

وإن وِلا كيسانَ للحــارثِ الذي
وِلي زمنــاً حفر القبــور بيثرب

وأبو فروة خرج علـَى عثمانَ يوم الدار ، وكفــاه بذلك عاراً ، فانظر هل ترى نسبا أسقط أو أرذل من هذا ؟ » .

ذلك هو أصل الربيع بن يونس وابنــه ، وهــذا هو محتدهما ، وقد كانا يشغلان أرقى المناصب في قصور الخلفاء العباسيين الأُوَل التي كانت تزدان بطائفة من ذوى الأصل العريق ، والمحتد الرفيع ، ومن هؤلاء :

البرامكــة :

ينتسب البرامكة كمــا سبق القول — الى أصل فارسى عريق ، إذ كانجدهم برمك سادن النَّوْبهــار ، وهو معبد المجوس ، فكــان يقوم بالإشراف الكامل عليه ، وبخاصة اعلى الشئون الدينية مثلما كان قصى وأولاده من بعده يقومون بسدانة الكعبة ، وهــذا العمل من أمجد الأعمال وأشرفهــا (١) . وفي نسب البرامكة يقول أبو الحَجْناء :

عند الملــوك مضرة ومنــافع
وأرى البرامك لا تضر وتنفــع

إن العروق إذا استسرّ بها الثرى
أشِر النبات بها ، وطاب المزْرَع

وإذا جهلت من امرىء أعْراقَه
وقديمَه فانظر الى ما يصنع (٢)

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٣٢١ والدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ٣ : ٤٩٠ .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٠٣ .

بنـو سهل :

بنو سهل ينحدرون من محتد عريق ، وأرومة شامخة ، يقول عنهـم ابن طباطبا (١) : إنهم من أولاد ملوك الفرس قبل الاسلام .

طاهر بن الحسين :

توضح القصة التالية سمو العنصر الذى ينتسب اليه طاهر ، حدث الجهشيارى قال (٢) : ندب الفضل بن سهل ، طاهرَ بن الحسين لقيادة جيش المأمون ، ومواجهة جيوش الأمين ، فلمـا عرف الحسين بن مصعب والدُ طاهر ذلك ، أنكره ، وقال لطاهر : الفتن لا يتعرض فيهـا إلا كل خامل ، لا أصل له ولا نباهة ، ليذكر فيهـا ، أو يُعطب فلا يبـالى ، وأنت مُلكك قديم مؤثّل ، فقـال طاهر لأبيـه : لم يذهب علىّ مـا قلت ، ولكنى خفت إن لم أقبل ما دُعيتُ اليه ، أن يقلّدَ الأمرَ غيرى ، وأضَمّ اليه ، فلأن أكون متبوعا أفضـلُ من أن أكون تابعاً .

تذكير الملوك بذمام متقـدم

نستعير هـذا العنوان من ابن عبد ربه (٣) ، فقـد أثبته ، وأورد تحته مـا يدل على أن الملوك كثيرا مـا يقدّرون الصنيعة التى قُدّمت لهم قبل أن يكون لهم التَّمَلّك ، ويذكرون العون الذى أمدّهم به سواهم إبان كفاحهم من أجل إقامة الدولة ، وقد كانت الدولة العباسية دولة ناشئة فى ذلك الحين ، وكان نجاح دعوتهـا أثراً من آثار الكفاح والنضـال لبعض رجالات هـذا العصر ، كـما كان بعض الخلفـاء العباسيين يحسـون بأنهم مدينون لبعض أتباعهم ممن أمدّوهم بالعون قبل الخلافة ، أو عملوا على تصيير الخلافة لهم ، فمن الطبيعى إذاً أن يفخر هؤلاء بمـا قدموا من

---

(١) الفخرى ص ١٩٦ .
(٢) الوزراء والكتاب ٢٩١ .
(٣) العقد الفريد جـ ٢ ص ١١٧ طبعة لجنة التاليف .

جهـد ، وأن يحس سواهم بأنه أقل قدرا ومقاما ، ويمكن القول على هذا إن الذين كانت لهم سابقة جهـد ومؤازرة ، حظوا بدالة على الخلفاء ، ومنزلة سامية لديهم ترجح كثيرا منزله هؤلاء الذين جاءوا ليجنـوا ثمرة دون أن يبذروا بذورا أو يغرسوا غرسا ، ومما حكاه ابن عبد ربه (١) أنه لما صارت الخلافة الى أبى جعفر كتب اليه رجل من إخوانه يقول :

إنا بطانتك الأولى كنا نكابد ما تكابد
ونرى فنعرف بالعدا وة والبعاد لمن تباعد
ونبيت من شفق عليك ربيئة والليل هاجد
هذا أوان وفاء ما سبقت به منك المواعد

فوقع أبو جعفر عن كل بيت منها : صدقت ، ثم دعا به وألحقه بخاصته •

فاذا استقر لنا هذا المعنى فإننا نتساءل ، ما الدور الذى قام به الربيع وابنه فى إقامة هـذه الدولة ؟ أو ما هى اليد التى كانت لهما عند أى من الخلفاء ؟ ثم ما هو دور الآخرين فى ذلك ؟

إن التاريخ يقرر بما لا يدع مجالا للشك أن الربيع وابنه ليس لهما أى فضل فى إقامة هـذه الدولة ، ولم يظهر الربيع وابنه إلا بعد أن تم النصر للعباسيين، بل إنهم كانوا حتى عهد المنصور خدما أو مساعدين للخدم ، وقد مر بنا ما حكاه الربيع من أنه كان فى خمسين وصيفا أهدوا للمنصور ففرقهم فى خدمته ، فصار الى ياسر صاحب وضوئه • • ثم أعجب به المنصور لخفته وذكائه فأعتقه وأحله محل ياسر (٢) •

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٨ .
(٢) الاغانى ٥ : ٨٢ .

وإذا فات الربيع وابنه هذا الشرف فانهمـا حاولا جاهدين أن يكون لهمـا نصيب فى تصيير الخلافة الى بعض الخلفاء ولكنهما فشـلا فى كل محاولة قاما بهـا ، فمن المحاولات التى قام بهـا الربيع مـا سبق أن أوردناه عن موقفه بعد موت المنصور وإجلاسه إياه جلسة الأحيـاء وهو ميت ... وكان بذلك يطلب الحظوة لدى المهـدى ، ويظن أنه يقدم للخليفة الجديد يداً عظيمة ، ولكن نصـيبه من المهـدى كان الازدراء والتأنيب ، فما كان له أن يسخر هكذا جثمـان الخليفة الراحل دون مـا يدعو الى ذلك .

وهناك محـاولة أخرى قام بهـا الفضل وهى إيعازه للأمين أن يخلع المأمون والقاسم ويجعل ابنه موسى وليا للعهـد ، وكان بذلك يرجو أن تكون له الحظوة فى قصر الأمين وبعـده فى بلاط ابنـه ، ولكن هـذه المحاولة أيضـا باءت بالفشل ودفع الأمين رأسه ثمنا للغدر الذى أوعز به الفضل بن الربيع .

وإذ سلب التاريخ الربيع وابنه هذا الشرف ، فماذا سجل لسواهما من رجالات القصر الآخرين ؟ ذلك مـا نجيب عليه فيما يلى :

البرامكـة :

للبرامكة دور هـام فى إقامة الدولة العباسية تحدثنـا عنـه كثيرا ، وكان نصيب خالد بن برمك فى ذلك نصيب الأسد ، فقد كان يخوض المعمعة ضد الأمويين ، وبفضله استطاع الجيش العباسى الانتصـار على الجيش الأموى الذى كان يقوده ابن ضبارة . هـذا عدا تنظيمه الخراج للدولة الناشئة ، وجمع المـال بيسر وسهولة للمناضلين من آل البيت .

وبعد خالد يجىء دور يحيى الذى استطاع أن يحفظ الخلافة للرشيد ، ومـا كان الرشيد لينالها لولا يحيى بن خالد ، وقد عبر الرشيد بنفسـه

عن ذلك أدق تعبير فى قوله ليحيى : يا أبت أنت أجلستنى فى هـذا المجلس ببركتك ، ويمنك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر (١) .

أبو أيوب الموريانى :

كان المنصور — كما سبق — يحس بفضل أبى أيوب الموريانى عليه ، فأبو أيوب هو الذى شفع له لدى سليمان بن حبيب ، فلما لم يقبل سليمان شفاعة أبى أيوب وانهالت السياط على المنصور ، ألقى أبو أيوب بنفسه عليه ، ولم يزل يسأل الأمير حتى أمسك عن ضربه ، ويقول ابن خلكان (٢) : « فاعتدّها المنصور له » .

طاهر بن الحسين :

ينحدر طاهر من أسرة كافحت فى جانب العباسيين منذ بدء حركتهم . يقول الجهشيارى (٣) : وكان المتولى لكاتبة الإمام عن الدعاة ، والقيّمُ بأمرهم ، وقراءةِ الكتب إليهم بمحضر جماعتهم ، طلحة بنُ زريق ، أخو مصعب بن زريق جد طاهر بن الحسين ، ويقول ابن خلكان (٤) : كان مصعب ابن زريق جد طاهر كاتباً لسليمان بن كثير صاحب دعوة بنى العباس ، فكان بذلك خير معين على نجاح الدعوة ، وتصيير أمورها الى النصر .

قيادة الجيوش وفنون الحرب

تعتمد الدولة الناشئة على القوة فى تثبيت دعائمها ، وتأمين حدودها ، ولهـذا كان من الطبيعى أن يحظى القواد والأبطال المغاوير بمكانة عظيمة لدى الخلفاء والملوك . فهل كان الربيع بن يونس وابنه الفضل ممن لهم خبرة بقيادة الجيوش وفنون الحرب ؟

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٣٣٧ .
(٢) وفيات الاعيان ١ : ٢١٦ .
(٣) الوزراء والكتاب ص ٨٤ .
(٤) وفيات الاعيان ١ : ٢٣٧ .

الإجابة هنـــا تنطلق قوية ، لا تردد فيهـــا ، وهى أن هذين الرجلين لم يكن لهمـــا فى ميادين الحروب مجـــال ، ولنعد الى يوم الهاشمية بشىء من التفصيل لنرى موقف الربيع فيه ولنســـمع رأى المنصور ، ومعن بن زائدة فى الربيع ، حدث الأصفهانى (١) قال : خرج المنصور راكبـــا بغلة يمسك بزمامها الربيع بن يونس ، فوثب الراوندية على المنصور ، وتغلبوا على غلمانه ، وكادوا يقتلونه ، فوثب معن بن زائدة وهو متلثم ، فانتضى ســـيفه ، وقاتل ، فأبلى بلاء حسنا ، ثم جاء تجـــاه المنصور ، وقـــال للربيع : تنحّ فانى أحق باللجـــام منك فى هذا الوقت وأعظم فيـــه غناء ، فقال المنصور : صدق فادفعه اليه : فأخذه ، فلم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحـــال ، فقـــال له المنصور : من أنت ، لله أبوك ؟ قال أنا طلبتك يا أمير المؤمنين ، معن بن زائدة . قال قد أمنك الله على نفسك ومالك فمثلك يصطنع ، وأخذه معه وخلع عليه .

وليس بغريب بعد هذا الذى سجله الأصفهانى ، أن ينقضى ذلك العصر كله بمـــا فيه من حروب ووقائع دون أن نجد الربيع يقود جيشا أو نرى الفضل يتقدم جندا ، فاذا تركنـــا الربيع وابنه الى سواهـــما من الأتراب والنظراء فماذا نرى ؟ .

معن بن زائدة :

نسير خطوة أخرى مع معن بن زائدة ، مستكملين رواية الأصفهانى عنه (٢) قال : ثم دعا جعفر معن بن زائدة يوما ، وقال له : إنى قد أملّكتك الأمر ، فكيف تكون فيـــه ؟ قال : كمـــا يحبّ أمير المؤمنين ، قـــال : قد وليتك اليمن فابسط السيف فى العصاة حتى يعودوا الى الطاعـــة والهدوء . قال : أبلّغ من ذلك مـــا يحب أمير المؤمنين . فولاه اليمن

---

(١) الاغانى ٩ : ٤١ .
(٢) المرجع السابق ، ونفس الصفحة .

وتوجه اليها وبسط فيها السيف حتى كان له فيها ما تمنى ، وما أرضى أبا جعفر المنصور .

يزيد بن مزيد :

هو ابن أخى معن بن زائدة ، وكان سيفا من سيوف بنى العباس ، يلقون به فى خضم الأحداث فيكسب النصر ويحرز الفوز ، وقد كان يزيد وعبد الله بن مالك وغيرهما من القواد أغروا الهادى بخلع الرشيد وتولية ابنه جعفر ولاية العهد (١) فأحفظ ذلك قلب الرشيد على يزيد ، ولكنه عفا عنه لبأسه وقوته ولحاجته الى مثله ، وقد سبق أن تحدثنا عن بطولة يزيد فى حرب الخوارج والإيقاع بالوليد بن طريف ، وفى يزيد وشجاعته يقول مسلم بن الوليد :

سد الثغور يزيد بعد ما انفرجت ... بقائم السيف لا بالختل والحيل
يغدو فتغدو المنايا فى أسنته ... شوارعاً تتحدى الناس بالأجل
قد عود الطير عادات وثقن بها ... فهن يتبعنه فى كل مرتحل
إذا انتضى سيفه كانت مسالكه ... مسالك الموت فى الأبدان والمقل
الزائديون قوم فى رماحهم ... خوف المخيف وأمن الخائف الوجل
كبيرهم لا تقوم الراسيات له ... حِلْماً ، وطفلهمُ فى هدْىِ مكتهل
اسلم يزيد فما فى الملك من أَوَدٍ ... إذا سلمت ولا فى الدين من خلل
وافخر فما لك فى شيبانَ من مثلٍ ... كذاك ما لبنى شيبانَ من مَثَلِ
لله من هاشم فى أرضه جبلٌ ... وأنت وابنك ركنا ذلك الجبل (٢)

---

(١) الجهشيارى ص ١٧٤ .
(٢) ديوان مسلم بن الوليد ص ٤٧ وأبو هلال العسكرى : ديوان المعانى ١ : ١١٦ — ١١٨ .

البرامكة :

سبق أن تحدثنا عن خالد بن برمك من ناحية خبرته الحربية ، وموقفه فى يوم « ابن ضبارة » ، ولن نعود للحديث عن ذلك ، ولكننا نضيف الى خالد موقفاً آخر من مواقفه الحربية الناجحة ، حدث الجهشيارى (١) قال : « أغزى المهدى ابنه هارون الصائفة سنة ١٦٣ هـ وأنفذ معه خالد بن برمك ، وقلد كتابته ونفقاته وتدبير أمر عسكره يحيى بن خالد ففتح عليهم ، وحسن أثر يحيى فيما قام به : وأحمد فعله وتدبيره » وكانت سن الرشيد فى ذلك الحين خمسة عشر عاماً فلا نزاع أن أمور الجيش كانت فى يد البرامكة من الوجهة العملية ، وأن ما حصل عليه الجيش من نصر إنما كان وليد خبرة خالد ويحيى ومعرفتهما بشئون الحرب .

وكان الفضل بن يحيى قائداً مبرزاً ، وقد سبق أن ذكرنا أن الرشيد ندبه سنة ١٧٦ هـ لمواجهة يحيى بن عبد الله حينما اشتد أمره ببلاد الديلم ، وقد استطاع الفضل أن يُنْزِل يحيى من حصونه بعد أن استعمل معه أساليب التحذير والترغيب والترهيب وغيرها ، حتى استسلم دون حرب مكتفياً بأمان الرشيد وحماية الفضل (٢) .

وقد سجل نصيب الشاعر هذه الحادثة فى قصيدة رائعة منها :

قاد الجياد الى العدو كأنها
رِجْلُ الجراد تسوقهن جنوبُ (٣)

من كل مضطرب العنان كأنه
ذئب يبادره الفريسةَ ذيبُ

تهوِى بكل مغاور عاداته
صدقُ اللقاء فما له تكذيب

---

(١) الوزراء والكتاب ص ١٥٠ .
(٢) ابن الاثير ٦ : ٤١ .
(٣) رجل الجراد : الجماعة الكثيفة منه : والجنوب : ريح الجنوب .

حتى صبحن الطالبيَّ بعارض
فيه المنايا تغتدى وتثوب
خاف ابن عبد الله ماخوفته
فارتد ثم أتاك وهو منيب
ولقد رآك الموتَ ، إلا أنه
بالظن يخطىء مرة ويصيب
فرمى إليك بنفسه فنجا بها
أجلٌ إليه ينتهى مكتوب
فكسوته ثوب الأمان وإنه
لا حبله واهٍ ولا مقضوب (١)

ولجعفر بن يحيى موقف كموقف أخيه ، فإنه لما هاجت العصبية بين النزارية واليمنية بالشام وأصبحت الدولة كلها مهددة بذلك الشر وتلك الفتنة ، قال الرشيد لجعفر : إما أن تخرج أنت إليها ، وإما أن أخرج أنا ، فخرج جعفر ومعه القواد والعساكر والسلاح والأموال ، فلما وصل الشام ظفر بجماعة ممن سعوا بالفساد ، وشرَّد آخرين ، وسرعان ما ملأت هيبته النفوس ، فسكنت الفتنة واستقامت الأمور (٢) وقد مدحه مسلم بن الوليد بقصيدة طويلة بعد أن هدأ الثورة وألَّف بين القلوب ، جاء فيها :

استفسد الدهرُ أقواماً فأصلحهم
مُحَمَّلٌ نكبات الدهر مُحتمِلَ
به تعارفت الأحياء وأْتلَفَتْ
إذ ألَّفتهم الى معروفه السبل
كأنه قمر ، أو ضيغم هصِرٌ
أو حية ذكَرٌ أو عارض هطِلُ (٣)

---

(١) الاغانى ٢٠ : ٣٢ .
(٢) المرجع السابق ، والجهشيارى ص ٢٨ .
(٣) ديوان مسلم بن الوليد ص ٥٧ .

وعن موسى بن يحيى يقول الأستاذ الخضرى(١) : وأما موسى بن يحيى فكان أشجع القوم ، وأشدهم بأسا ، لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه الفضل وجعفر إلا أنه كان فى تلك الدولة عاملا سرياً وقائداً باسلا ، وقد ولاه الرشيد الشام لما هاجت بها الفتن وظهر العصيان قبل الحادثة التى ذهب فيها أخوه جعفر فذهب إليه ومعه القواد والأجناد فاستطاع أن يخمد الثورة ويضع حداً للفتن ، وفى هذه الحادثة يقول الشاعر :

قد هاجت الشام هيجاً — يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها — بخيله وجنوده
فدانت الشام ذعراً — من بأسه وحديده

شئون السياسة والادارة

تحتاج الدولة الى ساسة حكماء ، وعباقرة موهوبين ، وذوى خبرة وكياسة يدبرون أمرها ، ويتصدون لحل مشكلاتها ، ويسهرون على سلامتها ، وحسن سير الأمور فيها ، فلتنظر نظرة الى كبار رجال هذا العصر ، لنرى النصيب الذى أسهم به كل منهم فى تدبير هذه الشئون ، ورعاية هذه الدولة :

الربيع بن يونس وابنه الفضل :

سنرى فيما يلى كيف كانت سياسة الربيع وابنه سياسة فاشلة ، قصيرة النظر ، والحقيقة أن الانسان ليلتمس لهما العذر ، فالسياسة علم عميق يحتاج الى سعة اطلاع وخبرة ودربة ، وأنَّى للربيع ذلك وقد كان بالأمس القريب خادماً صغيراً ووصيفاً حقيراً ؟ كيف يقاس بالبرامكة فى هذا الشأن ؟ والبرامكة ذوو المجد المؤثل ، قرعوا حكمة الفرس ، وعرفوا سياسة الدول قبل أن يصلوا الى خلفاء بنى العباس .

---

(١) محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ٢٥٩ — ٢٦٠ .

وأقرر أنه ليس للربيع بن يونس — فيما قرأت — موقف واحد يذكر فيشكر ، ويدل على سداد الرأى ، وعلو القدم فى شئون السياسة ، ومن خطل سياسته موقفه من جثمان المنصور عقب وفاته ، وقد مر الحديث عنه .

أما الفضل بن الربيع فقد أغرق فى الفشل وأبعد فيه ، وقد سجل التاريخ عليه أموراً تدل على عدم معرفته بسياسة الدول وتدبير الأمور فيها ، وقد أشرنا فى مواضع متفرقة الى بعض تلك الأمور ، ونعود هنا فنستوفيها موجزين القول فيما سبق أن أوردناه :

لما انقضى أمر البرامكة اختلت الأمور ، ولم يقو الفضل على الإشراف على قصر الخليفة وعلى مملكته ، إذ شغلته خدمة الخليفة ، وتدبير شئونه الخاصة ، فأضاع ما وراء ذلك من الشئون والأمور ، فتعطلت المصالح واضطربت الأمور ، وكانت الصحف التى ترد من الولايات لا تجد من يفضها ويجيب عنها ، وكان الرشيد يرى ذلك فيتمثل بقول الشاعر :

أقلوا عليهم — لا أبا لأبيكم —

من الملوم أو سدوا المكان الذى سدوا

ومن خرق الفضل أنه أسند قيادة جيش الأمين الى على بن عيسى ابن ماهان ، وقد كان هذا والياً على خراسان فأساء السيرة ، وعبث بالأموال والرجال ، فما إن ولاه الفضل قيادة جيش الأمين حتى جد الخراسانيون فى حربه خوفاً من أن يعود إليهم شره وعدوانه .

ولجأ الفضل بن الربيع الى بطل من أبطال العرب هو أسد بن يزيد ابن مزيد ليتولى قيادة جيوش الأمين ، ولكن أسداً — فى سبيل تقوية جنده — اشترط شروطاً خاصة فى الأموال والعتاد والرجال ، فغضب الفضل ، وسار به الى الأمين فأمر بحبسه (١) .

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٩٤ .

وكان الحسين بن على بن عيسى بن ماهان قد ثار على الأمين وخلعه ، ودعا للمأمون فى بغداد ، ولكن جند الأمين تغلب بعد حين على جند الحسين ، وأعيد الخليفة ، وقبض على الحسين وجىء به الى الأمين فعفا عنه ، ثم ظهر سوء تدبير الفضل وخرقه إذ عين الحسين هذا قائداً لجيوش الأمين التى تحارب المأمون ، ولكن نفس الحسين ما كانت تكن أى لون من ألوان الولاء للأمين بعد أن خلعه وحارب جنده ؛ ولذلك نجده يسارع بالهرب (١) .

فإذا تركنا الربيع وابنه لنعرج على الآخرين من النظراء والأنداد فإننا نجدهم أبرع سياسة ، وأكثر حكمة ، وأعمق فهما للأمور ، ونسارع — ونحن لا زلنا على ذكر من موقف الفضل بن الربيع من أسد بن يزيد بن مزيد — فنروى ما فعله الفضل بن سهل فى موقف مماثل ، روى الجهشيارى (٢) أن الفضل بن سهل ندب طاهر بن الحسين لقيادة جيوش المأمون فرآه متثاقلا ، فقال له : ما أمنيتك ؟ قال : أمنيتى أن أخطب على منبر فوسنج (البلدة التى كانت تسكنها أسرته بخراسان) ويكون فى صندوقى مائة ألف درهم . فولاه فوسنج وأمر له بمائة ألف درهم . وتركه أياماً ثم دعاه الى الشخوص فاستجاب ؛ فقال الفضل : إذا نالَ الرجل المنى ، خاض الدماء .

وقبل أن ندع الفضل بن سهل نروى ما ذكِر عنه من أنه أمضى ثلاثين سنة وهو يهذب نفسه فى تعلم الحكمة والمروءة والأدب فلا غرو إذاً اذا كتب له النجاح فيما قام به من أعمال (٣) .

ونترك الآن الفضلَ بن سهل الى معاوية بن يسار والبرامكة :

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٨٦ — ٨٧ .
(٢) الوزراء والكتاب ٢٩٠ — ٢٩١ .
(٣) انظر الجهشيارى ٢٨٠ — ٢٨١ .

معـــاوية بن يســـار :

داهية من كبار الدهاة ، وسياسى من أساطين الساسة ، شـــهد له عدوه القشيرى — والفضــلُ ما شهدت به الأعداء — بأنه ليس بجاهل فى صــناعته ، وأنه لأحذق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، وإنه لأعفّ الناس ، كان يقوم بأمر المهــدى فى حياة المنصور فجاءه المهــدى يومــاً فرحا مستبشراً ، وأخبره أن المنصــور ذكر له أنه كبر وعجز عن مباشرة الأعمال ، وأنه ينوى أن يدع الأمر له ، فقال معاوية : أيها الأمير ، اتق الله ولا تظهر لأمير المؤمنين قبولا ، فإنه إنما سبرك بما عرض عليـــك . وعلّمه إجابة يلقيها اذا عاد المنصـــور فحادثه فى هـــذا ، وبعد أيام قال المنصـــور للمهـــدى : هل فكرت فيما قلت لك ؟ قال المهدى : والله لا أتعرض لهذا الأمر ، ولا أنهض به ، ولا أغرّ أمير المؤمنين من نفسى ، ويُبقى الله أمير المؤمنين ، ويمتعنا بحيـــاته ، قال المنصـــور من صدّك عنـــه ؟ ومن ناظرت فيه ؟ فقال : شاورت معاوية ، فاستدعى المنصور معاوية وسأله وأمّنه فقال معاوية : إنى أدركت أنك ما عرضت عليه ذلك وأنت تريده ، وإنما أردت أن تختبر عقله ، قال المنصـــور : وكيف عرفت ذلك ؟ قال : من حرصـــك على العمل وحبكَ له ، وشغفك به ، وبذْلِكَ الجهد فى الليل والنهار للنظر فيه ، فعلمت أنك لا تدع شيئا يكون موقعه منك هذا الموقع لتؤثر به غيرك . قال المنصور : ما كنت أحسب أن أحـــدا يدركَ ما أدركت ، وقـــد أصبتَ الرأى ، باركَ الله عليك (١) .

وهـــكذا كان دهاء معاوية بن يسار بالغا المدى ، فحمى المهدىّ من سقطة أوشك أن يقع فيها ، ولولا فطنة معاوية بن يسار لكان من الممكن أن يسىء الأب الظن بابنـــه .

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٢٨ — ١٢٩ .

البرامكة :

لقد مرت بنا ألوان رائعة ، وأمثلة موفقة ، تدل دلالة واضحة على براعة البرامكة وتفوقهم فى شئون السياسة ، وإدارة الدولة ، وقد ورث هذه البراعة كابر منهم عن كابر ، ونحن فيما يلى نورد مثلا قليلة اكتفاء بما سبق ذكره عن هؤلاء الرجال الأفذاذ :

أمرت الخيزران أن يقتل من كان تسرع الى خلع الرشيد ، ودعا الى بيعة جعفر بن الهادى ، فقال لها يحيى : أو خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : يرمى بهم فى نحور الأعداء ؛ فإن أصابهم العدو استرحت منهم ، وإن دفعوا العدو كان لنا منهم خير ، ولهم فى ذلك عنا شغل ، فأذنت له فى ذلك ، فنجا القوم جميعاً (١) ٠

وقد سبق أن تحدثنا عن الموقعة التى دارت بين الرشيد ونقفور ، وصورنا كيف هزم الأخير وطلب الصلح على مال يؤديه : ثم عاد فغدر بنقض العهد ظانا أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه ، وقلنا إن هذا النكث كان شديد الوقع على قادة المسلمين حتى أن أحداً منهم لم يجرؤ أن ينقله للرشيد ، ولكن يحيى بن خالد كان فطناً حكيماً ، فعرف بسياسته ودهائه كيف يخبره ، وكيف يصور له هذا الأمر على أنه بشرى وغنم ، فأوعز الى الحجاج المكى بهذه المعانى فصاغ هذا منها قصيدة مطلعها :

نقض الذى أعطيته نقفور	فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه	غنم أتاك به الإله كبير

فقال الرشيد ليحيى : لقد علمت أنك احتلت فى إسماعى هذا الخبر على لسان المكى ؛ ونهض نحو الروم فافتتح هرقلة (١) ٠

---

(١) الجهشيارى : الوزراء ص ١٧٨ ٠

(٢) الطبرى ١٠ : ٩٧ ؛ والجهشيارى ص ٢٠٧ ٠

وحينما كان الفضل والياً على خراسان ، ومقيما بها ، ورد على الرشيد —ويحيى بن خالد بين يديه — كتاب صاحب البريد • يذكر فيه أن الفضل بن يحيى متشاغل بالصيد واللذات ، فلما قرأ الرشيد الكتاب ، ألقى به الى يحيى ، وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب ، واكتب إليه بما يردعه ، فمد يده الى دواة الرشيد ، وكتب الى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد :

« حفظك الله يا بنى وأمتع بك ، لقد انتهى الى أمير المؤمنين مما أنت عليه ما أنكره • فعاود ما هو أزين بك ، فإنه من عاد الى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به والسلام » •

انصب نهاراً فى طلاب العلا
واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل أتى مقبلا
واستترت فيه وجوه العيوب
فكابد الليل بما تشتهى
فإنما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكا
يستقبل الليل بأمر عجيب
أرخى عليه الليل أستاره
فبات فى لهو وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة
يسعى به كل عدو رقيب

وكان يحيى يكتب والرشيد ينظر إليه • فلما فرغ قال الرشيد : أبلغت يا أبت ، فلما ورد الكتاب على الفضل كان يلزم المسجد والجد طيلة النهار(١) •

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان : ١ : ٤٠٩ . والمسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٨٢ .

البـــلاغة والأدب

تحـــدث ابن عبد ربه عن أثر البلاغة والأدب فقال [١] : « سحر البيان يمازج الروح لَطَافَةً ، ويجرى فى النفس رقــة ، والكلام الرقيق مصايد القلوب ، وإن منه لمــا يستعطف المستشيط غيظاً ، والمندمل حقداً ، حتى يطفىء جمرة غيظه ، ويسل دفائن حقــده ، وإن منه لمــا يستميل قلب اللئيم ، ويأخــذ بســمع الكريم وبصره .. وكم مَنْ تخلَّص من أنشوطة الهلاك ، وتفلت من حبائل المنيــة ، بلطيف التوصــل ، ولين الجــواب ، حتى عادت سيئاته حســنات ، وعِيضَ بالثــواب بدلاً من العقــاب » .

وأتِىَ الحجاجُ بأسرى من الخوارج فأمر بضرب أعناقهم ، فأخذ السياف ينفذ أمره ، ثم قُدِّم منهم شاب فقال : والله يا حجاج لئن كنــا أسأنا فى الذنب فمــا أحسنت بالعقاب ، فقــال الحجاج : أفٍّ لهــذه الجيف ، أمــا كان فيهم من يقول مثل هــذا ؟ وأمسك عن القتل [٢] .

وكان الرشيد يكره الشــيعة ويقتلهم ، وكان مســلم بن الوليد (صريع الغوانى) قد رُمى عنده بالتشيع فأمر بطلبــه ، فهرب منــه ، ثم أمر بطلب أنس بن أبى شيخ ، فهرب منــه . ثم قبض عليهما وهمــا عند قينة ببغداد ، فلمــا عرف الرشيد ذلك قــال : الحمد لله الذى أظفرنى بهمــا ، يا غلام أحضرهمــا . فلمــا دخلا قال الرشيد : إيه يا مسلم ، أنت القائل :

أنِسَ الهوى ببنى على فى الحشَا
وأراه يطمــح عــن بنى العبــاس

---

(١) العقد الفريد ٢ : ١٢٢ وما بعدها (طبعة لجنة التأليف والترجمــة والنشر) .

(٢) العقد الفريد ٢ : ١٧٣ — ١٧٤ .

قال : بل أنا الذى أقول يا أمير المؤمنين :

أنسَ الهوى ببنى العمومة فى الحشا
مستوحشاً من سائر الإيناس

وإذا تكاملت الفضائل كنتمُ
أولى بذلك يا بنى العباس

فعجب الرشيد من سرعة بديهته ، ثم سأله أن يقول شعراً فى أنس وذعره فقال:

تلمظ السيف من شوق الى أنس
فالموت يلحظ والأقدار تنتظر

فليس يبلغ منه ما يؤمله
حتى يؤامر فيه رأيك القدرُ

وبهذا استطاع مسلم أن يسترضى الرشيد فعفا عنه ، وأجازه ، وأما أنس فقد لقى حتفه [١] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » .

وقالت العرب : أنفذُ من السهم كلمة فصيحة .

وقال الراجز :

لقد خشيت أن تكون ساحراً
راويةً حيناً وحيناً شاعراً

وقالوا : البيان بصر ، والعى عمى

وقالوا : ليس لمنقوص البيان بهاء [٢] .

---

(١) العقد الفريد : ١٨٠ — ١٨٢ .
(٢) المرجع السابق ١٢٢ — ١٢٣ .

وقال يحيى بن خالد : ما رأيت رجلا قط إلا هبته حتى يتكلم ، فإن كان فصيحاً عظم فى صدرى ، وإن قصّر سقط من عينى (١) .

وكان البيت من الشعر يرفع ويخفض ، إذ كانت البلاغة قويّة التأثير على الجماهير ، ومما يدل على ذلك هجاء جرير لقبيلة نمير بقوله :

فغض الطرف أنك من نمير
فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فلم تكن كعب ولا كلاب بأسمى محتدا من نمير ، ولكن الشاعر ألحق بنمير هذه التهمة ، فذاعت ، وتلقاها الناس كأنها حقيقة مسلم بها .

ومن تأثير الشعر ما رواه ابن هشام (٢) أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن نفذ أمره بقتل النضر بن الحارث استمع الى القصيدة التى رثته بها أخته قتيلة : والتى منها :

أمحمدٌ يا نجل خير كريمة
فى قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرّك لو مننت وربما
منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال الرسول : لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه .

وبعد ، لعلنا بهذا صورنا خطر البلاغة والبيان فى تلك العصور ، لنستطيع أن نضع فى الميزان كبار رجال فى قصور العباسيين ، ولعلنا أعرينا أو كدنا أن نعرى الربيع بن يونس وابنه الفضل من التفوق والامتياز فيما أسلفنا من فصول ، وذلك لأنها كانت محددة المعالم واضحة ، كالمحتد والذمام المتقدم . . . ولكننا هنا ونحن نتحدث عن

---

(١) الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ٤٤

(٢) السيرة النبوية على هامش الروض الانف ٢ : ١١٨ — ١١٩

البلاغة والأدب لا نستطيع أن نصدر حكماً فاصلا كالأحكام التى سبق إيرادها ؛ ذلك لأن لكل إنسان نصيباً من البلاغة والأدب ، فما ظنك بالربيع بن يونس وابنه ، وقد عاشا فى القصور التى تزدان بالمجالس الأدبية ، وتتجاوب فيها قصائد الشعراء ، ويقصدها البلغاء والفصحاء ؟ ولكنا مع ذلك نؤكد بنزاهة وثقة أن حظ الربيع وابنه من البلاغة والأدب كان ضئيلا جداً ، بالقياس الى هؤلاء الأتراب والنظراء ، وحجتنا فى ذلك قوية الى حد كبير ، فقد اعتمدتُ فى بحث هذه القضية على مراجع ثلاثة هامة ، أولها جمهرة رسائل العرب ، هذه الرسائل التى قام بجمعها من المراجع المتعددة الأستاذ أحمد زكى صفوت ، ورتبها ترتيبا دقيقا ، وخصص الجزء الثالث من أجزائها الأربعة لرسائل العصر العباسى الأول ، وهو مجلد ضخم يقع فى ٥٦٠ صفحة من القطع الكبير ، وبه رسائل رائعة لأعلام الناس فى ذلك العهد ، ولكن المؤلف مع سعة قراءته واستقصائه وبذله الجهد لم يجد أية رسالة تنسب الى الربيع ابن يونس ، ولم يجد للفضل بن الربيع إلا رسالة واحدة قصيرة بعث بها الى المأمون يستعطفه ويسأله الرضا عنه (١) وفى هذا المجلد سبع قطع من روائع الأدب العربى منسوبة الى أبى عبيد الله معاوية بن يسار(٢) وسبع قطع ممتعة منسوبة الى يحيى بن خالد (٣) وست قطع جزلة قوية لطاهر بن الحسين (٤) وسبع قطع فى أرقى درجات البيان والفصاحة منسوبة الى الحسن بن سهل (٥) وغير هذه من رسائل للفضل بن سهل ، وهرثمة وجعفر بن يحيى ، والفضل بن يحيى وغيرهم من أنداد الربيع وابنه ونظرائهما .

---

(١) اقرأها ص ٤٣٣ .

(٢) انظرها فى الصفحات الاتية : ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٣) انظرها من ص ١٦٣ الى ص ١٦٨ .

(٤) اقرأها فى الصفحات الاتية : ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥ ، ٤٩٧ .

(٥) اقرأها فى الصفحات الاتية : ٤٠٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

والمرجع الثانى الذى اعتمدت عليه هو العقد الفريد ، وقد عقد ابن عبد ربه فيه بابا طويلا أسماه « كتاب التوقيعات والفصول » وأورد فيه جملة كبيرة رائعة من التوقيعات وفصول العتاب والشكر وحسن التواصل والبلاغة وغيرها ، وقد خلا ذلك الباب كله من أى شىء يسند الى الربيع بن يونس أو ابنه الفضل ، ولكنه حفل بأفانين من القول مسندة الى أتراب الربيع وأتراب الفضل ، ومن عاشوا معهما فى قصور الخلفاء(١) .

والمرجع الثالث هو كتاب الوزراء والكتّاب للجهشيارى ، وطبيعة موضوع هذا الكتاب تجعله يعنى عناية كبيرة بالوزراء ؛ ببيئتهم الأولى ، وكيف وصلوا الى مناصب الوزراة ، والأعمال الجسام التى قاموا بها ، وما أثِرَ عنهم من شعر أو نثر يستحق التسجيل ، ولكن الجهشيارى لم يذكر للربيع بن يونس أو لابنه الفضل شيئا يتصل بالأدب أو البيان ، مع أنه أورد لسواهما من المعاصرين تحفاً غالية من الأدب الرفيع .

***

وعن أدب البرامكة يتحدث الجاحظ وهو مَنْ هو فى معرفته بجيّد القول ووزن الكلام — فيقول : حدثنى سهل بن هارون قال : والله إن كان الناس سجعوا الخطب ، ونظموا القريض ، فما هم إلا عيال على يحيى بن خالد وجعفر بن يحيى ، ولو كان كلامٌ يُصوَّر دراً ، أو يُحيله المنطق جوهراً ، لكان كلامهما ، والمنتقى من لفظهما ... ولقد عبرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تكتمل إلا فيهم ، ولم تكن مقصورة إلا عليهم ، ولا انقادت إلا لهم(٢) .

---

(١) اقرأ هذا فى العقد الفريد : كتاب التوقيعات والفصول ج ٤ ص ١٥٥ الى (طبعة لجنة التأليف) .

(٢) العقد الفريد ٥ : ٥٨ .

وبين يدىّ وأنا أكتب هـذه السطور فصول رائعة من أدب البرامكة وأدب غيرهم من معاصرى الفضل بن الربيع وأبيه ، وبودى لو اتسـع المجال لعرض هـذه النماذج الممتعة ، القوية البيان ، الرصينة الأسلوب ، الحلوة العبـارة ، ولكن هيهات ، فلنكتف إذاً منهـا بما قلَّت ألفاظه ، وسمت قيمتـه ، وأرجو أن أوفق فى الاختيار ، فان من العسير أن تختار أروع جمانة إذا كان مـا بين يديك قطعاً من الجمان الفذ الفريد !

من كلام أبى عبيد الله معاوية بن يسار : التماس السلامة بالسكوت ربمـا كان أولى من التمـاس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف أيسر من قمع بطر الغنى ، والصبر على حقوق النعمـة ، أصعب من الصبر على ألم الحاجة ، وعز الغنى مانع من الانصـاف إلا لمن كان فى غريزته فضل كرم ، وفى أعراقه علو همة (١) .

ومن كلام يحيى بن خالد : العجب للسلطان !! كيف يحسن ؟ ولو أسـاء كل الإساءة لوجد من يزكيه ، ويشهد بأنه محسن (٢) .

وكان يقول لست ترى أحداً تكبَّر فى إمـارة ، إلا وقد دل على أن الذى نال ، فوق قدره ، ولست ترى أحداً تواضـع فى إمارة إلا وهـو فى نفسـه أكبر ممـا نال .

ومن قوله أيضا : لا أرحام بين أحد وبين الملوك (٣) .

وأوصى يحيى ابنه جعفرا بقوله : يا بنى انتقِ من كل علم شيئا ، فانه من جهل شيئا عاداه ، وأنا أكبِرُ لك أن تكون عدواً لشىء من الأدب .

---

(١) الجهشيارى : ١٥٦ .
(٢) المرجع السابق : ١٣٩ .
(٣) المرجع السابق : ٢٠١ .

ومن قوله : الدنيا دول ، والمـال عارية ، ولنـا بمن قبلنـا أسوة ، وفينـا لمن بعدنا عبرة .

وكان جعفر بليغاً كاتبا ، وكان إذا وقـّع نـُسخت توقيعاته ، وتدورست بلاغاته ؛ حـُكىَ أنه جلس للمظـالم فوقـّع فى ألف قصـة ونيف ، ثم أ ُخـْرِجـَت فعرضت على العمـال والقضاة والكتاب ، فمـا وُجد فيها شىء مكرر ، ولا شىء يخالف الحق .

ومن توقيعـاته لرجل لا يعرفه قـَصـَده يأمل بره : هـذا يمتـُّ بحرمة الأمل ، وهى أقرب الوسائل .

ووقع على رقعة محبوس : العدوان أوبقه ، والتوبة تطلقه (١) .

ووقع لبعض عماله وقد شـُكِىَ منه : كثر شاكوك ، وقل شاكروك ؛ فإما اعتدلت ، وإمـا اعتزلت (٢) .

ووقع فى قصة محبوس : لكل أجل كتاب .

وفى قصة رجل سأل أن يعاد ابنـه من الغزو فقـد طالت غيبته : غيبة يوسف كانت أطول .

ووقع لمنصور بن زياد وقد كتب يعتذر : لم نزرعك لنحصدك (٣) .

وكان الفضلُ بن يحيى أديبـاً شاعراً ، حدث عبد الله بن ياسين عن أبيـه قال : كنـا عند الفضلِ بن يحيى ، فخضنا فى الشعر ، فإذا هو من أروى الناس له وأجودهم طبعا فيه ، فقلت له ، أصلحكَ الله ؛ لو قلت

---

(١) انظر المرجع السابق : ٢٠٢ — ٢٠٥ .
(٢) ابن خلكان ١ : ١٥٠ .
(٣) العقد الفريد ٤ : ٢١٩ .

شيئا من الشعر فانه يزيد فى الذكر ، وينبه ؛ فقال : هيهات : شيطان الشعر أخبث من أن أسلطه على عقلى (١) .

وقال طاهر بن الحسين لكتابه وهو يحارب الأمين : اكتبوا الى أبى عيسى بن الرشيد كتابا تتقربون به اليه وتتباعدون ، ولا تطمعوه ولا تيئسوه ؛ فقالوا : إن رأى الأمير أن يعلمنا كيف ذلك وتحده لنا ، فعل ، فقال اكتبوا وأملى عليهم كتابا تقرب وتباعد ، ولم يطمع ولم ييئس (٢) .

ولما عزم جعفر بن يحيى على استخدام الفضل بن سهل للمأمون ، قرظه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشيد : أوصله إلىّ ، فلما وصل أدركته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد الى يحيى نظرة منكر لاختياره ، فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ، إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك أن تملك قلبه رهبةُ سيده فقال له الرشيد ؛ لئن كنت سكتّ لتصوغ هذا الكلام لقد أحسنت ، ولئن كانت بديهة لهو أحسن وأحسن (٣) .

الكرم

الكرم فى الجاهلية والاسلام ، وفى البلاد المختلفة من العالم ، خصلة من أكرم الخصال ، وسجية عن أعظم السجايا ، وإذا كان الكرم كذلك فى كل مكان ، فإن قدره أسمى فى منبت الاسلام الأول ، ذلك لأن تلك الصحارى الجرداء ، والفيافى القاحلة ، يلزم فيها السخاء والقِرى أكثر مما يلزم فى أى مكان آخر ، ومن أجل هذا تغنى العرب بحلية الكرم ، وعدوا السخاء أصلا هاما من أصول المحاسن ، ثم استمر

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٩٧ .
(٢) اقرأ الكتاب فى جمهرة رسائل العرب ٣ : ٣٧١ — ٣٧٢
(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ٢٣١ .

معهم هـذا الاتجاه أينمـا ذهبوا وحيث أقاموا ، ولو كان مقامهم فى البلاد المتمدينة المتحضرة .

ومما يروى عن الكرم والحث عليه ما ذكره نافع قال : لقى يحيى ابن زكريا ابليس ، فقال له : أخبرنى من أحب النـاس إليك ، وأبغضهم لديك قـال : أحبهم الىّ كل مؤمن بخيل ، وأبغضهم الىّ كل منـافق سخى ، قال يحيى : ولم ذاك ؟ قال إبليس : لأن السخاء خلق الله الأعظم ، فأخشى أن يطلع الله عليه فى بعض سخائه فيغفر له (١) .

ومن الحث على الكرم قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممـا تحبون) (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم : تجاوزوا عن ذنب السـخى ، فان الله آخذ بيده كلما عثر ، وفاتح له كلما افتقر . وقول بعض السلف : منع الموجود سوء ظن بالمعبود وذلك لقوله تعالى (قل إن ربى يبسـط الرزق لمن يشـاء من عباده ويقدر لـه ، ومـا أنفقتم من شىء فهـو يخلفه) (٣) . وقول أكثم بن صيفى : صاحب المعروف لا يقع ، وإن وقع وجـد له متكأ . وقـد وُجِدَ مكتوبا على حجر : اعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك ، فكم من جامع لبعل حليلته (٤) .

وقد ذهب بعض العرب فى السخاء مذهبا جعل الحديث عن سخائهم أقرب الى الخيـال منه الى الحقيقة . حكى عن حاتم أنه خرج فى الشهر الحرام الى أرض عنزة ، فلمـا وصلها هتف به أسير فيهم قائلا : يا أبا سفانة ، قد أكلنى الإسـار والقمل . قال حاتم : والله مـا أنا فى بلادى ، ولا معى شىء ، وقد أساءتَ إلىّ إذ نوّهت باسمى . ثم ذهب الى العنزيين وساومهم فيه واشتراه منهم ، وقال : خلوا عنـه ، وأنا أقيم مقامه فى

---

(١) الجاحظ : المحاسن والاضداد ص ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران الاية رقم ٩١ .

(٣) سورة سبأ الاية رقم ٣٩ .

(٤) المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ١٥٧ .

قيده حتى أؤدى ثمنـــه ؛ ففعلوا ، وأرسل حاتم الى قومه من جـــاءه بالفـــداء (١) .

وحكى أن قوما من العرب جاءوا الى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره ، فرأى رجل منهم صاحب القبر فى المنـــام يقول له : هل لك أن تبيعنى بعيرك بنجيبى ؟ فقال الرجل : نعم ، قال الميت : إذاً ، أقسمت عليك إلا قمت فذبحت بعيرك للأضياف الذين باتوا بساحة قبرى ، وسيأتيك نجيبى حالا ، فقـــام الرجل وذبح بعيره ونال هو ومن معـــه من لحم البعير . وفى اليوم التـــالى أبصروا ركبا قادمين نحوهم ، ثم تقدم من الركب شاب فنادى : هل فيكم فلان ؟ فقـــال صاحب البعير : نعم ، أنا فلان ، فقال : هل بعت من فلان الميت شيئا ؟ قال : نعم ، بعتـــه بعيرى بنجيبه فى النوم ؛ وذبحت البعير طوعا لارادته ، قال الشاب : هـــذا نجيبـــه فخذه ، وأنا ولده ، وقد رأيتـــه فى النوم يأمرنى أن أدفع لك هـــذا النجيب (٢) .

هـــذه فيما يبدو قصة موضوعة ، ولكنهـــا بدون شك تصور الشغف بالكرم ، الذى اتصف به واضع القصـــة وراويها ومدونها ، وذلك عند النقـــاد يفوق فى الدلالة على الميل للسخاء كون الحادثة حقيقة واقعة .

وقد تغنى شعراء العرب بالكرم ، وسجلوا عنه آيات من الشـــعر نورد فيمـــا يلى طرفا منه :

فلا الجود يفنى المـــال قبل فنائه
ولا البخل فى مـــال الشحيح يزيد

فلا تلتمس رزقـــا بعيش مقتـــر
لـــكل غـــد رزق يعـــود جـــديد

---

(١) الجاحظ : المحاسن والاضداد ص ٦١ .

(٢) المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ١٦٧ — ١٦٨ .

إذا ما أتاه السائلون توقدت
عليه مصابيح الطلاقة والبشر

له فى ذرا المعروف نعمى كأنها
مواقع ماء المزن فى البلد القفر

لا تكثرى فى الجود لائمتى
وإذا بخلت فأكثرى لومى

كفى ، فسلت بحامل أبداً
ما عشت هم غد الى يومى

وهينى جمعت المال ثم خزنته
وحانت وفاتى ، هل أزاد به عمرا

إذا خزن المال البخيل فإنه
سيورثه غما ويعقبه وزرا

ذلك هو الكرم ، وهذا هو مذهب القوم فيه ، وإجلالهم له ولذويه ، فماذا عندنا عن كرم الربيع وابنه الفضل ؟ وماذا عندنا عن كرم سواهما من الأتراب والنظراء ؟

أما عن الربيع بن يونس فأقرر مطمئنا أنه لم يكن له فى ميدان الكرم والسخاء مجال ، وقد أصدرت هذا الحكم بعد الاطلاع على مظان وردت بها فصول خاصة للحديث عن الكرم والكرماء ، مثل كتاب المحاسن والمساوىء للجاحظ (١) والعقد الفريد لابن عبد ربه (٢) ، وديوان

---

(١) انظر محاسن السخاء من ص ٥٨ الى ص ٦٦ .
(٢) انظر كتاب الزبرجدة فى الاجواد والاصفاد جـ ١ من ص ٢٦٢ الى ص ٢٧٣ .

المعانى لأبى هلال العسكرى (١) ، والمحاسن والمساوىء للبيهقى (٢) ، والمستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى (٣) ومحاضرات الأدباء لأبى القاسم الأصفهانى (٤) بالاضافة الى عدد كبير من كتب الأدب والتاريخ والتراجم ، وأنا لا أقول إن الربيع كان بخيلا لأنى فى الحقيقة لم أعثر على ما يدل دلالة واضحة على بخله ؛ وإن كنت قد عثرت على ما يدل على أنه كان الى المنع وحرمان الآخرين أميل ، حدث الأصفهانى قال (٥) ، التقى العسس فى عهد المنصور بأبى دلامة الشاعر فى إحدى الأمسيات وقد شرب وسكر ، فقبضوا عليه ، وخَرَّقوا ثيابه وساجه (٦) ، وجاءوا به الى أمير المؤمنين ، فأمر أن يوضع فى حظيرة الدجاج ، فلما أفاق أبو دلامة من سكره نادى غلامه وجاريته فلم يجبه أحد إلا السجان فإنه قال له : ما شأنك ؟ فقال أبو دلامة : من أنت ؟ وأين أنا ؟ فقال السجان : أنت فى الحبس وأنا فلان السجان . قال :ومن حبسنى ؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ومن خَرَّق طيلسانى ؟ قال : الحرس . قال أبو دلامة للسجان : ائتنى بدواة وقرطاس ففعل ، فكتب الى أبى جعفر .

أمير المؤمنين فدتك نفسى
علام حبستنى وخرقت ساجى ؟

أمن صفراء صافية المزاج
كأن شعاعها لهب السراج

وقد طبخت بنار الله حتى
لقد صارت من النطف النضاج

---

(١) انظر كتاب المبالغة فى أوصاف خصال الانسان المحمودة من الجود والشجاعة ... جـ ٩ ص ١٠٣ الى ص ١٥٧ .

(٢) انظر محاسن السخاء من ص ٢٠٠ الى ٢٦٩ .

(٣) انظر الباب الثالث والثلاثين فى الجود والسخاء وذكر الامجاد وأحاديث الاجواد جـ ١ من ١٥٦ الى ص ١٧١ .

(٤) انظر ما جاء فى الجود والاجواد جـ ١ ص ٤٠٠ الى ٤٠٦ .

(٥) الاغانى ٩ : ١٢٣ .

(٦) الساج : الطيلسان الأخضر .

تَهَشُّ لهـا القلوب وتشتهيها
إذا برزت تَرَقْرَقُ فى الزجـاج

أُقادُ الى السـجون بغير جرم
كـأنى بعض عمـال الخـراج

ولو معهم حبسـت لكـان سـهلا
ولـكنى حبسـت مـع الدجـاج

وقـد كـانت تخـبرنى ذنوبى
بـأنى مـن عقـابك غـير ناج

عـلى أنـى وإن لاقيت شـراً
لخيرك بعـدَ هـذا الشـر راج

فلما قرأ الخليفة هـذه المقطوعة الشعرية دعا بأبى دلامة وسأله : أين حبست ؟ قال : فى بيت الدجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قـال : أقوقىء معهن حتى أصبحت . فضحك الخليفة وخلى سبيله وأمر لـه بجـائزة فقال الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين وقد ظهر ذلك فى قوله : وقـد طبخت بنار الله يعنى الشمس . فقال أبو دلامة : والله ما عنيت إلا نار الله الموقدة التى تطلع على فؤاد الربيع . فضحك المنصور ، وقال : خـذها يا ربيع ، ولا تعاود التعرض .

أما الفضل بن الربيع : فلم يرد له ذكر أيضا فى المظان التى سـبق ذكرها ، كما لم تسجل له أغلب كتب الأدب والتاريخ شيئا فى مجال الجود ، ولكن الأصفهانى أورد ما يدل على كرم الفضـل مع أبى العتاهية بوجه خاص ، حدث أبو الفرج قـال (١) : دخـل أبو العتاهية على الرشـيد فأنشـده :

الله هـوّن عنـدكَ الد نيـا وبغّضـها إليـكا

(١) الاغانى ٣ : ١٥٤ .

فأبيتَ إلا أن تصـغِّـ ـر كلّ شيء فى يديكا
ما هانت الدنيـا على أحـد كما هانت عليكا

فقال الفضل للرشيد : يا أمير المؤمنين ، ما مُدِحَتْ الخلفاء بأصدق من هذا المدح ؛ فقال : يا فضل ، أعطه عشرين ألف درهم ، فغدا أبو العتاهية على الفضل فأنشده :

إذا ما كنت متخذاً خليلا فمثل الفضل فاتخذ الخليلا
يرى الشكر القليل له عظيما ويعطى من مواهبه جـزيلا
أرانى حيثما يممتُ طرفى وجدت على مكارمه دليلا

فطرب الفضل وقال : لولا أن أساوى أمير المؤمنين لأعطيتك مثلها ، ولكنى سأوصلها إليك فى دفعات ، ثم أعطاه ما أمر به الرشيد ، وزاد له خمسة آلاف درهم من عنده .

ولست أدرى كيف طَرِب الفضل لهذا الشعر المتداعى الهزيل ، فهو عندى إما قليل المادحين ، فسُرَّ بأنْ مدحه شاعر ، أو غير خبير بالشعر وفنون الأدب .

ولننتقل الى موقف آخر بين الفضل وأبى العتاهية ، وهو أيضا مما سجله الأصفهانى ، قال (١) : حدث حبيب بن الجهم النميرى قال : حضرتُ الفضلَ بن الربيع متنجزاً جائزتى وفرضى ، فلم يدخل عليه أحد قبلى ، فاذا « عون » حاجبه قد جاء فقال : هذا أبو العتاهية قدم يسلم عليك ، وقد وصل من مكة ، فقال الفضل للحاجب : اعفنى منه الساعة حتى لا يشغلنى عن ركوبى ، فخرج إليه عون فأخبره بذلك ، فأخرج أبو العتاهية من كمه نعلا فدفعها الى عون ليوصلها الى الفضل ، وقد

(١) الاغانى : ٣ : ١٥٩ — ١٦٠ .

كتب على شراكها(١) مكتوب ، قال حبيب فدفعها الفضل إلىّ لأقرأ له ما على شراكهـا فقرأت :

نعـل بعثت بهـا ليلبسـها قـرمٌ بها يمشى إلى المجـد
لو كان يصلح أن أشرّكها (٢) خدى جعلت شراكها خدّى

فقال الفضـل لحاجبه : احملها معنا ، فحملهـا ، فلما دخل على الخليفة قال له : يا عباسى ، ما هـذه النعل ؟ فقـال : أهـداها إلىّ ابو العتاهية ، وكتب بيتين ، وأمير المؤمنين أولى بلبسها لما وُصف به لابسها ، فقال الخليفة وما هما ؟ فقرأهما له الفضـل ، فقال : أجـاد والله ، هبوا له عشرة آلاف درهم .

وأرى وربما شاركنى هـذا الرأى كثير من النقّاد — أن الفضـل هنا احتال لتُدفع جائزة أبى العتاهية من مال سواه ، وذلك موقف لا يشرف الفضـل من قريب أو من بعيد .

على أن كرم الفضـل مع أبى العتاهية لم يدم طـويلا ، حـدث أبو العتاهية قال : ما زال الفضل بن الربيع من أميل الناس إلىّ ، وقال لى مرة : أنت تعرف شغلى ، فعُد إلىّ فى وقت فراغى أقعد معك وآنس بك ، فلم أزل أراقب أيامه حتى كان يوم فراغه فصرت إليه ، وبينما هو مقبلٌ على يستنشدنى ويسألنى فأحدثه حتى أنشدته .

ولىّ الشباب فمـا له من حيـلة
وكسـا ذؤابتى المشـيبُ خمـارا

أين البرامـكة الذين عهـدتهم
بالأمس أعظـم أهلهـا أخطـارا

---

(١) شراك النعل جلدها الأسفل الذى يمس الأرض .
(٢) اشركها خدى : اجعل خدى شراكا .

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه ، ورأيت الكراهية فى وجهه ، فما رأيت منه خيراً بعد ذلك (١) .

وفى الفضل بن الربيع يقول اسماعيل القراطيسى :

لئن أخطأتُ فى مدحيك ، ما أخطأتَ فى منعى
لقد أنزلتُ حاجاتى بواد غير ذى زرع (٢)

وهكذا لم يدوّن اسم الربيع وابنه الفضل بين أهل الجود والسخاء ، فاذا تركناهما وقصدنا الى الحديث عن كرم سواهما من الأتراب ؛ وجدنا ثروة ضخمة من القول عن هؤلاء النظراء ، وإنى لأوشك أن أكف عن ذكر شىء فى هذا الصدد لشهرته وكثرة تردده فى كتب الأدب والتاريخ وبخاصة فى المظان سالفة الذكر ، ولكنى استيفاء للبحث سأذكر نماذج قليلة جداً لهذا السخاء العريض :

معن بن زائدة :

يروى ابن عبد ربه (٣) أنه كان يقال فى معن : حدّث عن البحر ولا حرج وحدّث عن معن ولا حرج ، ويروى أنه أتاه رجل يسأله أن يحمله ، فقال معن لغلامه : يا غلام أعطه فرساً وبرذوناً وبغلا وعَيْرا (العير : الحمار) وبعيراً وجارية ، وقال : لو عرفت مركوباً غير هؤلاء لأعطيتك .

وأتى أحد الشعراء معناً وهو عامل بالبصرة ولكن الشاعر لم يستطع لقاءه فقال لبعض الخدم : اذا دخل الأمير فعرّفنى ، فلما دخل أعلمه بذلك ، فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة ، وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان ، حينما كان معن جالسا على القناة فلما رأى معنٌ الخشبة أخذها وقرأ ما عليها فاذا فيها :

---

(١) الاغانى ٣ : ١٦٤ وقد سبق ايراد هذه القصة ، ولكن اعادتها هنا هامة .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٩٩ .

(٣) العقد الفريد جـ ١ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

أيا جـــود معن ناج معنــاً بحاجتى
فليس إلى معــنٍ ســـواك شــفيع

فقال معن : من الرجل ؟ فأتى به إليه ، فأعطاه عشر بدر فأخـذها الرجل وانصرف ، وفى اليوم التالى رأى معن الخشبة فاستدعى الرجــل وأعطاه عشر بدر أخرى ، وفعل كذلك فى اليوم الثالث ، فلما حصل للرجل هـذا المـال الوفير ، أخـذه وترك البصرة حـذراً أن يسترد منه كله أو بعضه ، فلما كان فى اليوم الرابع طلب معنٌ الرجل ، فلم يجـده ، فقال معن : لقد والله ساء ظنه بنا ، ولقد هممت أن أعطيــه حتى لا يبقى عندى درهم ولا دينار (١) .

وفى معن يقول الشــاعر :

يقولون معــن لا زكــــاة لمــاله
وكيف يـُزكّى المــالَ من هو باذله

تراه إذا مــا جئتـــه متهـــللا
كــأنك تعطيــه الذى أنت نائـله

تعــوّد بســط الكف حتى لو انه
أراد انقباضــا لــم تطعــه أنامله

فــلو لم يكن فى كفه غير نفسه
لجاد بهــا فليتق الله ســـائله (٢)

ومن قول معــن :

دعينــى أنهــب الأمــــوال حتى
أعِفَّ الأكرمين عــن اللئــام (٣)

---

(١) الاصفهانى : محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٦٠ — ١٦١ .
(٢) الثعالبى : أحسن ما سمعت ص ١٢٥ .
(٣) الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ج ١ ص ١٦١ .

ويُحكى أن المهدى خرج يتصيد فلقيه الحسن بن مطير الأسدى فأنشده :

أضحت يمينك من جود مصورةً
لا ، بل يمينك منها صورة الجود

فقال المهدى : كذبت يا فاسق ، وهل تركت فى شعرك موضعا لأحد ، مع قولك فى رثاء معن بن زائدة :

فيا قبر معن كنت أول حفرة
من الأرض خُطَّتْ للمكارم مضجعا

ويا قبر معن كيف واريت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا

ولكن حويت الجود ، والجود ميت
ولو كان حيا ضِقْتَ حتى تصدعا (١)

ومما قيل فى رثاء معن أيضا :

أقمنا باليمامة بعد معن
مُقاما لا نريد به زوالا

وقلنا : أين نرحل بعد معن .
وقد ذهب النوال فلا نوالا (٢)

يزيد بن مزيد الشيبانى :

حكى أبو قدامة القشيرى قال : كنا مع يزيد بن مزيد يوماً ، فسمع صائحاً يقول : يا يزيد بن مزيد ، فطلبه يزيد ، وقال له : ما حملك على

---

(١) ذيل ثمار الاوراق على هامش الجزء الثانى من محاضرات الادباء ص ٧٩ .
(٢) الاغانى ج ٩ ص ٤٢ .

هـذا الصياح ، فأجاب : فقدت دابتى ونفـدت نفقتى ، فتذكرت قـول الشـاعر :

إذا قيل من للجود والمجـد والنـدى
فنادِ بصـوت : يا يزيد بن مزيد

فأمر له يزيد بفرس أبلق كان معجباً به وبمائة دينـار وخـلعة سـنية (١) .

ويقول مروان بن أبى حفصـة فى يزيد بن مزيد وكرمه :

أفنيت مـالك تعطيـه وتنهبـه
يا آفة الفضـة البيضاء والذهب (٢)

البرامـكة :

إنها ثروة ضـخمة يجـدها الباحث عن البرامـكة فى كتب الأدب والتاريخ ، ولا شك أن الإنسان يحار فيها ، أيها يأخـذ وأيها يدع ، وهى فى الحقيقة بالخيال أشبه : حتى أن بعض المعاصرين من الكتاب يتشككون فى صـحة الأرقام التى أوردتها كتب الأدب والتاريخ مشيرة الى عطاياهم وهباتهم ، وقـد وقع مثل هـذا الشك لبعض الأقدمين ، ذكروا أن أحد وزراء العباسيين فى العصر الأخير قال لجلسائه : إن هـذه الأرقام من مبالغات الوراقين والأدباء الملقين ، تعمدوها ليصطادوا بها أموال الأمراء والوزراء ، ويستدروا بها أكف أولى الأريحية من الأغنياء ؛ وكان فى المجلس أحـد الأذكياء ، فقال له : يا سيدى ، لـماذا لا يكذب الناس على مولانا الوزير ؟ فلم يحر الوزير جواباً (٣) .

---

(١) الأبشيهى : المستطرف جـ ١ ص ١٦٧ .
(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٩٤ .
(٣) طه الراوى : بغداد مدينة السلام ص ١٨ .

ولا يميل الباحثون والنقاد الى التشكك فى كرم البرامكة ، ويبدو لى أنه ليس من السهل أن نتشكك فيما بين أيدينا من تراث أدبى واسع ، وبخاصـة أن كرم البرامكة موضوع متفق عليه من جميع الكتاب والمؤرخين تقريباً ، وإنى لأميل الى رد هـذه التهمة التى تنقض ما قيل عن كرم البرامكة ، إذ أن الوراقين الذين تحـدثوا عن ذلك الكرم ، هم أنفسهم الذين سجلوا شح المنصـور وحرص الربيع بن يونس ، ولو كان الغرض للحث على العطاء ما فعلوا ذلك ؛ فالنتيجة التى أميل الى الأخذبها هى تلك التى أخذنا بها عند حديثنا عن مجون الأمين وخلاعته ، وهى أن البرامكة كانوا كراماً بلا شك بدليل أنهم أفنوا كل ثرواتهم ، ولم يكن بخزائنهم عند وقوع النكبة بهم ما يغنى ، وقـد كانت لهم مواقف فى الكرم بعيدة المـدى ، غير أن الكتّاب فيما يظهر ، اتخـذوا من كرم البرامكة موضوعاً للمبالغة والإطناب ، فأضافوا الى الحقائق الباهرة ، أقاصيص أخرى سارت بهـا الركبان ، ولكن هذا يجب ألا يؤثر فى القضية المعروضة وهى أن البرامكة كرام الى حـد يقرب من السرف ، إن لم يكن هو السرف ذاته .

وكرم البرامكة مشهور منذ جدهم خالد بن برمك الذى سمى طلاب الأعطيات زواراً وكانوا يسمون من قبل سؤالا كما سبق القول .

وقـد وضع يحيى دستور البرامكة فى الكرم فقال : أعط من الدنيا وهى مقبلة فإن ذلك لا ينقصـك منها شيئاً ، وأعط منها وهى مدبرة ؛ فإن منعك لا يبقى شيئاً (١) . فهو يحث على الإعطاء فى كل حال ، ولم يكن البرامكة ينتظرون شكر الناس على ما يمنحون ، ومن طرائف يحيى فى ذلك أنه قيل له : إن هاهنا قوماً جاءوا يشكرون لك معروفاً ، فقـال : هؤلاء يشكرون معروفاً فكيف لى بشكر شكرهم (٢) .

وكان يحيى أستاذاً فى الكرم فهو يعلم الرشيد السخاء ، فإن لم يكن

---

(١) المستطرف ١ : ١٦٣ وابن خلكان ٢ : ٣٢٤ .
(٢) العقد الفريد ١ : ٣٢٢ .

السخاء غاية لزمت الحيلة لمداراة قلة البذل ؛ حدث ابن خلكان (١) قال : وكان يحيى يساير الرشيد يوماً فوقف له رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، عطبت دابتي ، فقال الرشيد : يعطى خمسمائة درهم ؛ فغمزه يحيى ، فلما نزلوا ، قال الرشيد له يا أبت أومأت إلىّ بشيء ولم أعرفه ؛ فقال يحيى : مثلك لا يجرى هـذا القدر على لسانه ، إنما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف ، أو عشرة آلاف ألف ؛ فقال الرشيد : ولكن اذا سئلت سؤال صاحب الدابة كيف أقول ؟ فقال يحيى : تقول تشترى له دابة أحسن منها .

ولم يكن كرم البرامكة عن غنى وإنما عن طبع ، وربما دفعوا كل ما عندهم ليسدوا ثغرة ، أو ليبنوا معروفاً ، روى أن الرشيد دعا صالحاً صاحب المصلى وقال له : اخرج الى المنصـور بن زياد فقل له : لقـد صحت عليك عشرة آلاف ألف درهم (عشرة ملايين) فاحملها إلىّ فى يومك هذا ، فإن هو دفعها كاملة قبل مغيب الشمس ، وإلا فاحمل رأسه إلىّ ، وإياك ومراجعتى فى شيء من أمره ، قال صالح : فخرجت الى المنصور فعرفته الخبر ، فقال إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله ما عندى منها ثلاثمائة ألف ؛ دعنى أوص ، ثم خـذ فى عملك ، ودخل ليوصى فارتفع الصراخ من منازله وحجر نسائه ، ثم خرج وما فيه لحم ولا دم فقال : امض بنا الى يحيى ابن خالد . فمضـيت معه فدخـل على يحيى وهو يبكى ، قال يحيى : ما وراءك ، فقص عليه القصـة . فقلق يحيى بأمره ثم دعا خازنه وقال له : كم عندك من المـال ؟ قال خمسة آلاف ألف ، فقال : هاتهـا ، ثم وجه الى الفضـل برسالة يقول فيهـا : إنك قد أعلمتنى أن عندك ألفى ألف درهم ، قدرت أن تشترى بهـا ضـيعة وقد أصبت لك ضيعة يبقى ذكرها وشكرها ، وتحمد ثمرتها ، فوجه إلينا بالمـال ، فوجه به . ثم قال للرسول : امض الى جعفر فقل له ابعث إلىّ بألف ألف درهم لحق لزمنى ، ففعل جعفر فقال صالح : هـذه ثمانية آلاف ، ثم أطرق يحيى إطراقه المفكر ، لأنه لم يكن بقى عند البرامكة شيء ، ثم رفع رأسه الى

---

(١) وفيات الاعيان ٢ : ٢٢٥ .

خادمه ، وقال : امض الى دنانير فقل لها : وجهي إلىّ العقد الذى عندك فبعثت به ، وكان ثمنه أكثر من مائة ألف دينار . فأخذ صالح الأموال والعقد وترك المنصور وانصرف ، فلما وضع المال أمام الرشيد وأخبره الخبر قال الرشيد : أما إنى قد علمت أنه إن نجا لم ينج إلا بأهل هذا البيت ، اقبض المال ، واردد العقد على دنانير .

وكان المنصور بن زياد هذا عاقاً فتنكر لإحسان يحيى له ، وإنقاذه إياه من الموت ، وتمثل عند خروجه قول الشاعر :

فما بُقيا على تركتماني
ولكن خفتما صرد النبال

قال صالح : فلما عرفت ذلك كرهت فى المنصور عقوقه وخبث سريرته ولم تطب نفسى أن أدع يحيى دون أن أعرفه خبر ذلك الرجل سيىء الطبع ، فعدت الى يحيى فى اليوم التالى وأخبرته خبر المنصور ، فقال يحيى : يا صالح ، إن المنخوب القلب ربما سبقه لسانه بما ليس فى ضميره ، وقد كان الرجل فى حال عظيم ، فقال صالح : والله ما أدرى من أى أمريك أعْجَبُ ؟ أمن كرمك أم من عفوك ؟ ولكنى أعلم أن الدهر لا يُخْلِفُ مثلك أبداً [(١)] .

ومما يحكى عن الفضل أن رجلا من أتباعه سار معه رجل كوفى ، من الكوفة الى خراسان ، فسأل الكوفىُّ عن أفعال الفضل فأخبره التابع بإنهابه الأموال الجليلة فى العطايا ، فقال الكوفى : خبرنى عن هذه الأموال التى ينهبها ، هل يراها وينظر اليها ؟ فقال : لا . فقال الكوفى : فمن هنا تهون عليه . فلما وصلا ذكَرَ التابعُ للفضل حديث الكوفى ، وكان الفضل متكئاً فاستوى جالساً ، وقال لغلامه : يا غلام ، إيت بصاحب بيت مالى ، فأتى به . فسأله عما عنده ، فقال عشرة آلاف درهم . قال الفضل : تحمل إلىّ الساعة وتُشق عنها البدر شقاً وتُنثر فى وسط الدار .

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ٢٢٢ — ٢٢٤ .

ففعل ذلك ثم قام الفضل وأحضر الرجل الكوفى ، وأخذ الفضل يعبث بالمال بيده ويفرقه على زواره وعلى المحتاجين ، وأعطى الكوفى منه مبلغاً كبيراً وقال له : هذا لك لتنبيهك إياى على هذا الفعل (١) .

وكان جعفر يكره البخل والبخلاء ، ومما يروى عنه فى ذلك ما سبق أن أوردناه من أنه قال يوما لخادمه : احمل معنا ألف دينار فإنى أريد أن أمرّ بالأصمعى ، فاذا حدثنى وأضحكنى فضع الكيس فى حجره ، ثم سار إليه ومعه أنس بن أبى شيخ ، فحدثه الأصمعى بكل شىء فلم يضحك ، وانصرف دون أن يضع الخادم المال ، فقال أنس لجعفر : إنه قد أضحكك بجهده فلم تضحك وليس عادتك رد شىء قد أمرت بإخراجه من بيت مالك ، فقال له جعفر : ويلك ! قد وصلناه بخمسمائة ألف درهم ولم أدخل بيته قبل هذه المرة ، وقد رأيت جرته مكسورة ومصلاه وسخا ، وكلّ ما عنده رثّ ، فعلام أعطيته الأموال اذا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه ؟ ثم أنشد :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله
ولو سكتوا أثنت عليكَ الحقائب (٢)

وفى كرم جعفر يقول أشجع السلمى :

يحب الملوكُ ندى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
وليس بأوسعهم فى الغنى ولكن معروفه أوسع
وكيف ينالون غاياته وهم يجمعون ولا يجمع (٣)

ونختتم هذا البحث بأبيات قليلة مما قيل فى كرم البرامكة ، قال أبو النضير :

---

(١) البيهقى : المحاسن والمساوىء ٢٢٧ — ٢٢٨ .
(٢) أبو هلال العسكرى : ديوان المعانى ٧ : ١٢٩ الجهشيارى ٢٠٦ .
(٣) الجهشيارى ٢١٥ .

اذا ما الطايا لم تكن برمكية
فتلك العطايا ما تَزِينُ ولا تُحْلِي(١)

وقال نصيب الشاعر وقد نفحه الفضل ثلاثين ألف درهم :

جاد الربيع الذى كنا نؤمله
فكلنا بربيع الفضل مُرتبع
كانت تطول بنا فى الأرض نجعتنا
فاليوم عند أبى العباس ننتجع
إن ضاق مذهبنا أو حل ساحتنا
ضنكٌ وأزْمٌ فعند الفضل متسَعُ
ما سلم الله نفس الفضل من تلف
فما أبالى أقام الناس أم رجعوا (٢)

بنو سهل :

كان بنو سهل يسيرون سيرة البرامكة فى كرمهم وخلالهم كلها ، ومما يؤثر عن الحسن بن سهل أنه قيل له : لا خير فى السرف ، فقال : لا سرف فى الخير (٣) . وقد قال له رجل مرة : لقد صرتُ لااستكثر كثيرك ولا أستقل قليلك . قال الحسن : وكيف ذلك ؟ قال الرجل : لأنك أكثر من كثيرك ، ولأن قليلك أكثر من كثير غيرك (٤) .

وصنف سهلُ بن هارون كتاباً يمدح فيه البخلَ ويذم الجود ليُظْهِرَ قدرته على البلاغة ، ثم أهداه للحسن بن سهل فى وزارته للمأمون ، واستماحه ، فكتب إليه الحسن : لقد مدحت ما ذمه اللهُ ، وحسّنت

---

(١) البيهقى : المحاسن والمساوىء ٢١٨ .
(٢) الأغانى ٢٠ : ٣١ .
(٣) المستطرف ٢ : ١٥٧ .
(٤) العقد الفريد ٢ : ١٣٥ .

منا قبحه الله ، وما يقوم صلاح لفظك بطلاح معناك ، وقد جعلنا ثواب نصحك قبول قولك فيه ، فما نعطيك شيئاً (١) .

وقد سبق لنا القول بأن الفضل بن الربيع تجهم لأبى العتاهية عندما أنشده هذا قصيدة منها :

أين البرامكة الذين عهدتهم
بالأمس أعظم أهلها أخطارا

وقد ذكر أبو العتاهية هذا الحديث للحسن بن سهل فقال له الحسن : لئن كان ذلك ضرك عند الفضل بن الربيع ، لقد نفعك عندنا ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وعشرة أثواب ، وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم ، فلم تزل دارة عليه الى أن مات (٢) .

وحسب الحسن بن سهل كرمه الفياض عندما زوج بوران ابنته من الخليفة المأمون ، حينما بذل من الأموال ، ونثر من الدرر ما يفوق حد الكثرة ، حتى أنه عمل بطاطيخ من عنبر وجعل فى وسط كل واحدة منها رقعة بضيعة من ضياعه أو فرس من خيوله ونثرها فمَن وقعت فى يده بطيخة منها فتحها ، وتسلم ما كتب فيها (٣) .

ومما قيل فى الفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد   يُقصِّر عنها المثل
فباطنها للندى   وظاهرها للقبل
وبسطتها للغنى   وسطوتها للأجل (٤)

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣ : ٢٧٣ .
(٢) الاغانى ٣ : ١٦٤ .
(٣) الفخرى ٣ : ١٩٧ .
(٤) المرجع السابق .

صور أخرى من السجايا

لا تزال هناك صفات كثيرة تشيل فيها كفة آل الربيع ، وترجح كفة الآخرين عند إجراء أية مقارنة ، وليس عندنا من الفراغ ما يتيح لنا أن نتتبع كل هذه الصفات على النسق الذى اتبعناه فيما مضى ، ولذلك نكتفى فى ختام هذه المقارنة بأن نسجل صوراً سريعة لهؤلاء وأولئك .

سبق أن تحدثنا عن الربيع والفضل وابنه من ناحية تشجيعهما للوشاية وإغرائهما للواشين ، وهنا نضع بجانب ذلك دستور جعفر بن يحيى تجاه الوشاة ، فقد روى عنه أنه قال : أنا للذى يؤتى به كما قال الشاعر :

واذا الواشى أتى يسعى بها
نفع الواشى بما جاء يضر (١)

أما دستور الفضل بن سهل فقد ذكره فى قوله لرجل جاء يسعى بآخر : إن صدقتنا أبغضناك ، وإن كذبتنا عاقبناك ، وإن استقلتنا أقلناك (٢) .

وكان الربيع وابنه لا ينسيان الإساءة ، ولا يصفحان عن مذنب ، كما سبق القول ، ولكن العفو كان صفة لازمة لكثيرين من أنداد الفضل وأبيه ، فلقد حكى أن أبا الهول الحميرى كان قد هجا الفضل بن يحيى ، ثم أتاه راغباً إليه معتذراً ، فقال له الفضل : بأى وجه تلقانى ؟ فقال : بالوجه الذى ألقى به الله عز وجل ، وذنوبى إليه أكثر من ذنوبى إليك ، فضحك الفضل ووصله (٣) .

---

(١) الجهشيارى ص ٢٣٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٨ .
(٣) ابن خلكان ١ : ٤٠٩ .

وفى رواية ابن طباطبا (١) أن الشاعر اعتذر للفضل بقصيدة منها :

وما لى الى الفضل بن يحيى بن خالد
من الجرم ، ما يُخْشَى على مثله الحقد
فَجُدْ بالرضى لا أبتغى منك غيره
فما لى إلى غير الرضى منكمُ قصد

فقال له الفضل لا أحتمل تفريقك بين رضاى وإحسانى ، فهما مقرونان ، ثم رضى عنه ووصله .

ومما أعُدُّه من الدهاء الرخيص ومن عدم الوفاء لوصايا الخلفاء وإرشاداتهم ما حكاه الأصفهانى عن الفضل بن الربيع قال : كان ابن جامع من أصحاب الهادى إبان حياة المهدى ، وكان المهدى يخشى على ابنه أن يفسده ابن جامع ، ولهذا ضربه المهدى وطرده من بغداد ، فرحل هذا الى مكة ، فلما مات المهدى وتولى الهادى سارع الفضل بن الربيع وأرسل رسولاً من قبله وأعطاه دنانير وقال له : إذهب الى مكة فأتنى بابن جامع واحمله فى قبة ولا تعلم بذلك أحداً ، ففعل الرسول ما أُمر به ووُضعَ ابنُ جامع فى بيت الفضل واشتُريَتْ له جارية ، فقد كان ابن جامع صاحب نساء ، فقال الهادى ليلةً لجلسائه : أما فيكم أحد يرسلَ الى ابن جامع وقد علمتم موقعه منى ؟ فقال الفضلَ بن الربيع : هو والله عندى يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت ما أردت ، وبعث الفضل إليه فأُتِيَ به فى الليل ، فوصلَ الهادى الفضلَ بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته (٢) .

وكان الربيع وابنه الى الشر والإغراء به أميل منهما الى الخير ومنحه ؛ حدث ابن مناذر قال : حج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة ،

---

(١) الفخرى ١٧٧ .
(٢) الاغانى : جـ ٦ ص ٧٩٠ .

وحج معه الفضلُ بن الربيع ، وكان مضيّقاً مُمْلِقاً (أى بخيلا) (١) ، فهيأتُ فى الرشيد قولا أجدت تنميقه ، فدخلت عليه فوجدته يسأل عنى ويطلبنى ، فبدرنى الفضل بن الربيع قبل أن أتكلم وقال : يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البرامكة ومادِحهم ، فتنكر الرشيد وعبس وجهه ، فقال الفضل : مره يا أمير المؤمنين أن يُنْشِدك قَوْلَه فيهم :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك

فقال لى الرشيد أنشد ، فأبيتُ ، فتوعدنى حتى أنشدت :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك
فيا طيب أخبار ، ويا حسن منظر
إذا وردوا بطحاء مكة أشرقت
بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

ثم قلت : يا أمير المؤمنين كانوا أولياءك فمدحتهم قبل أن يلقاهم سخطك وتحل بهم نقمتك ولم أكن فى ذلك مبتدعاً ، ولا خلا أحد من مدحهم ... فأمر بى فلطمت على وجهى وسُحبت من المجلس (٢)

وبجانب هذا الذى تسبب فيه الفضل بن الربيع نسوق القول عن موقف مماثل للفضل بن سهل ، كان عبد الله التميمى الشاعر قد وَصَفَ للأمين غلامه كوثراً فقال :

مـا لمن أهوى شبيهُ	فَبِه الدنيا تتيهُ
وصلُه حلو ولكن	هجرُه مرٌّ كريه
من رأى الناسُ له الفضـ	ـلُ عليهم حسدوه
مثل ما قد حسد القا	ئمَ بالملكَ أخوه

---

(١) هذا دليل واضح على شح آل الربيع يضاف لما سبق .
(٢) الاغانى ١٧ : ٢٥ — ٢٦ .

وقـد شاع البيت الأخير حتى سمعه المأمون ، فلما قتل الأمين قدم التميمى على المأمون ليمدحه ، فلم يأذن المأمون له ، ولكن الفضل بن سهل تدخل فى الأمر وخفف من غضب المأمون على الشاعر وسأله العفو عنه ، واستجاب المأمون لرغبة وزيره وأذن للشاعر بالمثول بين يديه وبمدحه ، وحينئذ يقول المأمون : قد وهبت جريرتك لله ولأخى الفضل بن سـهل ، وأمر له بعشرة آلاف درهم (١) .

ولنجعل خاتمة القول فى هـذه المقارنة أن نسوق هـذه السطور القلائل التى تدل على وفاء يحيى بن خالد وسمو خلقه ؛ حدث الجهشيارى (٢) قال : كان ليحيى قبل الوزارة حاجب يقال له « سَمَاعة » فلما تقلد الوزارة رأى أحد اخوانه « سماعة » يقل عن حجابته ، فقالوا له : لو اتخـذت حاجباً غيره ؟ فقال يحيى : كلا ، هـذا يعرف إخوانى الأقدمين .

نتيجـة الدراسـة

وبعد : هذه صفحة الفضـل وأبيه ، وتلك صفحة النظراء والأنداد ، فهل كان من الممكن أن يعيش الربيع وابنه فى هـذا الجو دون أن تتصارع فى نفسيهما العوامل المختلفة ؟ ودون أن يدفعهما الحقـد والحسـد الى الوشاية والسعاية بهؤلاء وأولئك ؟ .. إن هذه الأحداث التى برزت للعيان وتلك المؤمرات التى أوقعت الموت بالأفراد والجماعات ، كانت نتائج طبيعية للدوافع التى كمنت فى نفس الربيع وابنـه والتى شرحناها بكثـير من التفصـيل .

وهكذا كان العالم الاسلامى يرى إيقاعاً بالموريانى وأهله ، ويشهد

---

(١) المرجع السابق ١٨ : ١١٧ — ١١٨ .
(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٠٢ .

نكبـــة البرامكة ، ويئن تحت عبء الحرب بين الأمين والمأمـــون ، وهو لا يدرى أن الربيع وابنه يقفان من وراء ستار ، يتحدثان هـــذه النكبات ، ويقذفان العالم الاسلامى بكثير من الشرور .

* * *

وبعـــد ، ذلك هو العصر العباسى الأول ، الذى يقف بين عصـــور الدولة الاسلامية موقف العملاق ، فخوراً شامخ الرأس ، لعلنا أوضحنا معالمه ، وأبرزنا أهم فلسفاته واتجاهاته ، ولنتجه بعد ذلك لدراسة الخلافة العباسية بعد العصر الأول ، ونرجو من الله العون والتوفيق :

الخلافة العباسية

بعد العصر العباسي الأول

مقـــدمة :

نواصل هنا كلامنا بايجاز عن باقى عصور الخلافة العباسية التى ذكرناها فى مطلع هذا الجزء ، أما الدراسة التفصيلية لهذه العصور فستأتى فى الأجزاء التالية من هذه الموسوعة التى ستتجه للحديث عن المناطق الاسلامية من أقصى المغرب (أسبانيا) حتى أقصى الشرق (اندونيسيا) تبعا للخطة التى وضعت فى مطلع كل جزء من أجزاء هذه الموسوعة .

ومن الواضح أن الخلافة العباسية لم تستطع أن تسيطر على كل أجزاء العالم الاسلامى الذى كان خاضعا للأمويين ، لأن الأندلس أفلتت من سلطانهم ، ولم تخضع لنفوذهم ، ثم إن الخلافة العباسية صادفت من أول عهدها صراعا مريرا ضد الفرس الذين أسقطوا الدولة الأموية وفتحوا الطريق للحكم الهاشمى ، فما أن سقطت الدولة الأموية حتى اتضح أن الفرس ناصروا العباسيين ليستغلوا هذا الانتصار لصالحهم ، وليضعوا فريقا من العرب فى كراسى الخلافة ، ثم ليحكموا العالم الاسلامى عن طريق هذا الفريق ، أو هذه الدمى التى شاء الفرس أن تكون لها الاسم ، وأن يكون لهم السلطان الحقيقى ، بيد أن العباسيين لم يكونوا فى هذا العصر فى الوضع الذى فهمه زعماء الفرس ، لأنهم كانوا أبطالا أقوياء ، لا يسمحون لأحد أن يستغلهم أو يسلب سلطانهم كما ذكرنا من قبل ، لهذا قام صراع طويل بين القوتين ، لعب فيه أبو سلمة الخلال وأبو مسلم الخراسانى ، وسنباذ ، والراوندية ، والمقنع الخراسانى أدوارا خطيرة ، كما لعب بنو سهل والبرامكة أدوارا والسمة ، وجاء فى قمته ذلك الصراع الذى استشرى بين الأمين والمأمون ، ذلك الصراع الذى يسميه بعض الباحثين صراعا بين الفرس

والعرب ، وكانت النتيجة أن ضعف الطرفان جميعا ؛ ضعف خلفاء بنى العباس ، وضعف طموح الفرس وبدأ التفكك يظهر فى الدولة ، ونتيجة لهذا التفكك بدأ استقلال بعض المناطق فى عهد هارون الرشيد وعهد المأمون كما ذكرنا من قبل ، ثم أدى — بعد العصر العباسى الأول — الى مزيد من التفكك والى حركات استقلالية واسعة ، وصفناها فى الأجزاء التالية من هذه الموسوعة .

أما الفرس فقد قنعوا — بعد ما أصابهم من عناء — بالاستقلال فى بلادهم فقامت الدولة الطاهرية ، ولم يتحقق لهم الحلم الذى راودهم بحكم العالم الاسلامى بأسره .

ومع ما أصاب الخلافة العباسية من ضعف فانها بقيت الى سنة ٦٥٦هـ أى استمر عمرها ٥٢٤ سنة ، ومعنى هذا أن أجزاء من العالم الاسلامى أخذت تستقل ، وأخذ النفوذ يضيع من يد الخليفة ، ولكنْ بقيت الخلافة رمزا دينيا حينا ، وحينا كانت أداة يستغلها الذين آلت لهم السلطة الفعلية فى بغداد ليجمعوا المال لخزائنهم باسم بيت المال ، وليدعوا السلطان على العالم الاسلامى باسم الخليفة الذى كان فاقد السلطان .

وقد عبّر الخليفة المعتمد عن هذه الحالة بمقطوعة شعرية قال فيها :

أليس من العجائب أن مثلى
يرى ما قلّ ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا
وما من ذاك شىء فى يديه

وفى سنة ٦٥٦هـ زحف التتار على العالم الاسلامى وقتلوا الخليفة وكثيرا من أهله وأعلنوا نهاية الخلافة العباسية .

وهكذا طال عهد الخلافة العباسية ، مع أن الخلفاء العباسيين فقدوا نفوذهم بعد العصر العباسى الأول ، إذ استبد الأتراك ، وبنو بويه ، والسلاجقة بالسلطة ، ومن أجل هذا يتساءل الباحثون : لماذا أبقى هؤلاء على الخلافة العباسية بعد أن سلبوا سلطة الخلفاء ؟

والإجابة هى أن هؤلاء الذين كانوا حكاما فطيين رأوا من مصلحتهم أن يبقوا الخلفاء ليدعوا السلطة على العالم الاسلامى باسمهم ، فقد كانت للخلافة قدسية وجلال ، وكانت رمز وحدة العالم الاسلامى ، تلك الوحدة التى كانت موطن الاجلال والتقدير من المسلمين .

ويقول البيرونى (١) : إن الخلفاء العباسيين لم يكونوا قادرين على القيام بأدوار سياسية مهمة فى ذلك الوقت ، غير أنهم كانوا لا يزالون يتمتعون بقوة معنوية تجعل الحكام والسلاطين يحرصون على الظفر بموافقتهم على توليهم السلطة حتى تكتسب سلطتهم صفة الشرعية ، لأن الخليفة العباسى كان أمير المؤمنين الذى تهفو إليه قلوب المسلمين فى جميع أرجاء العالم السنى .

وإذا كان المماليك أو البويهيون أو السلاجقة قد سلبوا الخلفاء سلطانهم الدنيوى وسلطة الحكم ، فما كان بوسعهم أن يأخذوا المكانة الروحية التى كان يتمتع بها الخلفاء ، إذ ساد فى ذلك الحين مبدأ صلة الخلافة بالرسول .

وقد عقد ابن خلدون فى مقدمته (٢) فصلا يجيب به عن مثل السؤال الذى أوردناه آنفا ، ويقول ابن خلدون فى هذا الفصل « إن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه فى اللقب الخاص به ، لأن اللقب استحق منذ أول الدولة بعصبية وقوة لم تزل باقية ، وبها انحفظ رسم الدولة وبقاؤها ، وهذا المتغلب إن كان صاحب عصبية من قبيل الموالى والصنائع ، فعصبيته مندرجة فى عصبية أهل الملك وتابعة لها ، وليس له صبغة فى الملك ، وهو لا يحاول فى استبداده انتزاع الملك ظاهرا ، وإنما يحاول انتزاع ثمراته من الأمر والنهى والحل والعقد والابرام والنقض . . . وهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه ، ولو تعرض لشىء من ذلك لنفس عليه أهل العصبية وحاولوا الاستئثار به دونه » .

---

(١) الاثار الباقية عن القرون الخالية ص ١٣٢ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٣١ .

وسنرى مثالا لذلك فى تاريخ الأندلس عندما حاول عبد الرحمن بن المنصور الحاجب أن يصبح ولى عهد الخليفة هشام الثانى الأموى فدفع رأسه ثمنـــا لهذه المحاولة •

واذا كان الخلفاء قد بقيت لهم السـلطة الروحية فى عهـد المماليك والسلاجقة ؛ فظلوا المرجع لشئون الدين ، فان البويهيين لم يعترفوا للخلفاء بهـذا الجانب من السلطان ؛ وسبب ذلك أن البويهيين كانوا شيعة وكان الخلفاء العباسيون سنيين ، وسنعود لهـذا الموضوع بمزيد من البيـان عند الكلام عن بنى بويه •

وكان الاتجـاه السائد أن تكون بالعالم الاسلامى خلافة واحدة ؛ وكانت تتمرد هـذه الدولة أو تلك وتنتفض على الخلافة ، ويدعى أصحابها مـا يشاءون من الألقـاب دون أن يدعوا لقب الخلافة (١) ، فلمـا قامت الدولة الفاطمية فى الشمال الافريقى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، اتخـذ زعماؤها لقب الأئمـة والخلفاء ، ذلك لأنهم شيعة اسماعيلية ، والاسماعيلية والامامية يرون أن الامامة (وتشمل الخلافة) خاصة بعلى ثم — من بعده — بأولاده من فاطمة ، أى بالحسن فالحسين فأولاد الأخير ، ولا يجوز أن تكون الامامة (وتشمل الخلافة كمـا سبق القول) لغير هؤلاء ، فاذا سارت أمور الناس الدنيوية (الخلافة) لغير هؤلاء فهـو سلب وغصب لحق ثابت لعلى وأولاده ، ورضاء الأئمة بذلك إنمـا هو من باب التقية ، فاذا قوى الأئمة أعلنوا بطلان ذلك واستعادوا اللقب(١) ، وذلك مـا فعله الفاطميون •

---

(١) هذا الموضوع مختلف عن الموضوع الذى اشرنا اليه آنفا واستشهدنا عليه بكلام ابن خلدون ، فهنـاك فى بغداد متغلب على الخلافة دون أن يلغى الخلافة أو يأخذ لقب الخليفة ، وهنا — فى مصر مثلا — مستقل عن الخلافة بجزء من العالم الاسلامى دون أن يدعى خلافة ثانية ، فهناك الحديث عن عدم سلب اللقب وهنا الحديث عن عدم تكراره .

(١) انظر فى ذلك كتاب « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

وقد فتح الفـاطميون بذلك باب التعـدد فى لقب الخلافة ، وكان الأمويون فى الأندلس قد كوّنوا لهم بهـا سلطانا مسـتقلا عن ملك العباسيين ، ولكنهم لم يتخـذوا لقب الخلافة بنـاء على نظرية عدم التعدد لهـذا اللقب ، فلما فتح الفاطميون باب التعدد ، اتخذ عبد الرحمن الناصر لقب الخلافة لنفسـه (١) سنة ٣١٧هـ فأصبح فى العالم الاسـلامى ثلاثة خلفـاء ، ومرت فترة عقب ذلك هان فيهـا اللقب وادعاه كثيرون ، ولكن من الحق أن نقرر أن الشـعور العام كان يميل نحـو عدم تعدد الخلفاء فى العالم الاسلامى ويميل الى الرجوع فى ذلك الى مـا شهده صدر الاسلام وعصور القوة من وجود خليفة واحد ، ومن عدم الاجتراء على حمل هـذا اللقب ، للاحساس العـام بضخامته وعبء مسئولياته ، وضرورة الاتفاق عليه من أكثر الدول الاسلامية أو كلها ، وعلى هـذا شهدنا مئات الرؤساء والملوك يتخذون ألقابا متعددة لكنهم لم يستطيعوا حمل هذا اللقب الخطير .

***

والآن يتحتم علينـا — كتتمة للحديث عن الخلفـاء العباسيين — أن نتحدث عن السلطات التى سيطرت على هؤلاء الخلفاء ممثلة فى المماليك وبنى بويه والسلاجقة ، فخلال هذه العصور تمّ التفكك الذى تكوّنت بسببه الدول المسـتقلة التى ستكون موضوع الأجزاء التالية من هـذه الموسوعة ، وسنتكلم هنـا عن الأتراك وعن بنى بويه والسلاجقة من زاوية واحدة هى تسلطهم على شئون الخلافة ، أمـا فيما يتعلق بتاريخ البلاد التى حكموها فإن ذلك كان موضع اهتمامنا عندما تكلمنا عن الأقطار التى سيطر عليها هؤلاء فى الأجزاء التالية من هذه الموسوعة .

---

(١) عند الحديث عن الاندلس سنورد الاسبـاب الاخرى التى دفعت عبد الرحمن لهذا التصرف .

الأتـــراك

نشـــأتهم :

نقتبس فيمـــا يلى سطورا ممـــا أوردناه من قبل عند حديثنـــا عن الخليفة المعتصم خاصا بمطلع سلطان المماليك الأتراك فى بغداد وهـــذه السطور هى :

دفعت الأحداث المعتصم الى فقدان الثقـــة فى الفرس والعرب ، أمـــا الفرس فقد اتضح أنهم يقصدون الاستبداد بالسلطان ، وقد ظهر منهم ذلك فى ظروف متعددة ، وأنزل بهم الخلفـــاء العباسيون ألوانا من التنكيل بدأت بأبى سلمة الخلال ، فأبى مسلم الخراسانى ، فالبرامكة ، فالفضل بن سهل ، وأصبح واضحا أن الثقـــة بين الخلفاء وبين الفرس لم تعد متوفرة ، وأمـــا العرب فقد أدركوا أن سلطانهم قد زال بزوال دولة الأمين بسيوف الفرس ممـــا دفع نصر بن شبث للثورة فى وجه المأمون دفاعا عن العرب (١) ، وماتت ثورته ولكن الثقـــة بين الخلفاء والعرب لم تعد كمـــا كانت من قبل ، وقد اضـــطر المعتصم فى ضغط هـــذه الأحداث أن يبحث عن عنصر جديد يعتمد عليه وتتوفر ثقته فيه .

هـــذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان على المعتصم أن يخوض غمـــار حروب طويلة ومعارك شديدة ضد الزط وبابك الخرمى والروم ... ولهـــذا رأى ضرورة تقوية جيشـــه بعناصر عرفت بالشجاعة والبطولة لينتصر بهم فى هـــذه الحروب .

ويعلل الامام محمد عبده (٢) تصرف المعتصم بقوله : إن الخليفة ظن أن الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى لأن العلويين كانوا

---

(١) العبر لابن خلدون ج ٣ ص ٢٥٣ .
(٢) الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ١١٢ — ١١٣ .

ألصق ببيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك .

ولعل التاريخ لا يساعد على قبول رأى الأستاذ الامام فى هذا الموضوع ، فقد وقف الجيش العربى عدة مرات يضرب العلويين بقسوة بالغة باسم الأمويين والعباسيين ، ولهذا نميل الى السببين اللذين أوردناهما قبل ايراد رأى الأستاذ الامام .

وعلى كل حال فقد فتح المعتصم الطريق للترك ليصلوا الى جيش الخلافة ، وقد استقدمهم المعتصم من بلاد ما وراء النهر ، وبدأ بأن أسند لهم أمر سلامته الشخصية فجعل منهم حرسه الخاص ، ثم أدخلهم فى الشرطة ثم فى جيشه المحارب واستطاعوا بشجاعتهم وبطولاتهم أن ينالوا تقدير الخليفة ، وأن يصلوا الى القمة فى أمور الحرب ، وحرص هؤلاء على مكانتهم فعملوا على إسقاط أسماء كثيرين من العرب من الجيش الاسلامى ليخلو لهم الجو .

وقد أراد المعتصم أن يتخلص من سلطان الفرس وسلطان العرب ولكنه وقع وأوقع أولاده وأوقع الدولة الاسلامية فى شر مرير حيث وضع — شاء أو لم يشأ — أمور الدولة فى أيدى هؤلاء الأوغاد الطغاة[1] .

وقد بدأ شر الأتراك يظهر فى عهد المعتصم فاعتدوا على كثيرين من الناس فى بغداد ، واعتدى الناس عليهم ، ولما كثرت الشكوى منهم بنى المعتصم مدينة سامرا وانتقل اليها ونقل اليها جيشه .

وعلى كل فان شخصية المعتصم لم تدع للأتراك فرصة للطغيان ، وكذلك لم يستطيعوا فى عهد الواثق بن المعتصم أن يستبدوا بالأمر

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٤٦ — ٤٨ .

ولكنهم بعد الواثق أخذوا يزحفون بسرعة الى السلطة الكاملة ، فكان لهم منها نصيب كبير فى عهد المتوكل ثم اكتمل سلطانهم فى عهد المنتصر .

وأهم القادة الأتراك الذين لمعت أسماؤهم فى عهد المعتصم ، الأفشين (حيدر بن كاوس) وقد كان له سهم بارز فى الانتصارات التى شهدها عهد المعتصم ضد الزط وبابك الخرمى والروم ، ولكنه اتهم بالردة وبمحاولة الاستقلال ببلاده أشر وسنة ، وقامت الأدلة على ذلك ؛ فقبض عليه المعتصم وسجنه ، وظل بالسجن حتى مات ، ومن زعماء الأتراك إيتاخ وأشناس وبغا الكبير .

وبعد ، فهل يلام المعتصم على أنه جلب الأتراك الأوغاد ومنحهم القيادة فى جيش المسلمين ، أو يلتمس له العذر ؟ سؤال قدمنا عناصر الاجابة عنه بايجاز . وأغلب المؤرخين يلقون على المعتصم تبعة ما جلبه الأتراك من فساد على الاسلام والمسلمين .

الأتراك بعد المعتصم :

وصل القواد الأتراك فى عهد الواثق الى مكانة مرموقة ، وقد خلع الواثق على أشناس لقب السلطان ؛ وبذلك اعترف له بحقوق تعدو نطاق المهام العسكرية الخالصة ، حتى اذا توفى الواثق فى سن مبكرة كان وصيف — خلف أشناس — قد أمسى من القوة بحيث يستطيع أن يرفع الى العرش الرجل الذى يرتضيه ، وبخاصة أن الواثق لم يختر أحدا لولاية عهده ، وقد نصب وصيف بادىء الأمر محمد بن الواثق خليفة على المسلمين ، وكان لا يزال دون سن الرشد ، لكنه سرعان ما استبدل به عمه جعفرا المتوكل على الله ، وقد حاول الخليفة الجديد أن يتخلص من صانعى الملوك ، فأوقع بابن الزيات ، وقضى على إيتاخ ، ولكن محاولته لم تتم لأن الأتراك ثاروا ضده مع ابنه المنتصر واستطاعوا قتله ، واكتمل لهم بذلك السلطان وبدأ عصر ضعف الخلافة(١) .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص ٥٢ — ٥٤ .

ومن زعماء الأتراك الذين ظهروا فى هـذا العصر غير الذين مرّ ذكرهم بغا الصغير المعروف بالشرابى ، وقد عاصر المتوكل والمنتصر ، وفى عهد المستعين ظهر بايكباك وأتامش وسيما الشرابى وكلباتكين ، وفى عهـد المعتز ظهر صالح بن وصيف وموسى بن بغا ، وفى عهد المهتدى برز مفلح ، وفى عهد المقتدر ظهر مؤنس المظفر .

وقد احتفظ هؤلاء الزعماء بقيادة الجيش ، وأحيانا تولى بعضهم الوزارة مثل أتامش الذى تولى وزارة المستعين ، وعن طريق قيادة الجيش كان للأتراك السلطان الكامل تقريبا فى شئون القصر وشئون الدولة فيما عدا فترة خلافة المعتمد والمعتضد التى سنتحدث عنها فيما بعد تحت عنوان « صحوة الخلافة » .

وخلفاء هذا العصر هم :

المتوكل	٢٣٢ — ٢٤٧هـ.
المنتصر	٢٤٧ — ٢٤٨هـ.
المستعين	٢٤٨ — ٢٥٢هـ.
المعتز	٢٥٢ — ٢٥٥هـ.
المهتدى	٢٥٥ — ٢٥٦هـ.
المعتمد	٢٥٦ — ٢٧٩هـ.
المعتضد	٢٧٩ — ٢٨٩هـ.
المكتفى	٢٨٩ — ٢٩٥هـ.
المقتدر	٢٩٥ — ٣٢٠هـ.
القاهر	٣٢٠ — ٣٢٢هـ.
الراضى	٣٢٢ — ٣٢٩هـ.
المتقى	٣٢٩ — ٣٣٣هـ.
المستكفى	٣٣٣ — ٣٣٤هـ.

(وقد عاصر المستكفى آخر نفوذ عهد المماليك ومطلع نفوذ البويهيين) .

نهاية الخلفاء فى هذا العصر والعصر الذى يليه :

قلنـا فيما سبق إن المماليك هجموا على الخليفة المتوكل وقتلوه ، ونضيف الآن أن قتل المتوكل فتح الطريق للاعتداء القاسى الظالم المتهور على الخلفاء ، وقد استمر هـذا التصرف طيلة عهـد المماليك وامتـد الى عهـد البويهيين ، فتعرض الخلفاء خلال هذين العهدين لسبب ولغير سبب الى عنف بربرى ، شـمل القتل ، وسمل العينين ، والايقـاف فى الشمس المحرقة ، والضرب ، وكان خلع الخلفـاء أيسر مـا ينزل بهم ، وقل من الخلفاء من نجا من هـذا المصير ، وقد دون السيوطى وابن طباطبا (١) صورا من هـذه النهايات الأثيمة فليراجعهـا القارىء هناك ، ومن الذين مسهم هـذا الهوان المعتز بالله الذى أوقف فى الشمس وضرب ثم قتل صبرا ، والمقتدر الذى قطعت رأسه وألقيت جثته بالطريق عدة أيام ، والقاهر الذى خلع ، والمستكفى الذى خلع وسملت عيناه واعتقل حتى مات ، والطائع الذى قبض عليه بقسوة وخلع .

مشاهير وزراء العصر :

حفلت كتب التاريخ والأدب بأسماء لمعت فى هـذا العصر فى عالمى السياسة والأدب ، وشغل بعضها منصب الوزارة ، وجدير بنا من أجل هذا أن نذكر هنا مشاهير وزراء العصر .

وزر للمتوكل محمد بن عبد الملك الزيات الذى وزر للمعتصم والواثق من قبل ، كما وزر له أبو الوزير ، ومحمد أبو الفصل الجرجرائى ، وعبيد الله ابن يحيى بن خاقان .

ووزر للمنتصر : أحمد بن الخصـيب .

ووزر للمستعين : أحمد بن الخصيب (السـابق ذكره) ، وأتامش ، وعبد الله بن محمد بن يزداد ، والجرجرائى (السابق ذكره) .

---

(١) اقرأ تاريخ الخلفاء والفخرى عند نهاية كل من خلفاء هذين العهدين .

ووزر للمعتز : جعفر الإسكاف ، وعيسى بن فروخنشاه ، وأحمد بن اسرائيل الأنبارى .

ووزر للمهتدى : الإسكاف (السابق ذكره) وسليمان بن وهب .

ووزر للمعتمد : الخاقانى (السابق ذكره) ، والحسن بن الجراح ، وسليمان بن وهب (السابق ذكره) ، واسماعيل بن بلبل ، وعبيد الله بن سليمان بن وهب .

ووزر للمعتضد : عبيد الله بن سليمان (السابق ذكره) ، وابنه القاسم .

ووزر للمكتفى : القاسم (السابق ذكره) والعباس بن الحسن .

ووزر للمقتدر : العباس بن الحسن (السابق ذكره) ، وأبو الحسن على بن محمد بن الفرات ، ومحمد بن عبيد الله بن يحيى الخاقانى ، وعلى بن عيسى بن الجراح ، وحامد بن العباس ، وعبد الله بن محمد بن عبيد الله الخاقانى ، وابن مقله ، وسليمان بن الحسن بن مخلد .

ووزر للقاهر : ابن مقلة (السابق ذكره) . ومحمد بن القاسم بن عبيد الله بن وهب .

ووزر للراضى : ابن مقلة (السابق ذكره) ، وعبد الرحمن بن عيسى ابن داود بن الجراح ، والكرخى ، وسليمان بن مخلد ، والفضل بن الفرات ، والبريدى .

ووزر للمتقى : ابن مخلد (السابق ذكره) ، والبريدى (السابق ذكره) ، ومحمد بن أحمد الإسكافى القراريطى (عدة مرات) .

ووزر للمستكفى : محمد بن على السامرى (١) .

---

(١) انظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ازامباور ص ٦ وما بعدها .

أهم الأحداث فى هذا العصر

بالاضافة الى سلطان المماليك الذى طغى على سلطان الخلفاء ، هناك أحـداث هامة وقعت فى هذا العصر ، نلمّ بها فيما يلى .

١ ـ صحوة الخلافة :

كانت المشاغبات والمؤامرات والفتن طابع هـذا العصر ، وكان بعض الأتراك يشغب على البعض الآخر ، ويهدد القوىُّ الضعيفَ ، ويتقوّى اليوم من كان بالأمس مستكيناً فيقسو ويعربد ، وكانت عاصمة الخلافة غارقة فى هـذه الاضطرابات ، فكثرت بذلك الحركات الاستقلالية فى أجزاء كثيرة من العالم الاسـلامى ، واختلت ميزانية الدولة لقـلة ما يرد من الولايات ، ولكثرة النفقات ، ولاضطراب الأمن ، وتوالت انتصارات صاحب الزنج الذى سنتحدث عنه فيما بعـد ، ولذلك نجد الأتراك يتفقون فيما بينهم على ترك قيادة الجيش لأحـد العباسيين ليكون له السلطان عليهم رغبة فى تهدئة الأحوال ، ومن هنا تركوا للخليفة المعتمد أن يختار قائدَ الجيش من أسرته ، فاختار أخاه الموفق ، واسترجع العباسـيون بذلك السلطان من الأتراك ، وتعتبر هـذه الفترة فترة صحوة للخلافة العباسية ، وبعد وفاة الموفق تولى ابنه المعتضـد قيادة الجيش ، فلما توفى عمـه الخليفة نودى بالمعتضـد خليفة للمسلمين ، وكانت صحوة بنى العباس هـذه من سنة ٢٥٦ الى سنة ٢٨٩ هـ ، وعاد بنو العباس بعد المعتضد الى ضـعفهم ، ولكن السلطان لم يعـد للمماليك على نحو ما كان عليه من قبل ، فقـد برزت سلطة نساء القصر كما برز منصب أمير الأمراء ، الذى تركزت فيه السلطة ، ولم يكن هذا المنصب خاصاً بالأتراك ، وإنما قفز له رجالٌ من هنا وهناك كما سنرى فيما بعد عند الحديث عن هذا المنصب ، ومع هـذا فقد ظلّ العصر كله يعرف بعصر نفوذ الأتراك ، فقـد كان هؤلاء خلفَ نساء القصر ، كما كانوا عنصراً بارزاً فى الجيش على كلّ حالٍ .

٢ — ثورة الزنـــج :

كانت منطقة البصرة وواسط تعج بآلاف الزنوج الإفريقيين الذين كانوا أرقاء أو اجراء لدى كبار الملاك فى هـذه المنطقة ، وفى عهد الخليفة المعتمد على الله ظهر فى هـذه البقاع رجل فارسى اسمه على بن محمد ، وكان هـذا الرجل ذكياً طموحا فصيحا بليغا لبيباً (١) أخـذ يسلك عـدة طرق لتقوده الى الزعامة والمجد ، فادعى كذباً أنه علوى النسب وذكر أن اسمه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ولكن هـذا النسب لم يجلب له كبير فائدة ، إذ كان آل البيت كثيرين فى تلك البقاع ؛ وقـد جرّب الناس تأييدهم فلم ينالوا منه ما يشجعهم على المضى فيه ، فجهر الرجل بعقائد الخوارج اعتقاداً منه أنها تلائم اتجاهات المساواة والديمقراطية التى يتطلع لها العديد من الطبقات الدنيا (٢) ، ثم خطا الرجل بادعاءاته خطوة أخرى ذهب بها تجاه النبوة أو الألوهية ، إذ زعم أنه ظهرت له آيات عرف بهـا ما فى ضمائر أصـحابه (٣) .

ولم تنفعه كل هـذه الاتجاهات وأخيراً وجـد ضالته حينما أدرك أن الزنج يمكن أن يكونوا سلماً يرتقى عليه وينال به ما يطمع فيه من جاه ومـال ، فادّعى أنه رسول العناية الإلهية لتحرير الأرقاء ، واتصـل بعبد توسمّ فيه النشاط والذكاء اسمه ريحان بن صالح ، ووعـده أن يكون قائداً ، وأمره أن يجـذب من العبيد من يتوسم فيهم القوة والاستجابة للدعوة الجـديدة ، ونجحت الفكرة ، وتجمع حوله عدد كبير من العبيد ، فخطب فيهم ومنّاهم ، ووعدهم أن يقودهم ويملكهم الأموال ، وأقسم لهم ألا يغدر بهم ، ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم ، وقد وصل تعداد أتباعه ١٥٫٠٠٠ غلام (٤) .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٢١ .

(٢) Neldeka : Sketches from Eastern History.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ٧٣ .

(٤) الخضرى : محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ص ٤١٢ .

وجاء عيد الفطر فصلى بهم وخطبهم ، وفى خطبته شرح لهم ما وقع بهم من ظـلم ، ورسم لهم مستقبلا سعيدا ، وأغراهم بالجهاد ليستمتعوا بالأموال التى سينالونها من الظالمين ، وبدأ بذلك نضـال مرير بينه وبين جيوش الخلافة ، وقد قتل القائد التركى (جُعْلان) فى إحدى معاركه ضـد صاحب الزنج وكانت ثورة الزنج مدمرة تحرق المدن وتبيد الزرع ، وقـد استولى الزنوج على مدينة الأبلة والأهواز وواسـط والبصرة وعبادان ، وكانوا يحرقون بعضها ويذبحون أكثر سكانها وينهبون ما يجدونه فيها من مال وعتاد ، حتى عم الرعب هـذه البقاع ؛ وهددت عاصـمة الخلافة بزحف هؤلاء الغوغاء .

ولجأ الخليفة الى أخيه الموفق ليحارب صاحب الزنج ، ووضـع فى يده مقاليد الأمور ليُعِدّ نفسه وجنده على النحو الذى يريده ، ودارت معارك رهيبة بين القائدين الكبيرين ، واضطر الموفق أن يبنى له قلعـة تواجه مدينة « المختارة » التى كان صاحب الزنج قد اتخذها عاصمة له ، وأقام كل فريق يرابط ضـد الفريق الآخر ، وفى آخر الأمر كانت الغلبة للجيش العباسى الذى أباد الزنج قتلا وأسراً ، وقتل صاحب الزنج ودمرت مدينته ، وقـد استمرت ثورة الزنج أكثر من أربعة عشر عاماً (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وسقط فيها مليونان ونصف فى رواية ابن طباطبا [١] ومليون ونصف فى رواية السيوطى [٢] ، ونجا العالم الاسلامى من الفوضى والجهل اللذين كانا طابع هؤلاء الرعاع .

٣ — منصب أمير الأمراء :

أمام قوة المعتضـد ضعفت قوى الوزراء ، وأنهـار نفوذ المماليك ، فلمـا مات المعتضـد وتولى ابنـه المكتفى الخلافة عاد الضعف لخلفاء هـذا العصر ، فلمـا ثقلت العلة على المكتفى اتجهت النيـة الى اختيار

---

(١) الفخرى : ص ٢٢١ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٤ .

شخص ضعيف ليتولى الخلافة ، ويحدثنا ابن مسكويه (١) أن العباس بن الحسن وزير المكتفى استشار معاونيه آنذاك فيمن يقلده الخلافة ، فأشار عليه أبو الحسن على بن محمد بن الفرات « بألا ينصب فى هذا الأمر من قد عرف دار هذا ، ونعمة هذا ، وبستان هذا ، وجارية هذا ، وضيعة هذا ، وفرس هذا ، ومن لقى الناس ولقوه ، وعرف الأمور وتحنك ، وحسب حساب نعم الناس . وأشار ابن الفرات بجعفر ابن المعتضد ، فقال له الوزير : ويحك !! جعفر صبى . فقال ابن الفرات : إلا أنه ابن المعتضد ؛ ولم تجىء برجل يأمر وينهى ويعرف مالنا ، ويمن يباشر التدبير بنفسه ، ويرى أنه مستقل ؟ ولم لا نسلم هذا الأمر الى من يدعك تدبره أنت ؟ » .

واستجاب الوزير لرأى ابن الفرات وعين جعفرا ولقبه المقتدر ، وفى هذا الجو ظهرت سلطة نساء القصر ، وأصبح لهن الأمر والنهى والحول والطول ، يقول ابن طباطبا (٢) : واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخطيط كثير ، لصغر سنه ، ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم . وعن نفوذ نساء القصر . يقول ابن مسكويه أيضا : إنه لما قتل المقتدر وأشير بتوليه ابنه أبى العباس ، عارض هذا الرأى أبو يعقوب بن إسماعيل النوبختى ، وقال : بعد الكد استرحنا ممن له والدة وخالة ، فنعود الى تلك الحالة (٣) .

وفى المؤامرة التى تم بها القبض على المتقى وخلعه وتولية المستكفى يقول ابن مسكويه (٤) أيضا : إن المرأة التى سفرت فى هذا

---

(١) تجارب الأمم جـ ٥ ص ٣ .
(٢) الفخرى ص ٢٣٠ .
(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم جـ ٥ ص ٢٤٢ .
(٤) المرجع السابق جـ ٦ ص ٧٥ واقرأ الصولى : اخبار الراضى بالله والمتقى بالله ص ٢٨٢ .

الأمر هى المعروفة بحسن الشيرازية ، فلما تمت للمستكفى الخلافة غيرت اسمها وجعلته (علم) وصارت قهرمانة المستكفى واستولت على أمره كله • ويضيف صاحب كتاب العيون (١) أنها صارت تكبس منازل التجار والمستوردين فتحوز ما تجده لنفسها ، وانبسطت يدها حتى صارت تأخذ أموال الناس التى لا شبهة فيها •

وفى وسط هذا الجو كثرت الفوضى وتوالت المؤامرات ومصادرات الأموال ، وأصبح كرسى الوزارة أرجوحة يتداوله ابن الفرات وعلى بن عيسى وحامد بن العباس وابن مقلة وغيرهم ، ولم يعد أحد يطمئن على نفسه ولا على ماله ، وتسبب عن هذا استقلال الولاة عن السلطة المركزية ، وقلت الأموال التى تحمل الى العاصمة ، فقطع محمد بن رائق والى البصرة ما كان يحمل من البصرة ومن واسط (٢) • وقطع البريدى والى الأهواز ما كان يحمل من الأهواز ، واستولى بنو بويه على فارس ، فأنفذ الراضى لابن رائق رسولا يعرفه « أنه قلده الامارة ورياسة الجيش ، وجعله أمير الأمراء ، ورد اليه تدبير أعمال الخراج والضياع ، وأعمال المعاون فى جميع النواحى ، وفوض اليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الممالك ، وبأن يكنى ، وأنفذ اليه الخلع واللواء (٣) » •

وهكذا انتقل سلطان الخليفة الى أمير الأمراء ، ولكن هذا المنصب لم يضع حدا للاضطراب ، بل ربما سبب زيادة الفوضى ؛ إذ تطاحن على هذا المنصب كبار القادة ؛ أراده أبو عبد الله البريدى ، كما حصل عليه بجكم الديلمى (٤) نائب ابن رائق على واسط ، وقد استطاع هذا أن ينتصر على ابن رائق ، ويرغمه على الفرار ، ويتولى إمرة الأمراء

---

(١) هامش تجارب الأمم جـ ٦ ص ٧٥ •
(٢) ابن مسكويه : تجارب الأمم جـ ٥ ص ٢٣٣ •
(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم جـ ٥ ص ٣٥١ •
(٤) الصولى : المرجع السابق ص ١٠٦ •

مكانه ، ولكن الأمر لم يستقر له فقد غلبه كورتكين الديلمى ، ثم عاد ابن رائق الى احتلال المنصب مرة ثانية (١) ، ولكن سرعان ما غلبه الحمدانيون (٢) ، بيد أن هؤلاء أخلوا الطريق لتوزون أحد القادة الأتراك ليأخذ هذه المكانة (٣) وبعد توزون جاء ابن شيراز (٤) ، وهكذا لم يَضَعْ هذا المنصب حدا للفوضى والاضطراب .

وقد بدأ عصر إمرة الأمراء قبل البويهيين بعشر سنوات ، وآل هذا اللقب أخيرا الى بنى بويه ، وكان معز الدولة أول من لُقِّبَ به منهم (٥)

وفى فترة إمرة الأمراء بطل أمر الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من أمر النواحى ، ولا الدواوين ، ولا الأعمال ، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط ، وأن يحضر فى أيام المواكب دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ، ويقف ساكتا ، وصار ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمر كله ، وكذلك اتجه الى هذه الغاية كل من تقلد الامارة بعد ابن رائق ، وصارت أموال النواحى تحمل الى خزائن أمراء الأمراء ، فيأمرون وينهون فيها ، وينفقونها كما يرون ، ويطلقون لنفقات الخلفاء ما يريدون ، وبطلت بيوت الأموال (٦) .

٤ ـ الدول التى استقلت خلال هذا العصر :

بدأ استقلال الدول عن الخلافة العباسية منذ العصر العباسى الأول حيث استقل الأدراسة والأغالبة والطاهرية والزيادية ، كما سبق القول ، وفى عصر سلطة المماليك كثرت الحركات الاستقلالية ، وأنف كثير

---

(١) ابن مسكويه : المرجع السابق جـ ٦ ص ٢٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٤ .
(٤) الصولى ص ٢٥٥ وما بعدها .
(٥) ابن مسكويه جـ ٥ ص ٣٥٢ .
(٦) ابن مسكويه : جـ ٥ ص ٣٥٢ .

من الولاة أن يتبع بغداد بعد أن ضاعت هيبة الخلفـاء ، وبعد أن استبد المماليك بالأمر ، ولولا جهود الموفق وابنـه المعتضد لكان من الممكن أن يحدث مزيد من الانقسامات والحركات الاستقلالية ،ومن الدول التى استقلت فى هـذا العصر الدولة الصفارية بفارس ، والسامانية بخراسان ، والزيدية بطبرستان والرى والجبل ، واليعفرية بصنعاء ، والحمدانيون بالموصـل وحلب ، والطولونيون والإخشـيديون بمصر والشـام ، والفاطميون فى الشمال الافريقى ، ولم يبق فى يد الخليفة وابن رائق غير السواد والعراق (١) ، وقد تكلمنا عن هـذه الدول عند حديثنا عن المناطق التى قامت بهـا فى اجزاء هذه الموسوعة .

٥ ـ زواج المعتضد من قطر الندى :

ومن الأحداث الاجتماعية البارزة فى هـذا العصر زواج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنـة خمارويه بن أحمد بن طولون سلطان مصر ، وتعتبر هـذه الزيجة من أبرز الزيجات التى دونها التاريخ ، ولا يضاهيها فى عظمتها ومواكبها ومـا أنفق عليهـا إلا زواج الرشيد من زبيدة بنت عمه جعفر ، وزواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سـهل ، وانه ليُعَدّ من الاسراف مـا أنفقه آباء الزوجات الثلاث فى هذه المناسبات .

وقد أصدق المعتضد زوجته قطر الندى مليون درهم (٢) ، ولكن هـذا الصداق ضئيل اذا قيس بالتكاليف الباهظة التى تحملتها خزائن خمارويه ، وقد أجمل ابن دقماق (٣) الحديث عن جهـاز الأميرة فقال : لقد حملت معهـا مـا لم يُرَ مثله ، ولا سُمع به من قبـل ، وأورد المقريزى (٤) بعض التفاصيل عن الجهاز فذكر أن ممـا حواه مائة هون من الذهب لدق الطيب ، وألف تكة ثمن كل منهـا عشرة دنانير ،ودكة

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم جـ ٥ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .
(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٧٤ .
(٣) الانتصار بواسطة عقد الأمصـار جـ ٥ ص ٦٧ .
(٤) الخطط جـ ١ ص ٣١٩ .

(سرير) من الذهب عليهـا قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجوهر نادر القيمة .

وأقيمت الحفلات والمآدب بمناسبة الزفاف فكانت مملوءة بالبذخ والسرف ، فأسمطة فاخرة ، وصحاف من الذهب ، وألوان مختلفة من الطعـام ، وكانت الأميرة تظهر فى هـذه المآدب وقد أثقلهـا الحرير والماس ، فرأسها يحمل أكليلا من الذهب ، وعلى رأسها طرحة مرصعة بالجوهر ، وفى أذنيهـا قرط تنوء به الأذنان ، وفى معصميها الأساور النادرة ، وتحلى أصابعها خواتم فريدة .

وأعد خمـارويه عدة غريبة لرحلة ابنتـه ، فبنى لهـا قصرا فى نهـاية كل مرحلة من مراحل الرحلة الطويلة بين القاهرة وبغداد ، وأعد كل قصر بما يحتاجه من أساس ورياش .

وعلى الجملة فان المؤرخين يقررون أن هـذه النفقات الضخمة أثرت على ميزانية مصر ، وتركت خمارويه فى شدة وضيق (١) ، وكانت من أسباب اضمحلال دولة الطولونيين ثم سقوطها .

---

(١) انظر التنوخى : نشوار المحاضرة ص ٣١٢ .

بنـــو بويه

نشـــأتهم :

تقع بلاد الديلم أو بلاد جيلان فى الجنوب الغربى لبحـــر قزوين (بحر الخزر) ويسكنهـــا عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالمة أو الجيل ، وقد خضعت هـــذه البلاد للحكم الاسلامى منـــذ عهد عمر بن الخطاب ، ولكن أهلهـــا ظلوا على دينهم وآثروا دفع الجزية •

وفى الجنوب الشرقى لبحر قزوين تقع بلاد طبرستان ، وكانت — على العكس من بلاد الديلم — قد انتشر الاسلام بين أهليها •

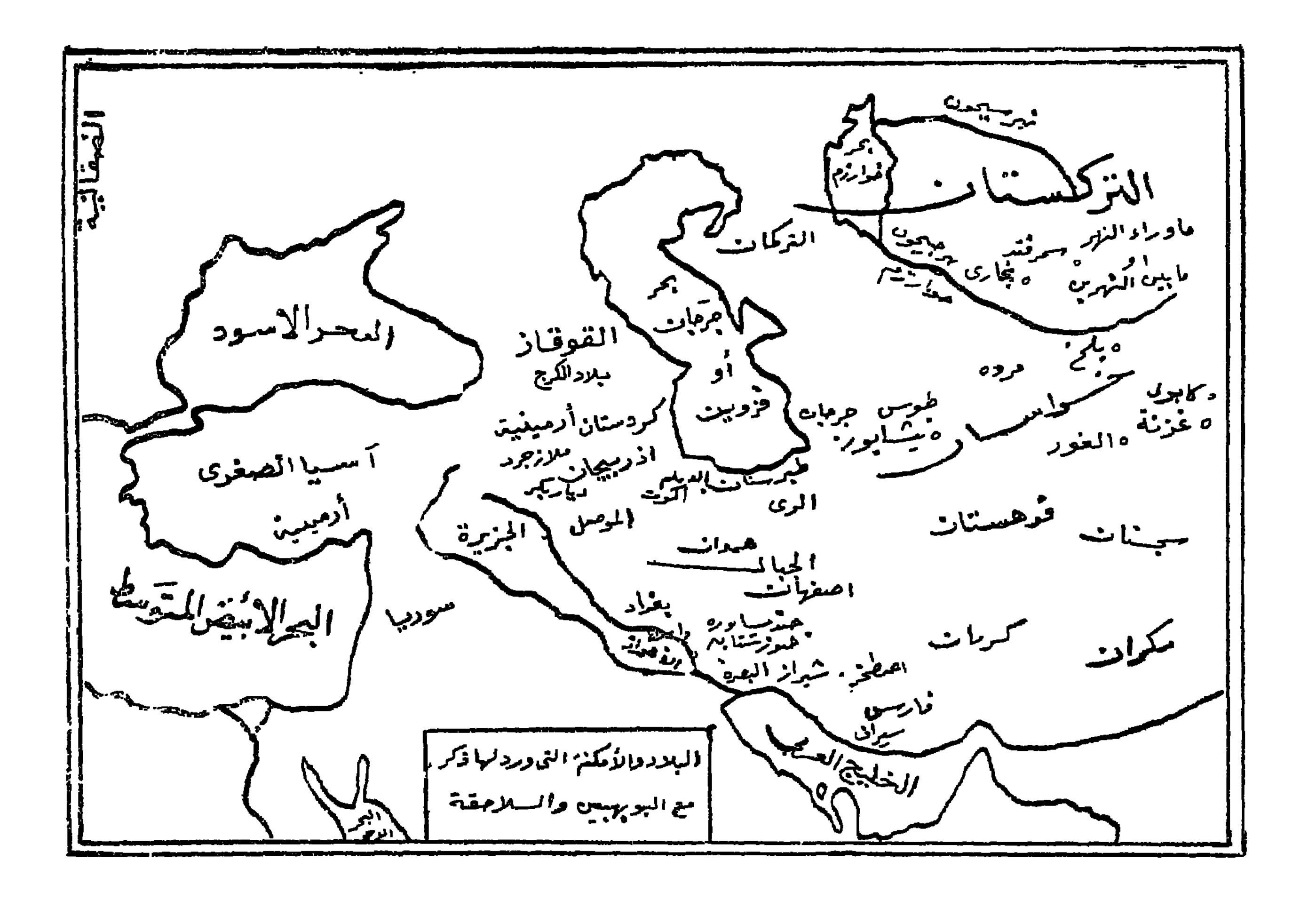
وقد حصل خلاف بين طبرستان وبين بنى طاهر الذين كانت لهم خراسان ، فاستدعى أهل طبرستان علويا اسمه الحسن بن زيد لقيادتهم ، وقد استطاع هـــذا أن ينتصر بهم ، وأن يكوّن له دولاً سيرد ذكرها فيمـــا بعد • والمهم أن نفوذ الحسن الدينى تسرب الى بلاد الديلم ، وقد ساعدت بلادُ الديلم جارتَهـــا طبرستان فى حروبها ضد بنى طاهر ، وانضم الجميع تحت قيـــادة الحسن بن زيد ، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر بين سكان بلاد الديلم •

ودخل بلاد الديلم بعد ذلك داعيةٌ مسلم اسمه الحسن بن على ولقبه الأطروش ، وقد نجح هـــذا فى نشر الاسلام فى هذه البقاع بصورة أوضـــح •

فى هـــذه البلاد نشأ بويه الذى يُنسب إليه البويهيون ، وكان رجلا فقيرا يشتغل بصيد السمك كمـــا تشير الى ذلك أغلب الروايات ؛ ويقول ابن طباطبا (١) « إن أبا شجاع بويه وأباه وجده كانوا كآحاد الرعيـــة الفقراء ببلاد الديلم ، وكان بويه صياد سمك ، وقد كان معز الدولة بعد

---

(١) الفخرى ص ٢٤٤ •


التركستان
ما وراء النهر
أو
ما بين النهرين
سمرقند
بخارى
بحر
خوارزم
نهر سيحون
نهر جيحون
التركمان
بحر
جرجان
أو
قزوين
القوقاز
بلاد الكرج
كردستان أرمينية
ملازجرد
اذربيجان
ديار بكر
طبرستان الديلم
الرى
جرجان
طوس
نيسابور
مروه
بلخ
خراسان
كابول
غزنة
الغور
قوهستان
سجستان
الموصل
الجزيرة
همدان
الجبال
اصفهان
بغداد
كرمان
مكران
اصطخر
شيراز
فارس
سيراف
الخليج العربي
البحر الاسود
آسيا الصغرى
أرمينية
البحر الأبيض المتوسط
سوريا
البلاد والأماكن التي ورد لها ذكر
مع البويهيين والسلاجقة

تملكه البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول : كنت أحتطب الحطب على رأسي •

ويروى ابن خلكان (١) عن أبى الفرج ابن الجوزى فى كتـابه شذوذ العقود أن معز الدولة كان فى أول أمره يحمل الحطب على رأسـه ، ثم ملك هو وإخوته البلاد •

على أن الأمجاد التى حصل عليهـا بنو بويه دفعت بعض الرواة والمؤرخين الى أن يتوهموا لهم نسبا رفيعـا ، فنسبوهم أحيانا الى ملوك آل ساسان ، وأحيانا الى وزراء هؤلاء الملوك (٢) •

وكان لبويه أبنـاء ثلاثة هم على والحسن وأحمد ، وقد رأى هؤلاء أن يتخذوا الجندية مرتزقا لهم ، فالتحقوا بجيش « مـا كان بن كالى (٣) » أحد القـادة المشهورين من أبنـاء الديلم ، وأظهروا فى عملهم براعة وتفوقا ، فدفعهم هذا الى الصفوف الأولى بين الأجناد •

ويعتبر « مـا كان بن كالى » القـائد الثانى من القـادة الديالمة العظام ، أمـا القائد الأول فهو ليلى بن النعمـان الذى قتل وهو يقود جيش الزيدية ويحاول أن يقتحم به ملك السامانيين ، فلما قُتِلَ « ليلى » تولى « ما كان » القيادة مكانه ، ولكن أحد قواد « ما كان » واسمه أسفار بن شيرويه خرج عليه ، ولمع نجمه ، وكان يعاونه قائد ديلمى آخر اسـمه مرداويج بن زيار ، وقد استطاع أسفار ومرداويج أن يحققا نصرا مؤزرا ضد « مـا كان » (٤) ولكن سرعان مـا قُتِلَ أسفـار سنة ٣١٦ فآلت سلطاته الى مرداويج وأخيه وشمكير •

---

(١) وفيات الأعيان : جـ ١ ص ٥٩ .

(٢) انظر سلسلة النسب التى أوردها ابن خلكان فى وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٦ . وانظر كذلك الفخرى لابن طباطبا ص ٢٤٤ .

(٣) فى ابن مسكويه : ما كان بن كاكى (انظر الجزء السادس ص ١٦١ من تجارب الأمم) .

(٤) ابن مسكويه : تجارب الأمم جـ ٥ ص ١٧٦ .

أمـا بنو بويه فانهم بعد هزيمة « مـا كان » انحازوا الى مرداويج بعد أن استأذنوا « ما كان » وقالوا له : إن الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخف عنك مؤونتنا ، فاذا تمكنتَ عدنا لك ، فأذن لهم ، واقتدى بهم جماعة من القواد ، وصاروا الى مرداويج فقبلهم وأكرمهم ، وقلد كل واحد من قواد « ماكان » ناحية من النواحى الخاضـعة له ، وكان نصيب على بن بويه ولاية الكَرْجْ (أو الكرَج) كمـا استعان مرداويج بالحسن ابن بويه وبأخيه أحمد فى أعمال أخرى مهمة (١) .

وخرج هؤلاء الولاة الجدد الى الرى وبهـا وشمكير بن زيار وأبو عبد الله العميد وزير مرداويج ، وأقاموا بالرى فترة ليرحلوا بعدها كلٌ الى عمله ، وحدث فى هـذه الأثنـاء أن تدبر مرداويج أمره فأسف لأنه عقد هـذه الولايات الى هؤلاء القواد ، فكتب الى أخيـه وشمكير ليمنعهم من الخروج من الرى ، وان كان بعضهم خرج منع من بقى ، وكانت الكتب تصل أولا الى العميد فيقف عليهـا ، ثم يَعْرِض على وشمكير جُمْلَتَها ، فحين وقف على الكتب تقدم الى على بن بويه سرا أن يبـادر الى عمله ، إذ كانت بينهما مودة ، فقد كان على بن بويه قبل ذلك أهداه بغلة حسنة وألطافا كثيرة ، واحتَجَزَ العميد الكتب الى اليوم التـالى ، فأطلع عليها وشمكير ، بعد أن صـار على بن بويه على مسافة بعيدة ، ففاز بالولاية التى كانت سبب ملكه (٢) .

ووصل على بن بويه الى الكرج حيث استمال الزعماء والقـادة اليه باحسانه وسماحته . وضاق مرداويج به وخافه على ملكه ، فاندفع على بن بويه يقوى نفسـه ويعد عدته للوقوف فى وجه سيده ، ووسع ملكـه فاستولى على اصفهان ، ثم استولى بمعونة أخويه على شيراز سنة ٣٢٢ (٩٤٣ م) وجعلها مقر سلطانه ، ومع هـذا فقد حاول ترضية مرداويج فاعترف له بالسيادة ووضع عنده أخاه الحسن رهينة .

---

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم جـ ٥ ص ٢٧٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

ولم تطل المنافسة بين بنى بويه ومرداويج ، فقد هجم عليه بعض جنده من الأتراك وقتلوه سنة ٣٢٣ وهو فى الحمام ، وانتهز الحسن ابن بويه فرصة الهرج الذى تلا مقتل مرداويج فهرب من بلاطه بعد ليلة من مقتله وعاد الى أخيه على (١) •

وفتح الباب عقب ذلك لانتصارات بنى بويه ، إذ استطاع الحسن أن يستولى على الرى وهمدا وبقية بلاد الفرس فى نفس العام ، كما استطاع أحمد أن يستولى على كرمان ، وزحف على الى بلاد الأهواز فاحتلها ، واحتل بعدها واسط ، واكتمل لبنى بويه بذلك السلطان على مساحة كبيرة من أملاك الدولة العباسية ، فكتب على الى الخليفة العباسى يطلب الاعتراف به ، فاستجاب له الخليفة وكتب له بذلك •

ويقول ابن خلكان (٢) عن عماد الدولة : فكان عماد الدولة سبب سعادتهم التامة وانتشار صيتهم ، واستولوا على البلاد وملكوا العراقين والأهواز وفارس وساسوا أمور الرعية أحسن سياسة •

وكانت الأحوال كما قلنا قد ساءت فى بغداد ، وضعف المماليك وأمراء الأمراء عن تسيير دفة الأمور على نحو ما ذكرنا من قبل ، وفى سنة ٣٣٤ كتب قادة بغداد الى أحمد بن بويه ليدخل بغداد ويتولى السلطان بها ، ففعل ، وقد رحب به الخليفة العباسى وعينه « أمير الأمراء » وخلع عليه ولقبه معز الدولة ولقب أخاه عليا عماد الدولة والحسن ركن الدولة (٣) ، وخضع خلفاء بنى العباس حينا من الزمن لبنى بويه ، وأصبح مصير العالم الاسلامى مرتبطا بهؤلاء السلاطين الجدد ، ولم

---

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ١٦٣ ، ٣١٤ — ٣١٥ .
(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٤ .
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٣٤ .

بيق للخلفاء معهم نفوذ ولا سلطان ، وذهبت هيبة الخلافة طيلة هـذا العهـــد (١) .

وخلفاء ذلك العهد هم :

المستكفى ٣٣٣ — ٣٣٤هـ

وقد عاصر آخر عهود الأتراك ومطلع عهد بنى بويه .

المطيع ٣٣٤ — ٣٦٣هـ

الطائع ٣٦٣ — ٣٨١هـ

القادر ٣٨١ — ٤٢٢هـ

القائم ٤٢٢ — ٤٦٧هـ

وقد عاصر « القائم » آخر عهد البويهيين ومطلع عهد السلاجقة .

فروع بنى بويه :

اقتسم بنو بويه على والحسن وأحمد المنـــاطق التى تم لهم فتحها ، وتعاونوا على إدارتهـــا والسيطرة عليها ، تاركين للأخ الأكبر على بن بويه (عماد الدولة) السلطان العـــام والتوجيه فى مهـــام الأمور ، ويروى لنـــا ابن مكسويه (٢) صـــورة توضح لنا سلطة عماد الدولة ومكانة أخويه منـــه ، قال :

وصل معز الدولة من العراق الى الأهواز ليلقى أخاه عماد الدولة ، فلمـــا لقيه قبل الارض بين يديه ، واجتهد به عماد الدولة أن يجلس بين يديه فلم يفعل ، وكان يتردد اليـــه كل يوم بالغداة والعشـــية فيقف ولا يجلس . . . . كان عماد الدولة يقول عن الحسن وأحمد أخويه : إنهما أخواى بالنسب ، وابناى بالتربية ، وصنيعتاى بالولايات .

---

(١) أبو الريحان البيرونى : الاثار الباقية ص ١٣٢ .
(٢) تجارب الامم ج ٦ ص ١١٣ .

وبجانب السلطان العام الذى ترك لعلى بن بويه ، كان له السلطان المباشر على الجزء الجنوبى من بلاد فارس (سجستان ومكران وكرمان) وكان للأخ الأوسط الحسن (ركن الدولة) الجزء الشمالى من بلاد فارس (بلاد الجبل والرى وطبرستان) أما الأخ الأصغر أحمد (معز الدولة) فكان له العراق (الأهواز وواسط وبغداد) •

وقد ظل الحال كذلك طيلة عهد هؤلاء الثلاثة الكبار ، وهو نظام يحمل فى طياته بذور الفرقة ، ولئن استطاع مؤسسو ملك البويهيين أن يتعاونوا فيما بينهم طيلة حياتهم فسرعان ما دب الشقاق بين أولادهم ، ووصل الشقاق الى الحروب التى هدت قواهم ، وسنتحدث عن ذلك عند كلامنا عن العراق وفارس وقد فتحت هذه الحروب الطريق لقوى ناشئة لتعلن استقلالها عن بنى بويه كما سنرى فيما بعد •

مشاهير وزراء هذا العصر :

ولم يكن للخلفاء فى عهد البويهيين وزراء ، ويقول ابن الأثير (١) فى ذلك : فلما كانت أيام معز الدولة لم يبق للخليفة وزير ، إنما كان له كاتب يدير اقطاعه واخراجاته لا غير •

وكان أبو الفرج السامرى وزيرا للمستكفى قبل دخول البويهيين بغداد ، وقد ظل فى عمله مدة ٤٢ يوما فقط ، ثم خلفه أبو عبد الله بن سليمان ليدير شئون الخليفة الخاصة ، ويقول زامباور(٢)• وهو يعدد وزراء الخلفاء : إن ثمة ثغرة كبيرة تشمل عهود المطيع والطائع والقادر •

أما بنو بويه فقد اتخذوا لهم وزراء يحملون العبء معهم ، وقد

---

(١) الكامل فى التاريخ : حوادث ٢٣٤ •
(٢) معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ج ١ ص ٩ •

اشتهر من وزرائهم مجموعة جديرة بالذكر نوردها فيما يلى (١) :

عباد بن عباس (والد الصاحب بن عباد) ابن العميد : أبو الفضل محمد بن الحسين ابن ابن العميد : أبو الفتح بن محمد	وزروا لركن الدولة
الحسن بن محمد بن هارون المهلبى العباس بن الحسن الشيرازى	وزرا لمعز الدولة
الشيرازى (السابق ذكره) أبو طاهر محمد بن بقية	وزرا لعز الدولة

وقد رثى أبو الحسن الأنبارى ابنَ بقية عقب قتله وصَلْبِه بقصيدته الشهيرة التى مطلعهـا :

علوٌ فى الحياة وفى الممـات   لحق أنت إحدى المعجزات

نصر بن هارون (نصرانى)	وزر لعضد الدولة
الصاحب بن عباد	وزر لمؤيد الدولة
أبو نصر سابور بن أردشير الذى بنى مدرسة فى بغداد سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣) وجعل لهـا خزانة كتب كان يتردد عليها أبو العلاء المعرى إبان إقامته ببغداد (٢)	وزر لبهاء الدولة

---

(١) عن جميع وزراء بنى بويه اقرأ زامباور فى المرجـع السابق ج ٢ ص ٣٢٤ — ٣٢٧ واقرأ كذلك ابن مسكويه فى تجارب الامم الجزء السادس فى عدة صفحات .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٥٦ .

أهم أحداث هذا العصر

١ — بغداد وشيراز :

لقد كان المماليك مستبدين بالخلفاء فى العهد السابق ، ولكن بغداد بقيت العاصمة السياسية والدينية ، أما فى عهد البويهيين فقد فقدت بغداد أهميتها السياسية فقد انتقلت الى شيراز حيث كان يقيم على بن بويه عماد الدولة ، الذى كان له السلطان العام على دولة بنى بويه كما وضحنا من قبل ، وبعد على لم تعُد السلطة السياسية الى بغداد وتنازعتها الأجيال التالية من أبناء البويهيين كما سنرى عند الكلام على العراق وفارس .

أما سلطان بغداد الدينى فقد مال الى الغروب أيضا بسبب الاختلاف المذهبى بين الخلفاء والبويهيين ، وقد عطل هذا الخلافُ السلطانَ الروحىَّ للخليفة وسنتحدث عن ذلك فيما بعد .

٢ — اخوان الصفا :

ازدهرت فى هذا العهد جماعة « إخوان الصفا » وباشرت فى ظل بنى بويه ألوان الفلسفة والحكمة التى نسبت لها (١) .

٣ — الدول التى استقلت فى هذا العهد :

جمَّع البويهيون فى أثناء قوتهم بعضَ ما كان قد استقل عن الخلافة من الولايات الاسلامية ، فلما استشرى الضعف فى سلطان بنى بويه استقلت عن الخلافة العباسية ممالك كثيرة منها دولة عمران بن شاهين بالبطيحة ، والدولة النجاحية باليمن ، والدولة العقيلية بالموصل ، ودولة الأكراد بديار بكر والدولة المرداسية بحلب ، والدولة السامانية فيما

---

(١) اقرأ ما كتب عن اخوان الصفا بكتاب « الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره » الذى ترجمه المؤلف من الانجليزية .

وراء النهر وفى خراسان ، والدولة السبكتيكية بغزنة ، وقد تحدثنا عن هذه الدول فى الأجزاء التالية من هـذه الموسوعة تبعا لمنطقة كل منها .

٤ ــ الخلاف المذهبى :

سبق أن شرحنا أن التعاليم الاسلامية دخلت بلاد الديلم على أيدٍ شيعية ، تتمثل فى الحسن بن زيد ثم الحسن بن على الأطروش ، وعلى هـذا فكل معارف هـذه البلاد عن الاسلام كانت طبقـا للتفكير الشيعى ، ومن أهم أسسه الوصـاية لعلى بالخلافة ، وجعل الخلافة فى أبنـاء على من السيدة فاطمة (١) .

وبنو بويه من الديلم ، وتلك كانت معتقداتهم الدينية ، ومن أجل هذا ما كادت الأمور تستقر لهم حتى فكروا فى الاطاحة بخلفاء العباسيين الذين يعدهم الفكر الشيعى مغتصبين ، وملء كرسى الخلافة بمن يستحقه من العلويين ، أو المبايعة للخلفاء الفاطميين بالقاهرة ، ولكن أحد أصفياء معز الدولة أشار عليه بألا يفعل ، وقال له أنت الآن مع خليفة لا تعتقد أنت ولا أحد ممن معك بصحة أحقيته للخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لفعلوا ، أما إذا بايعت لعلوى فانك ستكون مع خليفة قد سلمت أنت وأصحابك بحقه فى الخلافة، ولو أمرهم بقتلك لفعلوا ، فاترك هـذا الرأى (٢) .

وعلى كل حال فقد أعشى بريقُ السلطان عيونَ بنى بويه ، ولم يريدوا أن يتنازلوا عن مكانة حصلوا عليهـا ، فأبقوا ببنى العبـاس كالدمى ينتفعون بهـا دون أى التزام نحوهم أو إجلال ، وأدرك خلفـاء بنى العباس ذلك فمالوا للدعة والرضا والتسـليم ، وتركوا كل الأمور للبويهيين الذين أصبحوا سـادة حقيقيين للموقف .

على أن البويهيين ــ وإن أبقـوا الخلفـاء العباسيين للسـبب

(١) انظر الجزء الثانى من هذه الموسوعة عند الكلام عن الشيعة .
(٢) ابن الاثير : حوادث سنة ٣٣٤ .

السابق — كانوا دعاة متحمسين للمذهب الشيعى على الرغم من أن سكان بغداد كانوا غالبا يدينون بالمذهب السنى ، ومن مظاهر حماسة البويهيين للتشيع أن أمروا فكتب على مساجد بغداد ما يلى :

لعن الله معاوية بن أبى سفيان ، ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ، ومَنْ منع أن يُدْفَن الحسن عند قبر جده عليه السلام ، ومن نفى أبا ذر الغفارى ، ومن أخرج العباس من الشورى (١) .

ولكن أهل السنة أزالوا هذا من حيطان المساجد ، فأشار الوزير علىّ معز الدولة أن يكتب لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحدا فى اللعن إلا معاوية . فوافقه على ذلك (٢) .

وبالاضافة الى ذلك أمر معز الدولة أن يحتفل الناس فى بغداد بأعياد الشيعة ؛ ففى العاشر من المحرم كان على التجار أن يغلقوا دكاكينهم وأن يلبسوا أقبية سوداء ، وعلى النساء أن يخرجن منشورات الشَّعَر مسوّدات الوجوه ، مشقوقات الثياب ، نائحات ، لاطمات الوجوه .

وفى الثامن عشر من ذى الحجة أمر معز الدولة أن يظهر الناس فى أحسن لباسهم ، وأن تتزّين الجدران وتضاء الأنوار ، وتفتح الأسواق احتفالا بحدث غدير خم إذْ يروى الشيعة أن الرسول عندما صدر عن حجة الوداع وصار بغدير خم ، أمر بالدوْحات فقمّمن له ، وأمر مناديه فنادى : الصلاة جامعة ، ثم خطب عليه السلام فكان مما قاله : من كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ،

---

(١) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .
(٢) المرجع السابق وابن مسكويه : تجارب الامم ٣ : ١٦٢ .

وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدِرْ الحق معه حيث دار • ألا هل بلّغْتُ (١) ؟

والشيعة هم الذين يروون هذا الحديث ، ويفسرونه بأن معناه الوصية لعلى بقيادة أمور المسلمين بعد الرسول •

ومن الواضح أن أهل السنة فى بغداد كانوا يعارضون هذه الاتجاهات ، ولكن لم يكن فى يدهم حول يعارضون به رغبة السلطان ، على أن مثل هذا التضارب كان يحدث بلبلة واضطرابا ويديم التوتر بين السكان •

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٤ وانظر كذلك مسند احمد ص ٨٤ ، ١١٨ ، ١٥٢ وعقيدة الشيعة لدوايت دونلدش ص ٢٢ •

الســلاجقة

نشــأة السلاجقة :

شهد القرن الثــانى الهجرى ، وكذلك القرن الثالث والرابع أفواجا من قبائل الأتراك (الغز) تهاجر من أقصى تركستان تحت ضــغط سياسى أو اقتصــادى أو كليهمــا ، متجهة نحو الغرب ، محاولة الاستقرار فى اقليم مــا وراء النهر واقليم خراسان ، ولم تكن هــذه القبائل فى أول أمرهــا موحدة القيــادة ، ولم تكن تنتسب الى أصل تعرف به ، فلمــا ظهر سلجوق فى النصــف الثــانى من القرن الرابع جمع شمل هــذه القبائل ، ووحدها تحت زعامته فنسبت اليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفــاده من بعده .

ونزل السلاجقة بالقرب من السامانيين والغزنويين ، فدخلوا الاسلام ، وتعصبوا للمذهب السنى الذى كان منتشرا بتلك البقــاع ، والذى هو أقرب الى العقل السلجوقى ، وكانت الحروب مشتعلة بين السامانيين والغزنويين ، فانضم الســلاجقة للســامانيين وســاعدوهم ، وكافأهم السامانيون على ذلك بأن سمحوا لهم بالاستقرار قريبا من شاطىء نهر سيحون ، وانهــارت الدولة السامانية فى أواخر القرن الرابع (ســنة ٣٨٩) أمام عنفوان الغزنويين فأتاح هــذا للسلاجقة الفرصة للاستقلال بمــا تحت أيديهم من أملاك الدولة المنهارة ، كما ذكرنا بالتفصيل فى الجزء الثامن من أجزاء هــذه الموسوعة .

ومات سلجوق وهو فى المائة من عمره أو تجاوزهــا ، فتولى رياسة هــذه القبائل ابنه اسرئيل ، وبدأ محمود الغزنوى يتوجس خيفــة من هــذه القوة الناشئة ، ولكنه تظاهر بالمسالمة واستدعى اسرائيل لمفاوضته وقبض عليه غدرا وألقاه فى السجن ، فاختار السلاجقة أخاه ميكائيل بن سلجوق لقيادتهم ، فمال هذا لمسالمة محمود الغزنوى ، إذ أدرك أن قوتهم لا تسمح بمصــارعة قوة الغزنوى ، ومع هــذا فان سياسة المسالمة لم

تدم طويلا ، إذ هجم عليهم محمود الغزنوى وشتت شملهم سنة ٤١٨ ومات ميكائيل عقب ذلك ثم مات محمود الغزنوى ، وآلت أمور السلاجقة الى ابنى ميكائيل جفرى بك وطغرل بك ، ومهّد موت السلطان محمود الغزنوى الطريق لنجاح السلاجقة ، إذ لم يستطع ابنه مسعود أن يملأ الفراغ الكبير الذى كان يشغله أبوه ، فانهزم أمام السلاجقة فى موقعة سرخس ٤٢٩ وعاد الى الهند تاركا خراسان ومــاوراء النهر للقوة الجديدة . وأعلن طغرل بك قيــام دولة السلاجقة فى هــذه السنة ، وبعد أن تمّ استقرارها اعترف بها الخليفة العباسى سنة ٤٣٢ (١) .

واستمر اتساع سلطان السلاجقة بعد ذلك وبخاصة فى عهد ملكشاه الذى استولى على بخارى ســنة ٤٨٢ ثم على سمرقند بعد حصار أسهم الأهالى فى نجاحه بأن قدموا المؤن والذخائر لجيش السلاجقة كرمز للترحيب بهم ليخلصوهم من العســف الذى كان طابع الحكــام الغزنويين فى هذه الفتــرة (٢) .

ولنقتبس من ابن طباطبا (٣) طرفا ممــا ذكره عن نشأة السلاجقة ، قــال :

هم قوم أصلهم من الترك والخرز ، وكانوا يخدمون مع ملوك الترك ، ونشــأ زعيمهم سلجوق ، وكانت إمارات النجابة لائحة عليــه ، ودلائل السعادة ظاهرة على حركاته ، فقرّبه ملك الترك واختّص به ، ولقبــه « شباشى » ومعنــاه فى لغتهم « قائد الجيش » فنبغ سلجوق بعلو همته ، واستمال قلوب الرجال بكرمه وعقله ، وانقادت الأكابر اليه ، فيقال ان زوجة ملك الترك قالت لزوجها : إنى أتوسم فى سلجوق تغلبا عليك ، والرأى

---

(١) Barthold : Turkestan Down to the Mongnl Invasion pp. 302 - 303.

(٢) Barthold : Ibid p. 136.

واقرا كذلك السـلاجقة فى ايران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين ص ١٦ وما بعدها ، والجزء الثامن من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .

(٣) الفخرى ص ٢٥٥ .

عندى أن تقتله فقد كثر ميل الناس اليه . فقال لهـا : سأنظر فى أمره ، ثم أحس سلجوق بشىء من ذلك العزم ، وظهر له التغير ، فجمع عشـيرته ومن اتبعـه أو حالفه ونفر بهم من بلاد الترك الى بلاد المسلمين ، فلمـا دخلها أظهر الاسـلام ليكون المسلمون عونا له ، وليمكنوه من الرعى والسكنى فنزل فى (جَنْد) بدائرة بخارى حيث يصب نهر سيحون فى بحيرة خوارزم (أرال) وشرع سلجوق فى غزو من قاربه من أمراء تلك المنطقة ، وكان الملك الترك إتاوة على تلك البلاد المتاخمـة له فقطعهـا وطرد نوابه .

وبعد أن دخل السـلاجقة بلاد الاسلام اشتهروا أيضـا بلقب « التركمان » وقد انحازوا الى مذهب أهل السـنة الذى كان يتلاءم وعقولهم البسيطة ، فأقبلوا على هـذا المذهب بكل مـا فى نفوسهم الفظة من قوة وحماسة (١) .

ونشب بعد ذلك نزاع بين الغزنويين بعضـهم والبعض ، فانتهز السلاجقة هذه الفرصة واحتلوا خوارزم وطبرستان . وقاموا بحملات ضموا فيها أذربيجان ، واستطاعوا بجهد يسـير أن يقضوا على بقايا البويهيين فى فارس ، ووقفوا بذلك على أبواب العراق .

السلاجقة فى بغداد :

بينمـا كان نجم السلاجقة يتألق كان نجم البويهيين فى طريقه الى الأفول ، وجدت ظروف أسرعت بالسلاجقة الى بغداد ، فقد كان السلطان البويهى (الملك الرحيم) ضعيفا ، وكان أحد قواده الأتراك واسـمه البساسيرى صاحب السلطان الحقيقى فى بغداد ، وقد تمرد هـذا القائد على سيده البويهى وعلى الخليفة ، وحاول أن يستبد بالأمر وأن يدعو للخليفة الفاطمى (المستنصر) فاستنجد الخليفة العباسى (القائم) بزعيم

---

(١) انظر تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان جـ ٢ ص ١٢٥ .

السلاجقة (طغرل بك) وانتهز طغرل بك هـذه الفرصة وسار بجيوشه حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ وأحسن الخليفة استقباله ، ولقبه يمين أمير المؤمنين ، وخضع له الملك الرحيم ، واستقر الرأى على أن يذكر فى الخطبة اسم القائد السلجوقى بعد اسم الخليفة ثم يليه اسم الملك الرحيم ، ولكن طغرل بك سرعان مـا قبض على الملك الرحيم وأرسله أسـيرا الى الرى ، فألقى به فى السجن ، وحذف اسم الملك الرحيم من الخطبة وانتهى بذلك عهد البويهيين وبدأ سلطان السلاجقة (١) .

مشكلة البساسيرى :

هرب البسـاسيرى من وجـه الجيش السلجوقى ، واتجـه الى الشمال ، وهناك تحالف مع قريش بن بدران أحد أمراء الدولة العقيلية ، وهاجم الموصـل ودخلها ، ودعا فيهـا للخليفة الفاطمى ؛ فتبعه طغرل بك واقتحم عليه الموصل وتمكن من قمع فتنة البساسيرى سنة ٤٤٩ وبسط نفوذه على ديار بكر ، ثم عين أخاه لأمه ابراهيم ينـال واليا على الموصل والجزيرة ، وقفل راجعا الى بغداد بينمـا فر البساسيرى صـوب الشـام (٢) .

غير أن ابراهيم ينـال تمرد على السلطان السلجوقى ، وغـادر الموصل واتجه بجيشـه مراغما الى همذان — وكان قد تمرد بهـا من قبل ثم استسلم وعفا عنـه طغرل بك — فلحق به طغرل بك بجيشـه ، وأوقع به هزيمة ساحقة آنذاك ، فانتهز البساسيرى الفرصـة وعاد الى بغداد ، واستولى على السـلطة ، وأعلن تبعية بغداد للخليفة الفاطمى ، واستجار الخليفة العباسى بقريش بن بدران فأجاره ، ونجـا بذلك من

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سـنة ٤٤٧ والراوندى : راحة الصدور ص ١٠٦ نقلا عن عبد النعيم حسنين ص ٣٩ وعمـاد الدين الاصفهانى : تاريخ آل سلجوق ص ١٠ .

(٢) الراوندى : راحة الصـدور ص ١٠٧ نقلا من عبد النعيم حسنين ص ٤١ .

القتل ، وظلت بغداد تابعة للقاهرة أكثر من عام (٤٥٠-٤٥١) حتى انتصر طغرل بك على أخيه ، وعاد الى بغداد حيث هزم البساسيرى وقتله ، وأعاد الخليفة العباسى الى سلطانه ، واستقرت بذلك قدم السلاجقة فى بغداد حيث بدأ عهد جديد على الخلافة العباسية (١) •

وخلفاء العباسيين خلال العهد السلجوقى هم :

القائم ٤٢٢ — ٤٦٧هـ •

وقد عاصر آخر عهد البويهيين ومطلع عهد السلاجقة

المقتدى ٤٦٧ — ٤٨٧هـ •

المستظهر ٤٨٧ — ٥١٢هـ •

المسترشد ٥١٢ — ٥٢٩هـ •

الراشد ٥٢٩ — ٥٣٠هـ •

المقتفى ٥٣٠ — ٥٥٥هـ •

المستنجد ٥٥٥ — ٥٦٦هـ •

المستضىء ٥٦٦ — ٥٧٥هـ •

النـــاصر ٥٧٥ — ٦٢٢هـ •

[وقد عاصر الناصر آخر عهد السلاجقة ثم استقل ببغداد وما حولها سنة ٥٩٠هـ •] •

العلاقة بين الخلفاء وسلاطين السلاجقة :

كانت العلاقة بين خلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة مغايرة للعلاقة التى كانت بين هؤلاء الخلفـــاء وسلاطين البويهيين ، ويذكر المؤرخون

---

(١) عمـــاد الدين الاصفهانى : تاريخ آل سلجوق ص ١٥ و ١٧ وابن خلكان جـ ١ ص ٦١ — ٦٢ •

أن أهم سبب لذلك هو الاتفاق المذهبى ، فهؤلاء وأولئك يدينون بالمذهب السنى ، مما يسر التعاون بين الجانبين ، ومما دفع السلاجقة الى إجلال الخلفاء واحترامهم احتراما عميقا ، ويبدو لى أنه بالاضافة الى هذا السبب كان البويهيون أجلافا قساة ، ولم يكن السلاجقة كذلك ، فمن الممكن أن يكون هناك اختلاف فى المذهب مع تبادل الاحترام ومع التعاون للخير المشترك والنفع العام .

ويقول الراوندى (١) معللا ولاء السلاجقة للخلفاء العباسيين ما يلى :

أثرت بداوة السلاجقة فى تعصبهم الشديد للاسلام بعد اعتناقهم له ، كما أثرت فى ميلهم المفرط الى أهل السنة والجماعة بعد اعتناقهم المذهب السنى ، ومن هنا كان تصرفهم تجاه الخلفاء ، فكانوا يظهرون لهم الولاء ، ويدينون لهم بالطاعة والاحترام .

العاصمة الدينية والعاصمة السياسية :

فى خلال العهد السلجوقى استعادت بغداد بعض مكانتها ، فأصبحت العاصمة الروحية حيث يعيش الخليفة متمتعا بسلطاته الدينية ، أما السلطة السياسية فكانت فى عاصمة السلاجقة : نيسابور أولا ثم الرى (٢) ، ولعل انفراد الخليفة ببغداد مع إجلال السلاطين واحترامهم له هيأ له صورا من النفوذ ، وأعاد له ما كان قد فقد من قبل من هيبة وجلال .

مشاهير الوزراء فى هذا العهد :

فى عهد السلاجقة استعاد الخلفاء بعض النفوذ كما ذكرنا من قبل ، ومن أجل هذا أصبح لهم وزراء على العكس من فترة سلطة

---

(١) راحة الصدور ص ٩٨ نقلا عن سلاجقة ايران والعراق ص ٢١ .
(٢) كانت اصفهان عاصمة كذلك لبعض سلاطين السلاجقة وكذلك مرو .

البويهيين إذ لم يكن للخليفة إلا كاتب يدير أملاكه الخاصة فقط كما سبق القول ، ومن وزراء هذا العهد اشتهر :

أبو نصر محمد بن محمد بن فخر الدولة بن جَهَير	وزير القائم
أنو شروان بن خالد القاشانى	« المسترشد
ابن العطار	« الناصر

على أن نفوذ وزراء سلاطين السلاجقة كان أوسع مدى وأفسح مجالا ، وبخاصة أن الحياة البدوية التى عاشها السلاجقة الأول والتى انحدرت تقاليدها الى أبنائهم وأحفادهم ، جعلتهم محدودى الخبرة فى شئون السياسة والدواوين ، ومن ثم كان لزاما عليهم أن يعتمدوا على الوزراء فى حمل هذه الأعباء ، وقد استتبع هذا أن نعم وزراء السلاجقة بنفوذ كبير ، وكان الوزير السلجوقى يلقب « خواجه بزرك » أى السيد الأعظم ، وله الاشراف على جميع الدواوين .

وقد تولى وزارة السلاجقة مجموعة من الرجال الأفذاذ ، ويتوضع فى قمتهم الوزير الشهير نظام الملك وسبع من أولاده وأحفاده ، ومن وزراء السلاجقة غير أسرة نظام الملك :

أبو نصر بن منصور الكُنْدُرى	وقد وزر لطغرل بك وألب أرسلان
تاج الدين أبو الغنائم	وزر لألب أرسلان بعد اغتيال نظام الملك
على بن الحسن الطغرائى	وزير السلطان سنجر
سعد بن على بن عيسى	وزير السلطان سنجر أيضا
شرف الدين القاشانى	وزير السلطان محمود بالعراق
الأستاذ الطغرائى	وزير السلطان مسعود بن محمد بالعراق(١)

(١) انظر كذلك وزراء السلاجقة فى « معجم الانسساب والاسرات الحاكمة » لزامباور ٣٣٨ — ٣٤٠ .

ونعود لنظام الملك لنذكر لمحة (١) عنه ، فالكلام عن السلاجقة لا يتم دون تخصيص فراغ لنظـام الملك ، فقد تمت سلطنة ألب أرسلان بعون نظـام الملك وتأييده ، وصحب نظام الملك السلطان ألب أرسلان فى معظم حروبه ، كمـا غزا مع الأمير الشاب ملكشاه عدة غزوات استوليا فيهـا على كثير من حاميات الأعداء وحصونهم ، وقاد وحده الجيوش عدة مرات وخاض بهـا معارك كُتب له فيها النصر (٢) .

ولمـا اغتيل ألب أرسلان ازدحم أولاده على الملك ، ومرة أخرى لعب نظام الملك دورا مهما حتى وطد الملك لملكشاه وخاض فى سبيل ذلك كثيرا من المعـارك ، ولذلك رد ملكشاه كل الأمور اليه وقال له : أنت الوالد . وحلف له ، ولقبـه أتابك ، وأقطعه اقطاعا زائدا ، وخلا ملكشاه لشبابه وملذاته (٣) .

ولم يكن نظام الملك سياسيا فقط ، بل كان قائدا عسكريا ، وكان فيلسوفا وعالما ، واسع الثقـافة ، يحب العلماء ويقربهم ، وهو منشىء المدارس النظامية ، وهى من أقدم الجامعات فى العالم ، وهو مؤلف كتاب « سياسة نامة » حيث رسم فيـه الطريق لادارة شئون الولايات بما يكفل نجاح الحكام وصلاح الرعية .

ويدل على مكانة نظام الملك ، ذلك الموقف الذى وقفـه عندما أحس بتغير ملكشاه عليه ونقده لسياسته ، ويروى لنا عماد الدين الأصفهانى (٤) وابن الأثير (٥) هذا الموقف الذى نستطيع تلخيصة فيما يلى :

نُسب تصرف خاطىء لأحد أحفاد نظام الملك ، فغضب لذلك ملكشاه ، وأرسل يقول للوزير : إن كنت شريكى فى الملك ويدك مع يدى فى السـلطة

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ٢٥ .
(٢) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٤ ص ١٣٩ وابن خلكـان جـ ١ ص ٢٠٢ .
(٣) تاريخ آل سلجوق ص ٥٧ — ٥٨ .
(٤) الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ١٣٨ .

فلذلك حكم ، وإن كنت نائبى فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ...
فأجاب الوزير : قولوا له إن كنت ما علمت أنى شريكك فى الملك فاعلم ،
فانك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيرى ورأى ... وان ثبات تلك القلنسوة
(التاج) مرتبط بهذه الدواة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك (١) .

وسنذكر نهاية « نظام الملك » بعد قليل (ص ٤٣٣) .

فروع السلاجقة :

قسم السلاجقة دولتهم منذ إنشائها الى أقاليم ؛ وعينوا على كل اقليم منها حاكما من أفراد البيت السلجوقى ، كانوا يطلقون عليه لقب (شاه) أى ملك ، ثم اختاروا رئيسا على الدولة جميعها أطلقوا عليه لقب (السلطان) كان بمثابة ملك الملوك ، يخضع لنفوذه حكام الأقاليم ، وتنفذ كلمته فى جميع أنحاء الدولة .

وقد اتبع السلاجقة هذا النظام منذ عهد طغرل بك ، وكان حاكم كل اقليم يستقل بشئون اقليمه الداخلية ، كما كان له الحق فى فتح ما يستطيع اليه سبيلا من المناطق المجاورة ، وضمها الى حوزته ، وكانت سيطرة السلاطين شاملة على مختلف الأقاليم ، فى إبان قوة الدولة ، فلما ضعفت الدولة وتجزأت فقد السلاطين هذه السيطرة وأصبح حكام الأقاليم مستقلين تماما فى جميع شئونهم (٢) .

وقد وضع هذا النظام بذور الانقسام الذى آلت له الدولة السلجوقية ، ونشأ عن هذا الانقسام خمس فرق هم السلاجقة العظام ، وسلاجقة كرمان ، وسلاجقة العراق وكردستان ، وسلاجقة سوريا ، وسلاجقة الروم ، ومن الواضح أن بعضها تفرع عن السلاجقة العظام كسلاجقة العراق ؛ وبعضها كان فى مناطق فتحت حديثا كسلاجقة الروم .

---

(١) انظر كذلك المنتظم لابن الجوزى ج ٩ ص ٦٧ .
(٢) الدكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ١٦١ — ١٦٢ .

ومن أبرز سلاطين السلاجقة طغرل بك مؤسس الدولة (توفى سنة ٤٥٥) وابن أخيه ألب أرسلان (توفى سنة ٤٦٥) وملكشاه بن ألب أرسلان (توفى سنة ٤٨٥) وهم من السلاجقة العظام ، وعلى الرغم من بعض حركات الانحلال التى هبت خلال عهودهم فقد كانوا أقوى من هذه الحركات ، واستطاعوا أن يقضوا عليها ، ويحتفظوا بسلطانهم على جميع الولايات السلجوقية .

تدهور السلاجقة :

تجمعت عوامل متعددة على إضعاف السلاجقة ، بعضها خارجى وبعضها داخلى فالعوامل الخارجية تتمثل فى الحروب الصليبية ، وقد أوردنا لها دراسة مستقلة عقب الكلام عن مصر وسوريا (١) ، ومن العوامل الداخليةثورة الاسماعيلية ممثلة فى الحشاشين ، وسنتحدث عن هذه الثورة فيما بعد ، ومنها الانقسامات الداخلية التى كانت نتيجة طبيعية لاتساع ملك السلاجقة وبخاصة فى عهد المواصلات البطيئة ، كما كانت نتيجة طبيعية لحياة السلاجقة القبلية ، ومن العوامل الداخلية كذلك تمرد بعض الحكام الذين كانوا عبيدا لسلاطين السلاجقة وولاة من قبلهم ثم تمردوا عليهم وأعلنوا استقلالهم ، وذلك كشاهات خوارزم وشاهات الغور ، على أن أهم عوامل الانحلال الداخلى تتمثل فى قيام إمارات الأتابك ، وفيما يلى كلمة عن قيام هذه الامارات :

كانت نواة هذه الامارات تلك الاقطاعات التى أقطعها الوزير نظام الملك للقادة والمبرزين فى الدولة بدل رواتبهم ، ويحدثنا عنها عماد الدين الأصفهانى (٢) ، فيقول :

وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد ، وصرفها الى الأجناد ، ولم يكن لأحد من قبل إقطاع ، فرأى نظام الملك أن الأموال

---

(١) فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .
(٢) تاريخ آل سلجوق ص ٥٥ .

لا تحصل من البلاد لاختلالها ، ولا يصح منهـا ارتفاع لاعتلالها ، ففرقها على الأجناد اقطاعا ، وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا .

ولم يكن فى هـذه الاقطاعات خطر على تماسك الدولة إبان قوتها ، فلمـا بدأ ضعفها ، عمد كل مالك الى إقطاعه وعاش فيـه سيدا وأميرا ، واستقل عن السلاجقة ، ومن هـذه أتابكية دمشق ، وأتابكية الموصل وأتابكية الجزيرة وغيرها ، وقد استغل بعض الأتابك أفرادا من البيت السلجوقى ، وحركوهم كالدمى ، وراح الأتابك باسم أمراء السـلاجقة ينشرون سلطانهم ويوسعون نفوذهم (١) .

---

(١) تاريخ آل سلجوق ص ١٨٧ .

أهم أحداث هـذا العصر

١ — تبادل الزواج بين السلاجقة وبنى العباس :

إذا كان بنو العباس قد تزوجوا من بنـات سلاطين السلاجقة فذلك شيء عادى ؛ لأن بنى العباس قد اتخذوا زوجات من كثير من الأجنـاس والألوان ، ولكن الشيء الذى حدث فى عهد السلاجقة وكان غير عادى ، زواج سلاطين السلاجقة من بنات الخلفاء .

يقول عماد الدين الأصفهانى (١) عن زواج الخليفة القائم من ابنـة أخى طغرل بك مـا يلى : وفى المحرم من سنة ٤٤٨ عقد الخليفة على ابنة أخى طغرل بك أرسلان خاتون خديجة بنت داود بن ميكائيل ، وقَصَدَ بذلك تعظيمه والتبجيل ، ولئلا يجد الأعداء بهـذه الوصلة الى قطع سبيل المودة بينهمـا السبيل .

وتزوج كذلك الخليفة المقتدى سنة ٤٧٥ من ابنة السلطان ملكشاه (٢) .

وتقص لنـا كتب التاريخ أن طغرل بك بعد أن زوج ابنـة أخيـه للخليفة أرسل يطلب لنفسـه بنت الخليفة ، وكلف وزيره أبا نصر الكندرى بالقيـام بهذه المهمة ، وروت هـذه المراجع كيف فزع الخليفة عندما سمع هـذا الطلب « وندب للجواب أبا محمد بن التميمى للاستعفاء لأنه لم تَجْرِ به سـنة الخلفـاء » (٣) ولكن الاستعفاء لم يُقْبَلْ ، وأجـاب الكندرى عليه بقوله : « إن الاستعفاء لا يحسن مع رغبة السلطان وضراعته فى السؤال » . وفى المحرم سنة ٤٥٥ توجه السلطان الى بغداد حيث زفت له ابنـة الخليفة ويروى الأصفهانى أن السلطان دخل اليهـا وقبل الارض بين يديهـا ، وجلس بإزائهـا على سرير ملبس بالفضـة ، وكان قد أنفذ

---

(١) تاريخ آل سلجوق ص ١٠ — ١١ .
(٢) المرجع السابق ص ٦٨ .
(٣) المرجع السابق ص ١٨ .

لهـا مع بنت أخيهزوجة الخليفة عقدين نفسين ثمينين وجاما خسروانيا من إبريز العين ٠ ٠ ٠ وبقى مدة أسـبوع يَهَبُ ويخلع ، ويمنـح ولا يمنع (١) ٠

٢ ـ فتح آسيا الصغرى ونتائجه :

لم يتقدم الفتح الاسلامى فى آسيا الصغرى طيلة العهود التى سبقت السلاجقة ، واكتفى المسلمون من جانب والبيزنطيون من جانب آخـر بغارات لم يقصد بهـا الاقامة بقدر مـا قُصـد التخويف أو الاستيلاء على الغنائم والأمتعة ،ولكن السلاجقة دخلوا فى آسيا الصغرى معـارك كان يقصـد بهـا القضاء على البيزنطيين فى تلك البقـاع وطرد سلطان الروم من آسيا نهائيا ، وقد نجح السلاجقة فى ذلك ، فأوقعوا سنة ١٠٧١م هزائم حاسمة بالجيوش البيزنطية ، واستولوا فى أثرهـا على معظم آسيا الصغرى التى لم يتَّح للعرب فتحهـا قط، وجعلوها مقرا لنزول الأتراك فيهـا (٢) ٠

ومن المعارك التاريخية المهمة التى حدثت فى آسيا الصغرى معركة « ملازكرد » وقد ألقى فيهـا الامبراطور الرومانى رومانوس ديوجينس بقواته وبأخلاط من العسكر المسيحى الذى استنجد به ليقف فى جه زحف السلاجقة بقيـادة ألب أرسلان ، وقد حاول السـلاجقة ـ استعظاما لجيش الروم ـ عقد صلح مع الامبراطور الرومانى ، ولكن الامبراطور رفض هذا العرض مدعيا أن الصلحسيتم فى الرى عاصمة السلاجقة ٠

وهـذا الموقف دفع السلاجقة للاستماتة فى المعركة، والى خوضها باصرار وعنـاد لا كمهاجمين فقط بل كمدافعين عن أرضهم وأهليهم الذين هددهم الامبراطور بالتدمير والأسر ٠ ونجح السـلاجقة فى هذه المعركة نجاحا ضخما فمزقوا شمل جيش الروم ، وفرشوا أرض المعركة بالضحايا

---

(١) الاصفهانى : المرجع السابق ص ٢٤ ٠

(٢) Kirk : A Short History of the Middle East p. 67.

وأسروا الامبراطور نفسه ، وفداه قومه بفدية عظيمة ، وتم صلح اعترف فيه رومانوس بما فتحه المسلمون من أجزاء آسيا الصغرى ، وتعهد بدفع جزية سنوية للمسلمين .

وتعد هذه المعركة نقطة تحول فى التاريخ الاسلامى بصفة عامة وتاريخ غربى آسيا بصفة خاصة ، لأنها يسرت القضاء على نفوذ الروم فى أكثر أجزاء آسيا الصغرى ، وفتحت الطريق لزحف جديد (١) .

وقد كان هذا التصرف مثيرا لأوربا فكان من العوامل التى سببت الحروب الصليبية .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان الأتراك العثمانيون من بين الطوائف التى اشتركت فى هذه المعارك ، وأقامت فى آسيا الصغرى ، واضعة بذور الدولة العثمانية التى ستظهر فى الأفق فيما بعد والتى ستقضى على بقايا الروم بآسيا ، وتحتل القسطنطينية وقد تكلمنا عنها فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

٣ — الحشاشون :

من أهم الجماعات التى نشرت الذعر فى كثير من البلاد الاسلامية خلال عهد السلاجقة جماعة من الحشاشين الذين اشتهروا بالتآمر والغدر والقتل حتى أصبحت الكلمة الانجليزية التى تحمل اسمهم Assassins تعنى الفتكة والسفاكين .

وزعيم الحشاشين هو الحسن بن الصباح ، وهو فى الراجح فارسى من طوس (٢) وإن ادعى غير ذلك ، وقد درس فى صباه مذهب الباطنية واعتنقه ، وسافر الى مصر سنة ٤٧١هـ (١٠٧٨) لمزيد من دراسة المذهب

---

(١) Muir : The Roman Impire Vol. 3, p. 217.
واقرأ سلاجقة ايران والعراق ص ٥٨ .
(٢) حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٥٣٦ .

الاسماعيلى ، وعاد سنة ٤٧٣هـ (١٠٨٠) الى فارس داعية للفاطميين ، فاستجاب لدعوته كثيرون استطاع بهم أن يستولى سنة ٤٨٣هـ على قلعة حصينة هى قلعة ألاموت (عش النسر أو ملجأ العقبان) وهو حصن خطير فى أعالى الجبال بالشمال الغربى من بحر قزوين ، وكانت هذه القلعة أحد حصون السلاجقة ، وقد ربى الحسن بن الصباح أتباعه على المذهب الباطنى ، واتخذ لنفسه لقب داعى الدعاة وجعل أتباعه على درجات ، فالطبقة التى تليه هى طبقة الدعاة ، ويليها طبقة الفدائيين الذين كانوا دائما على استعداد لتلبية أوامر داعى الدعاة دون أن يسألوا عن سبب الأوامر ، وقد زار ماركو بولو سائح البندقية العالمى هذه البقاع فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ووصف لنا الوسائل التى كان الحسن بن الصباح يستعملها فى التأثير على أتباعه من طبقة الفدائيين ليحملهم على ما يريد ، وفيما يلى موجز لهذا الوصف (١) •

كان لداعى الدعاة بستان عظيم ، به مسابح ماء ، وطيور تغرد ، وزهور عاطرة ، وغابات كثيفة ، وأمكنة للاستراحة خلابة ، وكان على بابه قلعة عظيمة لا يستطيع أن يتخطاها أحد ، وكان داعى الدعاة يختار من الفدائيين أقواهم وأشدهم بأسا وأمثلهم للطاعة ، ويقدم لهم الحشيش وأقداحا من الشراب المسكر حتى يناموا ، ثم يأمر بحملهم الى البستان ووضعهم هناك وهم سكارى ، ويفيق الفدائيون ليجدوا حولهم البهجة وفتيات كالحور العين ، ويظل الفدائيون فترة فى هذا النعيم ثم تسقيهم الغيد شرابا ينامون به ، وعندئذ يحملون مرة أخرى الى قصر داعى الدعاة ، فاذا أفاقوا من نومهم حسبوا ما رأوه حلما ، أو ظنوه زيارة الى جنة الخلد • وكان داعى الدعاة يذكر لهم أن من أطاع أوامره أو قتل دونها ، حملته الملائكة الى جنات النعيم ، التى رأوا بأنفسهم صورة منها •

(١) The Book of Ser Marco Polo : The Venetion Vol. I. pp. 146 - 148.

وبعد قلعة ألاموت استطاعت هـذه الجماعة الاستيلاء على حصون أخرى فى فارس وسوريا خلال فترة قصيرة من الزمن ، وأخفقت جميع محاولات الدولة السلجوقية فى القضاء عليهم حتى اذا كانت سـنة ١٠٩٢ أنفـذ الحشاشون حكم الموت فى نظام الملك ، وان يكن ثمـة مجال للاعتقاد بأن السلطان نفسـه كان على علم بالمؤامرة بعد أن تخطى سن الرعونة والملذات ، وضـاق ذرعـا بنفوذ وزيره المتعاظم وسـلطانه المطلـق (١) .

ومن الحصـون التى استولى عليهـا الحشاشون فى سوريا حصن مصـياد وحصن الكهف (٢) ، ومن أشـهر دعاتهم فى الشام راشد الدين سنان (المتوفى سنة ١١٩٢) الذى كان مقيما فى مصياد ويلقب بشيخ الجبل ، وقد أبلى الحشاشون بلاء حسنا فى الحروب الصليبية، ولكنهم حاولوا اغتيال صلاح الدين الأيوبى ، فرد على هـذه المحاولة بأن حاصر قلعة مصياد ، وأوشك على الايقاع بهم ، ولكن شيخ القلعة قطع على نفسـه عهدا بألا يتعرض له أحد من أتباعه ، فارتد عنهم صلاح الدين ، وبقيت بعد ذلك قوتهم حتى اشترك فى القضاء عليهم المغول والسلطان بيبرس سلطان مصر والشام ، فاحتل المغول معاقلهم فى فارس حوالى ١٢٦٠ واحتـل السلطان بيبرس حصونهم بسوريا سنة ١٢٧٢ فتشتت شملهم منـذ ذلك الحين ، ولا يزال أكثرهم بالهند يعرف الواحد منهم بالخوجة أو المولى ، ويدينون بالولاء الى آغـا خان الهنـدى (٣) وينسبون أنفسهم للطـائفة الاسماعيلية التى يرون نسبها ينتهى لاسماعيل بن جعفر الصادق (٤) .

٤ ـــ الدول التى نشأت على أنقاض السلاجقة :

أهم الدول التى نشـأت على أنقاض السـلاجقة هى كمـا أشرنا

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٢) انظر ابن الاثير جـ ١١ ص ٥٢ .

(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٥٣٨ .

(٤) عن الاسماعيلية ومعتقداتهم اقرأ الجـزء الثـانى من هـذه الموسوعة .

لبعضها آنفا دولة شاهات خوارزم التى نشأت بخوارزم عقب انحلال السلاجقة العظام وسلاجقة العراق وكردستان ، ودولة الغز التركمان التى حلت محل سلاجقة كرمان ، وشاهات الغور (الدولة الغورية) ، والدولة الأرتقية وقد حلتا محل سلاجقة سوريا ، والدولة العثمانية وقد حلت محل سلاجقة الروم ، هذا بالاضافة الى الأتابكيات التى عددنا بعضها آنفا . وقد أوردنا الحديث عن هذه الدول فى الجزأين الخامس والثامن من هذه الموسوعة .

٥ ـ العمارة فى العهد السلجوقى :

إن بداوة السلاجقة جعلتهم يشغفون بالمبانى الفخمة والنقوش الجميلة ، واللوحات المزخرفة ، فقد كانت مثل هذه الأشياء تبهر أنظارهم ، وترضى أذواقهم ، وتسدما فى نفوسهم من فراغ ، وقد أثر هذا فى الفنون فراجت رواجا ملحوظا فى عصرهم ، فارتقت فنون النقش والتصوير والصنعة والمعمار (١) فكان السلاجقة عامة يعشقون الفنون الجميلة ويرعونها ، وكان سلاطينهم يحمون الفنون ويشجعون رجالها (٢) .

ومبانى السلاجقة بأصفهان كانت خير دليل على عنايتهم بالعمارة ، فقد شيدوا فيها أبنية شاهقة ورفعوا العمائر الضخمة ، ويروى أن ألب أرسلان كان اذا أمر ببناء أوعز بأن يكون أسمى بنيا ونوأسمقه ، وأشرف مكان وأشرقه ، وكان يقول : آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا (٣) .

ويذكر Barthold أن فترة حكم ألب أرسلان امتازت بالتقدم المعمارى الهائل ، فقد أعاد تشييد قلعة بخارى وسور المدينة ، وبنى فى سمرقند مسجدا رائعا وقصرين عظيمين تحول أحدهما بعد ذلك الى مدرسة ،

---

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنايع ايران (ترجمة فرياد) ص ١٤٢ نقلا عن سلاجقة ايران والعراق .

(٢) M. S. Dmand : A Handbook of Muhammadan Art p. 113.

(٣) عماد الاصفهانى : تاريخ آل سلجوق ص ٤٥ .

كمـا أنه أكثر من المساجد والمنائر فى المدن والقرى (١) .

النهضة الفكرية فى عهد السلاجقة :

شهد العصر السلجوقى نهضـة فكرية واسـعة ، وضع أساسهـا نظام الملك (٢) وزير ألب أرسلان وملكشاه فقد أنشأ هـذا الوزير العالم ، شـبكة من المدارس التى أخذت اسمهـا من اسمه ، فسميت « النظامية » وكانت فى البلاد الآتية : بغداد — بلخ — نيسابور — هـراة — أصفهان — البصرة — مرو — آمل — الموصل (٣) ويقول السبكى إنه كان لنظـام الملك فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة (٤) .

وبالاضـافة الى ذلك فقد رعى نظام الملك عبـاقرة عصره أمثـال الغزالى الذى اشتهر فى محيط العلوم الاسلامية والتصوف والفلسفة ، وكان من ألمع مدرسى النظامية ، وعمر الخيام الذى اشتهر فى الدراسات الطبيعية والرياضية ، وعرف فى أوربا برباعياته (٥) .

***

ذلك موجز القـول فى السـلطات الثلاث (المـاليك والبويهيين والسلاجقة) التى كان لهـا نفوذ على خلفـاء بنى العباس ، وتلك أهم المظاهر لكل عهد من هـذه العهود ، وأهم الأحداث التى وقعت بكل فترة من هذه الفترات الثلاث .

بقيت بعد ذلك أحداث أوسع مدى ، لا تتصـل بعصر واحد من هذه العصور ، بل بأكثر من عصر ، وذلك كالحروب الصليبية التى بدأت خلال العهـد السلجوقى ، أو قل بعد ظهور الضـعف فى قـوة آل سلجوق ، واستمرت بعد نهاية السلاجقة وبعد سقوط الخلافة العباسية ، وكالمغول

---

(١) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion p. 319.

(٢) اقرأ ترجمة له فى إبن خلكان جـ ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ .

(٣) اقرأ عن المدارس النظامية وعن نظام الملك كتاب « تاريخ التربية الاسلامية » للمؤلف ص ٣٥١ — ٣٥٨ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٣ ص ١٣٧ .

(٥) اقرأ ما ورد عن الغزالى وعمر الخيام بكتـاب « الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره » الذى ترجمه المؤلف عن الانجليزية ص ٨٣ وما بعدها .

الذين بدأ نشاطهم فى آخر عهود السلاجقة ، وتطورت قوتهم فزحفوا على العالم الاسلامى وأسقطوا الخلافة العباسية ، وكالأتراك العثمانيين الذين بدءوا تكوين دولتهم فى آسيا الصغرى على أنقاض السلاجقة . وقد تحدثنا عن الحروب الصليبية والامبراطورية العثمانية أحاديث مفصلة فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة ، تكلمنا عن المغول بالتفصيل فى الجزأين السابع والثامن من هذه الموسوعة .

العصر العباسى الأخير

وقد انتهز الخليفة العباسى ببغداد فرصة ضعف السلاجقة وقيام هذه الحركات الاستقلالية ، فأعلن استقلاله ببغداد وما حولها ، وبدأ بذلك العصر الأخير من عصور الخلافة العباسية ، وخلفاء هذا العصر هم :

الناصر	٥٧٥ — ٦٢٢
	[عاصر آخر السلاجقة ثم استقل ببغداد سنة ٥٩٠]
الظاهر	٦٢٢ — ٦٢٣
المستنصر	٦٢٣ — ٦٤٠
المستعصم	٦٤٠ — ٦٦٦

والمستعصم هو الخليفة العباسى الأخير ، وقد قتله المغول الذين اكتسحوا العالم الاسلامى ، وأنهوا الخلافة العباسية .

ومرة أخرى نذكر القارىء بما سبق أن ذكرناه فى مطلع حديثنا عن عصور الخلافة العباسية بعد العصر الأول ، وهو أننا تناولنا هنا الكلام عن المماليك وبنى بويه والسلاجقة تناولا عاما سريعا ، أما فيما يتعلق بتاريخ البلاد التى حكموها فان ذلك كان موضع اهتمامنا عندما تكلمنا عن الأقطار التى سيطر عليها هؤلاء فى الأجزاء التالية من هذه الموسوعة .

فالى اللقاء مع هذه الأجزاء .

مراجع الكتاب

أولا — المراجع العربية

ملحوظتـــان :

١ — المصادر المذكورة هنا هى التى اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت فى ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التى اسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر فى هذه القائمة .

٢ — الطريقة التى اتبعت فى تنظيم هذه القائمة بنيت على عدم اعتبار الملحقات (ابن — ال) .

١ — الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف : « القاهرة ١٩٣٥ »

٢ — ابو تمام : الحماسة ، « القاهرة ١٩٢٧ »

٣ — ابو تمام : ديوان ابى تمـــام ، « تحقيق محيى الدين الخيـــاط »

٤ — ابو الريحان البيرونى : الآثار الباقية عن القرون الخالية

٥ — ابو عبيدة : النقائض Leipzig 1924

٦ — ابو الفداء : البداية والنهاية ، « القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٣٢ »

٧ — ابو الفدا (صاحب حماة) : المختصر فى تاريخ البشر ، «القاهرة ١٩٢٥هـ»

٨ — ابو الفرج الأصفهانى : الأغانى ، « طبعة الساسى »

٩ — ابو نواس : ديوان ابى نواس ، تحقيق الأستاذ محمود كامل ١٩٣٣

١٠ — ابو هلال العسكرى : ديوان المعانى ، « القاهرة ١٩٥٢ هـ »

١١ — ابو يوسف : الخراج

١٢ — ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، Ed. August Muller 1848

١٣ — ابن أبى الحديد : شرح نهـــج البلاغة ، « طبعة دار الكتب »

١٤ — ابن الأثير : الكامل فى التاريخ « القاهرة بدون تاريخ »

١٥ — الإمام أحمد : مسند أحمد

١٦ — د. أحمد أمين : ضحى الاسلام ، القاهرة « الطبعة الثانية »

١٧ — د. أحمد أمين : هارون الرشيد ، « القاهرة ١٩٥١ »

١٨ — أحمد زكى صفوت : جمهرة رسائل العرب ، « القاهرة ١٩٣٧ »

١٩ — أحمد زكى صفوت : العلوم والمعارف فى العصر العباسى ، « القاهرة ١٩٢٩ »

٢٠ — د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى (عشرة أجزاء)

٢١ — د. احمد شلبى : موسوعة الحضارة الاسلامية (عشرة أجزاء)

٢٢ — د. احمد شلبى : مقارنة الأديان (اربعة أجزاء)

٢٣ — الأصفهانى (حسين) : محاضرات الأدباء ، « القاهرة ١٢٨٧ هـ »

٢٤ — البيهقى : المحاسن والمساوىء ، تحقيق فردريك شوال ١٣٢٠ هـ

٢٥ — التنوخى : نشوار المحاضرة

٢٦ — ابن تيمية : السياسة الشرعية ، القاهرة ١٢٧٠ هـ

٢٧ — الثعالبى : أحسن ما سمعت ، القاهرة (الطبعة الثانية) ١٩٥٢

٢٨ — الجاحظ : الحيوان ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

٢٩ — الجاحظ : التاج ، تحقيق احمد زكى باشا « القاهرة ١٩١١ »

٣٠ — الجاحظ : المحاسن والأضداد ، « القاهرة ١٩٣٢ »

٣١ — جميل نخلة مدور : حضارة الاسلام فى دار السلام « المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٦ »

٣٢ — الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، تحقيق الأساتذة : السقا والابيارى وشلبى « القاهرة ١٩٣٨ »

٣٣ — ابن الجوزى : المنتظم

٣٤ — جولدزيهر : المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ، ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر « القاهرة ١٩٤٤ »

٣٥ — حاجى خليفة : كشف الظنون ، Leipzig 1835

٣٦ — د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى « القاهرة ١٩٤٩ »

٣٧ — ابن خرداذبة : المسالك والممالك « القاهرة ١٣٢٠ هـ »

٣٨ — الخضرى : محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية « الحلبى ١٩٣٠ »

٣٩ — الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، « القاهرة ١٣٤٩ هـ »

٤٠ — ابن خلدون : المقدمة ، طبعة عبد الرحمن محمد « بدون تاريخ »

٤١ — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، « القاهرة ١٢٨٤ هـ »

٤٢ — ابن خلكان : وفيات الأعيان ، « القاهرة ١٢٩٩ هـ »

٤٣ — ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار

٤٤ — دوايت دونلدش : عقيدة الشيعة ، « القاهرة ١٩٤٦ »

٤٥ — الراوندى : راحة الصدور

٤٦ — الذهبى : دول الاسلام ، « حيد آباد ١٣٣٧ هـ »

٤٧ — زامباور : معجم الأنساب والأسر الحاكمة فى التاريخ الاسلامى

٤٨ — السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، « القاهرة ١٣٢٤ هـ »

٤٩ — السيوطى : تاريخ الخلفاء ، « القاهرة ١٣٠٥ هـ »

٥٠ — الشهرستانى : الملل والنحل

٥١ — الصولى : اخبار الراضى بالله والمتقى بالله

٥٢ — ابن طباطبا : الفخرى ، تحقيق على الجارم بك ومحمد عوض ابراهيم « القاهرة ١٩٣٨ »

٥٣ — الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، « طبعة القاهرة »

٥٤ — طه الحاجرى : قصر الرشيد ، « دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٩ »

٥٥ — د. طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، « القاهرة ١٩٤٨ »

٥٦ — طه الراوى : بغداد مدينة السلام « دار المعارف بالقاهرة » (سلسلة اقرأ العدد ٢٧)

٥٧ — ابن عبد ربه : العقد الفريد ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر) « الطبعة الأولى »

٥٨ — د. عبداللطيف حمزة : ابن المقفع ، « الطبعة الثانية »

٥٩ — د. عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق

٦٠ — د. العدوى (ابراهيم) : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية « القاهرة ١٩٥١ »

٦١ — د. على حسن عبدالقادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى « ١٩٤٢ »

٦٢ — عماد الدين الأصفهانى : تاريخ آل سلجوق

٦٣ — غوستاف لوبون : حضارة العرب ، (الترجمة العربية) ، « مطبعة الحلبى ١٩٤٥ »

٦٤ — الفخر الرازى : تفسير القرآن الكريم ، « القاهرة ١٣٠٨هـ »

٦٥ — فريد رفاعى : عصر المأمون ، « القاهرة ١٩٢٧ »

٦٦ — فيليب حتى : تاريخ العرب

٦٧ — الفيروزابادى : القاموس المحيط ، « المطبعة المصرية »

٦٨ — القالى (أبو علي) : ذيل الأمالى ، « مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ »

٦٩ — ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، « مطبعة الحلبى ١٩٣٧ »

٧٠ — ابن قتيبة : المعارف ، « القاهرة ١٩٣٤ »

٧١ — قدامة بن جعفر : الخراج ، « ليدن ١٩٠٦ هـ »

٧٢ — القفطى : أخبار الحكماء Leipzig 1320 H.

٧٣ — القلقشندى : صبح الأعشى ، « القاهرة ١٩١٣ »

٧٤ — كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية « بيروت ١٩٥٤ »

٧٥ — كرستين ولسن : تاريخ صنايع ايران

٧٦ — الماوردى : الأحكام السلطانية ، « القاهرة ١٩٠٩ »

٧٧ — المبرد : الكامل ، مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٥ هـ

٧٨ — محمد المرتضى الحسينى : تاج العروس ، « القاهرة ١٣٠٦ هـ »

٧٩ — محمد عبده : الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية

٨٠ — المسعودى : مروج الذهب « المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ »

٨١ — المقريزى : الخطط ، « القاهرة ١٣٧٠ هـ »

٨٢ — ابن مسكويه : تجارب الأمم

٨٣ — مسلم بن الوليد : ديوان مسلم بن الوليد

٨٤ — د. مصطفى فهمى : الدوافع النفسية ، « القاهرة ١٩٥١ »

٨٥ — المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم « ليدن ١٩٠٦ »

٨٦ — ابن نباته : سرح العيون ، « القاهرة ١٢٧٧ هـ »

٨٧ — ابن النديم : الفهرست ، Leipzig 1871

٨٨ — ابن هشام : السيرة النبوية ، « القاهرة ١٩١٤ »

٨٩ — ياقوت : معجم البلدان ، « القاهرة ١٩٠٦ »

٩٠ — اليعقوبى : تاريخ اليعقوبي ، Ed. Houtsma 1883

٩١ — اليعقوبى : كتاب البلدان ، « ليدن ١٨٦٠ »

٩٢ — يوسف العش : تصدير كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادى « دمشق ١٩٤٩ »

ثانيا — المراجع الأجنبية

٩٣ — Adler : Individual Pschology, Home University Library
٩٤ — Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion.
٩٥ — Bolus : The Influence of Islam, London 1932.
٩٦ — Dimand : A Handbook of Mohammadan Art.
٩٧ — Hadfield : Psychology and Mental Health, London 1950.
٩٨ — Khuda Bakhsh : Islamic Libraries, The Nineteenth Century.
٩٩ — Kirk : A Short History of the Middle East.
١٠٠ — Muir : The Roman Impire.
١٠١ — Neldeka : Sketches from Eastern History.
١٠٢ — Nicholson : A Literary History of the Arabs, Cambridgs 1930.
١٠٣ — Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge 1930.
١٠٤ — Philip Hitti : History of the Arabs, Macmillan Foith Edition.
١٠٥ — Richard Coke : Baghdad : the City of Peace. London 1927.
١٠٦ — Sayed Ameer Ali : A Short History of the Saracens London 1916.
١٠٧ — Thomas Arnold Ed. : The Legacy of Islam, London 1947.

فهـرس الأعـلام

ملحوظات : ١ — تحاشيا للاطالة لم اضمن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها فى ذيل صفحات الكتاب وفى قائمة المراجع .

٢ — ولم أضمن هذا الكشاف أسماء الخلفاء العباسيين لأن هذه الأسماء وردت فى أكثر صفحات الكتاب مما يجعل ايرادها هنا قليل الجدوى لمن يستعمل هذا الكشاف .

٣ — رتبت هذه الأسماء ترتيبا ابجديا مع عدم اعتبار الملحقات « ابن — ال »

٤ — حرف (م) يوضع بعد الرقم للدلالة على أن الأسم ورد فى الصفحة اكثر من مرة .

حرف الألف

حرف البـاء

حرف التـاء

حرف الثـاء

حرف الجـيم

حرف الحـاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأمكنة والبلدان

حرف الألف

حرف البـاء

حرف التـاء

حرف الجيم

حرف الحـاء

حرف الخـاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

رقم الايداع ٥٤٤٨ لسنة ١٩٨٥

مطابع سجل العرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

A study, in Ten Volumes, on History and Civilization of Islam in All Muslim Ages and Lands

III

The Abbasid caliphate

BY

AHMAD SHALABY

B. A. (Hon.) Cairo University,
Ph.D. Cambridge University,
Professor and Head of the Department
of Islamic History and Civilization,
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Eighth Edition (1985) Revised

Published by :
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo



دكتور أحمد شلبى

- تلقى دراساته فى الأزهر وفى كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج .
- زار الولايات المتحدة الامريكية كما زار اكثر دول أوربا وآسيا وافريقيا ، ومثّل مصر فى عدة مؤتمرات دولية
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الانجليزية والاندونيسية .
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، وقد حاضر ـ منتدبا وزائرا ومُعارا ـ فى جامعة الأزهر ، وعين شمس ، واندونيسيا ، والسودان ، وماليزيا ، والمملكة العربية السعودية ، وليبيا ، وفى معهد الدراسات الاسلامية ، ومعهد البحوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات الدبلوماسية .
- مؤلفاته تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الخامسة عشرة من بعضها وأهم هذه المؤلفات :

١ ـ موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة أجزاء .
٢ ـ موسوعة الحضارة الاسلامية فى عشرة أجزاء .
٣ ـ مقارنة الأديان فى أربعة أجزاء .
٤ ـ كيف تكتب بحثا أو رسالة .
٥ ـ المكتبة الاسلامية المصوّرة لكل الاعمار (١٠٠ جزء من السِّيَر والتاريخ وقصص القرآن للأولاد والشبان والسيدات والرجال .)
٦ ـ ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS
٧ ـ HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

- كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وتُرجمت أكثر مؤلفاته الى الأوردية ، والتركية ، والاندونيسية ، والماليزية والفرنسية ، والفارسية .